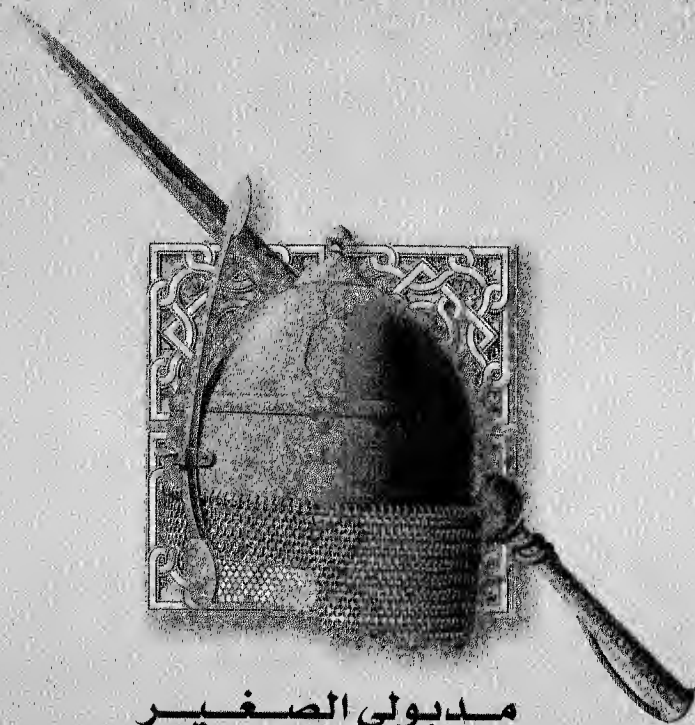


سيد محمود الصمبلي

حروب دولة الرسول



مدبولي الصغير

حروب دولة الرسول
ﷺ

حروب دولة الرسول « صلى الله عليه وسلم »

الناشر: مكتبة مدبولي الصغير

٤٥ شارع البطل أحمد عبدالعزيز

تليفون: ٣٤٧٧٤١٠ - ٣٤٤٢٢٥٠

ميدان سفنكس ت: ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع: ٩٥/٩٣٤٧

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الثانية: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

تصميم الغلاف: عاطف منصور

مراجعة لغوية: أيمن عبد المعطي

الصف والإخراج الفني: كريم كمبيوتر

سيد محمود القمنى

حروب دولة الرسول

صلى الله عليه وسلم

الجزء الأول

الناشر: مديولى الصغير

الإهداء:

إلى الأصدقاء الذين وقفوا إلى جوارى فى محنتى الصحية:
الأستاذ فاروق حسنى والدكتور جابر منصور والدكتور فوزى فهمى،
والأستاذة فوزية رشيد، والأستاذة عبدالعال الباقورى وصحيفة الأهللى،
وجمال الغيطانى، ومصطفى بكرى، وسليمان ففاض، وفتحى عامر، وعبد الغنى
داود، وعبدالله الشرهان، والأصدقاء الذين أحاطونى بالحب والرعاية، كوكبة
أطباء الزقازيق: الدكتور أيمن عبد الحارس والدكتور نصر السيد والدكتور أحمد
والى، فكانوا إلى جوارى طوال الوقت، ومنحونى من الحب ما هو جدير بهم.
والى (عمال) جناح القلب بمستشفى الهرم، والى كل من شارك دون أن يعلمنى
بدوره، وكل من كتب فى الصحف، أو وقع على بيان، أو شارك بالتمنى الطيب عن
بعد.

لهم جميعا كل الحب وكل العرفان.

سيد القمنى

التقريش والإيلاف

«فقال المأ الذين كفروا من قومه ما هذا
إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم»

[٢٤ / المؤمنون]

حروب دولة الرسول

جزء أول

التقريش

يقول القاموس المحيط، إن الملاء هم الأشراف والعلية، وهم القوم ذوو الشارة والمظهر الحسن والشرف^(١)، وهم في المعجم (المنجد) أشراف القوم، الدين يملأون العيون أبهة، والصدور بهجة^(٢).

هكذا وصف رجال الحكومة القرشية، في المرحلة القبل إسلامية، في معاجمنا اللغوية، تلك الحكومة الابتدائية، التي تشكلت من كبار تجار مكة، أثريائها وعلينها، حيث مثل كل فرد منهم قومه في تلك الحكومة، بقدر ما يملك من إمكانات المظهر الحسن والشرف والأبهة، أى بقدر ما يملك من إمكانات مادية، وهى الحكومة التى تم تكريسها في (دار الندوة)، وعرف التاريخ أعضائها باسم (الملاء).

ويلخص لنا (حسين مروة) أمر ندوة الملاء بإيجاز بليغ يقول:

إن سيطرة أرستقراطية قريش المالية والتجارية، كان لابد لها أن تنتج بدورها مؤسساتها السياسية، المعروفة تاريخياً بدار الندوة، البذرة الأولى للدولة في مجتمع مكة، والتي كان من شأنها أن تنظم العلاقات السلطوية لهذه السيطرة، مع الفئات الاجتماعية الأخرى، الخاضعة لاستغلالها الاقتصادي، وأن تضيف على هذه العلاقة وجهها الحقوقي، الملائم للوضع التاريخي آنذاك، كما تفرض شرعيتها على تلك الفئات نفسها، التي أصبح عليها أن تخضع سياسياً، كما هى خاضعة اقتصادياً، لأرستقراطية قريش الحاكمة - الملاء - وكانت الندوة مجلساً يمثل الأرستقراطية، وفيها كانت تقضى قريش أمورها^(٣).

وحكومة الملاء إذن - كما هو مبين - كانت مجلساً سلطوياً قام في مكة، من أجل إحكام سيطرة الأرستقراطية المكية التجارية على مختلف الشئون، بغرض تناغمها جميعاً مع مصالحهم، بحيث يؤدي كل شأن دوره في حماية تجارتهم، واستمرار سيولتها، وضمان أمنها، دون أى توقف يمكن أن يهددها.

(١) القاموس المحيط: باب الهمزة، فصل الميم.

(٢) المنجد: حرف الميم، مادة إلاء.

(٣) د. حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، ط ٦، ١٩٨٨، بيروت، ج ١، ص ٢٣٠.

ولعل أهم الخطوات التي تمت بسبيل تأمين تلك المصالح، هي قيام مجلس الملأ نفسه، الذي ترافق مع خطوات أخرى، بدأت بالتقريش، ليملأه الإيلاف، فكان التقريش خطوة أولى لتوحيد قبائل مكة وجمعها، أي تقريشها، وذلك زمن (قصي بن كلاب)، عندما استطاع مع حلفائه إجلاء قبائل (خزاعة) عن مكة، ليمركز فيها مع أولئك الحلفاء، نتيجة مجموعة متضافرة من الظروف التاريخية، بدأت آنذاك تفعل فعلها في جعل مكة زمن (قصي)، مركزاً كبيراً لاستراحة القوافل التجارية، على طريق الخط التجارى ما بين الشام واليمن، وعليه فإن نظام التقريش جاء كشكل اجتماعي، أكثر تطوراً بدرجة أعلى قليلاً، من الأنظمة القبلية المتشردمة المتقاتلة بالجزيرة. وكون من التنظيم الاجتماعي الذي يجمع القبائل الحليفة لقصي في أضمومة وحزمة مترابطة بالمصلحة، مع استقلال كل قبيلة بشكلها العشائري المألوف، وهو ما نفهمه من شرح (ابن كثير) لهذا الشكل المجتمعي التقريشي في قوله:

وأما اشتقاق قريش، فقيل: من التقرش، وهو التجمع بعد التفرق.. وقيل سميت قريش قريشاً من التقرش، وهو التكسب والتجارة، حكاه ابن هشام رحمه الله، وقال الجوهري: الكسب والجمع، وقد قرش يقرش (نظن المقصود هنا القرش أي الهرس بالأضراس، كما تعنى أيضاً جمع القروش أي المال). وقال البيهقي: إن معاوية قال لابن عباس: فلم سميت قريش قريشاً؟ قال: لدابة تكون في البحر، تكون أعظم درابه يقال لها: القرش، لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته^(٤).

وهكذا يأتي هذا التفسير الجامع، معبراً صادقاً عن حال قريش، وحال المرحلة التاريخية متضمناً حال المرحلة المجتمعية، فالتقريش تجمع للقبائل التي حملت اسم قريش بعدما كانت شراذم قبلية متناثرة متصارعة، وما جمعها إلا المصلحة المادية المشتركة، وهي التكسب المادي، ذلك التكسب الواضح أنه ناتج التجارة على الخط التجارى، والذي تمثل في عشور جمركية تقبضها قريش نظير المرور والاستراحة في مدينتها، للموقع المتميز لمكة على الخط التجارى الدولي، ويحمل التعريف معنى هاماً بربطه المتين والرائع لجمع الناس وجمع المال بالارتباط المصلحي، فالقرش هو مفرد القروش المجموعة، والقرش هو الكسب المالي، وهو في الوقت ذاته تجمع الناس في مجتمع مترابط (هو الكسب، وهو الجمع بعد التفرق)، ليبلغ التعريف كمال تبليغه البلاغى في تصوير حال هذا الجمع المتكسب، واستعداده للدفاع عن

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، ط ٤، ١٩٨٨، بيروت، ج ٢، ص ١٨٧.

مصالحه، وتطور الأمر إلى حدّ النهم، فهو كالقرش السمك المتوحش لا يمر بشيء إلا أكله، مما يشير بالضرورة إلى وجود فئات أخرى، سقطت في حومة ذلك الحراك الاقتصادي الاجتماعي، وذلك في قرن الجمع والتجمع بالكسب والتقرش وجمع القروش، مع القرش بالأضراس الذي تمثله دابة البحر.

الإيلاف

أما التأليف بنظام الإيلاف، فكان - في رأينا واستنتاجنا - الخطوة الثانية والضرورية بعد التقريش، وهو ما طبقته أرستقراطية مكة القرشية بنجاح، للتأليف بين قبائل مكة التجارية أو أثرياء مكة تحديداً، وبين القبائل الضاربة على الخط التجاري الواصل بين مكة، وبين حدود الامبراطوريتين: الرومانية والفارسية، ثم تأليف ثانٍ بين قریش وبين القبائل الضاربة في باطن الجزيرة في خطوط فرعية، ثم تأليف ثالث بين قریش وبين الامبراطوريتين.

وبالإيلاف، وللإيلاف، كان يتم توزيع المكاسب بشكل تناسبي، بما يضمن حماية طريق الإيلاف من إغارة البدو، وتأمينه لمصلحة الجميع، وهو ما يقول فيه (المسعودي) موجزاً: «وأخذت قریش الإيلاف من الملوك، وتفسير ذلك الأمن»^(٥).

وعلى الطريق التجاري وفروعه الهامة، ارتبطت قریش بالإيلاف والعهود مع شيوخ قبائل الجزيرة، شيوخ قيس، واليمامة، وتميم، وأقباال اليمن، وملوك غسان والحيرة، كما وكلوا عنهم وكلاء في جوش ونجران، وغيرها من المواضع الهامة في شبه الجزيرة^(٦)، وقد اتبعت قریش في تأليفها أساليب مدوعة، فهناك من رضى من شيوخ البدو على الطرق التجارية بالهدايا والبعالات، بينما اتفق آخرون على حماية طريق الإيلاف الكبير نظير الاشتراك مع قریش في تجارتها، وهو ما يتضح من إشارة (الجاحظ) لدور (هاشم بن عبد مناف) في تأليف قبائل العرب بإشرافهم في التجارة^(٧)، وما رواه (ابن سعد) عن تأليف (هاشم) للقبائل الضاربة على الطريق

(٥) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، د. ت، بيروت ج ٢ ص ٥٩.

(٦) د. سالم عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب في عصر ما قبل الإسلام، دار النهضة، ١٩٨٠، بيروت، ج ١، ص ٥٠٣، ٥٠٥.

(٧) الجاحظ: الرسائل، جمع ونشر حسن السندوي، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٣، القاهرة، ص ٧٠.

الشامي بـحمز بـصانـعهم دون أـجر^(٨)، ثم ما ذكره (البلاذري) عن دور (هاشم) وولده (عبدالمطلب) في عقد المعاهدات وأخذ الحبال من ملوك روما وحمير، ودور (عبد شمس) في تألف نجاشي الحبشة، ثم دور أخيه (نوفل) في تألف أكاسرة فارس وأخذ عهود الأمن منهم^(٩).

وهكذا، كن نظام الإيلاف، تأميناً للطريق، وطمانةً معلنةً للامبراطوريتين المنتظرتين على نهاية خط طريق الإيلاف، للقوافل القادمة من مكة، بحيث ضمنت مكة بإيلافها أمان الرضى الامبراطورى عن دورها، وعن اقتدار ملثها، فى تأمين وصول المواد المطلوبة والسلع الهامة، فى مواقبتها دون تأخير، ولعل ما يعبر عن وعى العرب بهذا المعنى فى نظام الإيلاف، يتضح فى أبيات لمطروذ بن كعب وهو ينشد:

يا أيها الرجل المحول رحله	هلا نزلت بآل عبد مناف؟
هبتك أمك لو نزلت عليهم	ضمنوك فى جوع ومن إقراف
الأخذون العهد من آفاقها	والراحلون لرحلة الإيلاف ^(١٠) .

أما القرآن الكريم، فكان بصدق تبليغه، مفصلاً، موجزاً، مبلغاً ببلاغته أمر الإيلاف وعلاقته بالأمن، وبالبית الإلهى المكى، فى قول الآيات - فى سورة تحمل اسم قريش

﴿إيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا

البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾.

وقد هيا مكة للقيام بهذا الدور التاريخى، مجموعة متسارعة من الأحداث. وظروف تلاحقت لتتراكم على صفحة المنطقة وتوزع على خريطتها، حيث كان مركز اليمن الزراعى والتجارى قد تهاوى قبل العصر الجاهلى الأخير بزمان، بينما تضعضعت أحوال الممالك العربية الشمالية (الغساسنة والماندة) فى العصر الجاهلى الأخير، قبل الإسلام بفترة وجيزة، ووقعت تحت الاحتلال المباشر من الفرس والروم، وهو ما أحدث - ولا شك - فراغاً سياسياً فى المنطقة الممتدة من سواحل المحيط الهندى جنوباً، وحتى الخط الفاصل بين الامبراطوريتين فى بادية الشام شمالاً.

وقد ساعد على رسم تلك الخريطة السياسية، انهيار مجموعة طرق أخرى لم يبق آمناً من بينها

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق أوجين متلوخ، دار صادر، ١٩٥٧، بيروت، ج ١، ص ٤٥.

(٩) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق د. حميد الله، دار المعارف، ١٩٥٥، القاهرة ج ١، ص ٥٩.

(١٠) نفسه: ص ٦٠.

سوى الطريق المار بمكة، قادماً من موانئ اليمن لیتجه شمالاً، ثم يتفرع إلى فرعين نحو فارس شرقاً وروما شمالاً وغرباً في داخل الحدود الفلسطينية والمصرية، وكان انهيار مجموعة الطرق التجارية الأخرى راجعاً إلى تلك الحرب الطويلة الضروس، التي دارت بين الفرس والروم، ومطاردة كل منهما الأخرى في كافة المواضع الممكن الوصول إليها لقطعها، ولم يبق في المنطقة آنذاك طريق مأمون، سوى الطريق البرى المار بمكة، لمنعته الصحراوية على عبر أهله. مما انتهى به إلى طريق أوجد مؤهل للقيام بأمر تجارة العالم، وهو ما أدى إلى تحول مكة عن وضعها زمن (قصي بن كلاب) كمحطة ترانزيت كبرى قابضة للعشور، إلى مركز للأرسف فيه نمكية التجارية في العصر الجاهلي الأخير، حيث تمكنت تلك الأرستقراطية بتراكم رأس مال العشور والتجارات الصغيرة، من الانتقال عن قبض العشور إلى شراء البضائع القادمة من المحيط الهندي وموانئ اليمن، والاتجار بها لحساب تلك الأرستقراطية، لتمسك عندها بعنان تجارة عالم ذلك الزمان^(١١).

ولنا أن نفترض بدء ذلك التحول عن قبض العشور إلى القبيض على تجارة العباد. كانت المرحلة التي عمدت فيها قريش إلى إنشاء نظام الإيلاف بعد التقريش، ففي مرحلة التقريش كانت قريش تقبض عشورها، وما كان يعنيها كثيراً أمان الطريق، فهي تتاجر تجارتها البسيطة مع القادمين والأيبيين، وتأخذ العشور من السارق والمسرورق، ومن ثم تطور الأمر عندما أصبحت التجارة ملكاً كاملاً لها، ذلك التطور الذي استدعى السعى الجدى لتأمين تلك التجارة بنظام الإيلاف، وهي ذات المرحلة التاريخية التي نعتقدها مرحلة الفرز للصراع التنافسي التجاري، ومن ثم السيادة، داخل مكة ذاتها، والذي انتهى، كما هو واضح بالمصادر الإسلامية، إلى سيادة مالية شبه كاملة للفرع الأموي، مع خسران واضح لأبناء عمومته، الفرع الهاشمي.

ولنا أن نتصور ذلك التراكم المالى وهو ينزع عن الترانزيت إلى المركزية التجارية، ينمو من خلال خبر (الواقدي) وتأكيده أنهم كانوا يربحون في تجارتهم عن الدينار ديناراً^(١٢)، حتى بلغ رأس مال بعض القوافل مائة ألف دينار للقافلة الواحدة، ويمكن أن نعلم المدى الذى وصل إليه

(١١) حول العوامل التي أدت إلى انهيار الأمن على الطرق التجارية القديمة، انظر: د. أحمد شلبى السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٢، ١٩٨٧، القاهرة، ج ١، ص ١٢٤، ١٥٣، انظر أيضاً: أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٤، ١٩٨٧، القاهرة، ص ١٢، ١٣.

(١٢) الواقدي: مغازي رسول الله، مطبعة السعادة، ١٩٤٨، القاهرة، ج ١، ص ١٥٧.

تضخم رأس المال القرشى من خبر سلعة واحدة ترفيهية كمالية، هي الطيوب، والتي كان يطلب منها الروم والفرس فى العام ما تصل قيمته إلى مائة مليون درهم^(١٣).

أما قافلة (أبى سفيان) التى كانت سبباً بعد ذلك فى غزوة بدر الكبرى، فقد أسهم فيها البيت الأموى بأربعة أخماس رأس المال، وكان لأسرة (أبى أحيحة) وحدها ما يصل إلى ثلاثين ألف دينار، وهى أسرة أموية، وذلك من مجموع أموال القافلة البالغ خمسين ألف دينار.

تحرير المواسم

وإضافة إلى الإيلاف بعد التقريش، تمكنت مكة، على المستوى الداخلى للجزيرة، من استقطاب القبائل المتناثرة فى الباطن والأطراف لسوقها المركزى، بتكتيك تدفعه المصلحة يتجاوز المفاهيم الدينية القبلية المتعصبة، فقامت تستضيف فى كعبتها أرياب قبائل الجزيرة على تعددها وتناقضها، تلك الأرياب التى كانت فى نظر أصحابها أسلافاً صالحين، وكان الرب هو جد القبيلة البعيد وسيدها ورمزها، ومعبودها، وضامن وحدتها وتماسكها، فكانت تلك الضيافة لسادة القبائل ورموزها، ضيافة حسنة لكل القبائل، وسبيلاً إلى التقريب بين القبائل بتجاور الأرياب من الأسلاف، فى فناء معبد واحد، بحيث حاز كل رب نفس القدر من الحرمة، ولم تجد قبائل الجزيرة فى تلك الضيافة غضاضة، بل رحبت بدورها بتلك الخطوة وسارعت إليها، وقد بدت تسيبداً أوسع، ونشراً لأمر رب كل قبيلة خارج حماه، وخارج دائرة نفوذه القبلى وحدوده الإقليمية، مع الأخذ فى الحسبان الاعتبار الأكثر أهمية، وهو انهيار الطرق التجارية الأخرى المارة بمواطن تلك القبائل فى بقاع الجزيرة، مما أدى لسقوط معابدها وكعباتها وتدنى شأن آلهتها، بفقدانها الأساس الاقتصادى مع تحول التجارة عنها، إضافة إلى التنامى الذى حققته الظروف لمكة. وهو ما أضعف شأن الأسواق الأخرى إلى حد التضاؤل والتهميش^(١٤).

وعليه؛ فقد كانت ضيافة الكعبة المكية للأرياب القبلية، تأليفاً آخر لقبائل الجزيرة جميعاً، وهو ما ساعد على مزيد من تركز التجارة بمكة، مع اتصال مكة بفروع للطرق نحو الأسواق الداخلية

(١٣) أحمد عباس صالح: الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام، مجلة الكاتب عدد ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤، القاهرة، ص ٢١، نقلاً عن سعيد الأفغانى. أسواق العرب.

(١٤) سيد محمود القملى: الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، ١٩٩٠، القاهرة، ص ٢١ : ٢٤.

الضاربة في بطن الجزيرة، وزاد في المركز التجارية والدينية والقبلية بل واللغوية لمكة ولهجتها القرشية، بعد أن أصبحت لغة قريش ذات السيادة والانتشار، فأصبحت مكة مزاراً لكل العرب، وحاز موسمها التجاري الأكبر (موسم الحج) مكانة لا تضارع، بعد أن أصبح موسماً لكسبهم وعبادتهم وسمهم ومرحهم، حتى كادت مكة - على المستوى العرفي - أن تكون عاصمة لجزيرة العرب جميعاً.

وبسبيل مزيد من الحفاظ على المكاسب ودوامها، تمكن الملاً القرشي من تنظيم أسواق بعينها، في هيئة مواسم منظمة بمواقيت، تتفق ومواسم المحاصيل، سواء في الجزيرة أو شرق أفريقيا أو الهند، ووفق خطوط الرياح في المحيط الهندي، وموعد وصول شحنات البحر من الهند وشرق أفريقيا إلى موانئ الساحل اليمنى، ووقت الطلب الشمالى لتلك البضائع والسلع بتقدير دقيق، يأخذ في اعتباره أصغر العوامل، حتى طبيعة المناخ وموجات الحرارة والبرودة، مع تحريم مواقيت تلك الأسواق إيمانياً ومصلحياً، لضمان الموسم الأكبر (موسم الحج)، الذى تجمع فيه مواد بضائع الساحل اليمنى وأسواق الجزيرة الداخلية، لتشق رحلتها الصيفية إلى الشمال، بحيث أصبحت أشهر الحج والسفر الصيفى أشهراً حراماً، ثم كان في المكان - للمصلحة التجارية، وحسب ظروف تطراً أحياناً، وحسب الطلب، وتغير مواقيت السنة العربية القمرية مع السنة الشمسية الزراعية المحصولية، ولضبط الأشهر الحرام القمرية مع الرحلتين ومواسم الحصاد - تحريك تلك المواقيت، ونقل الأشهر من مواضعها بالإزاحة، فيما يعرف بنظام النسيء^(١٥).

ولمزيد من الضمانات، نظم الملاً نواة أولى لقوات مسلحة من العبيد، ومن الأحابيش كانت مهمتهم الأساسية حماية أصحاب رؤوس الأموال والشخصيات الكبرى، وحراسة بيوت رجال الملاً، ثم المهمة الأساسية، وهى حراسة القوافل التجارية.

وعليه؛ فقد أخذت مكة - بتسارع - تتحول إلى حاضرة تتناقض مع البداوة والقبلية في داخلها، كما تتناقض مع المحيط المتشردم حولها في جزيرة العرب، ومن ثم كان ضرورياً أن تمر مكة بتحولات بنيوية هائلة، في تركيبها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، التى انتهت بها من قبائل متشردمة، إلى قبائل متفرشة، خاضعة لرجال الندوة من حكومة الملاً، لتتضح - باشتراك المصالح - تقريشها إيلافاً على محيطها القبلى في الجزيرة، وبخاصة القبائل التى ألفها طريق الإيلاف الأكبر.

(١٥) المسعودى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧، ٥٨.

المتغير الاجتماعي

يسوى (ابن سعد) في طبقاته خبراً، يوافقه عليه جميع رواة السير والأخبار، والخبر يقول: إنه حين تغلبت قريش على خزاعة، وتسلم (قصي بن كلاب) - بعد أن كثر ماله وعظم شرفه - رعمه فبنز مكة المتحالفة معه، التي تفرشت، قطع (قصي) مكة أرباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم^(١٦)، وقد ذهب الكاتب (برهان الدين دلو) مذهب الباحث (حسين مروة)، في تحديد المغزى التاريخي لهذا الحدث، بأنه «كان تصنيفاً اجتماعياً لسكان مكة، بطون قريش وحلفائها، روى فيه الوضع المالي دون العرف القبلي، إذ جعلهم صنفاً ممتازاً أدنى أسكن في الظواهر، وهم قريش الظواهر، وكانت قريش الظواهر متبديّة أو شبه مستقرة»^(١٧)، وقد ركن الكاتب هنا، في تقديره لسوء أحوال «قريش الظواهر، المادية إلى تقرير الباحث المؤرخ (جواد على) في مفصله عن تاريخ العرب قبل الإسلام^(١٨). ومن ثم استنتج من التصنيف المشار إليه:

إن الوضع المالي والتجاري لأبناء القبيلة، أصبح يحتل المركز الأول من الاعتبار، فكان أن أصبح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار في مقدمة قريش البطاح، لأنهم صاروا أوفر مالا وأعظم تجارة، ثم احتلت أمية في قريش الجاهلية الأخيرة مكان الصدارة، مذ أصبح فيهم أعظم التجار ثراء، وبسطت سلطانتها المالي والتجاري على كثير من قبائل المنطقة العربية خارج مكة، وبفضل مركز أمية المالي والتجاري، فإن أمراء القوافل كانوا منهم^(١٩).

ونرى من واجبنا هنا التوضيح - حتى لا يختلط الأمر - حيث كان بنو عبد مناف وبنو عبد الدار أبناء لقصي سيد مكة - المتقرشة - الأول والمطلق النفوذ، والأكثر مالا، وكان طبيعياً أن يكون ورثته في مقدمة قريش البطاح، وليس كما ذهب (دلو) لكون وفرة ماله الأساسي كانت من التجارة، وإنما لورثتهم أُلوية التشريف والسيادة عن سلفهم (قصي)، مما أعطاهم فرصة الحصول على النصيب الكامل من المكوس الجمركية لبضائع الترانزيت المارة بمكة، وهي الأُلوية التي يشرف كل منها على لون من الخدمات المأجورة، التي كانوا يؤدونها للتجار المارين بمكة

(١٦) ابن سعد: سبق ذكره، ج ١، ص ٧٠، ٧١.

(١٧) برهان الدين دلو: مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، الفارابي، ١٩٨٥، بيروت، ص ٥٩.

(١٨) د. جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمي العراقي، د. ت، ج ٤، ص ١٩٥.

(١٩) دلو: مساهمة... سبق ذكره، ص ٦٠.

بقوافلهم، والتي حملت أسماء ألوية التشريف التي نظمها (قصي)، للحصول على النصيب الأعظم من المكوس، وتمثلت في (السقاية، والرفادة، والحجابه، والسدانة، واللواء، والندوة.. الخ). والاعتراض من جانبنا يقوم على حجة أن تلك المرحلة كانت قبل انتقال قريش إلى مرحلة التجارة لحسابها، إلا أن إشارة الكاتب (دلو)، التي تؤكد أن الوضع المالى لأبناء القبيلة، قد أصبح يحتل الموقع الأول من الاعتبار، فهو الأمر الذي لا يمكن النزاع حوله.

ومع ذلك الثراء الذي أصابت حظوظه أفراداً من عشائر مكية مختلفة، ومع تحول هؤلاء النفر عن قبض العشور إلى التجارة لحسابهم، ومع حجم تلك التجارة الهائل، كان طبيعياً، بل كان محتملاً، أن تبدأ الانقسامات الطبقيّة الحادة في الظهور بوضوح داخل القبيلة الواحدة، وهو ما انعكس بدوره على الوضع القبلي للقبائل الأخرى بالجزيرة، المرتبطة بحركة مكة التجارية، وهو ما كان العامل الأول في تهشيم الأسس القديمة لروابط القبيلة، وسيولة لزوجتها الجامعة لأفرادها، نتيجة للتطور التجاري، وما صاحبه من تقسيم للعمل، وتضخم ملكيات رؤوس الأموال، مقابل فارق طبقي كبير، نتيجة لتفاوت توزيع الثروة، مع اختلاف الأوضاع والأدوار في العملية التجارية التي تفودها مكة، أو بالتحديد نفر متبعثر في قبائلها، شكل الأساس الاقتصادي المتين بينهم رابطة قيادية للعملية التجارية، فتوزعت الأدوار ما بين ملاك المال، إلى أدلاء للقوافل، وحراس مسلحين، وعمال تشهيلات للشحن والتفريغ، وآخرين يبتهلون الفرص على الطريق لتقديم الخدمات الضرورية للقوافل، في نقاط محددة ومحطات قاموا بإنشائها على الطريق للترغيب في الاستراحة وبيع خدمات الراحة. هذا إضافة إلى المتاجرين الصغار، وشيوخ القبائل الذين يتقاضون الإتاوات، ثم الأهم وهو انتشار التعامل النقدي بعملات الفرس والروم، وهو ما أدى جميعه لفوارق وتفاوت، فكك بالتدريج روابط النظام القبلي القديم، نتيجة حتمية لوجود العبيد والمعدمين على الطرف الآخر غير المستفيد من العملية التجارية القائمة داخل ذات القبيلة، ومن ثم بدأت قيم القبيلة القديمة تتراجع.

والمعلوم أن القيم القبيلة القديمة، كانت تقوم على المساواة المطلقة والامتلاك الجماعي لوسائل الإنتاج والثروة، ومن ثم توافقت معها علاقات الإنتاج، فكان الولاء الجماعي للقبيلة، ونماسك الكل في القبيلة مع أي فرد فيها مهما صغر شأنه ضد الكون جميعاً، فهي تأخذ بثأره حتى لو تأكلت جميعاً، ثم هو معها كترس في آلة عسكرية متحركة دوماً، لا رابط لها سوى تلك اللزوجة الاجتماعية، والسلف المشترك العزيز على جميع نفوس الأفراد، فكانت القبيلة، وكان السلف، هو الوطن، وكان ذلك اللون من العلاقات الاجتماعية هو الضمان الوحيد لسلامتها كوحدة محاربة متحركة.

ولكن بعد التطور السريع، واستقرار أكثر القبائل، خاصة القوية، على الطريق التجارى الرئيسى، أو الطرق الفرعية، وظهور الفوارق الطبقيّة الحادة داخل القبيلة، لم تعد القبيلة مسئولة كل المسؤولية عن الفرد فيها، وبدأت تظهر حالات خلع الأفراد الذين يمكن بحمقهم جلب الضرر للقبيلة التى شرعت فى الاستقرار، فظهرت طائفة الخلعاء المتشردين، ثم من جانب آخر ظهرت جماعات الصعاليك، أولئك الأفراد الذين بدأوا بدورهم يرفضون المنطق الجديد، ويهجرون قبائلهم، وأخذ تراكم رأس المال لدى أفراد بذاتهم يفعل فعله فى تحول الولاء عن القبيلة إلى الطبقة، كما أخذت قيم الولاء الجمعى تنداح مخلفة وراءها شكلاً جديداً من العلاقات الاجتماعية الأكثر تطوراً، تمثلت فى الفردية التى اتضحت فى إمكان تحدد قيمة الفرد دون جماعة، مع تحول قيمة الشرف عن النسب القبلى وعدد نفر إلى قدر ما يملك من مال، وهو ما أفصح عن نفسه فى تكوين جيش العبيد والأحلاف والأحابيش، الذى كان مؤشراً بالغ الدلالة على بدء منطق جديد، يمكن فيه الاستغناء عن النفورة وعزة النفر القبلى، بعد أن بات ممكناً شراء النفر المسلح والمدرب، أو الحليف بالمصلحة المادية، وهو ما بدأ يخرج بالفرد عن القبيلة إلى التحالف المصلحى مع أفراد من قبائل أخرى، وهو شاهد واضح البرهنة على بدء تفجر الأطر القبليّة.

وهكذا أمسى ممكناً أن تجمع المصالح بين أصحاب الشروات على تفرقهم بين قبائل مختلفة وعلى أن يجمع الشقاء بين المستضعفين على تفرقهم بين قبائل مختلفة، وهو ما يشهد عليه بدء ظهور تجمعات أكبر من القبيلة، تمثلت فى أحلاف يأتينا خبرها فى أسمائها عبر كتب السير والأخبار، مثل حلف ذى المجاز وتنوخ، وحلف قریش والأحابيش، وحلف الفضول، وحلف المطيبين، وحلف لعقة الدم، وحلف الأحلاف، وحلف الرياب، وحلف الحمس.. إلخ، لتشير الظاهرة إلى توجه اجتماعى جديد ينحو نحو التوحد على أساس من المصالح المشتركة.

لكن؛ علينا هنا أن نكون حذرين، فالمرحلة كانت مرحلة بدء، وكل تلك التطورات لم تكن تعنى تفجيراً كاملاً ومبرماً للقديم، لأنه بقليل من الجهد، يمكننا - ونحن ندرس مجتمع مكة تحديداً - أن نلاحظ المحتوى الطبقي الجديد، وهو يتخفى برداء أو شكل قبلى عصبى عشائرى قديم، بمعنى أن الجديد قد تزيّياً بالقديم، وسعت كل مجموعة من الأثرياء إلى ربط أفراد قبيلتهم بهم وبمصالحهم، بالعباء والمنح وإشراك صغار تجار القبيلة فى قوافلهم التجارية، مما أسفر فى المجتمع المكى تحديداً عن محتوى طبقي يتخفى داخل نسق عشائرى، تمثل فى انقسام المجتمع القرشى إلى حزبين كبيرين قبليين، بين أبناء العمومة، أو إلى طبقتين ولكن بملامح وقسمات

قبليّة، يمثلها البيت الأموي الثري، والبيت الهاشمي الذي غلب عليه الفقر، وبخاصة في بيت عبد المطلب، وإن كان من العلمية التوضيح أن ذلك الانقسام بدوره لم يكن تام التحديد بفواصل قاطعة مانعة، بل كان يتضمن بعض التداخل الطبقي بين العشيرتين، فضمت الطبقة الثرية أفراداً من هاشم، مثل العباس بن عبد المطلب، وأبو لهب (عبد العزى)، يشاركون أمية المصلحة الطبقيّة، ولذلك فإن المحتوى، وإن تغير، فقد ظل يتخفى بأردية عصبية النسق، وظل الشكل القديم محافظاً مع تغير المحتوى، لقد كانت المرحلة مرحلة بدء، بدء تحول، بدء طور انتقالي.

ويمكن للمطالع في تلك المرحلة، أن يلحظ أمراً له مغزاه، فسيجد فقر هاشم وبنى عبد المطلب طارئاً جديداً، وهو ما يدفع إلى افتراضه متصلاً بالمنافسة التجارية التي يقع فيها البعض بالضرورة خاسراً، كما يفترض اتصاله بالصراع بين البيتين الهاشمي والأموي، الذي يضرب بجذوره في الماضي إلى أيام الجد (قصي بن كلاب)، وهو الصراع الذي استعر حول حيازة ألوية التشريف السيادية، والتي بلا جدال كانت سلطوية في بعض مناحيها كما في لواء (الندوة) ولواء (اللواء)، وهي الألوية التي استحر صراع حرور حولها لأنها كانت عاملاً حاسماً في القسمة الطبقيّة. بينما اعتمد الأمويون في تقوية سلطتهم ونفوذهم على مزيد من التراكم الثروي، وعقد الموادعات والتحالفات التي تضمنها المصالح المادية المشتركة مع قبائل أخرى، فإن الهاشميين لجأوا إلى كسب مزيد من التشريف وألويته بتكتيك آخر، زاد في فقدهم للأساس المادي باستمرار، لكنه كان منحي يهدف إلى كسب ولاء القبائل بالعباءة وبالبذل، لكسب الشرف الرئاسي بالجوهر والفضل، فهذا هاشم، يضع ثروته جميعها تقريباً في قافلة قوامها الزاد، لفقراء مكة والقبائل، في سنوات المجاعة المسننة، وقام يهشم الثريد باللحم للجوعى بيديه، لذلك لقب هاشماً، أما اسمه الحقيقي فكان (عمرو)، وفي ذلك يقول (ابن كثير):

.. هاشم واسمه عمرو، سمي هاشماً لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في

سنى المحل، كما قال مطرود بن كعب الخزاعي في قصيدته..

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف (٢٠)

وإشارة (مطرود بن كعب) هنا، لعلاقة هاشم برحلتى الشتاء والصيف، إضافة لما سبق وأشرنا

(٢٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٦.

إليه في أخذه الإيلاف لقريش من الملوك وزعماء القبائل، تلقى ضوءاً على علاقة البيت الهاشمي الوطيدة، القديمة، بالنظام التجاري الملكي، باعتباره أحد المؤسسين للنظام الإيلاف، ودوره في التجارة العالمية، التي - لا شك - جعلت بيت هاشم أياماً، بيتاً ثرياً ينافس البيت الأموي، وإن أفقره ذلك الأمر غير الواضح بكتبنا التراثية، والذي أرجعناه افتراضاً إلى السقوط في حلبة المنافسة، وإلى عنصر آخر غير تام الإقناع، وإن كان ذا دور هام، وهو الكرم والعطاء، لإقامة تحالفات مطلوبة في الصراع، وكسباً للرجال في حومة مقبلة، وإن كان ذلك العنصر في منطق الجزيرة وطبعها المجدب الشظف، وخاصة في تلك المرحلة التطبيقية، ربما كان منطقاً مقنعاً للعرب أنفسهم بحق التشريف السيادي لهاشم، فكان للكرم لديهم مغزاه السياسي والاجتماعي، وكان مما يدعم الكريم بالتسييد وما يستتبعه التسييد من سلطة، وهو ما يدل عليه قول (حاتم الطائي) أكرم العرب وأشهرهم في هذا الضرب السيادي:

يقولون لي: أهلك مالك فاقتصد وما كنت - لولا ما يقولون - سيداً^(٢١).

ثم يخبرنا التاريخ أن (هاشم) قد دفع بالصراع دفعة كبرى، عندما دعم حلفه ضد (أمية) بزواج شرفي تعاقدي، مع أهل الحرب والدم والحلقة من بني النجار، خزرج يثرب، وأن أخاه (المطلب) سار على نفس المنحى التكتيكي، وأن (عبد المطلب بن هاشم) قام بدعم آخر لحلف (هاشم / يثرب - الخزرج) بزواج آخر واستمر في البذل حتى لقبته العرب بالفياض لكثرة جوده^(٢٢)، في الوقت الذي حافظ فيه ولده العباس على ماله، فكان كثير المال، وهو ما يشير إلى ممتلكات الثراء في البيت الهاشمي، لولا بذل هاشم وعبد المطلب وآله، وبخل شديد وحرص في العباس، حدثتنا عنه كتب السيرة في أكثر من مناسبة.

المستوى الفكري

ومع مزيد من التراكم على خط التطور، كان لابد أن يتزايد التناقض بين الشكل والمحتوى، حتى يبلغ مداه التفجيري للإطار أو الشكل، لصالح المحتوى الجديد، بعد تراكم الجديد داخل إطار ضاق به ولم يعد يسعه، وقد ساعد على زيادة ذلك التناقض بين الشكل والمحتوى، بقاء الشكل

(٢١) حاتم الطائي: (ديوانه)، تحقيق وشرح كرم البستاني، مكتبة صادر، د. ت، بيروت، ص ٥٨.

(٢٢) السهيلي: سيرة ابن هشام (الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام)، ضبط طه عبدالرءوف، دار المعرفة، ١٩٧٨،

بيروت، ج ٢، ص ١٣١، انظر أيضاً: الحلبى سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، د. ت، بيروت ج ١، ص ٢٢، ٢٣.

أول الإطار محكوماً بعلاقات استهلاكها التطور السريع، فتفسخت القيم القبلية، رغم الإصرار الظاهر على استدامتها، هذا بالطبع مع الإفراز الفكري للمرحلة التي اصطبغت بالشكل المادى النفعى، فاستبطن المحتوى الجديد، داخل فكر قديم، لكن فقط للمسامرات الفكرية، والندوات الديوانية، والممارسات الطقسية، والتبريرات النفعية، دون إيمان حقيقى، فعلى المستوى الواقعى، أمسى ظاهراً رفض العربى وخاصة المكى، لكثير من أشكال المعجزات الميتافيزيقية القديمة، خاصة إذا ما كان ذلك المكى من الطبقة الثرية الأرستقراطية، المترفة والمتحقة، حتى أصبحت تلك الميتافيزيقا القديمة فى مأثوره الجديد، على لسان الصفوة التى أتاحت لها الثروة التزود بالثقافة الحضارية فى مدارس الامبراطوريات وجامعاتها، مجرد أساطير الأولين، وما كان يتم استدعاؤها عن قناعة، بل من باب التخديم على المصالح المادية، ولم يعد الفكر الدينى ومفاهيمه، سوى أسلوب لتنسيق المكاسب، ومطية لمنافع مادية بحتة.

ومن ثم تخبرنا صدور كتب السير والأخبار، بتسامح مطاط فى قبول أى دين وأى معتقد، مهما بدا شاذاً وغير مألوف، شرط أن يكون دافعاً لمزيد من الحضور التجارى، أو على الأقل شرط ألا يكون متضارباً مع المصلحة التجارية، وكان أمراً مفروغ الحدوث، أن يبلغ ذلك التناقض مداه على كافة المستويات.

فعلى المستوى الاقتصادى: كان تركيز الثروة بيد أفراد دون آخرين داخل القبيلة، دافعاً لمزيد من تناقض الشكل القبلى والمحتوى الطبقي، وكان مفترضاً وصول التناقض لمرحلة التفجر لمصالح المحتوى الطبقي، لولا أن الشكل القبلى كان يؤدى للقيادة المكية - ولمصالح المملأ تحديداً - مكسباً أكبر من التحول النهائى نحو الشكل الطبقي، لأن التفكك القبلى وبقاء القبلية وإطالة أمدھا، كان يعنى مزيداً من التراكم الثروى لأرستقراطية مكة، وهو الأمر الذى يفسره المستوى الفكرى.

وعلى المستوى الفكرى: كان الرب يمثل سيد القبيلة وسلفها ومعبودها ورمز عزتها وكبرياتها، وكان تجمع تلك الأرباب فى ضيافة الكعبة المكية، يعنى مزيداً من الحضور التجارى لأتباع الأرباب، ومزيداً من المكاسب، فكان المحتوى الطبقي يسير نحو تفجير الشكل القبلى لمصالح توحيد القبائل جميعاً، بتقارب مصالح الأثرياء من قبائل مختلفة، بحيث صار ممكناً رفض رب القبيلة وسيدها وسلفها المعبود لدى الفرد عند الشريحتين الاجتماعيتين، الأرستقراطية والمعدمة، فكانت الشريحة الأرستقراطية تنحون نحو التوحيد المصلحى الذى احتاج أدلجة، أفرزت اعتقاداً فى إله واحد يرعى تلك المصالح، ولأنهم السادة والمملأ والحكومة، فقد جاء إلههم الجديد

فى مرتبة تتفق ومكانتهم، ليصبح فوق آلهة الكعبة جميعاً، وسيداً مطلقاً للكون الذى أمسكوا عدان تجارته بأيديهم، وراعياً غائباً لمصالحهم.

كذلك كانت فئة المضطهدين والمعدمين والعبيد، فى حالة رفض نفسى وعقلى لأرباب لا تعدل فى تقسيم الأرزاق، ومن ثم كان رفض تلك الأرباب لدى المضطهدين، قناعة مهيأة للإعلان العملى السافر. وقد برز الاعتقاد المكى فى إله واحد فوق أرباب القبائل وأسلافها المتعددين، الواقفين فى فناء الكعبة، وأمسى معترفاً به بشكل نهائى فى العصر الجاهلى الأخير، وهو ما قرره بعد ذلك آيات القرآن الكريم فى نصوص كثيرة متعددة، نقتصر منها على أمثلة تقول:

- «قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم . يقولون لله قل أفلا تتقون» . (٨٦) .
٨٧ / المؤمنين) .

- «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون» .
(٦١ / العنكبوت) .

لذلك ظل التشردم القبلى قائماً، وجنين الوحدة المقبلة لعرب الجزيرة فى حالة إرهاب مضاعف، دون ميلاد حقيقى، يجمع العرب جميعاً فى مصلحة واحدة، ووحدة قومية جامعة فى ظل إله واحد، ولذلك انتشر الاعتقاد فى مهمة باقية لهذه الأرباب القبلية المتفرقة، وهى التشفع لأتباعها لدى الإله الواحد، واتخاذهم إليه زلفى وتقرباً، وهو ما كان - على المستوى النفسى - إخضاعاً داخلياً ذاتياً للقبائل، لملا مكة وسيادة ذلك الملاء، عن طريق الاعتراف بسيادة إله الملاء على أرباب القبائل، وقد صورت آيات القرآن الكريم، المعنى الذى انتهى إليه أرباب القبائل بتصوير بليغ، يليق بصدق الوحي الكريم، وتطابقه مع واقع مكة والجزيرة، دون تفاوت «ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت» (٣ / الملك)، بقول يأتى على لسان المشركين:

«ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (٣ / الزمر) .

وعلى المستوى السياسى؛ تجاوزت حكومة الملاء - أصحاب الندوة - الشكل القبلى القديم، لكنها حرصت على استدامة النقيضين حرصاً على المصلحة المادية، فكانت حكومة الملاء حكومة شبه جمهورية، تتجاوز الشكل المشيخى الرئاسى القبلى القديم، لكنها تستبطنه فى تمثيل رجال الملاء

للتعددية القبلية لبطن قريش، بينما صراع النقيضين يفعل فعله التراكمى لمصالح توحد كامل لشكل الحكم، بغرض القضاء على التمثيل القبلى والقبلية، لمصالح نظام حكم مركزى جامع، يقوم على سلطة واحدة موحدة، لا تضع بحسبانها مصالح الملأ الأنانية الضيقة، بل تتجاوزها بضرب التعدد السلطوى والريوى، لمصالح دولة كبرى ومصالح أعظم وأعم نفعاً لجميع عرب الجزيرة، حكم يمكنه أن يوحد تلك الشراذم المتأرجحة بين الفردية والقبلية، الجديد والقديم، فى مرحلتها الانتقالية، نحو أمة واحدة، وهو ما يخبرنا التاريخ بأنه قد حدث، وذلك مع المرحلة الأولى من المراحل التى مرت بها أطوار الدولة المقبلة.

وقد تمثلت المرحلة الأولى فى تكوين تلك الدولة فى ظهور سلطتها، كسلطة نبوية، فى مكة بنداء النبى - صلى الله عليه وسلم - لعشيرته، بما بين يديه من سلطة نبوية (إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد)، تلك السلطة التى استندت إلى أساسين أوليين هما: السلطة النبوية المستمدة من الأساس الثانى والأعظم، وهى سلطة الله الأوحد العليا، الراعى الأقدر للدولة القادمة.

وبالفعل تتجاوز الدعوة الطالعة لمؤسسة الدولة المقبلة، التعدد العشائرى نحو توحد عربى جامع، وذلك بنزوع مبكر، نحو دولة غير اعتيادية، إنما امبراطورية تسد الفراغ السياسى العالمى، وتقضى على ما تبقى من تفريخات منهارة للامبراطوريات القديمة المتصارعة لمصالح التطور الأسمى الجديد، وهو ما تأتينا نبوءته الصادقة يتردد صداها فى جنبات جزيرة العرب بلسان النبى الأمين:

اتبعونى أجعلكم أنساباً
والذى نفسى بيده
لتملكن كنوز كسرى وقيصر.

وهو المعنى الذى كان يحمل فى طياته غرض كسب ولاء جماعة تضامنية، تشكل الأساس الثالث للدولة، جماعة تشكل نواة تأسيسية للأمة المقبلة.

ظهور الإسلام

كنا نقول حتى الآن: من الطبيعى ومن الحتمى، ومن الضرورى، فالأمر حسب قوانين التاريخ، لا بد أن تؤدى مقدماته إلى نتائجه، متى ما توافرت الشروط، لكن هنا قد يجوز القول

لقائل: ومن الغريب أن ينهض بإتمام التطور إلى نهاية نضجه، لصالح الطبقة التجارية، فرد مكى قرشى، هو نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ووجه الغرابة أنه نشأ يتيماً فقيراً كادحاً، ينتمى إلى فرع هاشم، بل إلى الغصن الأفقر فيه، غصن عبد المطلب وأبى طالب، وأنه لضرورات وظروف نشأته، بدأ حياته العملية من أجل الرزق، وهو لم يتجاوز بعد صباه المبكر، فاشتغل وهو أقرب إلى الطفولة برعى غنم أهله، ورعى غنم أهل مكة، الذين يرقلون في ثراء النعمة، ثم - مع تجاوز الصبا إلى الرجولة - اشتغل بالتجارة لحساب الأثرياء، وهو ما يصلنا خبره في رحيله إلى الشام، بتجارة لإحدى شريفات قريش (خديجة بنت خويلد الأسدي).

ومثل ذلك الانتماء كان كفيلاً بجعل أمر قيامه بدفع الأمر نحو غايته ونضوجه لصالح الطبقة الناجرة، أمراً غريباً لأول استطلاع، لكنه يعود طبيعياً تماماً، إذا ما تذكرنا أن النبي عليه الصلاة والسلام، كان من مكة، ومن قريش تحديداً، دون سائر قبائل بلاد العرب، وإذا وضعنا بحسباننا الظرف الذى كان يدفع الحراك نحو غايته، تلك الغاية التى لم تعطها دعوة النبي بل دفعها حثيثاً نحو نتائجها المنطقية، مع اعتبار الخبرة النبوية فى الطفولة والصبا بالشظف والإملاق، فى وسط طبقي هائل التفاوت، ثم خبرة أخرى بحياة الدعة والطمأنينة بعد الزواج من أم المؤمنين، السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، وكانت إحدى نساء قريش الثريات المعدودات، وهو الزواج الذى كان عاملاً ضمن عوامل، لانتقاله إلى انتماء جديد، لكنه انتماء خبر القديم، وأحس به حرماناً واستضعافاً وهواناً لا ينسى، فكان الدفع نحو إلغاء تلك القسمة المجتمعة بداية، والتى بدأت تحنفاً وتقشفاً وتعبداً فى حراء، رغم النعمة، على طريقة طائفة الحنفاء الذين انتشروا فى الجزيرة العربية، وفى مكة خاصة، فى العصر الجاهلى الأخير، يدعون إلى التوحيد وإلى التوحيد وإلى المساواة وإلى العدل الاجتماعى^(٢٣)، ويعتقد (حسين مروة) أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن حنيفياً بالتأثير أو لمجرد التماس مع ذلك الفريق أو مع بعضهم، بل يذهب إلى احتسابه واحداً من جماعتهم، وقد اعتمد (مروة) فى مذهبه هذا على تأكيد آيات القرآن الكريم لهذا المعنى، وضرب منها أمثلة من قبيل:

- «قل إننى هدانى ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (١٦١ / الأنعام).

(٢٣) حول ظاهرة التحنف والحنفاء، انظر: سيد محمود القمنى، الحزب الهاشمي، سبق ذكره، ص ٥٧ : ٧٤.

- «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن وأتبع ملة إبراهيم حنيفاً» (١٢٥ / النساء) (٢٤).

أما المنهج الأمثل الذي كانت تطلبه الأحناف لتحقيق التوحيد ووحدة الأعراب وقبائلها، فهو التوحيد الربوبي، والدعوة بدعوة الإله الواحد، والسبيل إلى تحقيق ذلك، فيما ذهبوا إليه، نقرأه في مثل الشهرستاني بلسان الحنفاء وهم يقولون:

إننا نحتاج في المعرفة والطاعة إلى متوسط من جسد البشر، تكون درجته في الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانية، ويلقى إلى الإنسان بطرف البشرية (٢٥).

وهم بذلك إنما يطلبون النبوة، ولابد للوحدة السياسية من توحيد علوى يتمثل في سلطة إلهية واحدة موحدة عبر نبي عربى، وهو ما يظهر واضحاً في قراءة (أحمد إبراهيم الشريف) لواقع الجاهلية الأخيرة قبل الإسلام مباشرة في قوله:

والدليل على أن الجاهليين كانوا يتطلعون إلى نظام جديد، أنهم كانوا - حسب تفكيرهم - يتحدثون عن علامات ونذر تنبئ عن قرب ظهور نبي منهم، وقد روى القدماء معجزات ونذراً قالوا: إنها وقعت قبل ظهور الإسلام، إرهاباً به ومنبئة بقرب ظهوره، وتلك الروايات - إن صحت (١١) - كانت دليلاً على أن الجاهليين تطلعون إلى الإصلاح، وإلى ظهور مصلح من بينهم، وكان الإصلاح قديماً لا يتأتى إلا على أيدي الحكماء والأنبياء، وهذا التطلع الطبيعي في كل جماعة إحساس ضرورى يسبق كل حركة إصلاحية ويمهد لها،.... وكانت البيئة مستعدة لقبول النظام الجديد، لأنها بيئة لها وحدتها المميزة، من الناحية اللغوية ومن ناحية الجنس... وكان من المتوقع لو لم يظهر الإسلام أن يدخل العرب في إحدى الديانتين (المسيحية أو اليهودية) لولا أنهم بدأوا نهضة قومية... لذلك يريدون ديانة خاصة يعتبرونها رمزاً لقوميتهم... ديانة تعبر عن روح العروبة وتكون عنواناً لها، لذلك بحث عقلاؤهم عن الحنيفية دين إبراهيم الذين كانوا يعدونه أباً لهم... وقد

(٢٤) د. حسين مروة: سبق ذكره، ج ١، ص ٣٣١، ٣٣٢.

(٢٥) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر البابى الحلبي، ١٩٦١، القاهرة، ج ١، ص ٢٣١.

ظهرت حركة التحنف قبل الإسلام مباشرة، وكانت رمزاً إلى أن الروح العربي كان يتلمس يومئذ ديناً آخر غير الوثنية، والإسلام حين جاء... كان دليلاً على نضوج ديني فلسفي استعد له العرب في القرون المتطاولة السابقة... وكذلك كانوا يحسّون بأن عدم وجود دولة تجمعهم أمر فيه ذل وعار... وفي هذه الظروف المواتية من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ظهرت النهضة العربية وكانت دينية، والدين كان عاملاً من عوامل التطوير والتقدم في العصور القديمة، ولم يتنازل الدين بعض الشيء عن هذه الناحية، إلا بانتشار العلوم، ووجود العوامل التي تنافسه في القيام بهذا الدور في العصر الحديث^(٢٦).

وهو الواقع الذي وعى قراءته مبكراً ابن خلدون، عندما عرض في مقدمته لمسألة الوحدة السياسية للعرب في مملكة موحدة، وأكد أن الملك لا يحصل لهم إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، وذلك في تقريره عن العرب:

أنهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة، والمنافسة في الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس^(٢٧).

أما الأكثر دلالة، ويضاف إلى مجموعة الإفادات السابقة، في رصيد الإجابة عن السؤال المطروح المستغرب، هو أنه رغم عدم إفادة المصادر الإسلامية بوضع رجال الدين في مكة، فإن تلك السدانة جاءت بدورها غير واضحة كما لو كان الغموض مقصوداً بكتبتنا الإخبارية، ولم يبن بتلك الكتب ما إذا كانت السدانة طبقة بالمعنى المفهوم عن رجال الدين؟، وإن كان ما يفسر ذلك الغموض هو ارتباط الدين بالتجارة، مما جعل قريشاً تحوز جميعها قداسة رجال الدين بالنسبة لسائر أعراب شبه الجزيرة، وإن وجدنا وسط تلك الضبابية مجتهداً معاصراً، يعلمنا أن ذلك المنصب الديني كان متوارثاً في البيت الهاشمي تحديداً، ثم من بعده في البيت المطلبي بالذات، وهو ما يصرح به (أحمد عباس صالح) في قوله:

(٢٦) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، د. ت، القاهرة، ص ٢٣٩، ٢٤١ ط، ٢٤٥.

(٢٧) ابن خلدون: المقدمة، طبعة دار الشعب، د. ت، القاهرة، ص ١٣٦.

...وتستمد من هذه السدانة سلطة على سائر أهل قریش، وإن كنا نعلم أن
النبي - صلى الله عليه وسلم -، من سلالة هؤلاء السدنة من قریش (٢٨).

وهو الخبر الذى يفسر لنا سر السيادة فى الفرع المطلبى، وشرفه الرئاسى العظيم، رغم رقة
حاله المادى، كما يفسر لنا كثيراً من توجهات هاشم من قبله، عندما ترك ولده عبد المطلب (شبية
ابن هاشم) ينمو ويربو ويرضع الفروسية بين أخواله اليثارية، وحيث كان التاريخ الدينى يتواتر
هناك فى مقدسات اليهود، مما يلقي ضوءاً على توجهات عبد المطلب فى الشئون الدينية، وما
دعا إليه إبان حياته بشأن الإله الأوحد وبشأن الملة الإبراهيمية الإسماعيلية، وحديثه المسجوع
كسجع كهان عرب الجزيرة المشهور، ونبوءاته التى أثبتت الأيام صدقها (٢٩).

وإعمالاً لكل ذلك، وتأسيساً على انقسام الجزيرة إلى وحدات، يصير المأ على استدامتها قبلياً
وربوبياً، ووقوف ذلك عائقاً دون تحقيق التطور لغايته، جاء الحضور التوحيدي فى الإسلام
متحققاً على المستويين: المستوى المادى بسعيه لوحدة مؤسسية جامعة، فى دولة مركزية، وعلى
مستوى الوعى بنهوضه على فكرة واعتقاد فى مبدأ أيديولوجى يضع النظرية لمؤسسة الدولة
المقبلة.

وهنا يجب ألا يفوتنا انتماء النبي العشائرى إلى البيت الهاشمى، وهو ما دعاه إلى دعوة ذلك
البيت من البدء إلى الوقوف مع الدعوة «وأندر عشيرتك الأقربين» (٢١٤ / الشعراء)، لكنه تجاوز
الخلافات بين البيتين الهاشمى والأموى، بتوسيع دائرة الدعوة بين البيتين، لكن تفصيلات
الموقف، وما لحقه بعد ذلك من أحداث، فرضت انعطافات كثيرة على طريق الدعوة، فقد نفر
منه الأمويون، واعتبروا دعوة الإسلام العظمى، خطوة أخرى من خطوات التكتيك الهاشمى، مما
استدعى تحركاً آخر من قبل بنى هاشم، بنزوع عشائرى متماسك خلف ولداهم حماية له ووقاء،
بفروض المنظومة القبلية وتحزبها، وربما مع وعى يقف فى صف المنظومة الوحودية التى يدعو
إليها، لكن دون الارتقاء إلى البنية العليا، وهو ما اتضح فى رفضهم للجانب الفكرى الدينى فى
منظومته، أما الأمويون الذين تصوروا الإسلام الجليل صراعاً قبلياً، فقد لجأوا إلى محاولة رشوة
النبي بالمال، ثم إلى محاولة ساذجة، تهدف إلى كشف مقاصد النبي الكريم ودوافعه، التى
تصورت لهم رغبة فى الملك الهاشمى عليهم، فنصبوا له الفخاخ بدعوته إلى التملك عليهم، وهى
الرشوة والخطة المكشوفة التى ما كان لها رد أبلى من قول النبي - صلى الله عليه وسلم - :

(٢٨) أحمد عباس صالح: الصراع... سبق ذكره، ص ٢٦.

(٢٩) بشأن عبد المطلب وعقيدته انظر: سيد القمنى، الحزب الهاشمى، سبق ذكره، ص ٤٥ : ٥٤.

«والله، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر
في يساري، على أن أترك هذا الأمر أو
أهلك دونه، ما تركته» .

وهكذا بدا واضحاً أن الملام لم يعوا المقاصد الكبرى للدعوة، ودورهم الممكن فيها، إزاء رؤية
قاصرة، تقف عند حدود المصالح الآنية الأنانية المرحلية، ولم يتجاوزوا المنافع الضيقة لفقر
معدود، التي تحققها التعددية الربوبية القبلية، ولم تتسع رؤيتهم لتستطلع الاتجاه التاريخي لمسار
حركة التطور العام للحراك الاجتماعي العربي، ولم تع إطلافاً أن ذلك الحراك هو تطور على
درجة أعلى لمستقبلها كطبقة، تشكل نواة لشريحة كبرى، يمكنها أن تلعب دوراً كبيراً في الفرز
المرتقب للتشكيل التاريخي.

نعم لم يدرك الملام أنهم الطبقة المؤهلة لقيادة الدولة، وأن قريشاً هي الفريق المؤهل
لرئاسة حركة كبرى. وهو ما سيحدث بالفعل بعد ذلك. ولم يدركوا أن مصلحة الطبقة جميعاً
على المستوى البعيد، مع التوحد في دولة مركزية، تكون نواتها وعاصمتها مكة، تحت راية إله
واحد فرد، يشكل الوحدة الجامعة الأيديولوجية، وتحت زعامة نبي عربي واحد موحد، لكن ذلك
لا ينفي إدراك بعض عقلاء القوم. بوعيهم النافذ وحكمتهم ودربتهم. للأمر العظيم،
وهو ما يمثل موقف أكثر رجال الملام حكمة وجلالاً (عتبة بن ربيعة)، ذلك العجوز الخبير
الداهية، بعد أن التقى بالنبي. صلى الله عليه وسلم. وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة، فذهب
ينادي قريشاً:

يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وما هو
فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه
العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم،
وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به (٣٠) .

وضاع كلام عتبة، وسط ضجيج الحمية للمصالح الأنانية الضيقة، وتراكم خطأ حسابات الملام،
مما دفع إلى خطوات أخرى، ومتغيرات أخرى، وبالتدقيق، يمكن قراءة دوافع ذلك الخطأ
الأساسي وكشفه، والذي يكمن برأينا، في مجاهرة النبي بضرب المصالح الآنية الأنانية لأطماع

(٣٠) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرؤف، ومحمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، بيروت، ج ١،
ص ٢٣٨، ٢٤١.

الملاّ التي لا تتوقف، بدءاً بضرب التعدد الربوي القبلي، بهدف التوحيد الآتي، وإعلانه كفران قريش، وسلبها لقب (أهل الله)، ومخاطبته إياها بالقول: «قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون» (١، ٢ / الكافرون)، ثم تسفيهه لمعتقداتها وعقائد العربان، الذين هم أشد كفراً، باتباعهم أرباباً وأسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان.

ثم ما كان أكثر نكاية للملاّ، برفض الدعوة لقواعد التجارة السارية، بعد أن خبر النبي في تجاربه السابقة وتجارته، ما تؤدي إليه هذه القواعد من تعطيل وتجميد للحركة التجارية، عدد حدود المكاسب الأكثر عائدية للأرستقراطية المكية وحدها، فقام يهاجم كنز الذهب والفضة وتعطيلهما عن أداء دورهما في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتنديده بلا هوادة بالريا والمرابين لدورهما في سحق صفار التجار، بغرض تركيز الثروة بيد فئة لا تؤدي للمجتمع خدمات منوطة بوضعها السيادي، ثم ما يؤدي إليه الريا في النهاية من استرقاق المدين، وهو ما يلقي بأيدي مسحوقة لعمل غير مأجور، وكان لابد أن يسفر الأمر عن جفوة فعداء جهير، أدى بالنبي - صلى الله عليه وسلم - إلى وجهة أخرى مرحلية، على خطوات الطريق الاستراتيجي الطويل، تحول بموجبها نحو المستضعفين وهم دوماً مادة الحروب لمصالح الطبقات المسيطرة ومادة الانتقال الثوري لمصالح طبقة غيرهم والمعدمين والعبيد، يدعّوهم إلى النسب، وامتلاك كنوز كسرى وقيصر، التي تتضاءل أمامها كنوز الملاّ، وإلى الشرف والكرامة، لتشكيل نواة أولى لأمة جديدة واحدة من دون الناس.

وتبع تلك الخطوة متتابعات سريعة، فتم تكثيف الهجوم المباشر على الأثرياء، وتوعدهم بسوء المآل، حتى أسفر الهجوم أحياناً عن ذم الثروة في ذاتها، مع وعيد وإنذار بعذاب مقيم، لمن يمارسون قواعد تجارية يجب تجاوزها، ومن أجل سيولة ونضوج أفضل، يسمحان بإشراك المجتمع كله في الحركة الاقتصادية، فكان الهجوم على آكلي أموال اليتامى والمساكين، وعلى احتكار مواد المعيشة الأساسية، واستغلال الأرستقراطية لحاجة الناس من أجل ربح أقصى، فسفه أمر من جمع المال وعدّده متصوراً أن ماله أخذه، غير عالم أن خلوده سيكون بالبذ في الحطمة، نار الله الموقدة، مع النذير للمطففين الذين ما أغنى عنهم مالهم وما كسبوا.

وعلى الجانب الآخر، كانت البشرية للمستضعفين، بأنهم بانضوائهم في الأمة الجديدة، سيحلون محل الملاّ، وذلك باعتصامهم جميعاً بحبل الله، وهو ما سيجعل هناك قرعاً بيناً بين تكويلهم المجتمعي، وتكوين الذين تفرقوا واختلفوا قبائل وعشائر شذراً مذراً بعد ما جاءتهم البيئات،

وهو ما سيترتب عليه حتماً تنازع هؤلاء وفشلهم وذهاب ريحهم، ومن ثم كان إعلان الوحي بالنتيجة المحتمة، والخطط المعدة للدولة الواحدة، فى قوله:

«ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة
ونجعلهم الوارثين» (٥/ القصص).

فالمستضعفون، هم من سيشكلون مادة الأمة الطالعة، وهم من سيكونون الأئمة والقادة، وهم من سيرثون سيادة الملة وحكومته، والسبيل أمة جديدة، تقوم على مبدأ جديد، واحد لا يفرق يجمع أصحاب المصلحة فى التغيير فى مصهر واحد، عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها:

«... أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (١٣/ الشورى).

ومع ذلك المنحنى المرحلى - وإن كان أساساً جوهرياً فى أسس الدولة - تفتحت الآمال أمام المستضعفين، فبدأوا يتذافرون فرادى إليها، دون قبائلهم وعشائهم، مما جعل دخول كل منهم فى المنظومة الجديدة، وتركه ولاء القبلى، سهما يطلق على جسم النظام القبلى، وكان تحول العبد عن سيده إلى جماعة المسلمين، يعنى شراؤه من قبل المسلمين لصالح الجماعة وإعتاقه ومنحه حريته، وهى الصورة التى اجتذبت أفئدة العبيد إلى جماعة لا تفرق فى تشكيلها بين سيد وعبد، ولا ابن قبيلة وأخرى، إلا بمدى طاعته لقواعد الجماعة، التى قررها الوحي، فكان الإضعاف الإسلامى فى تلك المرحلة للقبيلة، بإحلاله الولاء لجماعة الإسلام محل أى ولاء آخر، وهو ما تم تدعيمه بالانتماء الفردى فى علاقة المسلم بالنبي وبالله، وهو ما ساعد على مزيد من انهيار الولاء للقبيلة، ودعا إليه الوحي بقوله:

«ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى
قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم» (١١٣/ التوبة).

وكان القرار بأن الدولة ستقوم على نظام اجتماعى جديد، يميزها كأمة أخرى تماماً دون بقية الأعراب، هو ما أفصحت عنه أبلغ إفصاح، الصحيفة التى عقدت بعد ذلك بسنوات، بعد الهجرة إلى يثرب، والتى قررت أول مبدأ للأمة الموحدة، معبرة عن التجمع الحضرى الكيفى، المتجاوز للتجمع القبلى الكمى، فى نص مضئىء فى مبتدأها يقول:

هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب،
ومن تبعهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس (٣١).

(٣١) السهيلي: السيرة النبوية بشرح السهيلي فى كتاب (الروض الأنف...) سبق ذكره، مع ٢، ص ٢٤١.

يثرّب قبل الهجرة

خرجت قريش إذن - بعدائها للدعوة - عن قواعدها التي سنّها الملأ، وقعدّها الأسلاف منذ (قصي)، في حرية الاعتقاد، التي كانت تكفل سيولة الحركة التجارية، وتضمن اكتظاظ الأسواق بالرواد على مختلف الملأ، ومن ثم أفصحوا عن رفض مبرم للدعوة الجديدة ولصاحبها، واحتسبوا - عن غفلة - حلقة في تكتيك البيت الهاشمي، لصالح إمساكه بعنان السلطة والغاء سلطة الملأ، مما أدى بصاحب الدعوة إلى يأس مطبق من إفهام تلك الرؤوس المكية الصلبة. ولم يبق سوى البحث عن مكان آخر بعيداً عن مكة.

ولما كانت الأرض قد مهدت سلفاً، ببرمجة هاشم في تحالفه مع أهل الحرب والدم والحلقة في (يثرّب)، وزواجه من البيت الخزرجي، وما تبعه فيه عبد المطلب بن هاشم بزواج آخر يصادق على الحلف، فقد كانت الخثولة اليثرّبية، مدعاة للمراهنة على نواة أخرى للدولة المقبلة خارج مكة في (يثرّب)، المدينة المنافسة الحقيقية لمكة.

ومعلوم أن علاقة مكة بيثرّب كانت علاقة تنافسية، لكن مع اختلاف عميق بين كليهما في التشكيل الاقتصادي والاجتماعي، فبينما كانت التجارة هي عصب الاقتصاد المكي، فإن أعمدة الاقتصاد اليثرّبي قد أضافت إلى عماد التجارة، وزراعة الكروم والحبوب، وكانت حبوب يثرّب غذاء استراتيجياً لأهل مكة، هذا مع نشوء الشكل الحرفي حيث تعاظمت صناعة السلاح إلى حد كبير، وحققت اكتفاءها الذاتي، مع فائض جيد للتصدير، من سيوف ودرّوع وجحف ورماح وسهام، ولباس حرب من خوذ للرأس لا تظهر غير عيني المحارب، ودرّوع ذات سمات رومانية تغطي الجسد كله.

أما الشكل المجتمعي، فرغم أنه كان أميل إلى الاستقرار كنتيجة مباشرة لحرفة الزراعة، فإنه كان أقرب إلى القبلية المضطربة، نتيجة التكوين الهجين لعناصر ذلك المجتمع، لوجود عنصر غير أصيل العروبة والاعتقاد، مثله ثلاث قبائل يهودية كبرى، هي قينقاع والنضير وقريظة، بينما مثل العنصر العربي، قبائل نازحة من اليمن، هي قبائل الأوس والخزرج، الذين حلوا على يهود يثرّب، ولم يجد اليهود في وجودهم غضاضة، بل على العكس، وجدوا فيهم تنشيطاً للاقتصاد اليثرّبي، وكأى تاجر سلاح، كان لا بد من دسائس، تؤدي إلى صراعات تورث الضغائن والثارات، بين الأوس والخزرج، لمزيد من التنشيط الاقتصادي.

وقد أدى ذلك الوضع بيثرّب قبل الهجرة، إلى صراعات قبلية كادت تمزقها، مما جعلها

فراغاً من السلطة السياسية، مقارنة بالملأ المكى، وهو ما كان يزيد فى ترجيح كفة اليهود الأثرياء، أما العداء بين يثرب ومكة، وخاصة بين عرب يثرب وعرب مكة، قد تأصل بفعل غياب دور يثرب فى مصالح مكة، فرغم وقوع يثرب على طريق الإيلاف الشامى، فإن حكومة الملأ القرشى لم تسع إلى عقد أى لون من التحالف المصلحى، الذى يمكن أن يعود على عرب يثرب بفائدة، اعتماداً على التمزق الداخلى ليثرب، الذى كان كفيلاً بشغلها عن مكة وتجاريتها، بل وساهمت حكومة الملأ القرشية فى إضرام جذوة الناريين الأوس والخزرج، فوقفت إلى جوار الأوس يومى معيس ومضرس^(٣٢)، حتى أوشكت عرب يثرب على انهيار تام، بحيث أسقطتها قريش، وخاصة كبار تجارها الأمويين، من معادلتها التجارية، هذا ناهيك عن العداء على المستوى النفسى، والذى كان سببه حرفة الزراعة، التى كان المكى يعيبها ويحتقرها، ويعتبرها مطعناً فى الرجولة، والرد النفسى الطبيعى على ذلك، من كراهية يثربية، لتلك النزعة المتعالية من عرب مكة، وهو الحال الذى تصوره بليغاً، قوله (أبى الحكم عمرو بن هشام أبو جهل)، ولوعته وعظيم أسفه، عندما شارك اليثارية فى قتله، فى وقعة بدر الكبرى: «لو غير أكار قتلنى؟!»،^(٣٣). والأكار هو الزارع.

ومن هنا كان التحالف بالمصاهرة بين الخزرج والهاشميين، ثم استقبال الخزرج لابن أختهم الهاشمى وصحبه، رداً لجرح تؤججه ذكرى معيس ومضرس، واستشفاء نفسياً، واستجلاباً لوضع أهملته قريش، وأسقطته من حسابات الإيلاف، واستشراكاً لوعده نبوى، استقبله الوعى اليثربى النفاذ، بوحدة تلم الشمل، لتقف يثرب كمنافس له شأن أمام الملأ المكى، وربما كعاصمة لدولة كبرى مع مداولة الأيام.

ومن جانب آخر، أدت حرفة الزراعة إلى سمة ميزت يثرب، فقد كانت دوماً فى حالة حذر من القبائل الصارية حولها، خوفاً على المحصول من السلب، ومن هنا كان الإكثار من إقامة الحصون والآطام والصياصى فى كافة نواحيها، وما تبع ذلك بالضرورة من طبع أهل يثرب بالخبرة الحربية والجلد، وهو ما تمرس عليه أهلها لكثرة ما جرى بينهم من حروب داخلية، أو حروب مع جيرانهم، فكانوا بالمقارنة مع أهل مكة أفذاذ حرب وأهل عدة وسلاح، حتى عرفهم التاريخ بأهل الحرب والدم والحلقة، بينما كانت مكة قد استنامت إلى أمنها، واطمأنت بإيلافها، وترهلت بترفها، فى وقت أصبحت فيه يثرب دار سلاح ومنعة، مما جعل اليثارية رجالاً بأس

(٣٢) البلاذرى: أنساب... سبق ذكره، ص ٦، ٧.

(٣٣) الحلبى: السيرة... سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٩.

يعتدون بأنفسهم إلى حد عدم المبالاة التام بعداوة من يعاديهم، وأمسا مرهوبى الجانب، ويكفى كى نعرف مدى اهتمام يثرب بالسلاح، أن نقرأ قائمة الأسلحة التى غنمها المسلمون بعد زمان من بنى قريظة، وهم بطن يثرية يهودية لم تكن أقوى البطون، فكانت مخلفاتهم ألفا وخمسمائة سيف من نوع سيوف داود المشهورة بقوتها وصرامتها، وألفى رمح من رماح يثرب التى رددت عنها أشعار العرب الكثير، وألف وخمسمائة ترس وجحفة، وثلاثمائة درع ملبس، أما القسى والسهام فقل فى عددها ما تشاء^(٣٤)، وإذا أضفنا إلى ذلك كله ما توفر ليثرب من ماء وغذاء إلى حد الاكتفاء الذاتى، أدركنا ما تملكه يثرب من إمكانات الصمود الحربى، وهى كلها اعتبارات لا شك كانت معلومة لصاحب الدعوة، أما قيمتها الكبرى فكانت تتمثل فى وقوعها على عصب طريق الإيلاف الشامى.

المستوى الفكرى

أما على المستوى الفكرى، فكان واضحاً أن يثرب فى اختلاف كبير عن مكة، حيث أدت عوامل عدة، إلى تكون الفكر اليثربى بألوان جد مخالفة للفكر المكى، فبينما كان الفكر المكى قد تجاوز مجموعة العقائد القديمة على مستوى جدية الاعتقاد وصدق الإيمان، وتحولت العقائد عنده إلى أداة يمكن تخديمها لصالح المكاسب التجارية، وتحولت قصص السالفين من أبطال وأنبياء، إلى أساطير الأولين، فإن وجود اليهود فى يثرب، مع كتابهم المقدس، وحكاياتهم عن قدامى أنبيائهم، وسلوكهم وفق شرائع محددة وضعها أولئك الأنبياء، وضع التاريخ الدينى، والنبوى منه تحديداً، موضع احترام بين عرب يثرب، ناهيك عن النبوة التوراتية المتواترة، عن مجيء نبي آخر الزمان، ليقم لليهود دولتهم الغابرة، التى سقطت وانتهى أمر يهودها بالشتات من فلسطين عام ٧٠م على يد الرومان، وهو ما وجد فيه اليثارية العرب عند ظهور الدعوة الإسلامية إنباءً بالنبى - صلى الله عليه وسلم - كان مخبوءاً فى رحم التوراة القديم، لكن مع تحليل جديد، فى ضوء المعنى الأسمى الذى خرج بالنبوة عن دائرة بنى إسرائيل الضيقة، وعن العنصرية اليهودية المتزمتة، إلى آفاق رحبة، تستوعب فكرة عدم عنصرية النبوة وتجسيسها، وخروجها عن اليهود إلى الأمم، فكان الرسول أمياً، من الأمم، غير يهودى، عربى، زعيماً

(٣٤) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، ط ٢، القاهرة، ص ٣٥٠.

للعرب، ومؤسساً لديانة عالمية، وليس حكراً على بنى إسرائيل، ودولتها الغابرة، أو المقبلة فى حلمها التوراتى .

ثم كان التوحيد التوراتى، مدعاة لاختلال عرب يثرب بالوثنية، مما هياهم لقبول فكرة التوحيد، والإقبال عليها عندما جاءت عربية، يدعو إليها نبي عربى، يفاخرون به اليهود الذين طالما تفاخروا عليهم بتاريخهم النبوى، وكتابهم المقدس . هذا فضلاً عن تواضع النصوج الاقتصادى والاجتماعى فى يثرب، مقارنة بما حدث فى مكة، فبينما أصبحت الأفكار الدينية فى مكة وسيلة لمزيد من الارتزاق، فإن العكس كان عند عرب يثرب، حيث كانت الحرمات التى فرضها السلوك اليهودى، تمهيداً طيباً لقبول عقيدة إيمانية توحيدية، ليس فقط لتحقيق أهداف بعينها، بل بنفوس تأثرت بالتراث الدينى التوراتى حولها، مما جعلها أكثر قبولاً لتصديق الدعوة وتقديس الإيمان، هذا إضافة إلى الثراء الفكرى، الذى صاحب ذلك المناخ، وسببته متاخمة يثرب للمناطق الحضارية العريقة فى الشمال، على حدود الامبراطوريتين الفارسية والرومانية.

الهجرة

ورإعمالاً لكل تلك الظروف، يمكننا أن نقرأ ببعض الوعى، لقاء العقبة الأول والثانى بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين نقباء يثرب، لنرى فيه وثيقة ميلاد الدولة وهى تدون فى التاريخ، باتفاق بين أحوال النبی الیثاریة، و بین النبی الامین، والتى ظهرت فى البدء كما لو كانت مجرد اتفاق دفاعى عن شخص النبی، حیث كان النبی فى مكة ممتنعاً ببیتة الهاشمی ممن عاداه وخالفه، وكان معنى الاتفاق على الهجرة إلى الأخوال، هو الانتقال إلى حمى جدید، یرفع الضغط عن الأعمام، فى شكل یظهر کلون من الحماية، وكان للأحداث دلالتها الصادقة، التى تنطق بمدلولاتها فى ذهاب (العباس بن عبد المطلب) عم النبی، وهو بعد على دین قومه، مع ابن أخیه، للقاء الیثاریة سراً فى العقبة الثانیة، وهو لم یذهب - فیما یقول (الطبرى) - «إلا لأنه أحب أن یحضر أمر ابن أخیه ویستوثق له»، وكان هو أول المتکلمین، فى هذا الاجتماع التأسیسی، فقال:

یا معشر الخزرج، إن محمداً متاً حیث قد علمتم وقد منعناه من قومنا،
ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عزة فى قومه، ومنعة فى بلده، وقد
أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم، فإن كنتم وافين له بما دعوتوه إليه،

ومانعيه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم ذلك، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد
خروجه إليكم، فمن الآن دعوه، فإنه فى عزه فى قومه، ومنعة فى
بلده (٣٥).

لكن الواضح بما لا يقبل جدلاً، أن فكرة الحرب والنية عليها، كانت قائمة ومبينة فى ذلك
التحالف، وقد وعاهما الأنصار جيداً، حتى قالوا:

بايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب والحلقة ورثناها كابراً عن
كابِر.

ولما اعترض (أبو التيهان الأوسى) الأمر بقوله:

يا رسول الله، إن بيننا وبين أقوام حبلاً وإننا لقاطعوها، فهل عسيت إن
أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى.. وبعد المبايعة قام
الرجال لينصرفوا، بينما قال (عبادة بن الصامت) للنبي: إن شئت لنميلن
غداً على أهل منى بأسيفنا...

فكان رد النبي، بتأجيل الإمالة بالسيف، وتحديد من سيميل عليهم السيف، إلى ما بعد الهجرة،
بقوله:

لم نؤمر بعد (٣٦).

والواضح إذن أن اللقاء التأسيسى كان حلفاً محارباً وليس حلفاً دفاعياً عن النبي، وأن
الحرب كانت هى القائمة، وكانت هى البند الأساسى، من أجل الهدف الأعظم، قيام الدولة
الكبرى.

وبالفعل تمت الهجرة إلى يثرب، ولم يجد العنصر اليهودى فى يثرب أية مشكلة فى استضافة
الخزرج لابن أختهم وصحبه، واحتضانهم لدعوتهم، تأسيساً على موقف عملى تكسبى، أدى إليه
نجاحهم السابق فى احتواء الهجرة اليمينية (الأوس والخزرج)، وتوظيفها لصالح مزيد من

(٣٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، د. ت، القاهرة، ج ٢، ص ٣٦٥.

(٣٦) البيهقى: دلائل النبوة، تحقيق د. عبدالمعلى قلمجى، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨، بيروت، السفر الثانى، ص ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٥٤.

المكاسب، وترويجاً لصناعتهم الحربية، وضعف المهاجرين الظاهر الذى لا يشكل أى خطر، وهى عوامل دعت للاطمئنان، وإمكان احتواء هذا الوافد الجديد، وهو الموقف الذى دفعت إليه وأدركته الآيات الكريمة التى سبقت الهجرة فى الوصول إلى يثرب، تتحدث عن مكان بنى إسرائيل فى التاريخ السياسى للمنطقة (مملكة داود وسليمان)، ومكانتهم فى التاريخ الدينى (مجموعة الأنبياء من نوح إلى إبراهيم وإسحق ويوسف وموسى... إلخ)، بصياغة تكريمية عظيمة، تقدم احتراماً واضحاً أيضاً للتوراة اليهودية، كما فى قولها:

- «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور» (٤٤ / المائدة) .

- «...إنى رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدى من التوراة» (٦ / الصف) .

هذا مع الاحترام حتى للتفاصيل التوراتية الصغيرة، وأخذها بالاعتبار، والإشارة إليها فى الآيات، كتابوت الإله اليهودى (يهوه)، وكتابة الله لألواح موسى.. إلخ، ثم الموقف العملى للنبى عند وصوله يثرب، حيث استقبل قبله اليهود فى الصلاة، بل وصام الغفران، ثم عقد الصحيفة مع اليهود، للتعاون والأمن والدفاع المشترك مع كفالة حرية الاعتقاد التامة، مع إعلان عن عدم التناقض الاعتقادى، وهو ما تنطق به آيات كثيرة منها:

- «وهو الحق مصداقاً لما معهم» (٩١ / البقرة) .

- «وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم» (١٣٩ / البقرة) .

وكان ذلك بالنسبة ليهود يثرب، لوناً من ممكنات مستقبلية، تحول مركز الجزيرة وقلبها عن مكة إلى يثرب، وما سيعود نتيجة ذلك من منافع عظيمة، ومكاسب مادية جمة .

لكن الغنى عن الذكر هنا، أن يهود يثرب وهم يهيئون أنفسهم للكسب، اكتشفوا - خاصة بعد بدر الكبرى - خطأ حساباتهم القتال، حيث تحدد الموقف تماماً بعدما كسبه المسلمون فى بدر من قوة مادية ومعنوية، لم تجعلهم فى حاجة إلى مثل ذلك التحالف النفعى، حيث أثبت التجار المهاجرون حذقاً وحكمة بحكم الدربة والخبرة، مما جعلهم منافسين أقوىاء ليهود يثرب، وقد دعم ذلك النجاح التجارى، ما لحق بأساليب المهاجرين التجارية من تهذيب قلنه الإسلام، بحيث تناقضت مع طرائق اليهود الشبيهة بأساليب الملأ المكى، من احتكار للسلع، والمغالاة فى الكسب، مع الكسب الربوى الذى بات محرماً فى قوانين الدولة الجديدة .

وهنا تأتى المرحلة الثالثة من مراحل تكون الدولة الإسلامية، بعد المرحلتين: الأولى بظهور

السلطة النبوية في مكة، والثانية المتمثلة في بيعة العقبة الثانية، أما الثالثة فهي الواقعة بمجمل أحداثها ما بين الهجرة إلى المدينة وبين غزوة بدر الكبرى، كما ستبينها الأحداث التالية.

وفي بداية المرحلة الثالثة من مراحل تأسيس الدولة، وحتى يصبح ممكناً حل إشكاليات الفرقة القبلية بين الأوس والخزرج، قام النبي - صلى الله عليه وسلم - بتأمين الحد الأدنى من التآلف الداخلي، بمصالحة الأوس والخزرج، ثم مؤاخاة المهاجرين والأنصار، أما على المستوى الإيماني فقد صارت الأخوة الإسلامية ضرباً للفرقة التي سببتها العصبية القبلية، بحيث صار خارجاً على جماعة المؤمنين من فضل أخيه في القبيلة والعشيرة، على أخيه في الإسلام، وهو ما نشهد له نماذج بالغة القوة، ربما كان أبلغها ما أضاء تحت غبار وقعة بدر الكبرى، فبينما كانت قریش تخشى إراقة دم أحد من أبناء العم أو الخال من المهاجرين، كان المسلمون يحاربون غير هيايين ولا مبالين في هذا السبيل بأحد من الأقارب، وهو ما عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ (٦٣ / الأنفال).

ويحكي ابن هشام في سيرته «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أقبل بالأسارى من بدر، فرقهم بين أصحابه... وكان أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير في الأسارى، فقال أبو عزيز: مربى أخى مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرنى، فقال شد يدك به، فإن أمه ذات متاع ولعلها تفتديه منك... فقال له أبو عزيز: يا أخى هذه وصاتك بى؟ فقال مصعب: إنه أخى دونك» (٣٧).

أما المدى الذى بلغه أمر تلك الأممية والأخوة الدينية، فيظهر واضحاً فى رد (أبى حذيفة بن عتبة) على النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يوصى قبل معركة بدر مباشرة: «من لقي منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله... ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله»، فكان رد (أبى حذيفة) الذى لا يستثنى من الأممية أحداً «أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرننا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألحمته السيف» (٣٨).

والأمثلة كثير، سردها إطالة لا حاجة لها، لكن الدرس المأخوذ هنا، هو أنه بينما كانت مكة تتفكك قبلياً لصالح الشكل الطبقي، كانت يثرب تتوحد إيمانياً وطبقياً، وتذوب فى مستوى مادى متقارب، كنتاج للتوزيع العادل للغنائم، لتشكل نواة الدولة المقبلة.

(٣٧) السهيلي: شرح السيرة... سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٤.

(٣٨) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٠، ١٤١.

من أدران الجاهلية وأصنامها - لم تكن مجرد مصادفة، خاصة إذا ما تذكرنا أن قبلة المسلمين كانت آنذاك إلى بيت المقدس .

وهنا نستكشف الأساس الرابع من الأسس التي قامت عليها الدولة، بعد الأسس الثلاثة المتمثلة في السلطة النبوية والسلطة السيادية الإلهية، وتكوين جماعة تضامنية أولى كنواة تأسيسية للدولة، ويظهر الأساس الرابع للدولة في تحول الجماعة الإسلامية إلى جيش متكامل، أى تجييش مادة الدولة، وتحولها من مستضعفين مهاجرين - إلى وحدة أو دولة عسكرية مقاتلة . والآن، لا يجب أن نفاجأ عندما نجد يثرب ترسل سراياها لقطع طريق الإيلاف، هذا ما يجب تذكره من أمرين كانا بداية الضغط على الملأ المكي، الأول هو منع يثرب قمحها عن مكة، أما الثانى فهو موادعة قبائل الساحل القديمة حول ميناء (الجار) على البحر الأحمر ليثرب، والذي كان يعرف أنه ميناء يثرب على البحر، ومنه تم منع شحنات القمح الوارد من مصر إلى مكة، ولم يبق سوى طريق الإيلاف الشامى خالصاً لمكة، ومن ثم دهمت دوريات المسلمين هذا الطريق دون كلال، تتصدى للقوافل القادمة إلى مكة أو الآبية منها، وهى الدوريات التى بدأت - محددة أهدافها - مبكراً، وقبل مضى سبعة أشهر على الهجرة، حيث خرجت أولى تلك الدوريات النشطة فى سرية بقيادة (حمزة بن عبد المطلب)، لا اعتراض عير لقريش، فى ثلاثين مهاجراً، لكن السرية فوجئت أن قريشاً كانت يقظة، فأردفت بقافلتيها ثلاثمائة محارب بقيادة أبى الحكم نفسه، فتدخل (مجدى بن عمرو الجهنى) ليحجز بينهما وينهى الموقف، واكتفت حراسة القافلة بالانصراف إلى سبيلها، بعد أن أقنعت المهاجرين باقتدارها، وكثرة عددها وعدتها .

ولم يمض شهر على سرية (حمزة)، حتى خرجت سرية بقيادة (عبيدة بن الحارث بن المطلب) إلى (بطن رابغ) بمقاتلين من المهاجرين، فالتقوا بقافلة لقريش، يبدو أنها كانت بدورها فى حراسة جيدة، وهو ما يستنتج من عدم الاشتباك، واكتفاء السرية الليثبية برميها بالنبال عن بعد .

وبعدها بأيام خرجت سرية (سعد بن أبى وقاص) إلى الخرار، ليلحق بقافلة لقريش، ولم يتمكن من اللحق بها، وكانت بدورها لا تحوى فى مقاتليها سوى رجال من المهاجرين .

ومن ثم خرج المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه غازياً على طريق الإيلاف، بقصد تفكيك الإيلاف والولاء القبلى لقريش، وهناك تمكن من سلخ إيلاف بنى مدلج عن قريش، وأخذ عليهم عهد الموادعة بعهد مكتوب، ثم لم يلبث سوى عشر ليال حتى أغار النبى - صلى الله عليه وسلم - يريد (كرز بن جابر الفهرى)، لكنه لم يدركه، وهى الغزوة المعروفة بغزوة (بدر

مكة والحصار

تمكن إذن النبي العريى - صلى الله عليه وسلم - من تسكين أوضاع يثرب الداخلية، خاصة بعد إعطائه مركز الزعامة لسعد بن معاذ زعيم الأوس، حتى لا تحتسب عليه مظنة موالة أخواله من الخزرج، بعد أن تمكن من تحييد زعيم الخزرج (عبد الله بن أبى بن سلول)، مما ربط الأوس بالدعوة وصاحبها، إضافة للارتباط القرابى للخزرج به، ويعد تحييد اليهود بالصحيفة، ومؤاخذة المهاجرين مع الأنصار، بدأ العد التنازلى للإجراء المقبل، وهو ما جاء فى قصة ترويضها كتب السير والأخبار، عن هبوط كبير الأنصار (سعد بن معاذ) إلى مكة، فى رحلة تقول كتب السير إنها كانت - فقط - لأداء العمرة، حيث نزل ضيفاً على صديقه (أمية بن خلف)، أحد أشرف قريش وسادتها.

فنزل سعد على أمية بمكة، وقال سعد لأمية: انظر لى ساعة خلوة، لعلنى أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقياهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ قال: هذا سعد، قال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة أمناً، وقد آريتكم الصبابة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؟ والله لولا أنك مع أبى صفوان، ما رجعت إلى أهلك سالماً. فقال له سعد - ورفع صوته عليه -: أما والله لمن منعنى هذا، لأمنعك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة، (٣٩).

وهكذا كان الاختبار، وهكذا كان الرسوب، ورسب أحد كبار رجالات الملأ بجداره، لأن تحريم أمن البيت وزواره، كان تأمينا لكل المال والنحل، من أجل أمن التجارة وسيولتها وتدفعها مع زوار مكة، وكان تهديد أبى الحكم لسعد كبير عرب يثرب الجديد، إنما يعنى أن قريشاً قد بدأت تفقد أعصابها، ومع فقد الأعصاب تضيق المصالح، فقامت تهدد - بموقف أبى الحكم وتهديده لسعد - مصالحها التجارية بيدها.

أما الأمر الذى لا يفوت على لبيب، فهو الإنذار المتضمن فى رد سعد لملأ مكة بما هوأت، من حصار اقتصادى يقطع عليها الطريق إلى الشام، ولعل تلك العمرة التى أداها (سعد بن معاذ) - على الطريقة الوثنية، وطقوس الشرك، والتى لم يكن الإسلام قد أقرها بعد، ولم يكن قد طهرها

(٣٩) الحلبي: السيرة... سبق ذكره، مج ١، ص ٣٧٨.

الأولى)، لوقوعها على طريق وادى سفوان قرب بدر، وفى صفر، مع نهاية العام الأول للهجرة، خرج - صلى الله عليه وسلم - فى رجاله من المهاجرين إلى مواضع أخرى على طريق الإيلاف، ليفكك عقود بنى ضمرة بن بكر من كنانة عن قريش، ويعقد معهم عقود المoadعة والتحالف بعهد مكتوب^(٤٠)، وفى ربيع أول أرسل (عبدة بن الحارث) على رأس سرية من المهاجرين حتى بلغت (ماء إحياء) للاستيلاء على قافلة لقريش، لكن السرية عادت دون قتال، بعدما وجدته من حراسة مشددة مع القافلة، ومع بداية العام الثانى للهجرة لأيام خلت منه، غزا النبى - صلى الله عليه وسلم - يريد عيراً لقريش فيها ألفان وخمسمائة بعير، ولم يحدث هذه المرة أيضاً أى قتال وحتى الآن كان واضحاً أن الأنصار كانوا مجرد مضيفين، لا يخرجون إلى قتال أو قطع طريق^(٤١).

ثم جاء أخطر إنذار تلقاه ملاً قريش، عندما قامت سرية من تلك السرايا، بضرب الإطار التحريمى للأشهر التجارية الحرام، وهى سرية (عبد الله بن جحش)، التى لقيت عيراً لقريش فى (نخلة)، فقتلت (عمرو بن الحضرمي) أحد رجال القافلة، وأسرت رجلين، واستولت على القافلة، وهو ما دفع قريشاً للجأ بالشكوى تصيح: إن محمداً وأصحابه قد استحلوا الأشهر الحرم وسفكوا فيها الدم وسلبوا الأموال وأسروا الرجال^(٤٢).

وهنا جاء رد الآيات الكريمة المفحم، يحمل أكثر من دلالة، حول مفهوم الأشهر الحرام، وقيمة ذلك التحريم أساساً، ومدى قناعة القوة اليثرية الطالعة بتلك القيمة، وأخذها على مأخذ الجد من عدمه، خاصة بعد أن أكثر الناس الكلام عن استحلال أصحاب محمد للشهر الحرام، ثم أن الرد حمل أيضاً تحديداً واضحاً لمن أصبح بيده الأمر، وبإمكانه التحليل والتحريم، ناهيك عن قيمة قريش ذاتها كراعية للأشهر الحرام، وصاحبة لقب (أهل الله)، وقيمة ذلك اللقب ومدى مصداقيته، لأن الرد كان:

«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير»
(٢١٧/ البقرة).

ولم يكن هناك رد على استصراخ قريش العربان لحرمة الأشهر الحرام، أبلغ من ذلك الرد،

(٤٠) ابن حبيب: المحبر، تحقيق د. إيلزة شتير، دار الآفاق الجديدة، د. ت، بيروت، ص ١١٠.

(٤١) الطبرى: التاريخ... سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٠٢: ٤٠٧.

(٤٢) نفسه: ص ٤١٠: ٤١٣، انظر أيضاً: محمد أبو الفضل ومحمد البجاوى: أيام العرب فى الإسلام، دار إحياء الكتب العربية، ط ٤،

١٩٦٨، بيروت، ص ٨.

لتراجع موقفها، وتضع مصالحها وهيبتها ونظامها الاقتصادى والقانونى التحريمى فى الميزان، وهو الموقف الذى بدأت قريش تراجع حساباتها بشأنه، ويأتينا خبره بلسان (صفوان بن أمية) وهو يقول:

إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى ماذا نصنع
بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوا محمداً ودخل
عامتهم معه، فما ندرى أين نسكن؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رؤوس
أموالنا، فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى
الصيف، وإلى اليمن فى الشتاء^(٤٣).

لكن الحال - على أية حال - شهد تلاحقاً فى الأحداث، تجاوزت تلك المراجعة، حيث طُير الخبر إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى يثرب، بخبر قافلة لقريش فى طريقها إلى الشام بقيادة (أبى سفيان)، قوامها ٢٥٠٠ بغير، فيها بضائع يربو ثمنها على ٥٠٠٠٠ دينار، بدنانير ذلك الزمان، والقيمة الشرائية لقد ذلك الزمان، ساهم فيها البيت الأموى الثرى، المعادى لبيت النبى الهاشمى، بأربعة أخماس القافلة^(٤٤).

وكان ذلك الخبر مدعاة لتداعيات أخرى متسارعة، فجرت صراعاً عسكرياً، كان مبتداه وفيصله، غزوة بدر الكبرى.

(٤٣) إيكار السقاف: نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، ج ٢، ص ١٤٥٨.

(٤٤) د. جواد على: تاريخ العرب فى الإسلام، دار الحرية، ط ١، ١٩٨٣، بيروت، ص ٧٧، ٧٨.

الباب الاول

بدر الكبرى

قراءة أخري

حروب دولة الرسول

جزء اول

طالوت ومحمد

«وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم
طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك
علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت
سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم
وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتى
ملكه من يشاء»

[٢٤٧/ البقرة]

حروب دولة الرسول

جزء أول

والمثل المضروب في الآيات هنا، عن أول ملك لبنى إسرائيل، رفاق الحلف الدفاعي في جماعة يثرب التضامنية، وهو الملك المعروف في العهد القديم من الكتاب المقدس باسم (شاؤول)، والوارد في آيات القرآن الكريم باسم (طالوت)، وقد اختاره لهم في الآيات (نبيهم) غفلاً من أي تعريف، وهي المعرفة التي يمكن الحصول عليها بالرجوع إلى الكتاب المقدس، حيث يلتقي ذلك الدبى تماماً ويتطابق، مع شخصية القاضي الكاهن (صموئيل)، وفي سفرين باسم (صموئيل) بالكتاب المقدس، يمكنك العثور على كثير من التفاصيل بهذا الشأن، حيث تعرض الإسرائيليون - تحت حكم نظام القضاة الكهنة، وهو نظام قبلي يجمع الحكم الديني مع الديني - لعدد من الهزائم، أمام سكان الساحل الفلسطيني، وكان مرجع تلك الهزائم كما هو واضح بتلك الأسفار، نتيجة استمرار النظام القبلي، الذي شتت الولاء بين اثنتي عشرة قبيلة (الأسباط)، وأوقف تطور المجتمع القبلي الإسرائيلي نحو حكومة مركزية واحدة قوية، وجعل جيشها مجموعات غير منظمة ولا موحدة، تعود بولائها إلى متفرقات القبائل، التي ربما تعود - أو لا تعود - إلى صلات قرابية بعيدة فيما بينها.

هذا بينما كان الفلسطينيون، سكان الساحل شعباً مستقراً، ورغم انقسامه بدوره إلى مجموعة دول مدن، فإن الولاء في الدولة المدينة كان للدولة المركزية، ومركزية الملك المنظم، ومن هنا انتهى بنو إسرائيل إلى نتيجة مفادها: أن هزيمتهم تعود بشكل مباشر إلى نظامهم الاجتماعي والسياسي، ويات مطلوباً صهر تلك القبائل تحت حكم ملك واحد، ومن ثم كانت مطالبتهم العاجلة والعنيفة، لكاھنهم وقاضيتهم وحاكمهم القبلي (صموئيل)، باختيار ملك لهم جميعاً يوحدهم في دولة واحدة.

وخضع (صموئيل) لضرورات الظروف، واختار لهم (شاؤول) ملكاً، ليصهر القبائل جميعاً في وحدة واحدة، وشعب واحد، بقيادة حكومة واحدة، لها جيش واحد، وبالفعل - حسبما تخبرنا رواية التوراة - تمكن (شاؤول) ومن تبعه من ملوك مباشرين (داود وولده سليمان)، من صهر تلك القبائل المتفرقة في كونفدرالية واحدة، وتمت مركزية الحكم، التي انتهت بتفوقهم على أصحاب الأرض، وإقامة الدولة المركزية^(١).

والمثل المضروب في الآيات القرآنية، يطلب من المسلمين استدعاء الدلالات لقراءة واقع مماثل لقبائل متفرقة تحت حكم بدائي، ممثل في حكومة الملأ المكية، التي لم تتمكن من مركزية الولاء، كنتيجة حتمية لتفوق التمثيل القبلي بين أعضاء الملأ، الذين كانوا أثرياء البطون القرشية،

(١) الكتاب المقدس: العهد القديم: انظر سفرى صموئيل الأول والثاني، وملوك الأول والثاني.

والذين لم يمثلوا الفئات الموزعة بين القبائل تمثيلاً صادقاً، والذين - وهذا المهم - رفضوا الدعوة التوحيدية الطالعة.

لكن الآيات وهى تستدعى واقع مكة، لتلحقه بالتاريخ الإسرائيلى فى المثال المضروب، ترحل بالتساؤل المكى القرشى من رجال الملأ، ليصبح تساؤلاً من بنى إسرائيل لصموئيل: «أنى يكون له الملك علينا؟»، وهو التساؤل الاستنكارى الذى يحمل معانى جديدة، ومواصفات جديدة، يجب أن يتصف بها السيد الزعيم، وهى المعانى والصفات التى حملتها رياح التغيير الاقتصادى إلى مكة، مع الثراء الفاحش الذى أصاب البعض دون الآخر، وبدأ يفعل فعله فى تفجير الأطر القبلية القديمة، ولم تعد مواصفات الزعيم كما كانت فى الماضى العشائرى، من حكمة تؤهله كى يكون رأساً للقبيلة، أو حكمة، أو شجاعة أحياناً أخرى حسب ظروف القبيلة إن سلماً أو حرباً، بل تحول الأمر بعد تشكل الطبقة الأرستقراطية المتميزة، وتغير المعيار، وتبدل أساليب القياس، وهو ما عبر عنه استطراد الآيات «أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، وهى الأحقية التى يأتى معيارها القياسى واضحاً فى الإلحاق التوضيحي «ولم يؤت سعة من المال».

نعم، ربما كان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد حاز قدراً من المال، توفر له بعد زواجه من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، لكن ذلك القدر من المال ما كان يسمح له - فى نظر الملأ ومعاييرهم - بما يدعو إليه، ولا يفى له بما يؤهله لدخول حكومة الملأ الأرستقراطية، فما بالنا وهم يتصورونه يسعى للإمساك بأعنة السلطة جميعاً بيديه؟ حيث المعيار لم يعد مجرد حصول فرد على بعض المال، حتى يذهب به الطموح - كما تصوروا - إلى الجموح، فالمؤهل المطلوب قد أصبح «سعة من المال».

ومن ثم؛ كانت قراءة الواقع تشير إلى سير التطور إلى نتائج المحتمة والضرورية، والتى ستشكل فى المستقبل المنظور، منظومة سياسية مركزية موحدة، تحت قيادة زعيم أوحده، ولم يكن ثمة توضيح يمكن تقديمه لمفاهيم الأرستقراطية القرشية، ولا للمسلمين الأوائل وهم مادة الدولة الطالعة، سوى إلقاء الحالى فى مرآة الماضى، لكن الآيات هنا - وهى تطابق واقع جزيرة العرب - تختلف عن رواية التوراة، وهى تطابق واقع فلسطين القديم، فبينما التوراة تحكى عن مطالبة الشعب الإسرائيلى نفسه للكهنة (صموئيل) بملك يوحدهم ويقود جيوشهم، فإن الآيات الكريمة تؤكد أن ذلك الملك جاء باصطفاء إلهى، وهو ما يستدعى على الفور اصطفاء المصطفى - عليه الصلاة والسلام - لكن لتفرض ذلك الملك على بنى إسرائيل - فى الآيات القرآنية - فرضاً بقرار

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، ط ٤، ١٩٨٨، بيروت، ج ٢، ص ١٨٧.

إلهى، وهو الأمر الذى يطابق واقع الحال المكى مع الدعوة الإسلامية، ويخالف ما جاء فى التوراة عن حال التاريخ الإسرائيلى القديم، ومن هنا؛ يتم تعشيق الماضى مع الحاضر فى المثال المضروب بقرار علوى: «إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء».

ضرب طريق الإيلاف

وبينما كان قمح يثرب يقطع عن مكة، وبينما سرايا المسلمين تجوب طريق الإيلاف التجارى لقطعه على مكة، وبينما الخبر عن قافلة أبى سفيان المسافرة إلى الشام، يطير إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى يثرب، كان الوحي يسترسل شارحاً لوضع الحاضر مقارناً بما حدث فى الماضى، ليحفز همم المسلمين، فيحكى لهم عن (شاؤول - طالوت)، بعد أن استقر له أمر الملك، وبدأ حملاته على مدن الساحل الفلسطينى، «فلما فصل طالوت بالجنود... قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده»، وجالوت هنا هو (جوليات) الزعيم الفلسطينى فى رواية التوراة، لكن رواية التوراة تختلف مرة أخرى، عن رواية القرآن الكريم حيث كان ائتلاف القبائل الإسرائيلية فى مملكة واحدة، تشكياً هائلاً وتجييشاً لعدد ضخم من المقاتلين، ومن ثم يكون تطابق الآيات ليس مع التاريخ التوراتى كما ترويه التوراة، لكن مع واقع المسلمين والمشركون، حيث المشركون هم الأكثرية، والمؤمنون هم الأقلية، لكن الحضور الإلهى إلى جانب الحق كان كفيلاً بحسم الموقف، فالآيات تستطرد «قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين» (٢٤٩ / البقرة).

واعمالاً لذلك، وحتى تتطابق الروايتان، ويتطابق الواقعان، ونبوة الحاضر المنتصر بإذن الله، بملك الماضى، يحكى (أبو أيوب الأنصارى) عندما خرجوا إلى بدر، فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا النبى - صلى الله عليه وسلم - بعدتنا، فسر بذلك وحمد الله، وقال: عدة أصحاب طالوت،^(٢).

وتحكى كتب السيرة أن النبى - عليه الصلاة والسلام - خرج يريد غير قريش المسافرة إلى الشام، ولما بلغ الموقع الذى تمت حسابات الوصول إليه من يثرب، تقاطعاً مع الحسابات المتوقعة لزمن وصول قافلة أبى سفيان إليه من مكة، وهو (العشيرة)، اكتشف المسلمون خطأ الحسابات،

(٢) البيهقى: سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٣٧.

فالحسابات كانت إنسانية صرف، تقبل خطأ الإنسان وصوابه، ووجدوا أبا سفيان قد سبقهم بعودة أيام، وعليه تحول الموقف إلى محاولة تعويض ما فات، بالعودة إلى يثرب، وترى موعداً لعودة القافلة، قافلة من الشام^(٣).

ولم يطل انتظار المتربين، فيخبرنا (ابن هشام) أن أمر القافلة قد بلغ مسامع النبي - عليه الصلاة والسلام -، ولما سمع النبي بأبي سفيان مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليه، وقال: هذه غير قریش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها... فاندب الناس، فخف بعضهم، وثقل بعضهم^(٤).

وكان الرد على تناقل بعض المسلمين عن الخروج إلى أموال قریش، عودة أخرى للقديم، تذكيراً، وتنبيهاً، وتحفيزاً، بذات المثل الإسرائيلي:

﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى

إذ قالوا لنبي لهم

ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾

(٢٤٦/ البقرة).

وهنا جماعة إسرائيل لا تعترض على اختيار الملك لعدم سعته من المال، بل هي تطلبه، فتتطابق هنا الروايتان القرآنية والتوراتية، لكن الحكمة تنزع الماضي من سياقه لرسم صورة الحاضر، وإتمام صياغة الرسالة، المطلوب من المسلمين إدراكها، وفهم دلالاتها:

﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال

ألا تقاتلوا

قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله﴾

(٢٤٦/ البقرة).

نعم، القتال في سبيل الله، وهو قتال - في التاريخ التوراتي القديم - لهزيمة سكان الساحل الفلسطيني، وهي الآيات التي تستدعي القديم لحاضر يثرب، تأجيجاً لنوازع نفسية في المهاجرين تحديداً، فتقول:

(٣) الحلي: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٤.

(٤) السهيلي: (السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٠.

﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله
وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾
(٢٤٦/ البقرة) .

إن التوراة لا تقول بخروج بنى إسرائيل من ديارهم وأبنائهم حينذاك، بل كانوا - حسب روايتها - مهاجمين لا مدافعين، محتلين وغاصبين، وهذه روايتها، وإثمها مردود عليها في المخالفة، لكن ما نعلمه يقيناً، أن الذين أخرجوا من ديارهم مهاجرين، وتركوا أبناءهم واللوعة من أهل مكة تعتمل في نفوسهم، هم المسلمون المهاجرون إلى يثرب، وبالطبع كان لابد أن تفعل تلك الآيات في نفوسهم فعلها وأثرها.

هيبه الملاء

يروى (الطبرى) خبر قافلة (أبى سفيان) فيقول:

وكان أبوسفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار... حتى أصاب
خبراً عن بعض الركبان، أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك...
فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتى قريشاً
يستنفروهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه،
فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة^(٥).

وهكذا حقب الأمر، وبدأت بدايات أقول الأمن القرشى على طريق الإيلاف الشامى، فالقافلة
الآمنة، المطمئنة بالإيلاف، تضطر - فى سابقة خطيرة - إلى استنفار أهل مكة، من أصحاب المال،
وبينما كانت الأحوال فى مكة على وتيرتها الرتيبة وهدوئها، وقبل وصول ضمضم الغفارى، ألفت
(عاتكة بنت عبد المطلب) عمه النبى، وسليلة البيت الهاشمى، بما حرك ذلك السكون الراكد
المطمئن، برواية عن رؤيا رأتها، حملها أخوها (العباس بن عبد المطلب) إلى مجلس الملاء، تقول
فيها:

والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى... رأيت راكباً أقبل على بعير له،
حتى وقتف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر

(٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٥١ .

لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله، مثل به بغيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بغيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها. ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار، إلا دخلتها منها فلقة.

وبلغت الرواية أبا الحكم بن هشام، وربما ذهب إلى تصور ترتيب بعينه بين عاتكة وابن أخيها في يثرب، وذلك في ضوء إيمان عرب زمانه بالرؤيا وذهابهم في تفسيرها للتنبؤى مذاهب وقراءات وعيافة وفألاً، ثم لا جدال أنه عندما تتحدث هاشمية عن قوم بأنهم (آل غدر)، فإنها تقصد لا شك البيت الأموي المعادي، فكان أن قام يخاطب (العباس) بشأن رؤيا شقيقته، قائلاً:

يا بنى عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبوة؟... أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم، حتى تنتبأ نساؤكم؟- أو أما رضيتم يا بنى هاشم بكذب الرجال، حتى جئتمونا بكذب النساء- قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فسنترى بكم هذه الثلاث، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتاباً، أنكم أكذب أهل بيت في العرب^(٦).

وبينما لم تكن تموجات رواية عاتكة قد سكنت بعد، على سطح الاستكانة القرشية المترفة الآمنة، وصل (ضمضم الغفاري) بعد الأيام الثلاثة وهو يصرخ ببطن الوادي، واقفاً على بغير له، وقد حول رحله، وشق قميصه، وهو يقول:

يا معشر قريش؛ اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها؟ الغوث، الغوث،^(٧).

وحدث بعدها ما جاء في رواية البيهقي «فتجهز الناس سراعاً، وقالوا: أيعظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك»^(٨).

(٦) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٠، انظر أيضاً: الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٦.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٧.

(٨) البيهقي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٢.

ثم يفيدنا أن (أبا سفيان) تمكن من النجاة بالقافلة، بسلوك درب آخر بقوله: «وخفض أبو سفيان فلقطع بساحل البحر، وخاف الرصد، وكتب إلى قريش حين خالف مسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورأى أنه أحرز ما معه، وأمرهم أن يرجعوا»^(٩). أو بتفصيل (الطبري): «إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجأها الله، فارجعوا»^(١٠).

لكن (أبا الحكم - أبا جهل) الذى أدرك - كواحد من رجال الملأ المقدمين - أن تهديد طريق الإيلاف، إنما يعنى تهاوى الهيبة القرشية، مما قد يدفع القبائل الأخرى إلى ذات المحاولة، وتهون قريش بين العريان، وتضيق المصالح والمكاسب، ثم ما يستتبع ذلك من فقد قريش لثقة الامبراطوريتين الرومانية والفارسية، فى القيام على شأن المواد الطلوبة فى مواقبتها، فى زمن حرب حرج، يكون فيه أى تأخير عاملاً مؤثراً وفاعلاً فى الانتصارات والهزائم، وهو ما قد يدفع إحدى الامبراطوريتين إلى ركوب مغامرة تأمين الطريق باحتلاله، وربما احتلال مكة ذاتها، وهو ما يمكن أن ينقل الصراع الامبراطورى إلى باطن الجزيرة، فما كان من أبى الحكم إلا أن نادى بعدم عودة الرجال إلى مكة، ودعاهم إلى استعراض هيبتهم أمام القبائل، باحتفال كبير، اختار له أحد أسواق العرب الكبرى، فى موقع وادى بدر، حيث الماء والخضرة، لإبلاغ العرب بدلالات الاحتفال، وأن قريشاً لم تزل قادرة على تأمين طريقها، وأنه لم يحدث شئ يعكر صفو الأمان السائد، ومن هنا قام ينادى:

والله لا نرجع حتى نرد بدرأ... فنقيم عليه ثلاثاً، وننحر الجزور، ونطعم
الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالوا
يهابوننا بعدها أبداً^(١١).

أو برواية أخرى:

والله لا نرجع حتى نقدم بدرأ، فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من
العرب، فإن لن يرانا أحد من العرب فيقاتلنا^(١٢).

وهكذا عاد الركب موجهاً نحو بدر ليقوم سمره الاحتفالى لليال ثلاث، وكانوا خمسين

(٩) نفسه: ص ١٠٨.

(١٠) الطبري: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٨.

(١١) الموضع نفسه.

(١٢) البيهقي: سبق ذكره، ص ١٠٨.

وتسعمائة، وقيل كانوا ألفاً، وقادوا مائة فرس.... معهم القيان... يضربن بالدفوف ويغنين،^(١٣).

ضعف الهيبة

وهناك أحداث صغيرة لا تخطئها العين المدققة، لعبت - بعد ذلك - دوراً في حسم الأحداث، ربما كان أولها بالملاحظة، هو قرار بنى زهرة الرجوع جميعاً إلى مكة، بعد أن تأكد لديهم سلامة القافلة ومرافقها، فلم يخرج إلى بدر زهرى واحداً^(١٤)، ومعلوم أن بنى زهرة هم أهل (آمنة بنت وهب) أخوال النبي - عليه الصلاة والسلام -.

والأمر الثانى، هو أن بنى هاشم عشيرة النبي، تشاقلوا عن الخروج، وجرت بينهم وبين الأمويين مجادلة، أرادوا معها الرجوع إلى مكة، «فاشدد عليهم أبو جهل بن هشام وقال: والله لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع»،^(١٥) ومن ثم كان طبيعياً أن تلتفت إليهم الرؤوس الأموية لتقول محذرة:

يا بنى هاشم؛

وإن خرجتم معنا، فإن هواكم مع محمد!!^(١٦).

ويضاف إلى ذلك أن بعض كبار الملأ، مثل (أمية بن خلف)، قرر القعود وعدم الخروج، وهو من تصفه كتب التراث الإسلامية بأنه «كان شيخاً جليلاً جسيماً وثقيلاً»،^(١٧) الذى أراد تجنب المشقة وهو فى هذا السن وذاك الجسم الثقيل، لولا أن أتاه (عقبة بن أبى معيط) وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى قومه، بمجرة فيها نار ومجمر، حتى وضعها بين يديه ثم قال:

يا أبا على استجمر، فإنما أنت من النساء، فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به، ثم تجهز فخرج مع الناس،^(١٨).

(١٣) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٩.

(١٤) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٨.

(١٥) البيهقى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٠٨.

(١٦) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٩.

(١٧) السهلبى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣١.

(١٨) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٧.

ثم أمر آخر يضاف لتلك الأحداث التي تبدو صغيرة هيبة، تظهر ضعف تلك الهيبة القرشية المزعومة، ومدى تردد قريش في الخروج - لمجرد الاحتفال - خشية أن يغشاهم بعض بنى كنانة وهم لاهون، لما كان بينهم وبين بنى بكر (بيت كنانى) من ثأر، ولم يحسم ذلك التردد سوى مجيء (سراقة بن مالك) أحد أشراف كنانة للركب المكى قائلاً: «أنا لكم جار من أن تأتیکم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه»، لكن الرؤية الراوية لتراثنا الإسلامى، تنزع ذلك عن شخص (سراقة) وتقول: إنه إبليس قد تلبس هيبة سراقة^(١٩). ولمزيد من الاطمئنان، خرج معهم (سراقة) ضيفاً على حفلهم، مع وعد بمجيء كنانة جميعاً إلى الحفل ضيوفاً وحلفاء، لكن ما حدث عند وقوع الواقعة، هو هرب (سراقة) من بين قريش عائداً إلى دياره، وهو ما لم يجد له أبو الحكم تفسيراً مقنعاً، سوى أنها كانت الحيلة والخديعة من بنى بكر، لاستدراج قريش إلى بدر، فى ضوء الخلاف الثأرى مع ذلك البيت الكنانى، وهو ما عبر عنه لسانه وهو يقول:

يا معشر الناس؛ لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك،
فإنه كان على ميعاد مع محمد^(٢٠).

ومثل تلك الأحداث التي أوردتها كتب التراث على سرعة وعجالة، تفصح عن عدد قريش بعد انحزال بنى زهرة عنها بثلاث الناس، وعن ذلك الاحتفال المهيّب، الذى كان يحمل داخل مهابته ضعفاً وخوفاً، ثم عدم تجانس الفريق المكى، والذى سببه إصرار أبى الحكم على اصطحاب الهاشميين، ليتشفى فيهم لفشل ولدهم فى الاستيلاء على قافلة أبى سفيان، وربما لو علم بما غيبتة له الأيام المقبلة، لتركهم بمكة غير آسف. هذا إضافة للتناقض الواضح الذى ألم بالركب بأكمله، والذى كان لا يجد فى ذلك الخروج إلا عبثاً فى برد يناير وقارس شتائه، وهو ما يشير إليه عزم كبار الملأ على القعود، ثم الخوف القرشى من بيت كنانى واحد، لولا إجارة سراقة، أو إبليس، مما يرسم صورة واضحة للحال المتشردم المتردد، غير المتجانس أو المؤتلف، للركب المكى.

ويبدو أن ثمة أخباراً غير قاطعة، قد وصلت الركب المكى، عن تحرك المسلمين نحو بدر، مما حول أملهم فى سمر طروب، إلى فزع بدد فرحهم، وكانت العودة مستحيلة، بل وكارثة لتلك الهيبة المزعومة، وعندما مر الركب على مضارب (غفار) أرسل لهم زعيم غفار ولده بجزائر أهداها لهم طعاماً، مع رسالة تقول: «إن أحببت أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا، فأرسلوا إليه مع ابنه:

(١٩) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٢.

(٢٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٣.

إن وصلتك رحم، قد قضيت الذى عليك، فلعمرى لئن كنا نقاتل الناس،
فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فما
لأحد بالله من طاقة (٢١).

هذا بينما كان (جهيم بن الصلت) سليل عبد المطلب الهاشمى، يروى لهم وهم ينيخون بالجحفة
رؤيا جديدة، فيقول: «إنى رأيت فيما يرى النائم... إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس، حتى
وقف مع بعير له، ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمّية بن
خلف، وفلان، وفلان، فما كان من (أبى الحكم) إلا أن قام يخفف عن الناس الأثر النفسى
للرواية، فى وسط عربى ثقافى عادة ما كان يصدق الرؤيا، بقوله الساخر المتحدى:

وهذا نبى آخر من بنى عبد المطلب، سيعلم غداً

من المقتول إن نحن التقينا (٢٢).

وما كان تعبير أبى الحكم «إن نحن التقينا، إلا شكاً فى الأخبار التى وصلت عن النبى وأصحابه،
وعدم يقين بوقوع الواقعة المرتقبة.

(٢١) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٦.

(٢٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى والشعائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت،
١٩٨٠، ج ١، ص ٣٠١.

مشورة الأنصار

«اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم، لا
تعبد بعد في الأرض أبداً» .

[النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -]

حروب دولة الرسول

جزء أول

بقيادة النبي - عليه الصلاة والسلام - خرج المسلمون لضرب الأرسقراطية المكية اقتصادياً، بقطع طريق الإيلاف الشامى، على كبرى القوافل القافلة من الشام إلى مكة بقيادة أبى سفيان، والتي أسهم فيها البيت الأموى بما ينوف على الأربعة أخماس.

وحتى وصول المسلمين إلى (الصفراء)، لم يكن النبي قد علم بعد أياً من أخبار القافلة، سوى إجراء حسابات تنبؤية لموعدها عودتها من الشام، قياساً على موعد مغادرتها مكة، لهذا، وبالتصرف البشرى والممكنات الإنسانية، أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (بسبس بن عمرو الجهنى) ومعه (عدى بن أبى الزغباء الجهنى)، لتحسسان له الأخبار ويتسقطان الأنباء عن قافلة أبى سفيان فأتاه الخبر أن أبى سفيان قد علم بدوره بخروج النبي وأصحابه إليه، وأنه أرسل إلى قريش يستنفرها أموالها^(١).

وكان الموقف الجديد دقيقاً، يحتاج إلى حكمة فى المعالجة، فقد تحول الأمر، عن مواجهة ثلاثين فرداً يحرسون القافلة، إلى مواجهة عدد غفير من أهل مكة، خرجوا ليمنعوا أموالهم من النهب، وربما كان موقف المهاجرين محسوماً، بما يتأجج فى صدورهم من ذكرى الهوان فى مكة، وخروجهم من ديارهم وأبنائهم إلى يثرب، إلا أن وضع الأنصار كان يقتصر حتى الآن على حسن الضيافة، وصدق الإيمان، بينما الموقف الجديد يحتاج - ليس فقط - إلى عدد كبير من الرجال، بل وإلى قدر كبير من الفدائية، بينما الأنصار - فيما يروى ابن هشام - عندما بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه آبائنا ونساءنا، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره، إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو يبعد من بلادهم^(٢).

وهنا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«أشيروا على أيها الناس...»

فلما قال ذلك، قال له سعد بن معاذ: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: لقد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموائيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت

(١) السهيلي: فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سوق ذكره، مج ٢، ص ٣٣.

(٢) الموضع نفسه.

بنا هذا البحر فخصته لخصنا معك... فسر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال:

سيروا وأبشروا، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين - إما العير وإما قريش -
والله، لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم^(٣).

وهكذا، تحول اتفاق الأنصار مع النبي في العقبة الثانية إلى غايته المضمرة، وأدرك الأنصار أنه قد آن أوان الإفصاح عن كامل بنود ذلك الحلف، التي وعوها مبكراً في قولهم للنبي آنذاك: «إن شئت للميلن غداً على أهل منى بأسيا فدا، فأجل النبي الإمالة بالسيف إلى فيما بعد، وقد جاء أوان الما بعد، الذي طور البنود المعلنة، من ميثاق دفاعي لتسفر عن البند المرجأ الذي يجعل الميثاق حلفاً هجومياً محارباً، فتحولت عناصر الجماعة الإسلامية كلها، مهاجرين وأنصار، إلى دولة محاربة هجومية، دولة عسكر ومغانم متكاملة مقاتلة، كالقبيلة تماماً، وبذات منطقها، لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة ممثلة في رجال الحرب والدم والحليقة، الذين تحولوا عن الإجارة إلى الإغارة.

وهنا نقطة التحول المادية الخطيرة، التي لعبت دوراً عظيماً في جذب الأتباع من مستضعفي القبائل ومحاربيهم، بعد أن ظل النبي في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو دون إجابة العدد الكافي من المستضعفين إلى دعوته، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة والرفاه إلى الآجل في رغد جنة الخلد، وهو ما ظهر كما لو كان تأجيلاً ميتافيزيقياً لحل قضيتهم، وإرجاء رفع الشقاء المادي عن حياتهم الآنية، في مجتمع تجارى مادي بحت، ولهذا عندما تم الإعلان عن مغانم أحلها الله لرسوله والمؤمنين من أموال المشركين، أصبح الحل حقيقة مادية دنيوية ملموسة، ومكاسب عينية ماثلة أمام المستضعفين، تدعوهم إلى دخول جيش الدولة الجديدة، وهو الهدف الذي سيفصح عن نفسه عملياً في المكاسب التي ستحققها الغزوة البدرية لجماعة المسلمين، لتحول حالهم الشظف إلى حال آخر، وفي تحالف القبائل المحيطة بالمدينة مع القوة الإسلامية.

خطة المعركة

مع التجوال المتأنى بين دفتى كتابات السير والأخبار الإسلامية، يجد القارئ، نفسه مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إزاء قائد عسكري يبدأ بضمان ولاء رجاله، ثم يخطط للمعركة، فيرسل

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

العيون لتأخذ له بالأخبار عن عدوه، فيعلم يتمكن القافلة من الهرب، ويخرج قريش إلى بدر لتحفل بنجاة تجارتها، ونشر مهابتها بين العرب، وأن العير وإن ذهبت فقد جاءت قريش، وهي إحدى الطائفتين الموعودتين، فيخرج القائد برجاله من موضع إلى آخر مسرعاً، يختصر طرقاً ويضرب في أخرى^(٤)، عامداً إلى التخفي وستر أمر مسيره وعدم إفشاء خطوه، فيأمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل^(٥)، والسير الصامت.

ثم يقسم النبي - صلى الله عليه وسلم - رجاله إلى ألوية، لكل لواء رايته التي يعرفه بها أصحابه، فيحمل لواء المهاجرين (على بن أبي طالب)، ويحمل لواء الخزرج (الحباب بن المنذر)، بينما يحمل لواء الأوس (سعد بن معاذ)^(٦)، ويجعل لرجالهم شعارات شفرية يعرفون بها بعضهم بعضاً، وهم تحت الدروع والخوذ، فكان شعار الخزرج: يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبيد الله، وشعار المهاجرين: يا بني عبد الرحمن، أما شعار الجميع فهو: يا منصور أمت، أما الخيل جميعاً فكانت خيل الله^(٧).

وعند التعبئة تقرر أن يحارب المسلمون بنظام الصفوف المتحركة، من (النبالة) حملة النبال، و(السيافة) حملة السيوف.. إلخ، وفي ذلك يقول ابن كثير: «وقد صف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه، وعبأهم أحسن تعبئة... وعن أبي أيوب يقول: صفنا رسول الله يوم بدر، فبدرت منى بادرة أمام الصف، فنظر إليهم وقال: معي معي... وكان في يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية... وهو مستنقل (متقدم) من الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال: استويا سواد»^(٨).

ولم يترك القائد شيئاً للصدفة، فأى خطأ - مع الفارق العددي - يمكن أن يؤدي إلى كارثة، ومن ثم، وقبل أن يصل بدرأ، أمر رجاله فتوقفوا صامتين، ثم ركب ومعه أبو بكر ليستقط بنفسه أخبار عدوه..

حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، ما بلغه عنهم. فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني

(٤) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٤.

(٥) الحلي: السيرة، مج ٢، ص ٣٨٣.

(٦) نفسه: ص ٣٨٢.

(٧) البيهقي: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٧٠.

(٨) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧٠.

ممن أنتما؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال أذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإذا كان الذي أخبرني صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، المكان الذي به رجال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟

فقال رسول الله - عليه الصلاة والسلام -: نحن من ماء.

وفى (الإمتاع) أنه قال: نحن من ماء وأشار بيده إلى العراق، ثم يتفق رواية السيرة على رد الشيخ المندهش على نفسه - وهو يغمغم - «ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟» (٩).

وينزعج (الحلبى) راوى السيرة من رد النبى - صلى الله عليه وسلم - ولا يدرك الحذر المفترض فى قائد عسكري مقبل على معركة، ولا يرى فى ذلك القائد سوى الجانب النبوى المتعالى، وأن للنبوة صفات تتناقض مع رد الرسول على الأعرابى، فيقول فى تساؤل استنكارى، أو فى استنكار متسائل:

وقد تقدم فى أوائل الهجرة، أنه لا ينبغي لنبى أن يكذب، ولو صورة، ومنه التورية.

ومن ثم يبحث الحلبى عما يطمئن قلبه، فيكشف أنه لا بأس من كذب النبى، ليس لضرورات يقتضيها الظروف الموضوعى، ولكن لأنه وجد فى كلام القاضى البيضاوى حديثاً عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أن النبى إبراهيم سبق وكذب ثلاث كذبات (١٠)، ويقصد الحلبى هنا الحديث: «كذب إبراهيم ثلاث كذبات كلها فى الله، قوله: إني سقيم وقوله: فعله كبيرهم هذا، وقوله للرجل الذى عرض لسارة: إنها أختى، وهنا يطمئن الحلبى ويكتفى بذلك تبريراً لنفسه وتطميناً لها، إزاء رد قول النبى للشيخ الأعرابى، ولم ير إطلاقاً فى ذلك الرد، غرضاً عسكرياً وحذراً مباحاً، يصرف البدوى عن معرفة قائد المسلمين، ويشككه فى معلوماته عن موقع الجيش الإسلامى، ويصرفه عن تقصى أمرهم، احتياطاً لسرية وأمان مسيره.

(٩) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٢٤، انظر أيضاً: ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٣، والحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٢٨٧.

(١٠) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٢٨٧.

ولمزيد من القصص، وتدقيق المعلومات عن العدو، وأحواله، وعدد رجاله، وعدته، يعود القائد لإرسال على بن أبي طالب، والزيير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، مع نفر آخر من المسلمين يلتصقون له الخبر، بتعبير ابن كثير، فيصيبوا غلامين من عبيد قريش كانوا قد تطرفا عن ركبها، ويبدأ الحوار بين النبي - عليه الصلاة والسلام - وبين الغلامين:

قال: أخبراني عن قريش.

قالا: وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

قال: كم القوم؟ وما عدتهم؟

قالا: لا ندري.

قال: كم ينحرون كل يوم؟

قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً.

قال: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف، فمن فيهما من أشرف قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم ابن خزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمّية ابن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبدود.

فأقبل الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الناس فقال:

هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها^(١٢).

وهو التعبير الأمثل عن القوم الواردة أسماؤهم، فهم من قريش القلب والرؤوس والأشراف والسادات، وهم الملأ والأرستقراطية.

ويرتحل المسلمون إلى (عرق الظبية)، وهناك «لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس، فلم يجدوا عنده خبراً، فقال له الناس: سلم على رسول الله، قال:

- أو فيكم رسول الله؟

قالوا: نعم.

(١١) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٤.

(١٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٩٩، ٣٠٠.

قال: لئن كنت رسول الله، فأخبرني عما في بطن ناقتي تلك؟
فقال له سلمة بن سلامة: لا تسأل رسول الله، وأقبل عليّ فأنا أخبرك
عن ذلك، نزوت عليها ففي بطنها منك سخلة.
فقال رسول الله: مه، أفحشت على الرجل (١٣).

هكذا كان القائد الإنسان، يخطط كما يخطط البشر، ويتقصى الأخبار كما يتقصى البشر، ويرسل الجواسيس والعيون ليأخذ الأخبار عن عدوه، ثم وهو بسبيل ذلك يتعرض لسخرية بدوى أحرق يؤذيه بقارص الكلم، فلا يرد عليه الإيذاء بإيذاء، إنما يلوم صاحبه على فحش قوله للرجل، تحوطاً لخبر قد يحمله البدوى المرتحل لأعدائه، أما السماء، فكانت أمراً أكثر منها خبراً، حيث كان الوحى يتحول بالأمر من الصبر الجميل، والدفاع الهادئ، إلى الهجوم والقتال بعد أن أتى الله بأمره:

«يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون» (٦٥ / الأنفال) ... عن عبد الله بن عباس قال: لما نزلت هذه الآية اشتد على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عليهم، فنسخها بالآية الأخرى: «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين» (٦٦ / الأنفال) (١٤).

ولو أخذنا الأمر بظاهره، لكان المعنى أن الله جل وعلا لم يكن يعلم بضعف المسلمين، ثم علمه متأخراً (الآن ... علم أن فيكم ضعفاً)، وحاشا لله أن يقصر علمه عما يليق بكماله، ومن ثم لا يكون هناك معنى لنسخ الآية الأولى بالثانية، سوى تفاعل الوحى الكريم مع ظرف الواقع، حيث تتناسب الآية الأولى مع خبر أول بعدد أفراد قريش، وهو ما كان يعادل عشرة إلى واحد بالنسبة إلى عدد المسلمين، بينما تتناسب الآية الثانية مع الخبر التالى الذى جاء يحمل نسبة أخرى هي اثنتين إلى واحد، وهو ما يطابق العدد المقبول لقريش بالنسبة لعدد المسلمين، بعد انحزال بنو زهرة عنها بثلث الناس، وكذب سراقة بن مالك أو إبليس بشأن مجيء كنانة مع

(١٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٠.

(١٤) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٧٧.

قريش، فكان النسخ، وجاء صدق الوحى مطابقاً للواقع، وإعلاماً للمسلمين المحاربين بعدد عدوهم النهائي.

وإعمالاً لكل ما تم الحصول عليه من معلومات استخبارية، تقرر أن يسبق المسلمون قريشاً إلى بدر، فيروى ابن كثير:

فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبادرهم إلى الماء، حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به... فذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح - محارب أنصارى - قال: يا رسول الله؛ أرايت هذا المنزل؛ أم نزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، قال يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فامض حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً ونملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: لقد أشرت بالرأى^(١٥).

وهنا يأتى خبر السماء مصدقاً على الخطة البشرية ومشورة الأنصار، ورجلهم المقاتل (الحباب) المشهود له بالدربة والحنكة والخبرة القتالية، فيأتى جبريل إلى أخيه المصطفى - عليهما السلام - ليقول:

يا محمد؛

ريك يقرأ عليك السلام، ويقول لك:

إن الرأى ما أشار به الحباب^(١٦).

والرواية هنا بحاجة إلى بعض التدبر، فإذا كان المسلمون سيبنون حوضاً، حتى يتوفر لهم ماء الشرب، ويغورون بقية الآبار حتى لا تشرب قريش، فلا جدال هنا أن الآبار التى غورت، هى تلك - المفترض أن تكون واقعة - على مسافة متناثرة بين المسلمين وبين الجهة التى ستصل إليها قريش، ويكون تعبير (أدنى ماء) هنا بحاجة إلى إعادة فهم، فالإشارة الأولى عن نزول النبى - صلى الله عليه وسلم - ستعنى بذلك أدنى أى أقرب بئر إلى مدخل الوادى حيث ستصل قريش، وبقية الآبار تكون خلف المسلمين، أما (أدنى ماء من القوم) فى مشورة الحباب، فهى آخر بئر إلى

(١٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٦.

(١٦) الموضع نفسه.

الخلف، بعيداً عن موقع قريش المفترض، مع تغوير بقية الآبار التي ستقع بين المسلمين وبين قريش، ولا شك أن التباس (أدنى ماء) في المرتين اللتين وردتا بالرواية، هو ما دعا (الحلي) كثير التساؤل ليقف محاولاً الفهم متسائلاً:

إن ذلك القليب إذا كان وراء ظهورهم وسائر القلب خلفه (وهو ما يفهم من: أدنى ماء) فما المعنى في تغويرها؟ إنها إذا لم تغور يشربون ويشرب القوم - قريش -،^(١٧)

وهو التساؤل المشروع عقلاً، والذي يجب أن يكون كما انتهينا إليه، إلى فهم مؤداه أنهم بنصيحة (الحباب) نزلوا أبعد بئر عن القوم، وغوروا ما هو في الطريق بين الجيشين، وبذلك يتم المقصود، فتصل قريش عطشى ولا تجد ماء، إلا ما هو وراء المسلمين وفي حراستهم، أو في حوزتهم الذي منه يشربون وحدهم.

موقع الفريقين

وحتى نتمكن من وضع تصور لخريطة المواقع في بدر، وموقع كل من الطرفين فيها، نقف مع القائد وموقعه بين أتباعه المسلمين، وهو ما أوضحه قول سعد بن معاذ له:

يا نبي الله؛ ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عنك ركائبك، حتى نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا... فأثنى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيراً، ودعا له بخير، ثم بنى للرسول عريشاً كان فيه^(١٨).

وتتفق كل كتب السير على موقع ذلك العريش، بأنه كان «فوق تل مشرف على المعركة»^(١٩)، ويعد بناء العريش، دخل إليه النبي ومعه أبو بكر، واتفق على أن تحيطه حراسة من الأنصار بقيادة سعد بن معاذ.

(١٧) للحلي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٤.

(١٨) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٦.

(١٩) للحلي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٤.

خوفاً عليه من أن يدهمه العدو من المشركين، والجنائب النجائب مهياة
لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن احتاج ركبها ورجع إلى المدينة (٢٠).

ومرة أخرى وليست أخيرة، نجد الإعداد الجيد، والتخطيط البشرى، والحرص على حماية
صاحب الدعوة والحفاظ على حياته، بإيقاف الحراس عليه فى تل بعيد عن متناول المشركين،
تحت حراسة مسلحة من رجال الحرب اليثارية، وركائبه معدة للعودة السريعة إلى يثرب إن
حدثت الهزيمة، هذا رغم حراسة السماء، لحبيبها ورغم الوعد الإلهى بالمدد العلوى من مقاتلى
الملائكة المقدمين.

وقد جاء الوعد بالملائكة، دافعاً لمزيد من الطمأنينة لصحابة الرسول الأمين، ومدعاة لهدوئهم
النفسى والبصبرى، وإخلاصهم للنوم فى ظل تلك الحراسة السماوية، لأخذ قسط مناسب من الراحة،
انتظاراً لوصول قريش فى الغد عطشى مجهدة متعبة، وهو ما وعته كتب الأخبار والسير، وساقته
على عجالة تقول:

ويشرهم النبى - صلى الله عليه وسلم - بنزول الملائكة، فحصل لهم
الطمأنينة والسكون، وقد حصل لهم النعاس الذى هو دليل الطمأنينة (٢١).

وفى ذلك المناخ الشتوى، زخت السماء المنطقة بمطرها، وهو ما جاء فى قولة الإمام على -
رضى الله عنه -: «أصابنا فى الليل طس من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف، نستظل تحتها
من المطر» (٢٢)، فى اللحظة التى كانت قريش فيها بالعدوة القصوى من الوادى، بينما كان
المسلمون فى العدو الدنيا من بطن التل (٢٣)، وهو ما يحدد لنا المواقع بدقة، فالمسلمون
يعسكرون فوق التل، انتظاراً لمقدم قريش من مدخل الوادى فى الأسافل، وهو ما يدعمه قول
(البیهقى) عن ذلك المطر الليلى:

وأرسل الله السماء، وكان الوادى دهساً فأصاب رسول الله وأصحابه، ما
لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من السير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدرُوا أن
يرتحلوا معه (٢٤).

(٢٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧١.

(٢١) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٣٩٢.

(٢٢) الموضع نفسه.

(٢٣) البیهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٤، ٣٥.

(٢٤) نفسه: ص ٣٥.

وهكذا كان نزول المطر مساعداً على حركة المسلمين فوق التل، عسر المسير ومشقة في الوادى الموحل، وهو ما يتفق مع حال نزول المطر في منطقة بها مرتفع يليه واد، حيث لا يثبت الماء على المرتفع، إنما ينزلق إلى المنحدرات، فيترك التلال رطبة يابسة متماسكة، ويحول الوادى إلى مستنقعات موحلة، لذلك أكد (مجاهد) أن في أعلى التل «أنزل عليهم المطر، فأطفأ به الغبار، وتلبدت الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم»^(٢٥)، أما الفصيل في هذا الأمر، فهو تقرير الوحي الصادق لخريطة المعركة زماناً ومكاناً، في قول الآيات:

﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ (٤٢ / الأنفال).

ومن ثم فلا مجال هنا لمجادل، يكابر في أن موقع المسلمين في الأعلى، وهبوطهم مع بدء المعركة على من هم في الأسفل، كان عاملاً هاماً من عوامل حسم المعركة، وتحديد نتائجها. وعند الصباح، عدل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صفوف رجاله، وألويهم، ثم دخل عريشه يناجى ربه:

اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم، لا تعبد بعد في الأرض أبداً^(٢٦).

ثم عاد فخرج إلى رجاله يحرضهم على القتال منادياً:

والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صائراً محتسباً إلا دخل الجنة..

فقال عوف بن الحارث: يا رسول الله؛ ما يضحك الرب من عبده، قال: غمسة يده في العدو حاسراً^(٢٧).

أما الجزاء الدنيوى لمن سيبقى حياً، فهو ما جاء في نداء آخر، يمنح المقاتلين ما يحصلون عليه من غنائم، ومن فداء أسراهم: من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فهو له^(٢٨).

(٢٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٦.

(٢٦) نفسه: ص ٢٧٤.

(٢٧) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٩.

(٢٨) الحلي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٣.

وفى تلك الهدييات الفاصلة فى تاريخ الحجاز، بل وفى تاريخ الدنيا، كانت طلائع قريش تهل
منحدرة من كثيب العقنقل نحو الوادى، ومن موقعه فوق التل وقف النبى يطالع ذرافاتهم
وطبولهم تهبط الوادى من بعيد، وهو يقول:

اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسوك،
اللهم فنصرك الذى وعدتنى.. (٢٩)

وهكذا، جاء المأ إلى موعدهم، وأفلاذ كبد مكة إلى قدرهم.

(٢٩) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٦.

أحداث في بدر الكبرى

«بئس ما أبدأ به إسلامي، أن أخون
أمانتي،

[أبو العاص بن الربيع]

حروب دولة الرسول

جزء أول

بينما كان المسلمون على تل مطل على وادى بدر يترقبون، أقبلت قريش من كذيب العقنقل نحو الوادى، لتحقتل بنجاة أموالها، وتنتشر مهابتها، حفاظاً على أمن طريق الإيلاف، وإرهاباً لمن يحاول قطعه من عريان، ويحكى الحلبي فى سيرته عن الأمين المأمون إنسان العيون - صلى الله عليه وسلم - لحظة وصول قريش إلى الوادى يفترشونه، وأمامهم القيان تغنى وتضرب الدفوف، ولما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد... فذهب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئاً، ثم رجع إليهم وقال: ما رأيتم شيئاً. ---

واطمأن القوم، وركنوا إلى تكذيب ما وصلهم من خبر عن أصحاب محمد، واستعدوا لسمهم الاحتفالى، بينما كان المسلمون خلف سواتر التل، ولمزيد من الاطمئنان عاد الجمحى واستجال بفرسه مرة أخرى، فلمح الرجال تحت الخوذ خلف السواتر فرجع يصرخ:

رأيت يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون؟ يطمظون تلمظ الأفاعى، لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهلهم؟ زرق العيون كأنهم الحصى تحت الجحف، والله ما أرى أن تقتل رجلاً منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟^(١).

إنه إذن الكمين، وصدق الخبر، وإنها لوقعة، وإنها لمصرعة، لقد كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يريد غيرهم وتجاريتهم، لحصار مكة اقتصادياً، وضرب إيلافها، فإذا به يريدهم هم أصحاب المال ورؤوس الأشراف والسادة، بعد أن وصلوا بدرأ عطشى متعبين، دون قيادة موحدة، ومن غير تجانس، فجاءوا معهم بالهاشميين إلى جانب الأمويين، ليجدوا الآبار قد غورت، مما كان مدعاة أخرى لطلب حكمة غير حكمة أبى الحكم، التى طوحت بهم إلى ذلك الشرك، بينما نداء الجمحى يشير إلى قوم يتربصون الثأر من السادة، بعد اضطهاد وهجرة، يطمظون تحت الخوذ كالأفاعى، لا تظهر منهم غير العيون والألسنة اللاهثة، المتلهفة على الانقضاض.

الحكمة والتهور

ومن ثم؛ كان إعمال العقل والتروى، والبحث عن رأى سديد، للخروج من الفخ بأقل قدر من الخسارة، فكانت حكمة (حكيم بن حزام) الذى جاء (عتبة بن ربيعة) أحد كبار أشراف مكة وسادة

(١) الحلبي: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٥

الملأ المقدمين، وكان عتبة رجلاً جليلاً عجوزاً ثقيلاً، ليقول له:

يا أبا الوليد؛ إنك كبير قریش وسيدهما، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر... هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس^(٢).

وهكذا سجلت عبارة حكيم لقریش مرة أخرى حبها للسلام، وسعيها للأمن، ذلك الحب والسعى الذي فرضه عليها تكرينها للنفس، وفرضه على نفسها تكرينها للاقتصاد والاجتماعي، وحرصها على مصالحها، ومن ثم كان من يسعى إلى الحفاظ على تلك المكاسب، بتحقيق السلم، يظل مذكوراً في شرعها بالحكمة والسداد والشرف إلى آخر الدهر، ومن هنا قام (عتبة بن ربيعة) عاملاً بحكمة (حكيم بن حزام)، يخطب في أصحابه:

يا معشر قریش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموهيم لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا، وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفتكم ولم تعرضوا منه ما يريد^(٣).

هكذا كان حال قریش، وتلك كانت دعوتها وحكمة حكمائها، بينما على الجانب الآخر وراء السواتر وفوق التل، كان صوت المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يجلجل في أصحابه، حتى لا يتركوا فرصة قد لا وجود بها الزمان مرة أخرى للقضاء على رؤوس الشرك:

- والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، إلا أدخله الله الجنة.

- وهذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها.

- وأن ما يضحك الرب من عبده غمسة يده في العدو حاسراً.

- ومن قتل قتيلاً فله سلبه.

- ومن أسر أسيراً فهو له.

- ويا منصور أمت.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ١٩٨٨، ج ٣، ص ٢٧٠.

(٣) السهيلي: (في تفسير السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٧.

وفى الوادى، ذهب (حكيم) بداء (عتبة) إلى (أبى الحكم)، فكان رده غير الحكيم:

انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، لكنه رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه، فتخوفكم عليه^(٤).

وكان أبو الحكم يقصد (أبا حذيفة بن عتبة)، وهو مهاجر مع أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد أن فرقت الأممية الجديدة بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، فى ولاء جديد، وإيمان جديد، ويكفى مثلاً لذلك أن نعلم أن (أم أبان بنت عتبة بن ربيعة)، كان لها أربعة إخوة وعمان، كل منهم حضر بدرأ، اثنان من إخوتها مسلمان، واثنان مشركان، وواحد من عميها مسلم، والآخر كافر^(٥).

وفى شروح السيرة، نعلم أن عبارة (أبى الحكم) بشأن (عتبة): انتفخ والله سحره، يقال للجبان^(٦)، وكان الرد الطبيعى من الشيخ الجليل على من اتهمه بالجبن «سيعلم مصفر إسته من انتفخ سحره، أنا أم هو»^(٧)، ومصفر إسته هو من يصبغ مؤخرته بالحناء، طلباً للرجال، وقد قصد المبالغة فى الذم^(٨)، ومن ثم «رماه بالأبنة، بأنه كان يزعر إسته»^(٩).

وقبل الرجل الحكيم أن يرمى بالجبن حقناً للدماء، وحرصاً على المصالح القرشية، واستمر ينادى:

يا قوم؛ إنى أرى أقواماً مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم اعصبوها برأسى وقولوا: جبن عتبة، وقد تعلمون أنى لست بأجبنكم^(١٠).

فكان أن قام أبو الحكم يقول: «والله لو غيرك قال هذا لأعضضته»^(١١)، وهو تعبير مخفف، تحاشى فيه (أبو الحكم) الفحش فى القول، لرجل فى سن (عتبة)، وهو ما تفسره كتبنا الإخبارية

(٤) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٥) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٣٩٨.

(٦) نفسه: ص ٩٧.

(٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧٠.

(٨) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٣٩٨.

(٩) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٦٣.

(١٠) الموضع نفسه.

(١١) الموضع نفسه.

بأن معناه الصريح «أععض على بظر أمك»^(١٢)، أو هو عض في موضع آخر «أععض بإير أبيك»^(١٣).

والحوار أعلاه يكشف بصورة واضحة حال الملأ القرشي من سادة الأشراف، وخلافاتهم الخطيرة حول مصير نظامهم، بل مصيرهم هم، واتهام بعضهم لبعض بالجبن، وتبخيس بعضهم بعضاً بفاحش القول، وتفرق كلمتهم بين بطون وولاءات متعددة لسادة متنافرين، هذا بينما تابع (أبو الحكم) الإفصاح عما ب صدره، وعن رأيه في الدعوة التي فرقّت الأرحام والعشيرة، في قوله: «اللهم أقطعنا الرحم، وآتانا بما لا نعرف، فاحنه الغداة»^(١٤). هذا مع تصوّره غير الحكيم، وغير الصادق مع الظروف والمتغيرات الجديدة، محتسباً أنه وقومه على الحق وعلى الإيمان الصحيح بالله، وهو ما يبدو ظاهراً في ندائه السماء:

اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم^(١٥).

اللهم انصر أفضل الدينين عندك، وأرضاهما لك.

اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، وأفضل الدينين^(١٦).

وهو الدعاء الذي يعبر عنده، عن كون قريش هم أهل الله، كما نعتهم العرب، لأنهم حماة بيته ورياسة حرمانه، وهو الاعتقاد الذي دفع قريشاً وهي في طريقها إلى بدر أن تأتي في رحلها بأكثر الرايات قدسية؛ أستار الكعبة!!

الوقعة

ولما أخذ العطش بالخلق، خرج (الأسود بن عبد الأسد المخزومي) يركض مصعداً نحو حوض المسلمين لا يلوى على شيء، مقسماً «أعاهد الله لأشرب من حوضهم أو لأهدمته، أو لأموت دونه، فخرج له حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه

(١٢) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٧.

(١٣) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٣.

(١٤) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٩٣.

(١٥) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٧٥.

(١٦) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٨.

وهو دون الحوض، ووقع على ظهره تشخب رجله دماً... ثم حبا إلى الحوض حتى اقتبح فيه،
واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض،^(١٧).

وزاهلة وقفت قريش، التي تحول حفلها من دفوف وقيان وخمر وسمر، إلى حرب ودم، فأراد
(عتبة) بذات الحكمة، أن يسلك سلوك العرب، فيدعو إلى مبارزة تنهى الأمر عند حد، وتوقف
نهر الدم الموشك على التدفق، بهزيمة أحد الطرفين في مبارزة عادلة، تنتهي بانسحاب المهزوم
واعترافه بالهزيمة، فيروى ابن هشام «خرج عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبه بن ربيعة، وابنه
الوليد بن شيبه، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة،
وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث... وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من
الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديتهم؛ يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا.

وبهذا النداء كانت قريشاً لا تزال تحسب العواقب وتتحاشى مخاطرها، لأن مبارزة بعض
أهلهم، أمر يمكن بعد ذلك علاجه بين الأهل وبعضهم، أما مبارزة الأنصار، فهي ثأر باق بين
مدينتين، لا يعلم إلا الله منتهاه، وهو ما قد يقضى تماماً على طريق الإيلاف المار قرب يثرب،
واستجاب النبي الكريم لرغبة قريش فقال: «قم يا عبدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي،
فلما قاموا دنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ قال عبدة: عبدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي،
قالوا: نعم أكفأ كرام، فبارز عبدة وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبه بن ربيعة،
وبارز علي الوليد بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل شيبه أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن
قتله،^(١٨).

وعقب ابن اسحق وابن كثير على التساؤل القرشي «من أنتم؟»، بأنه «دليل على أنهم كانوا
ملبسين لا يعرفون من السلاح،^(١٩)، بالخوذ الحديدية، التي تخفى بداخلها الرؤوس، والدروع التي
تغطي الأجساد.

أما الشيخ ثقليل الجسم كبير السن (عتبة بن ربيعة) فقد صمد لعبيدة، وأصاب كل منهما الآخر
بضربة أثبتته، فما كان من (حمزة) و(علي) إلا أن كسرا قواعد المبارزة وشروطها، ونزلا على
الشيخ العجوز بالأسياف فأجهزا عليه، ثم احتملا زميلهما (عبدة) بسرعة، إلى صفوف أصحابهم.
وهكذا قتل المسلمون صناديد قريش، أما كسر قواعد المبارزة فقد حكى عنه بعد ذلك (علي بن

(١٧) الطبري: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٥٥.

(١٨) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٨.

(١٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧٢.

أبى طالب) كرم الله وجهه، لرفع صفة المعابة عنه، حيث تغيرت القواعد بتغير المعيار، وبقيت قاعدة واحدة هي معيار كل المعايير، وهي الفيصل والفصل، معلقة برأى النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، فقال (على): «أعنت أنا وحمزة عبيدة بن الحارث على أبى الوليد، فلم يعب النبي علينا ذلك»، (٢٠).

وقبل أن تفيق قريش من ذهولها أمام قتل صناديدها، ومن حميتها إزاء كسر قواعد المبارزة، ومقتل شيخها عتبة بسيف ثلاثة تكاثرت عليه، أخذ النبي حفنة من الحصباء استقبل بها قريشاً، ونفحها بها قائلاً: شامت الوجوه، ثم هتف بأصحابه: شدوا! (٢١)، بينما ثنى نحو صفوف النبالة التي ثبتت وراء نواتئ التلول لتحمي المسلمين السيافة المنقضين على قريش، يقول: «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل واستبقوا نبلكم... ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»، (٢٢).

وهكذا بدأت وقعة بدر الكبرى، وهكذا كان التخطيط الجيد والإعداد الدقيق، الذى تفاعلت فيه خطة القائد وعزمه، مع خبرة أركان حربه من رجال الدم والحرب والحلقة، صفوف صفوف، منها من يشد على الأعادى ومنها من يحمى بسهامه المتقدمين، فلم يترك شيئاً للصدفة، ولا أمراً للهوى، وهو ما كانت نتيجته المحتمة، ما سجلته كتب السير والأخبار:

فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر منهم من أسر (٢٣).

هذا بينما استكان القائد إلى عريشه مع أبى بكر، وعلى رأس النل وقف سعد بن معاذ يتأمل ما يحدث تحته فى الوادى، ورأى النبي فى وجهه شيئاً فقال له: «لكنك يا سعد تكره ما يصنع الناس!!»، (٢٤).

وكان حصاد المعركة ما جاء فى تقرير (الطبرى) «فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً» (٢٥)، بينما كان شهداء المسلمين فى تقرير (البيهقى) «من قريش - المهاجرين - ستة نفر، ومن الأنصار ثمانية نفر»، (٢٦).

(٢٠) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٠١.

(٢١) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٩.

(٢٢) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٠٣.

(٢٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٢٢.

(٢٤) الطبرى: سبق ذكره، ص ٤٤٩.

(٢٥) نفسه: ص ٢٩٧.

(٢٦) البيهقى: سبق ذكره، ص ١٢٢.

وففرار أهل مكة فراراً بلا كرامة، وسقوط بعضهم قتلى أو أسرى، هبط النبي ليأمر باللقاء الجثث في القليب، ليعمل في النفس ما كان يجيش بها، وينطق اللسان النبوي منادياً:
يا أهل القليب؛ بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتُموني وصدقتني
الناس، وأخرجتموني وآوانى الناس، وقاتلتُموني ونصرني الناس، هل وجدتم
ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً^(٢٧).

وبينما المسلمون يسحبون قتلى المشركين إلى القليب، وقف (أبو حذيفة بن عتبة) يتطلع إلى أبيه وهم يجر جروحه، وهو من سبق واحتج قبل الواقعة على أمر النبي بعدم قتل بني هاشم، حيث قال:

أنقتل آبائنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيناه لأحمنه
السيف، فبلغت مقالته رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فقال لعمر بن
الخطاب: يا أبا حفص، أ يضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر:
يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة
يقول: والله ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت^(٢٨).

ويروى ابن هشام مستكملاً المشهد:

وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، فنظر رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - في وجه أبي حذيفة بن عتبة، فإذا هو كتيب قد تغير، فقال:
يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك في شأن أبيك شيء؟ فقال: لا والله يا رسول
الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً
وحلماً وفضلاً، فكننت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام^(٢٩).

وهكذا جاءت قريش إلى بدر لتتشر هيبتها، فنثرتها، وجاء الملأ ليعطوا للعرب أنهم حماة بيت
الله، وأنهم قادرون على حماية تجارتهم وأمنها، برعاية رب البيت، لأنهم كما أسماهم العرب
(أهل الله)، فما عاد الملأ إلى مكة، وذهبوا تحت رمال القليب، وبدلاً من رسالة أرادوها مبلغة
للامبراطوريتين، بلغت رسالة أخرى تبرق بخبر آخر، عبرت عنها أشعار تنسبها كتبنا التراثية إلى
الجن، وهي تقول:

(٢٧) السهيلي: سبق ذكره، ص ٥١.

(٢٨) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٣١٠.

(٢٩) السهيلي: سبق ذكره، ص ٥١، ٥٢.

أزار الحيفيون بـدراً وقبعة
أبادت رجالاً من لؤى وأبرزت
سينقض منها ركن كسرى وقيصراً
خرائد يضربن الترائب حسراً
لقد قار عن قصد الهوى وتحيراً^(٣٠).

وانتهى أمر الملاء، وهى النهاية التى جاء أمرها جلياً فى طريق عودة الركب المنتصر، حيث جاء الناس يهتفون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بالنصر، فما كان من (سلمة بن سلامة) ضرب اللسان المفصح العجول، إلا أن برز برأسه من بين الناس ليقول:

ما الذى تهنتونا به؟ فوالله ما لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعقلة،
فحرنناها، فتبسم رسول الله ثم قال: لكن يا ابن أختى، أولئك هم الملاء^(٣١).

وهو ذات الإفصاح الذى أفصح عنه لسان (المغيرة بن الحارث) على الجانب القرشى، عندما عاد المهزومون فراراً إلى مكة، فالتقاهم (أبو لهب) ينادى (المغيرة): «هلم إلى فعندك لعمري الخبر اليقين»، فأجابه (المغيرة) بخبره اليقين، موجزاً قصة المفاجأة فى بدر بقوله:

والله ما هو إلا أن لقينا القوم، فمحنناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا،
ويأسروننا كيف شاءوا^(٣٢).

وهكذا سقطت الرؤوس الأرستقراطية الصلبة، وتحقق الوعد الإلهى بإحدى الطائفتين العير أو قريش، فكانت الثانية: قريشاً.

فداء الأسرى

وكان الأسرى خير عوض عن عير (أبى سفيان)، بما دفعه أهل مكة فيهم لفك أسرهم، حتى (العباس) عم النبي، ورغم حب النبي له ولآل البيت الهاشمى، فقد دفع (العباس) فديته، وكان حب النبي - صلى الله عليه وسلم - لبيته الهاشمى مرحمة ملكت عليه فؤاده الرءوف، فهو لم ينس أنهم كانوا حماة ودرع دعوته الواقى بمكة، ثم عيوناً له على المكيبين بعد هجرته إلى يثرب،

(٣٠) البيهقى: سبق ذكره، ص ٣٠٩.

(٣١) محمد أبو الفضل ومحمد البجاري: أيام العرب فى الإسلام، دار الحديث، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ص ٢٥.

(٣٢) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣٠٩.

رغم عدم اتباعهم لدعوته، فكانت منعته لهم عصبية قبلية ووفاء عشائرياً، مع دافع آخر هام يتمثل في صراعهم مع الأمويين بنى عبد شمس، وهو موقف وإن تعارض مع الدعوة الأممية الطالعة، التي تنزع الولاء عن القبيلة وتضعه بيد العقيدة ودولتها الواحدة، فإن تلك النزعة العشائرية كانت ذات أثر ودور عظيم، في حماية صاحب الدعوة، ومن ثم دعوته، حتى وصل إلى حمى أخواله اليثارية، الذين زادوا على الأزرة القرابية، الإيمان بدعوته، ومن ثم كان الوفاء النبوي واضحاً في كتب السيرة، وهي تروى بلسان ابن عباس:

لما أمسى رسول الله يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات الرسول ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول الله مالك لا تنام؟؟ - وقد أسر العباس رجل من الأنصار - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: سمعت أنين عمى العباس في وثاقه، فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله.

لكن مثل ذلك الوفاء والحنين، كان ممكناً أن يثير تساؤلات مشروعة في نفوس أتباع هجروا العشائرية، ومنحوا الولاء كله لدعوة ترفض الأطر القبلية بل تحطمها، ومن ثم كان يمكن لذلك الوفاء النبوي أن يثير اعتراضات، سبق أن رأينا لها مثيلاً في موقف (أبي حذيفة بن عتبة)، ومن هنا كان التوازن، الذي يظهر في رواية ابن اسحق (وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء، العباس بن عبد المطلب، وذلك لأنه كان رجلاً موسراً، فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهب،^(٣٣) . ويقول (ابن كثير) إن ذلك الفداء الضخم كان عن نفسه، وعن ابني أخويه عقيل ونوفل، وعن خليفة عتبة ابن عمرو^(٣٤) .

ويروى (البيهقي) أن رجالاً ممن أسروا بيدرو قالوا للنبي: «إنا كنا مسلمين، وإنما أخرجنا كرهاً، فعلام يؤخذ متباً الفداء؟» فأنزل الله عز وجل: «يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم» (٧٠/ الأنفال)^(٣٥) . ويذهب (ابن كثير) إلى أن تلك الرواية كانت خاصة بالعباس بن عبد المطلب ونفر معه:

حين ادعى أنه كان قد أسلم^(٣٦) .

(٣٣) البيهقي: سبق ذكره، ص ١٤١ .

(٣٤) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣٠٠ .

(٣٥) البيهقي: سبق ذكره، ص ١١٩ .

(٣٦) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣٠٠ .

فأصر النبي على دفعه الفدية، فتقدم أسروه من الأنصار يجاملون النبي برغبتهم في تركه دون فداء، فكان رد النبي - صلى الله عليه وسلم -:
لا والله لا تذكرون منه درهماً واحداً.

ورغم إعلان العباس إسلامه، فقد ظل إصرار النبي على دفعه الفداء، وهو أمر يمكن فهمه في ضوء ما يحقق من أغراض، فهو التوازن الذي يحفظ المحتوى للدعوة، أو ما يحفظ المحتوى العشائري داخل النسق الأممي عند صاحب الدعوة، أمام أشخاص مثل (أبي حذيفة)، في مرحلة لم تزل فيها القلاقل قائمة أمام استقرار أمر الدولة الطالعة واستقامته، ونزولاً بمستوى العباس الطبقي إلى مستوى يقترب فيه مع بقية المسلمين، في ضوء زعمه الإسلام، وهم من تقاربت أوضاعهم الاقتصادية وذابت بينهم الفوارق في تلك المرحلة، بتوزيع الأنفال البدوية بينهم بالتساوي.

ولكن عندما تغيرت الأحوال بعد ذلك، بعد قيام الدولة وصلابة عودها ومنعتها، تم تعويض العباس خيراً مما أخذ منه في فداء أسره من بدر، وصدق الله وعده في الآيات، وهو ما جاء في رواية أنس:

إن النبي - صلى الله عليه وسلم - أتى بمال من البحرين، فقال: انثروه في المسجد، فكان أكثر مال أتى به رسول الله، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله اعطني، فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً، فقال: خذ، فحثا ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال مر بعضهم برفعه إلى، قال: لا، قال: فارفعه أنت على قال: لا، فنثر منه، ثم احتمله على كاهله فانطلق (٣٧).

ويتضح لنا ذلك الصراع بين الأممية والقبلية، في لحظة العودة من بدر، ومعهم الأسرى وفيهم العباس وبعض بني هاشم، فاستشار النبي أصحابه بشأنهم، والرواية هنا تبرز بوضوح موقف من بذل ولاء تماماً نحو الأممية الجديدة، وهو الموقف المتناقض مع موقف آخر لا زال يستبطن القبلية وحميتها، ثم موقف ثالث هو موقف النبي - عليه الصلاة والسلام - واصطراع الأمرين داخل نفسه البشرية، فهذا (عمر بن الخطاب) يتجاوز كل ألوان الولاء القبلي بأممية صارمة صادقة، إعمالاً لمبادئ الدعوة وتصديقاً لها، فيقول:

يا رسول الله؛ كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، أرى أن تمكنني من فلان

(٣٧) الموضع نفسه.

فأضرب عنقه (وهو قريب له)، وتمكن عليا من أخيه عقيل فيضرب عنقه،
وتمكن حمزة من العباس أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم أنه ليست في
قلوبنا مودة للمشركين.

أما ابن رواحة فكان رأيُه أشد صرامة، وأكثر رغبة في التشفى، فقال:
انظروا وادياً كثير الحطب، فأضرمه عليهم ناراً، فقال العباس - وهو يسمع
- ثكلتك رحمك (٣٨).

هذا بينما كان أبو بكر في أقصى اليمين يقول بالأخرى:
يا رسول الله؛ نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، فذهب عن
وجه رسول الله ما كان فيه من الغم (٣٩).
أو برواية أخرى:

يا رسول الله؛ أهلك وقومك.. هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، قد
أعطاك الله الظفر، ونصرك عليهم، أرى أن تستبقيهم وتأخذ منهم الفداء،
فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار (٤٠).

القبلية والأممية

وكان أبلغ المواقف على استبطان النبي - عليه الصلاة والسلام - للرحم، والعلاقة العشائرية
والأسرية، رغم المتغير المطلوب، ورغم أممية الدعوة واستبدالها العلاقات القديمة بعلاقات جديدة
وبالولاء القديم ولاء جديداً، بعلاقات إيمانية تحطم القبلية، كان أبلغ هذه المواقف ما جاء في قصة
فداء (أبي العاص بن الربيع)، زوج (زينب) بنت النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام -..
يروى الطبري:

كان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله حين أسلمت، وبين

(٣٨) الحلي: سبق ذكره، ص ٤٤٧.

(٣٩) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٢٧٩.

(٤٠) الحلي: سبق ذكره، ص ٤٤٦.

أبى العاص بن الربيع، إلا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان لا يقدر على أن يفرق بينهما، فأقامت معه على إسلامها، وهو على شركه،.... فأصيب في الأسارى يوم بدر^(٤١).

ويكمل ابن كثير:

عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله في فداء أبى العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رق لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها، وتردوها عليها الذى لها^(٤٢).

ويتابع ابن هشام فيقول: إن النبى - صلى الله عليه وسلم - أخذ على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب، ويرسلها إلى حيث سينتظرها أتباع من يثرب على حدود مكة، وعن عبد الله بن أبى بكر قال: حدثت عن زينب أنها قالت: بينما أنا أتجهز بمكة للحوق بأبى، لقيت هنداً بنت عتبة، فقالت: يا بنت محمد، ألم يبلغنى أنك تريدان اللحق بأبيك؟ فقالت: ما أردت ذلك... فلما فرغت بنت رسول الله من جهازها، قدم لها حموها كنانة بن الربيع أخو زوجها بعيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها يقودها نهراً وهى فى هودج لها، وتحدث بذلك رجال من قريش فخرجوا فى طلبها، حتى أدركوها بذى طوى... ويرك حموها كنانة ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهماً، فتكركر الناس عنه، وأتى أبو سفيان فى جلة من قريش فقال: أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك، فكف، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تصب إذ خرجت بابنته علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا، إنه ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت، وإن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بها من أبوها من حاجة، وما لنا فى ذلك من ثورة، ولكن أرجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدثت الناس أننا قد رددناها، فسلكها سراً والحقها بأبيها، ففعل.

وفى الروايات، أن الذين طاردوا زينباً، كانا هبار بن الأسود، ونافع بن عبد القيس، فروعاها، فأفرغت بطنها وكانت حاملاً، ولما رجع الرجلان إلى مكة، قابلتهما هند تدمهما وتقول:

(٤١) الطبرى: سبق ذكره، ص ٤٦٨.

(٤٢) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣١٢.

أفى السلم أعار جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك^(٤٣).

(والنساء العوارك هن الغوانج)، أما النبى فكان له موقف آخر من الرجلين، إذ أمر ببعث سرية، أمر رجالها أن يظفروا بهبار ونافع، وأن يحرقوهما بالنار جزاء ما قدمت يدهما فى حق ابنته، لكنه عاد فأرسل لهم قبل خروجهم:

إنى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين، إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغى لأحد أن يعذب بالنار إلا الله، فإن ظفرت بهما فاقتلوهما.

ويتابع ابن اسحق راوى السيرة فيقول: «أقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، حين فرق الإسلام بينهما، حتى إذا كان قبيل الفتح، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام - وكان رجلاً مأموناً - بماله وأموال رجال لقريش أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً، لقيته سرية لرسول الله، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً، فلما قدمت السرية بما أصابوا من مال، أقبل أبو العاص تحت الليل، حتى دخل على زينب بنت رسول الله، فلما خرج رسول الله إلى الصبح... كبر وكبر الناس معه، صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس إنى قد أجريت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله من الصلاة أقبل على الناس فقال: أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم، قال أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعتم ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم.

ثم انصرف فدخل على ابنته فقال: أى بنية أكرمى مثواه، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له... ثم بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا تردوا عليه الذى له، فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم، فأنتم أحق به، فقالوا: يا رسول الله بل نرده عليه، فردوه عليه... ثم احتمله إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال ماله من قريش، وعاد بعد ذلك إلى يشرب مسلماً، ويروى ابن عباس أن النبى قد رد عليه زينب على النكاح الأول، وفى رواية لأبى عبيدة «أن أبا العاص لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين:

- قيل له: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال، فإنها أموال المشركين.

- فقال: بئس ما أبدأ به إسلامى، أن أخون أمانتى،^(٤٤).

(٤٣) نفسه: ص ٣٣١.

(٤٤) السهيلي: سبق ذكره، ص ٥٨، ٦٠.

وموقف (أبي العاص) هنا يتفق تماماً ويتطابق مع الإفراز الحتمي للظرف التاريخي والاقتصادي، فأمانة الرجل التي فرضت عليه عدم الاستيلاء على أموال قريش، هي ناتج طبيعي لظرف مكة التجاري، الذي أفرز ثقة متبادلة بين أصحاب المال، وبين القائم على الرحلة المسافرة، باعتباره أيضاً عضواً ضمن الطبقة، ومن ثم فرض ظرف مكة الجغرافي، وعدم إمكان خروج كل المساهمين مع القافلة، ثقة وأمانة على درجة عالية، للحفاظ على سيولة التجارة واستمرارها، لأن أي خلاف أو اختلاس أو فقد للثقة، كان كفيلاً بدمار مصلحة الجميع، وهي الأمانة التي لم تكن في منطقتهم تتعارض أبداً مع سلوكيات أخرى، كالربا والاحتكار، فهي ألوان من الكسب المشروع، ولون من التجارة والريح مباح، وقد أشار النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى الأمانة القرشية، مع ضيق أفق الرؤوس المكية وقصورها، عن إدراك دور الرأسمالية القرشية في مشروع الوحدة الكبرى، بقوله لأبي قتادة الأنصاري بعد غزوة أحد، عندما أراد أبو قتادة التمثيل بجثث القرشيين كما مثلوا بحمزة بن عبد المطلب:

يا أبا قتادة، إن قريشاً أهل أمانة، من بغاهم أكبه الله تعالى إلى فيه،
وعسى إن طالبت بك مدة أن تحقر عملك مع أعمالهم، وفعالك مع فعالهم،
ولولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله^(٤٥).

والقول الشريف هنا يفصح عن خبيثة نفس المصطفى - عليه الصلاة والسلام - لأهله وبلده، وعن التناقض الآتي الذي سيفصح عن نفسه في أواخر الحياة النبوية المشرفة، في فتح مكة وتوزيع المكاسب في هبات وإقطاعات وأعطيات لأهل قريش من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم، ثم ما أفصح عنه اجتماع سقيفة بني ساعدة، وانتهى بصب الأمر في النهاية بيد قريش، أما الآن وفي ظرف بدر الراهن، فإن قطع المسلمين للطريق التجاري، والاستيلاء على قوافل مكة، وقتل رجال حكومة الملأ الصناديد والرؤوس والأشراف، كان حلقة - فرضها الظرف، وعدم وعى المكيبين - في حلقات التطور الحتمي الآتي، ودفعاً للموقف عبر مسيرته الضرورية، وإبلاغاً للروم والعجم، أن الأمر قد صار إلى مدينة أخرى، وإلى يد أخرى، ونظام آخر.

(٤٥) الحلي: سبق ذكره، ص ٥٢٥.

المزایدات فی قصة بدر

«أما لكم فی اللبن من حاجة؟»،

[نداء قرشى فی وقعة بدر]

حروب دولة الرسول

جزء أول

عن (على بن أبى طالب) كرم الله وجهه - فى وقعة بدر - قال: «حملنى الرسول على فرسة فجمزت بى، فوقعت على عقبى، فدعوت الله، فأمسكت، فلما استويت عليها، طعنت ببىدى هذه فى القوم حتى اختضب هذا، وأشار إلى إبطه»^(١). محققاً لنفسه بذلك ضحك الله من عبد يغمس يده فى العدو.

وهو الأمر الذى يدعو إلى التساؤل حول رواية كتب السير والأخبار، عن كراهة (سعد بن معاذ) لرؤية ما يصنع المسلمون بالمشركون، وعن كون تلك الكراهة ناتجة عن أخذ المكيين أسرى، بدلاً من قتلهم، والتساؤل مع اختضاب إبط (على) بالدم: هل كان المتفشى فى بدر هو القتل أم الأسر؟ وأيهما كان غرض المعركة الأساسى؟.

إن تعادل عدد القتلى والأسرى ربما يغنى عن طرح السؤال، لكن فى واقع ما حدث تحت غبار وقعة بدر، ما يشير إلى رغبة متأججة فى الثأر من صناديد الملأ القرشى، الذين سبق أن أخرجوا المسلمين من ديارهم وأبنائهم، فهناك وقائع لها نفس دلالات قول الإمام على كرم الله وجهه، أعطاها مشروعيتها دعوة الآيات:

﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ (١٢/ الأنفال).

والأمر على الترتيب فى الوحى هو:

﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق

فأما متاً بعد وإما فداء﴾ (٤/ محمد).

فأولاً: ضرب الأعناق، وفصل الرقاب، وكل بنان، ثم بعد ذلك: شد الوثاق طلباً للفداء، دعماً مادياً للمسلمين، أو المن على البعض الآخر، رغم شركهم وعدم إيمانهم، كما سترى له أمثلة الآن. وقد أفاضت كتب السيرة بشأن مقتلة عدد من الرؤوس القرشية، منهم (أبو البختري بن هشام)، وكان مفترضاً عدم قتله بأمر من الرسول - عليه الصلاة والسلام - رغم عدم إيمانه بدعوته الدينية، فلم يعقد أمره حول الإيمان عن حذمه، (بما لأسباب أخرى تقول:

نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قتل أبى البختري، لأنه

كان أكف القوم عن رسول الله وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه

شئ يكرهه، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة، التى كتبت قريش على

بنى هاشم وبنى عبد المطلب^(٢).

(١) للبيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٥٥.

(٢) السهيلي: (فى شرح السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٩، ٤٠.

كذلك كان النبي بوفاء رحمي، قد نهى أيضاً عن قتل عمه (العباس بن عبد المطلب)، ومن تواجد من بنى هاشم في بدر، رغم عدم إيمانهم بدعوته الدينية.

وقرب انتهاء وقعة بدر، بينما الناس يهربون أو يتخفون، لقي (المجذر بن زياد البلوي) أبا البختری، ومع (أبي البختری) صديق له خرج معه من مكة، هو (جنادة بن مليحة)، فقال له (المجذر)، ورد عليه (أبو البختری)، في حوار له أهمية:

المجذر: إن رسول الله قد نهانا عن قتلك.

أبو البختری: وزميلي؟

المجذر: لا والله، ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك.

أبو البختری: لا والله إذن، لأموئن أنا وهو جميعاً، ولا تتحدث عني نساء مكة، أني تركت زميلي.

فقتله المجذر... ثم أتى رسول الله فقال: والذي بعثك بالحق، لقد جهدت عليه أن يستأسر قَاتِيكَ به، فأبى إلا أن يقتلني، فقتله، (٣).

والشاهد هنا، أن الرجل المسلم طلب من (أبي البختری) الاستسلام للأسر، فأبى (أبو البختری)، إن كان في ذلك إنقاذ حياته، وترك زميله يقتل، بإباء عربي يثير الإعجاب وفيه إجابة أولى عن السؤال المطروح.

أما الشاهد الثاني ففي رواية (عبد الرحمن بن عوف) عن مقتل (أمية بن خلف)، حيث قال (عبد الرحمن): وكان أمية صديقاً لي بمكة، وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماكه أبواك؟ فأقول: نعم، فيقول: فإنني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيئني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف، قال: فكان إذا دعاني؛ يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت له: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، فقلت: نعم، فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله، فأجيبه وأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به، وهو واقف مع ابنه علي بن أمية، أخذ بيده، ومعى أذراع قد استلبتها فأنا أحملها، فلما رآني قال لي: يا عبد

(٣) الحلي: السيرة، سبق ذكره، ص ٤١٤.

عمرو، فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، قلت: نعم، قال: هل لك في فأنا خير لك من هذه الأذراع التي معك، قلت: نعم، ها لله ذا، فطرحت الأذراع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه وهو يقول:

ما رأيت كالיום قط، أما لكم في اللبن من حاجة؟

ثم خرجت أمشى بهما، قال ابن هشام: يريد باللبن،

أنه من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن.

فوالله إنى لأقودهما، إذ رآه بلال معي، وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة ليترك الإسلام... فلما رآه قال:

رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا

ثم صرخ بأعلى صوته:

يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا،

فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة، وأنا أذب عنه،^(٤).

فهنا رجل تأبى عليه عزته الهرب مع من هرب، فيقف في الميدان مستمداً الشجاعة والدفع من الإمساك بيد ولده على، حتى إذا لقي صديقه المسلم ناداه طالباً منه أسره مع ولده، ليضمن معاملة أفضل وهو في الأسر، كما يضمن لصديقه أقصى انتفاع متى حان وقت الفداء، ثم هو يبدى دهشته لكثرة القتل، بينما بالعقوبة التجارية يكون الأسر أكثر نفعاً لعائديته بإبل ولبن ومال وذهب، واختتم ابن كثير مقتل أمية وولده على، برواية عبد الرحمن بن عوف: «فلما خشيت أن يلحقونا، خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه، ثم أتوا حتى تبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: إبرك، فبرك فألقيت نفسي عليه لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتي،^(٥)، أو بتعبير ابن هشام:

هبروه بأسيا فهم، من الهبرة، وهي القطعة العظيمة من اللحم، أي

قطعه^(٦).

وعن مقتل (أبي جهل)، تروى كتب السير «وكان أول من لقي أبا جهل، (معاذ بن عمرو بن

(٤) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤٠.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٧.

(٦) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤٨.

الجموح) ... قال: سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة (الشجر الملتف) وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه... فصمدت نحوه، فلما أمكنتني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه،... وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرحني يدي، فتعلقت بجلدة من جلبى، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي، وإنني لأسحبها خلفي، فلما أدتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت حتى طرحتها،^(٧).

وهكذا كانت الإصابة الأولى لأبي الحكم بن هشام، فقطع (معاذ بن عمرو بن الجموح) ساقه، وتركه عقيراً بين الأحراش بعد أن قام ابنه (عكرمة) يذب عنه، وظل على حاله بينما انشغل (عكرمة) في القتال، ثم في الهرب، حتى مر به (معوذ بن عفراء) فناوشه وهو يدافع عن نفسه، حتى ناله (معوذ) بضربة أخرى أثبتته عن الحركة^(٨)، حتى مر عليه (عبد الله بن مسعود)، الذي يروى فيقول: «وجدته بأخر رمق، فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه... فقال لي أبو جهل:

لقد ارتقيت يا زويى الغنم مرتقى صعباً^(٩).

أما (ابن مسعود) فيسوق لنا تدقيقه في الرواية، حتى ما مر بذاكرته من ذكرى طافت به وهو يقف على رأس عدوه، إذ يقول:

وقد كان ضبث بي مرة بمكة، فأذاني ولكزني^(١٠).

ثم يسوق ذكرى أخرى في روايته بدلائل البيهقي:

وانتهيت إلى أبي جهل وهو صريع، ومعه سيف جيد ومعى سيف رث، فجعلت أنقف رأسه بسيفي، وأذكر نقفاً كان ينقف رأسى بمكة، حتى ضنفت يدي^(١١).

ويستمر (ابن مسعود) لينقل عنه (الحلبى) في سيرته، قوله:

فنبصق في وجهي وقال: خذ سيفي واحتز به رأسى من عرشه، ليكون

(٧) نفسه: ص ٤٢.

(٨) الموضع نفسه.

(٩) ابن سيد الناس: عين الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٣١٤.

(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٤٥٥.

(١١) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٨.

أنهى للرقبة... ففعلت ذلك ثم جئت به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت هذا رأس عدو الله أبي جهل، فقال رسول الله: أله الذي لا إله غيره، ورددتها ثلاثاً.

وروى الطبراني: أله قتل أبا جهل؟ قلت: نعم، والله الذي لا إله غيره، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله، فحمد الله تعالى، ويقال أنه سجد خمس سجرات شكر^(١٢).

أما (نوفل بن خويلد) الذي كان يصيح في بداية الواقعة: يا معشر قريش؛ إن هذا اليوم يوم العلا والرفعة، فقد انتهى إلى نداء آخر مرتعش ينادي المسلمين:

ما حاجتكم إلى دماننا؟ أما ترون ما تقتلون؟

أما لكم في اللبن من حاجة؟

فأسره جبار بن صخر، فهو يسوقه أمامه، فجعل نوفل يقول لجبار - وقد رأى علياً مقبلاً نحوه - يا أبا الأنصار؛ من هذا؟ واللوات والعزى إني لأرى الرجل يريدني؟ قال: هذا علي بن أبي طالب، قال: ما رأيت كاللوم رجلاً أسرع في قومه منه، فيصمد له علي، فيضربه، فنشب سيفه في جحفته ساعة، ثم نزع، فضرب ساقيه ودرعه مشمرة، فقطعها، ثم أجهز عليه فقتله^(١٣). ومهما بحث عن سر وراء قتل ذلك الأسير - غير عدم إيمانه بالدعوة - فلن تجد سوى أنه كان أحد رؤوس قريش.

الأسرى

وكان في الأسرى (النضر بن الحارث) ربيب مدرسة جند يسابور، الذي تعلم هناك علوم الحضارات، بما فيها أخبار الأقدمين، في بعث أثرياء مكة أبناءهم لمدارس الحضارات، وكان يقعد مع زميله (عقبة بن أبي معيط) للنبي بمكة مقعد زصد، ليتوجهوا له باستفسارات كثيرة بقصد الإحراج والإيذاء، وعادة ما كانوا يعقبون بقولهم للناس: تعالوا، نقول لكم أفضل مما قال، وللصدفة العجيبة أن يقع مع (النضر) في الأسر، رفيقه المثقف (عقبة بن أبي معيط)، ليسيرا في ركاب الركب المنتصر مقيدين.

(١٢) الحلي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٢٠.

(١٣) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٤.

وقد وقع (النضر) أسيراً بيد (المقداد)، وتم ربطه مع بقية الأسرى الذين أخذوا يمرون أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن ثم نظر إلى النضر وهو أسير، فقال النضر للأسير الذي بجانبه: محمد والله قاتلي، فإنه نظر إلى بعينين فيهما الموت، فقال له: والله ما هذا منك إلا رعب، وقال النضر لمصعب بن عمير: يا مصعب أنت أقرب من هذا إليّ رحماً، فكلّم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي - يعني المأسورين - هو والله قاتلي، فقال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا، وتقول في نبيه كذا وكذا...^(١٤). وفي أسباب النزول للسيوطي كان المقداد أسر النضر، وما أن أناخ الركب المنتصر بالصفراء، حتى أمر النبي بقتل النضر، فقال المقداد: يا رسول الله أسيري، فقال له رسول الله: إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول^(١٥).

وبعد ذلك بزمان، يوم فتح المسلمين لمكة، أنشدت شقيقته النبي شعراً يقول:

أحمد لأنت ضنء نجيبة في قومها، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحقق

وهنا عقب النبي بحنوه ولو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه^(١٦)، أي لأطلقه، رغم ما قال في كتاب الله وما فعل برسول الله، ومع عدم الإيمان بدعوة الإسلام^(١٧).

وبعد مرحلة من الطريق، أناخ الركب بعرق الظبية، وأمر النبي (عاصم بن ثابت) بقتل رفيق (النضر) وزميل تلمذته (عقبة بن أبي معيط)، ولما أقبل إليه (عاصم بن ثابت)، دارت بينهما المحاورة التالية:

عقبة: يا معشر قريش، علام أقتل من بين من هنا؟

عاصم: على عداوتك لله ورسوله..

عقبة: أتقتلني يا محمد من بين قريش؟

النبي: نعم، أتدرون ما صنع بي هذا؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام،

فوضع رجله على عنقي وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عيني

ستنداران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاها على رأسي وأنا ساجد، فجاءت

فاطمة فغسلته عن رأسي^(١٧).

(١٤) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٤١.

(١٥) الموضع نفسه.

(١٦) الموضع نفسه.

(١٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٠٦.

وهكذا أدرك (عقبة) مصيره جزاء ما قدمت يداه، حتى لو كان أسيراً، بعد أن كان بمكة سيداً متزوّجاً، فكان أن تهاوت الكرامة والعزة، وتنازل عن كبريائه وصرخ مسترحماً في استغاثة أخيرة يذكّر النبي بما لديه من أطفال منادياً:

فمن للصبية يا محمد؟

فجاءه رد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في دمائه يتخبط - : النار^(١٨).

ووصل المسلمون ببقية الأسرى إلى يثرب، بينما كانت (سودة بنت زمعة) زوج النبي عند آل عفراء، تشاركهم مصابهم في مناحتهم على ولديهم (عوذ) و(معوذ) اللذين استشهدا ببدر، حيث روت (سودة) - رضی الله عنها -: «والله إني لعندهم إذ أتينا، فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم، فرجعت إلى بيتي ورسول الله فيه، وإذا أبو يزيد بن سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة، مجموعة يده إلى عنقه بحبل، فلا والله ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت:

أى أبا يزيد؛ أعطيتكم بأيديكم، ألا متمّ كراماً؟

فوالله ما نبهني إلا قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من البيت:

يا سودة؛ أعلى الله ورسوله تحرضين؟

قلت: يا رسول الله؛ والذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه، إلا أن قلت ما قلت،^(١٩).

وتروى السيرة وجاء مطعم بن مطعم وهو كافر إلى المدينة، يسأل النبي في أسارى بدر، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم -: لو كان شيخك - أو لو كان الشيخ أبوك - حياً، فأتانا فيهم، لشفعناه، وفي رواية: لو كان مطعم حياً وكلمنى في هؤلاء النفر، وفي رواية: فى هؤلاء الننتى، لتركتهم له، .

أما تبرير إمكانات إطلاق مشركين لم يؤمنوا، بشفاععة المطعم، والاستجابة لإجارته، فلأن المطعم كان قد أجار النبي لما قدم الطائف وكان ممن سعى في نقض الصحيفة^(٢٠).

وفي السيرة أن (أبا عزة بن عبد الله) كان في الأسر، فقام يتزلف النبي بمديحه شعراً، ثم

(١٨) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٣.

(١٩) نفسه: ص ٥٤.

(٢٠) الحلبي: مج ٢، ص ٤٥١.

طلب منه أن يمن عليه ويطلقه، لأنه صاحب حاجة وذو بنات، فأفرج عنه، فلما ذهب إلى مكة قال: سحرت محمداً وعاد يهجو، حتى وقع بعد ذلك أسيراً يوم أحد، وكان الأسير الوحيد في تلك الوقعة، فعاد للمديح وطلب العفو والمن، فأجابه النبي ﷺ «لا أدعك تمشح عارضيك وتقول: خدعت محمداً مرتين، ثم أمر به فضربت عنقه، ويقال أن فيه قال رسول الله: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» (٢١).

مزایدات

وعليه، يمكن بالقراءة الموضوعية، أن يستكشف المتابع ظروفاً أدت إلى وقعة بدر، وصاغت دقائق أحداثها، وحُتمت نتائجها، وأن يقرأ دور الجهد البشري في توجيه مجموعة العناصر المكونة للمقدمات والنتائج، ودورها الجدلي مع قواعد التطور الاقتصادي ومن ثم المجتمع، كما يمكنه ببساطة وإنصاف، أن يقرأ دور التنظيم والتخطيط الواعي من قبل البشر لدفع ذلك التطور نحو غايته، والوقعة البدرية نحو نتائجها، وأثناء ذلك سيلمح لونا من المزايدة التي ترقى بالحدث الموضوعي من مستوى الواقع إلى فضاء الأسطورة، أو هي على الأصح تهبط بالأسطورة لتغطية أرض الواقع، أو هي على التدقيق تغلت بحدث الواقع خارج دائرة الفعل الطبيعي والقدرات البشرية، وهي المزایدات التي ربما كانت إسهاماً أسهم به الرواة زمن الحدث، كل حسب إمكاناته، وربما كانت إسهامات إضافية أضيفت زمن تدوين كتب السير والأخبار، وربما كانت مزایدات من أقوام كالمؤلفة قلوبهم والطلاقاء لإثبات خلوص الإيمان، وقد كان الوعد بنزول الملائكة من وراء الكون المنظور إلى بقعة بدر لنصرة المسلمين، أحد أهم العوامل التي ساعدت على إعطاء الخيال الإنساني مساحة واسعة للمزايدة، فإن هبطت الملائكة، فلا بأس إذن من حدوث أى خارق آخر.

لقد بدأت الروايات ملتصقة بالمقبول، وبواقع الحدث كما حدث، وهو ما يمكنك تلمسه في تلك الروايات مع بداية قصصها للواقعة البدرية، فهذا - مثلاً - أول شهيد مسلم مهاجر في بدر (عبيدة بن الحارث)، الذي بارز (عتبة بن ربيعة)، فحمله رفيقه (حمزة) و (علي) إلى رسول الله ﷺ واحتملا صاحبهما عبيدة، فجاء به إلى أصحابه، وقد قطعت رجله فمخها يسيل، فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألسنت شهيداً... قال: بلى، فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حياً لعلم أنى أحق منه حيث يقول:

(٢١) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣١٣.

ونسلم حتى نصرع خوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل،^(٢٢).

وأسلم الرجل روحه شهيداً، ورأسه على فخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والقصة كما هو واضح، تسير سيراً طبيعياً، يذكر فيها (عبدة) النبي بأهله الهاشميين - الذين منعوه من الأمويين - على رأسهم (أبو طالب) عم النبي، عندما حقب الأمر مع الأمويين وكاد يفرض على حرب بين أبناء العمومة، فأرسل (أبو طالب) شعره يؤكد لهم أنهم لن ينالوا من ولده (محمد)، حتى يفنى ويصرع حوله بنو هاشم وهم يدافعون عنه، بعصبية القبيلة ورحم العشيرة، ويتميز هنا (عبدة) في قوله: إنه أحق من أبي طالب بذلك الشعر، أنه مات بالفعل دفاعاً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودفاعاً عن دعوته، بل ومؤمناً بهذه الدعوة، وأن أعضاء الجماعة الإسلامية، الذين هجروا القبيلة إلى الأمية، هم الأحق بالشهادة، وأحق بالقول من (أبي طالب).

ثم نرحل إلى القصة التالية، وهي عن (معاذ بن عمرو بن الجموح)، الذي ضرب ساق (أبي الحكم)، فقال منه (عكرمة بن أبي الحكم) بضربة أطاحت ذراعه، وضربني ابنه عكرمة بن أبي الحكم على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبى... وإنى لأسحبها خلفي، فلما أذنتى وضعت عليها قدمي ثم تمطيت حتى طرحتها،^(٢٣) ومن ثم بدت الرواية قادرة على الإبهار، لمدى الصلابة والجلد عند ذلك البطل اليثري، ولكن الأمر يبدأ هنا بالانتقال إلى فضاء الأسطورة، بمزايدات لحظنا أنها تبدأ عادة غير محددة المصدر، بالقول: (وفي رواية)، وهي بذلك رواية مجهولة السند، وهو ما بدأت به المزايدة في قصة البطل (معاذ)، في القول: (وفي رواية):

أنه جاء بها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فبصق عليها، ولصقها، فلصقت،^{(٢٤)؟}.

وهو ما نجد له شبيهاً في روايات صيغت حول (أبي جهل - أبي الحكم)، الذي كان له شأن أجل من أن يمر بمقتله في بدر ببساطة وينتهي الأمر، رغم ميته البائسة التي سقاها إياها ثلاثة من المسلمين على التوالي، لأنه كان عدو رسول الله الألد، ومن ثم كانت مقتله غير شافية للنفوس، فيصل الأمر إلى حد قول (الشعبي)، دون سند واضح لروايته عن قائل بعينه محدد الاسم، فيقول:

(٢٢) الطبري: سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٥، ٢٤٦.

(٢٣) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤٢.

(٢٤) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٩.

إن رجلاً قال للنبي - صلى الله عليه وسلم -: إنى مررت ببدر فرأيت رجلاً يخرج من الأرض، فيضربه رجل بمقمة معه حتى يغيب فى باطن الأرض، ثم يخرج، فيفعل به مثل ذلك، قال ذلك مراراً، فقال رسول الله: ذلك أبو جهل بن هشام، يضرب إلى يوم القيامة^(٢٥).

أما النبي الذى أجمعت الروايات الصادقة على أنه كان بعريشه فوق الثل طول المعركة، يدعو ربه ويصلى طالباً الأزر والنصرة، فإن روايات أخرى تضعه فى مقدمة الصفوف محارباً، فيما نسب إلى (حارثة بن مضرب) وهو يقول:

لما كان يوم بدر، اتقينا المشركين برسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وكان أشد الناس بأساً.

وهو ما أخرجه (الإمام أحمد) فى مسنده (٢١٦/١)، وحدثنا إسرائيل بلحوه، وزاد: ما كان أحد أقرب إلى المشركين منه،^(٢٦).

وعن (قتادة بن النعمان) يروى أنه أصيبت عينه يوم بدر، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: لا، فدعاه، فغمز حدقته براحتيه، فكان لا يدرى أى عينيه أصيب، وفى رواية: فكانت أحسن عينيه... وعن رافع بن مالك: رميت يوم بدر بسهم، ففقت عيني، فبصق فيها رسول الله ودعا لى، فما أذانى منها شىء،^(٢٧).

ويروى أن (خبيب بن عدى) ضرب يوم بدر فمال شقه، ففعل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولأمه، ورده، فأنطبق، ثم يتقدم صاحب (دلائل النبوة) بمجموعة من الروايات يراها من تلك الدلائل، ومنها «وعكاشة بن محصن قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع فى يده، فأتى رسول الله فأعطاه جذلاً من حطب وقال: قاتل بها يا عكاشة، فلما أخذه من يد رسول الله هزه فعاد سيفاً، طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديد، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على رسول الله، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد... وكان ذلك السيف يسمى القوى... وانكسر سيف سلمة ابن أسلم بن حريش يوم بدر، فبقى أعزل لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله قضيباً كان فى يده،

(٢٥) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٩، ٩٠.

(٢٦) نفسه: ص ٦٩، ٧٠.

(٢٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٩١، ٢٩٢.

من عراجين بن طاب، فقال: اضرب به، فإذا هو سيف جيد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيدة، (٢٨).

وهكذا احتشدت كتب السير والأخبار بالمزايدات، والروايات التي تنزع نحو الأسطورة، بمجرد أن فتح لها الباب، وبات بالإمكان سلخ أى حدث عن واقعه، ونقله إلى مستوى آخر، يكسر الواقع ويدعم الأسطورة بالشهادات، وهو ما تمثل فى قصة حدثت عند بدء وقعة بدر، عندما أمسك النبى عليه الصلاة والسلام بحفنة من الحصباء، ورمى بها قريشاً ثم قال: شدوا.

ولأن إلقاء الحصباء على العدو لا يحمل أية دلالة عسكرية بعينها، ولأن ذلك التصرف النبوى لا بد له معنى محدد يودى دوره فى المعركة، فقد انتقلت المزايدة بإلقاء الحصباء إلى المستوى السحرى، لتؤدى دوراً عسكرياً كاملاً، وكثيراً ما وردت تلك المزايدات على لسان مشركين أسلموا متأخرين، ومنهم الطلقاء الذين أرادوا التحبيب للإسلام والمسلمين ونبى الإسلام، ببعض المجاملات والملاطفات، ومنهم المؤلفون قلوبهم بالطبع الذين أرادوا أن يردوا التحية بأحسن منها، ومن تلك المزايدات رواية تقول: «سمعت نوفل بن معاوية الديلى يقول: انهزمنا يوم بدر، ونحن نسمع صوتاً كوقع الحصى فى الطاس فى أفئدتنا، ومن خلفنا، فكان ذلك من أشد الرعب علينا» (٢٩).

ومثله قول (حكيم بن حزام): «التقينا فاقتلنا، فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض، مثل وقع الحصى فى الطست، وقبض النبى القبضة فرمى بها، فانهزمنا... وسمعنا صوتاً من السماء وقع إلى الأرض كأنه صوت حصاة فى طست، فرمى رسول الله تلك الحصاة يوم بدر، فما بقى منا أحد» (٣٠).

الحصوات هنا لم تعد قبضة من حصى تل بدر، إنما حصوات سماوية تقوم بفعل عسكرى، لكنه إعجازى، ما أن رمى بها النبى المشركين حتى قتلهم جميعاً، أما دور تلك الحصى كإحدى أدوات الجيش الإسلامى، بل وأكثر الأدوات فاعلية، فهو ما توضحه رواية لا تخرج عن الاعتقاد فى الأثر السحرى للفعل النبوى، فتقول: «لم يبق من المشركين رجل إلا ملأت عينيه» (٣١).

وإذا كان يوم بدر، هو يوم هبوط الملائكة على خيولها، تحمل سيوفها، فلا بأس على مؤمن إن زاد فقال: «ويقال: إنه كان مع المسلمين يوم بدر من مؤمنى الجن سبعون»،

(٢٨) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٨، ٩٩.

(٢٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٣.

(٣٠) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٠.

(٣١) الحلبى: مج ٢، ص ٤١٢.

وحتى يحبك الراوى روايته التى تفرد بها يستدرك قائلاً: «لكن لم يثبت أنهم قاتلوا، فكانوا مجرد مدد» (٣٢).

ملائكة بدر

فى أول مشهد تقدمه كتب السير لمقدم الملائكة السماوى إلى بدر، يروى ابن إسحق: وقد خفق رسول الله خفقة وهو فى العرش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع (٣٣).

وفى رواية أخرى، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

أبشريا أبا بكر، هذا جبريل معتجر بعمامة صفراء، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض، فلما نزل إلى الأرض تغيب عنى ساعة، ثم طلع على ثناياه النقع يقول: أتاك نصر الله إذ دعوته (٣٤).

ثم تتوالى الروايات، عن بعض رجال من بنى مازن لا نعرف من هم تحديداً، عن أبى داود المازنى، أنه قال:

إنى لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى، فعرفت أنه قد قتله غيرى (٣٥).

فهذا رجل يقتل فى المعركة، وسط سيوف عديدة متشابكة ورماح تطير ونبال تكز وغبار وسنابك خيول، ورؤوس تغطيها الخوذ، وأجساد مدرعة بالدروع، ويقول المازنى أن غيره قد قتل القتل، لكن هذا الغير (القاتل) بمجهوليته فى المعركة يتم التقاطه ليصبح أحد الملائكة، ليؤكدده قول أبى إمامة لولده:

يا بنى لقد رأيتنا يوم بدر، وإن أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك، فيقع رأسه

(٣٢) نفسه: ص ٤١٠.

(٣٣) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٨.

(٣٤) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٤.

(٣٥) الطبري: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٥٣.

عن جسده قبل أن يصل إليه السيف (٣٦).

وتتالى الروايات التى عادة ما يشار إلى روايتها بالقول: قال رجل كذا وكذا، أو عن رجل من بنى كذا، ومثلها قول ابن عباس:

بينما رجل من المسلمين يومئذ، يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه،
إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم (وحيزوم
هو فرس الملاك جبريل)، إذ نظر المشرك أمامه فخر مستقياً، فنظرنا إليه
فإذا هو خطم من أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك جميعاً،
فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال:
صدقتم، ذلك مدد من السماء الثالثة (٣٧).

ويروى بعض بنى ساعدة، عن (أسيد مالك بن ربيعة)، بعد أن ذهب بصره، «لو كنت اليوم
معى ببدر ومعى بصرى، لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارى» (٣٨).
وهكذا، فالرجل الوحيد الذى رأى الملائكة رؤى العين، ورأى الشعب الذى انسلت منه صفوفهم
إلى جبال بدر وواديه، قد ذهب بصره، حتى لا يتمكن من تحديد المكان، ويظل القصر هلامياً،
وقفاً على رواية عن بعض بنى ساعدة.

ومثل تلك الروايات، روايات أخرى، منها رواية (أبى بردة بن نيار) حيث قال: «جئت يوم بدر
بثلاثة رؤوس، فوضعتها بين يدي النبی صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله: أما رأسان
فقتلتهم، أما الثالث فأنى رأيت رجلاً أبيض طويلاً ضربه، فأخذت رأسه، فقال رسول الله: ذاك
فلان من الملائكة» (٣٩). أما عن أبى جهل الذى بات معلوماً عدد من اشتركوا فى قتله بالاسم، فإن
هناك من روى عن النبی قوله: «قتله ابنا عفراء والملائكة، وابن مسعود قد شرك فى قتله» (٤٠).

هذا ناهيك عن روايات أخرى مجهولة المصدر، مثل رواية ابن عباس إذ قال:

حدثنى رجل من بنى غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لى حتى أصعدنا

(٣٦) نفسه: ص ٤٥٤.

(٣٧) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥١، ٥٢.

(٣٨) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤١.

(٣٩) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٨.

(٤٠) نفسه: ص ٨٧.

فى جبل يشرف على بدر، ونحن مشركان ننظر الواقعة على من تكون
الدبرة، فنهب مع من ينتهب، قال: فبينما نحن فى الجبل إذ دنت منا
سحابة، فسمعنا فيها حممة الخيل، فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم، قال:
فأما ابن عمى فانقشع قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك ثم
تماسكت^(٤١).

أما المشركون (والرواة أسلموا بعد ذلك عند الفتح)، فوجد بعضهم - فيما يبدو - فى هبوط
الملائكة، تبريراً لهزيمتهم المخجلة أمام المسلمين، فحاك بعضهم على ذات النول، فهذا (المغيرة
ابن الحارث) يذكر أنه كان قال زمن بدر، لأبى لهب «وأيمن الله ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً
على خيل بلق، بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء»^(٤٢).

وهكذا تقدم الطلقاء بدلائهم إلى مائدة المزيادات، ومنها رواية (ابن حجر) فى الإصابة (٢/
٩)، عن (السائب بن أبى حبيش) الذى أسلم يوم الفتح الإسلامى لمكة، ونال من الرسول نصيبه
من الأعطيات، ثلاثين وسقاً فى خيبر، فكان يحدث الناس زمن (عمر بن الخطاب) عندما قرر
عمر قطع أنصبة المؤلفة قلوبهم عنهم، بقوله:

والله ما أسرنى أحد من الناس، فيقال: فمن؟ فيقول: لما انهزمت قريش
انهزمت معها، فأدركنى رجل طويل على فرس أبيض بين السماء والأرض،
فأوثقتنى رباطاً، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدنى مربوطاً، وكان
عبد الرحمن ينادى فى العسكر: من أسر هذا؟ فليس أحد يزعم أنه أسرنى،
حتى انتهى بى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله:
يا ابن أبى حبيش، من أسرك؟ فقلت: لا أعرفه، وكرهت أن أخبره بالذى
رأيت، فقال رسول الله: أسرك ملك من الملائكة، اذهب يا ابن عوف
بأسيرك فذهب بى عبد الرحمن بن عوف، فقال السائب: ما زلت تلك
الكلمات أحفظها، وتأخر إسلامى، حتى كان من أمرى ما كان.

أما البيهقى، فيعقب على رواية السائب بقوله الكاشف:

ولا أعلمه روى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - شيئاً^(٤٣).

(٤١) ابن سيد الناس: سبق ذكره، ج ١، ص ٣١٢.

(٤٢) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٠٩.

(٤٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٠.

ثم يجد المطالع لسيرة ابن هشام، كشفاً رصده (ابن هشام) راوى السيرة عبر عدد من الصفحات على استطالتها، بأسماء قتلى قريش في بدر، وأسماء الذين قتلهم من المسلمين، كل قتل، وكل قاتل، دون إسقاط لاسم مقتول أو لاسم قاتل من الطرفين^(٤٤). وربما كانت مثل تلك المزايدات التى أوردناها، مدعاة لتهمك رجل ملحد مثل ابن الراوندى وهو يتساءل:

من هؤلاء الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة نبيه؟ إنهم كانوا مفلولى الشوكة قليلى البطش، فإنهم على كثرتهم واجتماع أيديهم وأيدي المسلمين معهم، لم يقتلوا أكثر من سبعين رجلاً؟ وأين كانت الملائكة يوم أحد حين توارى النبی بين القتلى ولم ينصره أحد؟^(٤٥).

وإذا كنا نورد كلام ذلك الملحد، فلکی نرى إلى أى حد يمكن أن تبليبل تلك الروايات الفؤاد، ولا شك أن موقفه كملحد مرفوض بالقطع من جانبنا، لكننا ربما تساءلنا تساؤلاً مشروعاً من مسلم يريد الاطمئنان لطوية فؤاده، حرصاً على صيانة إيمانه ونقائه، مع تساؤل من سأل (أبى الحسن السبکی)، وهو يقول:

سئلت عن الحكمة فى قتال الملائكة مع النبی ببدر، مع أن جبریل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فأجبت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي وأصحابه... وكان يكفى ملك واحد، فقد أهلك مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة^(٤٦).

أما الأهم برأينا فى خبر الملائكة، فهو أن إعلام النبی للمسلمين قبل القتال بالمدد السماوى، كان كفيلاً بتقوية روحهم المعنوية، وإنزال السكينة على قلوبهم، وهو ما أدى بالفعل إلى نومهم ليلة القتال نوماً أخذوا به راحتهم، استعداداً لاستقبال قريش فى الصباح، كما كان وجود الملائكة - فى حالة أخرى - حلاً مثالياً لمشكلة توزيع الأنفال، عندما اختلف المسلمون حول أنصبتهم فى أنفال بدر، فنزعت من أيديهم ووضعت بيد رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ليقرر ما يراه لشأنها، باعتبار الله وملائكته هم أصحاب ذلك النصر، وهو ما قالت بشأنه الآيات:

«يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم» (١ / الأنفال).

(٤٤) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٠٢: ١٠٦.

(٤٥) إبراهيم بيومي: فى الفلسفة الإسلامية، ص ٨٣.

(٤٦) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٨.

وهى الآيات التى كان سببها ما يرويه أبو إمامة الباهلى:

سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسوله، فقسمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المسلمين عن بواء، أى على السواء^(٤٧).

والعجيب بشأن ما روى عن الملائكة البدريين، قصصاً أخرى، كان واضحاً أن أصحابها لم يجدوا أية دلائل ظاهرة يمكن تأويلها ونسبتها إلى الملائكة، فالتقطت نمل الوادى الذى ربما سال من جحوره بفعل المعركة، وما سكب من ماء القلب المغورة، لترى فى ذلك النمل ملائكة السماء، وهو ما جاء فى قول جبير بن مطعم، «رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون، مثل البجاد الأسود أقبل من السماء مثل النمل الأسود، فلم أشك أنها الملائكة، فلم يكن إلا هزيمة القوم... وعن حكيم ابن حزام قال: لقد رأيتنا يوم بدر وقد وقع بوادى خلص بجاد من السماء قد سد الأفق، وإذا الوادى يسيل نملاً، فوقع فى نفسى أن هذا شيء من السماء أيد به محمد - عليه الصلاة والسلام - فما كانت إلا الهزيمة، وهى الملائكة^(٤٨). لكن الملاحظ هنا أن الرواية خرجت بنمل الوادى إلى فضاء الأسطورة، لتضع جملة تقول: إنه نمل سماوى، سقط من السماء على الأرض.

والحاسم فى أمر تلك الروايات جميعاً، والذى يضع أمر الملائكة فى موضعه الصحيح، ولا يسمح بسلب الرواة للعقلانية المعهودة عن دين الإسلام، فهو ما جاء بين الروايات هادئاً رصيناً يقول:

لولا أن الله تعالى حال بيننا وبين الملائكة التى نزلت يوم بدر، لمات أهل الأرض خوفاً من شدة صعقاتهم وارتفاع أصواتهم^(٤٩).

أما القاطع فى المسألة فهو:

أن الملائكة كانت تأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه... وكان الملك يتصور فى صورة من يعرفون^(٥٠).

(٤٧) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٢، ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٠٢.

(٤٨) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٦١.

(٤٩) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٠٧.

(٥٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٠.

قراءة أخرى

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من
تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من
تشاء وتذل من تشاء﴾

[٢٦ / آل عمران]

حروب دولة الرسول

جزء أول

«واللات والعزى لا نرجع، حتى نقرن محمداً وأصحابه فى الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً»^(١)، كان هذا نداء أبى جهل (أبو الحكم بن هشام) أحد رجالات الملأ القرشى، لما أقبلت قريش إلى بدر تحتفل بنجاة تجارتها، ثم تيقنت أن النبى وأصحابه قد سبقوهم إلى هناك.

والنداء يعكس مدى ثقة (أبى الحكم) فى قوة قريش، كما يعكس الرغبة فى تأديب الخارجين على الملأ، بأسرهم ثم أخذهم إلى مكة لمحاسبتهم، ليكونوا عبرة لمن تساوره أطماعه من الأعراب، بتهديد الطريق التجارى المكى، طريق الإيلاف، وهو - لا شك - النداء الذى حاول المشركون تنفيذه، بتحاشى القتل طمعاً فى الأسر، فكان نصر الله لجنده، مما عكس توقعات (أبى الحكم)، الذى أثبتت وقعة بدر أن حكمته قد تخلت عنه فى قرارات عدة، ساعدت على الهزيمة، فاستحق لقب (أبى جهل) عن جدارة واستحقاق.

وإعمالاً للمادة التى رصدتها كتب السير والأخبار الإسلامية عن موقعة بدر الكبرى، يمكن إعادة قراءة واقع الأحداث قراءة موضوعية، تضع كل حدث فى موضعه الصحيح، لمعرفة دور كل عنصر، فى إفراز النتائج التى انتهت إليها الوقعة البدرية، التى شاعت لها الظروف أن تكون ذات دور بارز فى تحديد مسار التاريخ الإنسانى بعدها.

وضع المكين

بداية يمكننا الوقوف مع ما نبه إليه (أحمد إبراهيم الشريف)، عن وضع المكين فى مكة قبل الخروج إلى بدر، وكيف كان الهاشميون، آل بيت العشيرة النبوية، عيوناً له على أهل مكة، يرسلون له بأدق التفاصيل، ويحيطونه علماً بأخبار الملأ، وبالأحوال الاقتصادية والاجتماعية كلما جد جديد، وأية تحركات مهما صغر شأنها، مع ما كانوا يذيعونه بين أهل مكة فيما نعرفه بالحرب النفسية، لإضعاف الروح المعنوية لرجال البيت الأموى وأشراف الملأ^(٢)، وهو ما رأيناه من جهتنا، فى أمثلة سبق ورصدناها فى موقعها من السياق، كرؤيا (عاتكة بنت عبد المطلب)، ورؤيا (جهيم ابن الصلت بن عبد المطلب)، مع التهديد الواضح والمباشر، الذى حملة (سعد بن معاذ) من يثرب إلى مكة، فى عمرة أعلن أثناءها إمكان يثرب قطع طريق الإيلاف الشامى، وذلك قبل وقعة بدر بقليل.

(١) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٥٣.

(٢) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، سبق ذكره، ص ٤٢٠.

ثم كان ما كان من تفرق القرار المكي، وفقده الإجماع واتفاق الكلمة، حول الخروج أو القعود، ثم ما كان من شأن بنى هاشم، ويقين الأمويين أن هوى بنى هاشم مع محمد، وما كان من خروجهم مع الخارجين مكرهين، بإصرار غير حكيم من (أبي الحكم)، مما جعل الجبهة المكية من البداية، متفرقة وغير متماسكة، تستبطن في داخلها صفاً معادياً لها.

أما الشعور بالتأثم لدى المكيين، فكان واضحاً في كثير من المواقف، نتيجة خروج أصحابهم وإخوانهم وبنيتهم وبنى عمومهم في هجرة لاجئة إلى يثرب، وهذا الشعور بالذنب والإثم، كان عاملاً آخر يضاف إلى عوامل ضعف الجبهة المكية في وقعة بدر، وذلك فيما يؤكد (الدكتور الشريف) (٣).

ونستعيد مشهد خروج أهل مكة من البداية، فهم يخرجون استجابة لاستغاثة (أبي سفيان)، لنجدة تجارتهم القادمة من الشام والتي عرض لها المسلمون، ليتغير الأمر فجأة، بعد أن خرج المكيون في طريقهم لإنقاذ القافلة، فتأتيهم رسالة ثانية من (أبي سفيان) وإنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا (٤). فيزعمون العودة إلى مكة بعد أن هدا ما بالنفس من حرور واستنفار، بنجاة أموالهم، ورجالهم من حراس القافلة السفينانية، لكن ليهتف (أبو الحكم بن هشام): والله لا نرجع حتى نقدم بداراً فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من العرب، فإن لن يرانا أحد من العرب فيقاتلنا (٥)، فيعود الركب مرة أخرى موجهاً وجهه نحو بدر، ليستعيد تثبيت الهيبة القرشية، بحفل يسمع به جميع العرب، فيهايون قرشاً بعدها أبداً، وتتأرجح أحوال القرشيين النفسية، مع كل موقف جديد، ليجد جديد آخر، وقد وجهوا وجهتهم نحو بدر، فتنحزل عنهم بنو زهرة، أحوال النبي عليه الصلاة والسلام المباشرون، وأهل (أمنة بنت وهب)، التي تركته طفلاً يتيماً، وهم من يمثلون ثلث عدد الخارجين، ويعودون إلى مكة مكتفين من المغنم بنجاة تجارتهم ورجالهم، راغبين عن الحفل السامر الذي دعا إليه (أبو الحكم)، والذي تحول مع الأخبار القادمة مع المتجسسين والعيون، إلى أرق وترقب لما ينتظرهم ببدر، وهنا تأتيهم ضربة أخرى بانحزال آخر، كان سببه ثقتهم السريعة في الشيطان (سراقة بن مالك) الزعيم الكنانى، الذى طمأنهم من ناحية بنى بكر بن كنانة، وأن كنانة البكريين لن يأتوهم بشيء يكرهونه رغم ما كان بينهم وبين قریش من ثأر، بل ويخرج معهم (سراقة) إلى حفلهم البدرى، تأكيداً لمقدم كنانة

(٣) نفسه: ص ٤٣٠.

(٤) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٨.

(٥) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٩.

جميعاً خلفه لدعم قريش، ثم يفلت مع الوصول إلى بدر عائداً، ليردد لسان (أبى الحكم) الذى حاز لقب (أبى جهل)، محاولاً تخفيف الأثر النفسى لانحزال سراقه عنهم بقوله: «يا معشر الناس: لا يهولنكم خذلان سراقه بن مالك، فإنه كان على ميعاد مع محمد»^(٦). وهنا لا يغيب على فطن، أن بنى بكر بن كنانة، كان لهم قبل بدر مودة مع النبي عليه الصلاة والسلام، بعد أن جرد عليهم غزوته فى صفر، من آخر أيام العام الهجرى الأول.

وما بدأت المعركة فعلياً، إلا وكانت قريش محطمة معنوياً بالتمام، بعدما رأت ثلاثة من أشرافها وشيوخها ورجال الملأ المقدمين، يتضرجون فى دمائهم فى مبارزة سريعة، فقتل الشيخ الجليل.. بتعبير كتب السير الإسلامية.. (عتبة بن ربيعة)، وأخوه (شعبة بن ربيعة)، وابنه (الوليد بن عتبة)، فى لحظات، لتبدأ المعركة الساخنة، مع نداء النبي لرجاله: شدوا.

ويبدو أن الكثرة العددية للقرشيين، مقارنة بعدد المسلمين، كانت مدعاة فى نظر البعض، لعدم البحث عن أى ظرف آخر لهزيمة قريش، فهى المعجزة، ولا جدال عندنا أنها معجزة انتهت بانتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله، لكن مع الأخذ فى الحسبان أن تلك الكثرة القرشية، كانت تحتوى على تناقض صارخ فى الأعمار مع القلة الإسلامية، حيث كان الجمع القرشى يحوى الأشراف والأجلة من شيوخ قريش، مقابل جيش إسلامى يضم فى معظمه شباباً كله فتوة، مع رجال يثرب المتمرسين بالحرب المتترسين بالحلقة.

وهذا بالطبع ما يمكن إضافته جميعاً إلى عدم ثقة قريش فى عدالة موقفها، من حيث قياسه على محك العرب فى العدل، وإن اتفق مع مقاييس المصالح، وتثبيت الهيبة كأغراض أساسية، وهو الأمر الذى كان غير موافق لرغبة جميع القرشيين، فانقسموا حوله فى رأى بعد نجاة تجارتهم، هذا ناهيك عن الخوف القرشى من إصابة أحد من العشيرة، أو سفك دم أحد من بنى العمومة أو الإخوة.

ولا نزاع فى أن وصول قريش إلى بدر متأخرة عن المسلمين بيوم كامل، لم يعطها فرصة اتخاذ المواقع الملائمة فى الحرب، خاصة أنها ما أن دخلت وادى بدر حتى بدأت المعركة، مع الجهد والعطش الذى أخذ بها وهى تحت الخطى أملاً فى مياه بدر التى وصلتها وقد عورت، مع تضارب رأى الرؤوس منها نتيجة غياب القائد الواحد، حيث كان (أبوسفيان/ صخر بن حرب) صاحب اللواء متغيباً مع قافلته، مما كان سبباً فى خلف عظيم بين الملأ فى كل شأن منذ خرجوا من مكة، فحاربوا بدون قائد ولا ترتيب ولا حتى نفوس مهياة للمعركة.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٣.

وضع المسلمين

وبمقارنة حال المكين بحال المسلمين، نجد أن رصيذاً موضوعياً آخر لا انتصار المسلمين في بدر على أهل الشرك، لعل أهمه هو ثقة شباب الجيش الإسلامى فى عدل قضيته، وأن الله يعطى نصره للمظلوم الذى أخرجه الظالمون من أهل بيته وبنيه، إضافة بالطبع إلى الأنصار رجال المجادلة المتمرسين، من حازوا صفة أهل الدم والحرب والحلقة التى ورثوها كابراً عن كابر، وهو ما أجمع معنويات المسلمين وأعلاها، لتطلب ثأرها أو موتاً بعده جنات خالدة، كنتاج ليقين أنهم يحاربون ومعهم رسول الله، ثم كان أعظم دعم لتلك المعنويات العالية، الوعد بالإمداد السماوى المحارب، هذا بالطبع مع تحول الولاء عن القبيلة إلى الأخوة الإسلامية، عن العشيرة إلى الله ورسوله، وعن البطون والأفخاذ إلى الأممية، مما جعلهم يحاربون دون أن يباليوا من يصيبون من العشيرة أو الأهل، وما إن سقط فى المعركة أخ أو ابن أو عم أو ابن عم، أما الدافع المادى المباشر للمغانم، فكان لا شك صاحب دور عظيم.

ومن ثم؛ حارب المسلمون وهم تحت قيادة موحدة منظمة، لقائد أعلى وهيئة أركان حرب بثرية. قسمهم إلى ألوية ذات علامات مميزة، وصفوف لكل منها دوره فى الرماحة أو المسابقة أو النبالة، مع سمات الصوف التى علقوها بخوذهم ونواصى خيولهم، بعد أن ناداهم النبى «سُومُوا فإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ سُومُوا» لمزيد من معرفة بعضهم بعضاً فى المعركة، ثم الشعارات الشفوية ونداءات يعرفون بها بعضهم بعضاً، ويميزون بها أنفسهم مع اختفاء الرؤوس والأجساد تحت الخوذ والدروع الحديدية، وهو لا شك لون عظيم من الاستعداد، لا شك أدى على الجانب الآخر إلى قتل القرشيين بعضهم بعضاً، مع سلامة تامة من هذا الأمر على الجانب الإسلامى. كما كان خبر الملائكة مدعاة للاطمئنان النفسى، جعلهم يأخذون ليلة المعركة قسطاً طيباً من الراحة والنوم.

وكان التبكير فى الوصول إلى بدر، ميزة أخرى مكنت المسلمين من اختيار الأماكن المناسبة، سواء للنبالة فى الأعالي، أو للرماحة خلف السواتر الصخرية، أو لبعض من هؤلاء وأولئك فى صفوف خلفية، لحماية هجوم السيافة، مع حيازة الماء فى الحوض، ثم كان اختيار وجهة القتال ذاتها، وهو ما أشار إليه الواقدى فى قوله:

... ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى الصفوف، فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه، وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس،

فنزّل رسول الله بالعدوة الشامية، ونزلوا بالعدوة اليمانية^(٧).

وهو ما إن حققناه جغرافياً فإنه يعنى أن المعركة بدأت في الصباح، والمسلمون وجهتهم الجنوب الغربي والشمس خلفهم، بينما كانت جهة المشركين الشمال الشرقي والشمس في أعينهم. أما أهل علم النفس فيقولون:

وفي جميع الأحوال، فإن لذلك النوع من الانتصار، - وهو كثير جداً في التاريخ، ونبه إلى نظرائه القرآن الكريم - تفسيراً يرد تحت اسم الاستجابة الحرجة Reaction Critique حيث تبدى القلة استماتة في الدفاع والهجوم، تؤدي إلى النجاح، ثم أن تلك الظاهرة معروفة في بعض سلوكيات الطفل أمام خصم أكبر منه، وفي عالم الحيوان عند الدفاع مثلاً عن مجالته الحيوى...^(٨)

هذا بينما نجد قراءة موضوعية واعية للكاتب والمؤرخ الإسلامي (أحمد شلبي)، تطلعننا على النبي عليه الصلاة والسلام كقائد عسكري ناجح، يأخذ بأسباب الظرف الواقعي في كل خطوة، فهو - فيما يقول (الدكتور شلبي) - «إذا أراد خوض معركة، كتم سر اتجاهه الذي يسعى إليه، حتى عن أقرب الناس إليه، ليفاجيء الأعداء بهجومه...» وقد روى عن كعب بن مالك أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يغزو غزوة ورى بغيرها، وعن أنس أن رسول الله قبيل غزوة بدر هتف بأصحابه قائلاً: إن لنا هدفاً، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا، وكان إذا عقد اللواء في سرية من السرايا لأحد أصحابه، يركز اللواء في فناء المسجد ويختار بعض الأبطال، ولا يحدد المكان لأمر السرية إلا عند التحرك، وأحياناً كان يكتب له كتاباً ويطويه، ويأمر بالاتجاه نحو الشمال أو نحو الجنوب مثلاً، وألا يفتح الكتاب إلا في مكان يحدده، وكل ذلك حتى لا يتسرب الخبر للعدو، فيبادر بالهجوم وتفشل الخطة.

ومما عنى به الرسول أنه قبل المعركة، كان يذل كل الجهد ليتعرف على أخبار العدو، حتى يأخذ للأمر عدته... وكان جواسيس بمكة يأتونه بالأخبار... واهتم الرسول اهتماماً بالغاً بتنظيم الجيش تنظيمياً شمل مسيرة الجيش، وترتيبه، فهو يسير بجيشه وتكون مسيرته هو في آخر الركب... وهو يلبس للحرب لباسه وعدته، ويحمل الجيش الألوية وتشد الأناشيد للتشجيع والحماسة... ويتخذ للجيش كلمة سر... وكان يضع كل فرد مع أفراد قبيلته،... وقد تأثر القادة

(٧) الواقدي: المغازي، تحقيق م. جوز، ج ١، ص ٥٦.

(٨) د. علي زيمور: قطاع البطولة والرجسية في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢، ص ٥٩.

المسلمون بأقوال الرسول وفعله تأثراً كبيراً... حتى ليروى أن على بن أبى طالب فى غزوة بدر... التقى نوفل بن خويلد... فصاح نوفل بعلى: أسألك بالله والرحم أن تكف عنى، أنا أخو خديجة وخال فاطمة (وهى رواية سترد فى غزوة أحد فى الرواية الأرجح، حيث كف عنه على فأمره النبى بقتله، والإشارة هنا مضافة من عندنا إلى كلام الدكتور شلبى)، فقال على: لا قرابة بين مشرك ومسلم... وقتل أبو عبيدة بن الجراح أباه... وقال له وهو يطعنه: خذها فى سبيل الله،^(٩).

نتائج بدر الكبرى

يقول (البیهقي) معقباً على غزوة بدر، وما أدت إليه من نتائج:

وأذل الله بوقعة بدر رقاب المشركين، والمنافقين، فلم يبق فى المدينة منافق ولا يهودى، إلا وهو خاضع عنقه لوقعة بدر^(١٠).

وهكذا؛ وعلى الترتيب ترتيب نتائج غزوة بدر الكبرى، فأذل الله رقاب المشركين، ولم يكن ذلهم إلا بهزيمة ماحقة، قضت على الرؤوس القرشية، رجال الملأ القرشى، الأمر الذى كان عسير التصديق عند رجال عرب ذلك الزمان، حتى أن النبى عندما بعث رجاله يسبقونه ببشرى النصر إلى يثرب، ولإلقاء الرعب فى قلوب المتظاهرين بالطاعة، وفى أفئدة اليهود، بهتاف ينادى «قتل فلان وفلان، وأسر فلان وفلان، من أشراف قريش»، كان الرد المتسرع من (كعب ابن الأشرف) وهو غير مصدق للخبر:

إن كان محمد قد قتل هؤلاء القوم، فبطن الأرض خير من ظاهرها^(١١).

ولعل مبلغ ذلك الانتصار البدرى، يظهر واضحاً فى المدى الذى وصلت إليه قوة المسلمين، ونضاءلت بجانبه قوى يثرب جميعاً، ثم يتضح فى مقتل (كعب بن الأشرف) بعد ذلك، لما ذلّف به لسانه، أما مكة فحالها يتضح فى خروج (كنانة بن الربيع) يصحب (زينب) بنت رسول الله رضى الله عنها، نهاراً جهاراً أمام أعين قريش، وما دار من حوار بينه وبين (أبى سفيان)، يبرز

(٩) د. أحمد شلبى: السيرة النبوية العطرة، دار النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٢، ١٩٨٧، ج ١، ص ٣٧٥، ٣٧٧.

(١٠) البیهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ١١٧.

(١١) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٣٥.

مدى هوان قريش وانحطاط هيبتها، ويرى (ابن هشام) أن قريشاً قامت تنوح على قتلها، ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم، لا يارب عليكم محمد وأصحابه في الفداء، وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده: زمعة بن الأسود، وعقيل بن الأسود، والحارث بن زمعة، وكان يحب أن يبكي على بنيه، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلام له وقد ذهب بصره: انظر هل أحل النحب؟ هل بكت قريش على قتلها؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة - يعنى زمعة - فإن جوفى قد احترق، قال: فلما رجع الغلام إليه قال: إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته، فذاك حين يقول الأسود:

أتبكى أن يضل لها بعير	ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكى على بكر ولكن	على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بنى هصيص	ومخزوم ورهط أبى الوليد
ويكى إن بكيت على عقيل	ويكى حارثاً أسد الأسود
ويكيهم ولا تسمى جميعاً	وما لأبى حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا ^(١٢)

وهكذا ذهب سراة الناس وجدودهم فى بدر، وألقيت أجساد رجال الملأ فى القلب، وبقيّة من كبير وفخر كاذب تمنع قريشاً من النواح على كبارها وأشرفها، بينما لم تجد امرأة أضلت بعيرها الوحيد حرجاً فى العويل والندب، فالفقر له أحكام غير أحكام الغنى والثراء، ومن ثمّ ومع اللوعة، أخذت قريش تدمر بيدها هيكلها الإنتاجى، المتمثل أهم جوانبه فى أمن كل من دخل مكة، فتضرب فى غضبها أمن كسبها، فى رواية (ابن كثير) عن خروج (سعد بن النعمان) الأنصارى معتمراً إلى مكة، لئلا يرى تلك العمرة ذات غرض واضح للجس والاختبار، ومعرفة مدى ما وصلت إليه أعصاب قريش، ومما ليس له معنى - فى رأينا - أن ينزل أنصارى إلى مكة، وأفلاذ كبد مكة لم تزل دماؤها لينة طرية على أرض بدر، لولا غرض واحد يستحق ذلك، فيقول ابن كثير: «خرج سعد بن النعمان بن أكال، أخو بنى عمرو بن عوف معتمراً... وكان شيخاً مسلماً، فى غنم له بالبقيع، فخرج من هنالك معتمراً، وقد كان عهد قريش أن قريشاً لا يعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو، وقال فى ذلك:

(١٢) السهيلي: شرح السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٥.

أرھط بنى أکال أجیبوا دعاءہ تعاقدتم لا تسلموا السيد الکھلا
فإن بنى عمرو لئام أذلة لئن یکفوا عن أسیرهم الکبلا

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان فيفكوا به صاحبهم، فأعطاهم النبی، فبعثوا به إلى أبى سفيان، فخلی سبیل سعد، (١٣).

أما ما تبع ذلك من نتائج متوقعة لبدر الکبرى، فهو أن النبی علیه الصلاة والسلام قد أصبح مرموق الود من القبائل، وخاصة المتاخمة ليثرب، وتدفقت علیه الهدايا لكسب رضاه، مما وسع نطاق الدولة الوليدة وحدودها، بحدود القبائل المودعة لها على كافة الطرق، وهو ما أضعف فى المقابل جبهة مكة، التى لحق تجارتها ضرر جسيم، وهو الموقف الذى أخذ بالتفاقم مع مراجعة القبائل العربية لموقفها، بالنسبة لقريش، إزاء القوة الإثريية الجديدة، هذا بالطبع مع التحسن المطرد لأحوال المسلمين الاقتصادية، بعد أن وضعت بدر بيد المسلمين القوة المادية سلاحاً ومالاً، ومنحتهم الثقة النفسية والقوة المعنوية، التى مكنتهم من السيطرة شبه الكاملة داخل يثرب، فامتلاًوا جرأة، وأخذوا بتأديب المخالفين فى يثرب، وإلقاء الرعب فى قلوبهم، ثم قتل أى شخص يتجرأ بمعارضة الدولة الطالعة، وذلك فيما يرى (الدكتور الشريف) (١٤).

أما المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذى اصطفاه ربه، فقد جاءت بشأنه الآيات الكريمة - بعد ذهاب الملاء - تقول:

«وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع» (٦٤/ النساء).

«من يطع الرسول فقد أطاع الله» (٨٠/ النساء).

«كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا» (٥١/ النور).

أما الأكثر بلاغة وتبليغاً، وفيصلاً قاطعاً، فهو ما سجلته الآيات الكريمة بقولها:

«قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء» (٢٦/ آل عمران).

(١٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣١١، ٣١٢.

(١٤) د. أحمد الشريف: سبق ذكره، ص ٤٣٦.

ولعل العنصر اليهودي في المدينة، قد أدرك بما عهد به من حصافة، مغزى (الآخرين) في الآية الكريمة:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم» (٦٠ / الأنفال).

وهو البيان الذي ستنبئ به الأحداث اللاحقة، والمتلاحقة على صفحات تراثنا الإسلامي.

ومن بين أهل يثرب، أمسى أهل بدر ومقاتلوها، هم المقدمون على غيرهم من مسلمين، وهو ما يشير إلى وقع الواقعة وقيمتها ونتائجها، ويظهر في عدد من الروايات حول ما حازه هؤلاء في الدولة الجديدة، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يكرم أهل بدر ويقدمهم على غيرهم، ومن ثم جاء جماعة من أهل بدر للنبي وهو جالس في صفة ضيقة، ومعه جماعة من أصحابه، فوقفوا بعد أن سلموا ليفسح لهم القوم فلم يفعلوا، فشق قياهمهم على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال لمن لم يكن من أهل بدر من الجالسين: قم يا فلان، قم يا فلان، بعدد الواقفين فعرف رسول الله الكراهة في وجهه من أقامه، فقال: رحم الله رجلاً يفسح لأخيه، فنزل قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا» (١١ / المجادلة)، فجعلوا يقومون بعد ذلك... وخص أهل بدر بأن يزدادوا في الجنازة على أربع تكبيرات تمييزاً لفضلهم،^(١٥).

وعليه، فقد كان لوقع الواقعة البدرية، وما أحدثته من تغيير في موازين القوى، واشتداد عود الدولة الإسلامية الطالعة وصلابته، دور أساسي في ظهور ولايات جديدة، اعتلى فيها المحاربون الأول والسابقون، سنام الحظوة في الدولة الإسلامية، حتى تم منحهم الجئة منحاً مطلقاً دون اعتبارات أخرى غير مشاركتهم في الواقعة البدرية، وهو ما نجد نموذجاً له في حدث خطير، بعد زمن من بدر، قبل فتح مكة بأيام، عندما أرسل (حاطب بن أبي بلتعة) رسالة تحذير إلى أهل مكة بينما كان الرسول يجهز للفتح سراً، مع امرأة ذهبت تحملها إليهم، فأرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - في إثرها جماعة على رأسها (علي بن أبي طالب) الذي يروى قائلًا:

فأدركناها تسير على بعير لها، فقلنا الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، فأخذنا بها والتمسنا في رحلها فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله، لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فلما رأت أني أهويت إلى حجزتها وهي

(١٥) الحلي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٧٠.

محتجزة بكساء، أخرجته فانطلقنا به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني أضرب
عنقه، فقال رسول الله: أليس من أهل بدر، وما يدريك لعل الله قد أطلع على
أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة وغفرت لكم،
فدمعت عينا عمر رضى الله عنه وقال: الله ورسوله أعلم^(١٦).

هذا مع نتائج أخطر على مستوى شكل الدولة الاجتماعى المقبل، كنتاج لتعزيز سلطة النبى
الحاكمة، وهو الأمر الذى أدى إلى تراجعات عن الأممية المطلقة، والأخوة المطلقة (المواخاة)
التي كادت تكون مشاعاً، وإلغاء نظام المواخاة، بعد ما حاز المهاجرون من نفل طيب، وأموال من
فك الأسرى، لتطفر الدعوات الأولى للامتلاك والتبرجز، والتي بدأت ترغيباً فى امتلاك كنوز
كسرى وقيصر، كذلك سئى فيما بعد، أن المشاركة فى بدر كانت أساساً فى الحصول على
الهبات، ومقياساً للأعطيات، بعد أن اعتلى المحاربون السابقون مكانهم المتميز فى الدولة، وبينما
كان الباقيون منهم على قيد الحياة يتحولون نحو الثراء والامتلاك، كان يتم استحضرار روح الآيات
المكية الأولى، التي كرست الملكية الفردية، وقدمت عقلنة واضحة للتفاوت الطبقي، من قبيل:

.. ﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق﴾ (٧١/ النحل).

.. ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا
رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هل يستويون الحمد لله بل أكثرهم لا
يعلمون﴾ (٧٥/ النحل).

.. ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات
ليبلوكم فيما آتاكم﴾ (١٦٥/ الأنعام).

لتبدأ مرحلة جديدة على الخط الاستراتيجى، متجاوزة المرحلة التكتيكية المتحالفة مع
المستضعفين، تستكمل خطها الأصلى، لكنها وهى بسبيل ذلك تشكل تراجعاً محسوباً عن الأممية
المطلقة، فتأخذ السمات الوسطى بين الأممية وبين الدعوة إلى الحفاظ على العلاقات العشائرية،
والتوصية بذوى الأرحام، فى طور متوازن عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ (١٤٣/ البقرة).

وهو التوجه الذى يفسر رواية أخرى عن (حاطب بن أبى بلتعة) - يجب قراءتها مقارنة

(١٦) البخارى: ٧٤ كتاب المغازى، باب فضل من شهد بدر، انظر أيضاً مسلم فى ٤٤ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر.

بموقف سابق أُعْتُق فيه (بلال) بعد شراء (أبى بكر) له لرفع الأذى عنه - والرواية تقول: إن (حاطباً) أذى عبداً مسلماً له، فجاء العبد المسلم يحمل أذاه إلى النبي عليه الصلاة والسلام. موقناً بحقه في المساواة المطلقة، وبحقه في ظل المبدأ الأمي الذي دفعه للرسول، غير شاكٍ فيما يلزم عن المبدأ من مقررات حقوقية تستوجب التطبيق، لينهى للرسول النتيجة التي توصل إليها، غير مدرك ما أدت إليه بدر من نتائج وتحولات، فيقول له:

ليدخلن (حاطب) النار.

لكن ليرد عليه النبي عليه الصلاة والسلام:

كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدر^(١٧).

ثم لنلاحظ أن (حاطباً) نفسه، هو من استمر في معاملة عبيده بالقسوة، وشدد عليهم النكير. وضيق عليهم إلى حد المسغبة، مما دفعهم - عام الرمادة زمن خلافة عمر بن الخطاب - إلى السطو على بغير له والتهامه، وهو ما دفع عمر، صاحب الانتماء القوي إلى المنزح الأمي، إلى تعنيف (حاطب) تعنيفاً شديداً، مع إيقاف تطبيق حد السرقة على عبيده.

ومن ثم فإن قراءة نتائج غزوة بدر، تلاحظ بداية الأسلوب الوسطي المتوازن للدولة بين النقائص، فتدعو لتوحد أممي تحت راية واحدة، وسيادة دولة موحدة، وتحت إمرة سلطة نبوية واحدة، لكنها تضم في شكلها الاقتصادي لوناً طبقياً لا نزاع فيه، وتحوى في شكلها الاجتماعي قبائل متوحدة، لكنه توحد غير منفرد إلى فردية مطلقة، إنما ترابط لأضمومات قبلية في هيئة حزم موثقة بوثاق واحد في إطار الدولة، وهو ما تلحظه القراءة المدققة لنزول المسلمين إلى بدر تحت راية واحدة للرسول، وشعار واحد هو «يا منصور أمت»، لكنها انقسمت إلى رايات ثلاث تسير تحت ظل راية الرسول، وتنادت بثلاثة شعارات، تحت الشعار الموحد، فكان للخزرج رايتهم، وللأوس رايتهم، وللمهاجرين رايتهم، وكان لكل من الحزم الثلاث، نداءات شعارية ثلاثة.

هذا بينما تم الإبقاء على الفردية والولاء الفردي والمسئولية الفردية، ولكن في عالم الفكرة، عالم السماوات الإلهي، العالم الآخر في علاقة المسلم بربه، فتم تأجيل الفردية المطلقة بمسئولية الفرد الكاملة والذاتية إلى فيما بعد، لأن تلك المسئولية المطلقة إنما تعنى أيضاً حرية مطلقة، وهو ما يتصادم مع الصرامة المطلقة المطلوبة للسلطة النبوية لإقامة الدولة دون معوقات، وهو ما يفسر لنا تجاور الآيات التي تؤكد مسئولية الفرد عن أفعاله أمام الله، والآيات التي تؤكد من جانب

(١٧) مسلم: ٤٤ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل من شهد بدرأ.

آخر الجبرية والحد من تلك الحرية المطلقة، وتقيد تلك الحريات بالمشيئة الإلهية والإرادة القدسية، ومن ثم فقد تأجل تفجير الأطر القبلية تفجيراً كاملاً إلى مرحلة مجتمعية أعلى، لكن مجرد وجود الفكرة عن الفردية المطلقة والمساواة المطلقة والمسئولية الفردية المطلقة أمام الإله في عالمه السماوى القادم فيما بعد، فى الآخرة بعد البعث، إنما يشير بالتأكيد إلى تواتر الفكرة فى المجتمع المدنى والمكى حينذاك، وربما فى عالم جزيرة العرب، بعد تفكيك الطبقة للشكل الجماعى والمسئولية الجماعية القبلية، وأن الواقع قد أفرز الفكرة، وأنها كانت مطروحة بالفعل فى زمانها.

وعليه؛ فقد ظهرت الفردية ومسئوليتها بالفعل، ولكن كفكرة، فى مجال القوة، وكممكن قادم فى عالم الفعل، لكن فى تطور قادم، وهو ما يظهر المرحلة الآنية كجزء من الحركة الانتقالية وكدرجة أعلى تم ارتقاؤها داخل المرحلة الانتقالية ذاتها، تتلاءم ومعطيات مجمل ظروف الواقع آنذاك، وهو الأمر الذى سيتيح للنبي التحرك داخل ذلك التوازن بين النقائص دون مشاكل، فجاءت التنظيرة لا تصادم الواقع ولا تفرض عليه ما لم يتهيأ له تماماً بعد، مما سيمكن مؤسسة الدولة من استخدام الأممية دوماً، والعشائرية أحياناً، فى موضعها المناسب من الظروف المتغيرة، لتحقيق أهداف أكثر نفعاً، حين الحاجة إلى أى منهما وحسب الطارئ وظروفه، وما يستدعيه من حاجة إلى أى من الطرفين النقيضين.

وتأسيساً على كل ذلك، فإن غزوة بدر، قد أفضت إلى نتائج هائلة على المستوى النظرى والعملى، وحددت مواقف كثيرة، كان الإفصاح عنها مؤجلاً حتى يأتى الله بأمره، وكان أهم ما حققته هو وضعها بداية النهاية لنظام قريش السياسى، فى حكومة الملائمة شبه الجمهورية البدائية، بالقضاء على ساداتها المتطرفين من الملائمة والسادة، المنافس الحقيقى لفكرة الدولة الواحدة، وهو ما سيتم تثبيته بعد زمن، بالاعتماد على ذلك التوازن بين النقائص، فى مملكة وراثية كبرى، ستمسك بأعنتها قبيلة قريش، وقبيلة النبي، والأرستقراطيون فيها تحديداً من البيت الأموى، وهى العودة التى ما كانت لتتم لولا العودة إلى الرحم وصلات العشيرة، التى صبت الأمر بيد الطبقة التى سيتطور شأنها ويتم دعمها بالتدريج خلال حياة الرسول نفسه، وهو ما أدى إلى وضع الشروط السياسية للسلطة المتوازنة للدولة التى انتهت لمركزية متوارثة صارمة.

وبسبيل حدوث ذلك، ستبدأ الدولة تفصح تدريجياً عن وجهها الطبقي دون موارد، ليهذا تنديد الآيات بالثروة وأصحابها، مع خفوت متساق في حديثها عن المستضعفين فى الأرض، ولكن ليظل التوازن بين النقيضين وعدم جسمه وسيلة بيد المستضعفين، عندما يرتدى الصراع الطبقي زيه العشائرى، فى صراع على بن أبى طالب ومعارية بن أبى سفيان، وفى عدد آخر من ثورات المستضعفين ضد الدولة، والذى ارتدى عادة زيه الفاطمى والهاشمى والعباسى، العشائرى أيضاً.

أحمد شارق قريش

حروب دولة الرسول

جزء أول

السياسة بعد بدر الكبرى

«ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه
وهو في الآخرة من الخاسرين»

[٨٥/ آل عمران]

حروب دولة الرسول

جزء أول

عن ابن اسحاق راوى السيرة النبوية أنه قال:

ولما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة، مرجعه من بدر،
... لم يقيم بالمدينة إلا سبع ليال، حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم.

وقال الواقدي:

... فلما أتاه وجد الحى خلوفاً، فاستاق النعم، ولم يلق كيدا، فأقام عليه
ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة^(١).

وعليه، فإن السياسة العسكرية الواضحة، تشير إلى أنه بعد قطع الرؤوس من شيوخ قريش
وسراتها، اتجه الجيش الإسلامى نحو القبائل الكبرى فى باطن الجزيرة لإخضاعها لدولته،
وإرهابها لتثوب إلى حلف يثرب، إمعاناً فى تقطيع أوصال الإيلاف القرشى لصالح الدولة
الجديدة، أما حديث (الواقدي) هنا، فيشير إلى الأثر العظيم لوقعة بدر فى نفوس أعراب بنى سليم،
تلك القبيلة التى لا يستهان بها، إلى الحد الذى هربوا فيه من مضاربتهم لمجرد سماعهم بمقدم
المسلمين، وتركوا ديارهم وأنعامهم، ليقوم المسلمون على مياههم وحياضهم ومضاربهم أياماً ثلاثة،
يعودون بعدها إلى يثرب بغنيمتهم آمنين.

وتشير الأخبار إلى مسير آخر للنبي - صلى الله عليه وسلم - إلى سليم، بعد أن رنا إلى علمه
اجتماع سليم وغطفان بحلف يريد الانتقام، ومرة أخرى تهرب سليم هرباً غير كريم وتترك حيها:

فلما سار إليه لم يجده أحد... فوجد خمسمائة بعير مع الرعاة...
فحازوها وانحدروا بها نحو المدينة... فأخرج خمسه، وقسم الأربعة أخماس
على أصحابه^(٢).

وتخميس الغنائم هنا يعود إلى أمر الوحي:

«واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول» (٤١ / الأنفال).

وهى الحصة التى سبق واشترعها لأول مرة، ابن عمه الرسول (عبد الله بن جحش) فى
سريته إلى نخلة، والتى خرق فيها الأشهر الحرم، واستولى على مغانم القافلة، وكانت أول غنم
للمسلمين، ثم قال لرفاقه:

(١) البيهقي: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ١٦٣.

(٢) الحلبي: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٨٠.

إن لرسول الله مما غنمناه الخمس، ثم فرق الباقي بينه وبين أصحابه .
وهو ما جاء الوحي بعد ذلك مصدقاً عليه في الآية السالفة (٣) .

هذا بينما كان الحال في مكة غير الحال في يثرب، فكانت مكة موتورة بقتلاها، حائرة في أمرها وأمر مهابتها وتجاريتها وهو ما يعنى كل مصيرها، ولما وصل (أبو سفيان) بقافلته، التي كانت سبب بدر الكبرى، ورأى قريشاً تعود فلولا منهزمة وهو لا يستطيع شيئاً، وهو صاحب اللواء والعسكر، نذر بيمين مغلظ إزاء ما رأى من هوان، ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو يثرب، ومعلوم في تراثنا، أن الغسل من الجنابة كان ميراثاً في تقليد العرب من قديم، مثله مثل الصلاة على الموتى، ومثل الحج وشعائره (٤)، وكذلك القسم باليمين، كان واجب الوفاء .

ولما طال الأمر بالرجل، وهو من السادة المرفهين، وكان غزو يثرب بحاجة إلى زمن وإعداد، لم يحتمل عدم الاغتسال، ولم يكن ممن يحثون باليمين، وهو حنث عند العرب عظيم، فخرج على رأس مائتي راكب من قريش إلى يثرب متخفياً يريد أن يبر فقط بقسمه حتى يغتسل، فحرقوا بعض النخل المتطرف، وقتلوا رجلين من فلاحى الأنصار كانوا في حرثهما، ثم عادوا هاربين إلى مكة، فخرج النبي عليه الصلاة والسلام مع رجاله في إثرهم، مما اضطر رجال أبي سفيان إلى إلقاء ما معهم من قرب السوق للتخفف والسرعة، والسويق هو حنطة تجمص وتطحن وتمزج بالسمن واللبن والعسل، وتتخذ زاداً في السفر، فغنمها المسلمون، لذلك سميت تلك الغزوة (غزوة السويق) (٥) .

ولا يمضى شهر حتى يخرج النبي برجاله لتأديب غطفان على حلفها مع سليم، في الغزوة المعروفة بغزوة (ذى أمر)، وهنا تحكى كتب السير أن غطفان وجدت السلامة في تصرف بنى سليم:

وهربت منه الأعراب فوق ذرى الجبال، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا أمر، وعسكر به، فأصابهم مطر كثير، فذهب رسول الله لحاجته، فأصابه ذلك المطر فبل ثوبه، فجعل رسول الله وادى ذى أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف، وألقاها على شجرة ثم اضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) ابن حبيب: المحبر، ص ١١٦ .

(٤) نفسه: ص ٤٧٩ .

(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٣٠٤، ٣٥٥ .

ثم عاد - عليه الصلاة والسلام - إلى يثرب، بعد أن أقام هناك شهر صفر كله، إرهاباً لهم^(٦).

ولم تمض سوى أيام حتى خرج إلى بنى سليم، الطرف الثاني في حلف (غطفان/ سليم)، في غزوة ثالثة، حتى بلغ (بحران) وليقيم هناك شهر ربيع الآخر وشهر جمادى الأولى، يستعرض قوة المسلمين وينشر هيبتهم، دون أن يتجرأ عليه أحد، ثم عاد إلى يثرب^(٧).

تناقضات يثرب

وهكذا بات غير خافٍ عن الأعراب، أن أحوال المسلمين قد تبدلت، وصاروا يخرجون ذرافات في سرايا لا تنقطع لقطع طريق الإيلاف، وطرق التجارة الداخلية، وللإغارة على القبائل في مواطنها لإرهابها لقطع مواصلاتها لمكة، وإخضاعها للدولة الإسلامية، لكن رغم كل هذا، فإن يثرب من الداخل لم تكن خالصة تماماً لصاحب الدعوة، وكان كل ما حدث من قبل، وبخاصة الصحيفة، مجرد تسكين مؤقت للأوضاع حتى يأتي الله بأمره، ويعد بدر بدأ الظرف يتغير، وفقدت المصلحة المشتركة بين اليهود والمسلمين، وأخذت السياسة طريقاً جديداً، فالسلاح قد فاض بعد بدر ولم تعد الحاجة ملحة لسلاح اليهود، والمال قد جاء من فداء الأسرى المكيين، والأمية إلى تضخم يضيق بالإطار القديم ويتناقض معه، وتحويل يثرب إلى دولة تناوىء دولة مكة، كان لابد أن يسبقه إزالة التناقضات الداخلية، بجمع شمل المدينة جميعاً، ونقلها من كونفدرالية تحالفية، إلى مؤسسة سياسية مركزية واحدة جامعة، تتجاوز القبائل المتحالفة إلى الدولة الموحدة.

ولما كان التناقض في يثرب يتجاوز القبلية إلى العنصرية الدينية، فقد كان لابد من حسم في الموقف السياسي نحو توحيد لكل العناصر، أو تخليص يثرب من العناصر المناقضة للتطور الجديد، ومن ثم كان لابد من موقف باتر لكل لون من المعارضة الداخلية كخطوة إجرائية أساسية، خاصة إذا جاءت تلك المعارضة من الجانب الذي يمثل اختلافاً أيديولوجياً غير مرجو الانصواء للدولة، وهنا نقرأ ما حدث بعد إصابة الملأ المكي في بدر، والفرع الذي أصاب يهود النضير مصحوباً بالحزن والأسى، ممثلاً في قول (كعب بن الأشرف):

(٦) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٦٧، ١٦٨.

(٧) نفسه: ص ١٧٢.

أترون محمداً قتل هؤلاء؟... فهؤلاء أشرف العرب وملوك الناس!! والله
لئن كان محمداً قد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظاهرها.
ثم أخذ يرسل نحيبه الباكي شعراً يرثى صرعى القليب ويقول:

طحنت رحي بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم	لا تبعدوا؛ إن الملوك تصرع
كم ذا أصيب به من أبيض ماجد	ذى بهجة يأوى إليه الضيع
صدقوا؛ فليت الأرض ساعة قتلوا	ظلت تسوخ بأهلها، وتصدع

وهنا قام شاعر الرسول (حسان بن ثابت) يكيل لكعب بن الأشرف الرد قائلاً:

فابكى، فقد أبكيت عبداً راضعاً	شبه الكليب إلى الكليبة يتبع
ولو شفى الرحمن منّا سيداً	وأهان قوماً قاتلوه وصرعوا

فرد كعب مرة أخرى ينادى المسلمين أن يردوا حساناً عن الشتم والإيذاء بقارص الكلم، وأنه
مابكى بشعره القوم إلا لود كان بينهم فى قوله:

ألا فازجروا منكم سفيهاً لتسلموا	عن القول بأنى غير مقارب
أتشقى إن كنت أبكى بعبرة	لقوم أتانى ودهم غير كاذب
فإنى لباك ما بقيت وذاكر	مأثر قوم مجدهم بالجبابب ^(٨)

وهنا يروى ابن كثير أن النبى صلى الله عليه وسلم قد هتف قائلاً:

من لى بابن الأشرف؟

فنهض محمد بن مسلمة يقول:

أنا لك يا رسول الله، أنا أقتله^(٩).

ويحكى البيهقى مفصلاً: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم اكفنى ابن الأشرف،
فقال له محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله أقتله، فقام محمد بن مسلمة منقلباً إلى أهله فلقى

(٨) السهيلي: تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ١٣٩، ١٤٠ (الأخطاء العروضية بالأبيات هكذا بالمصادر).

(٩) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٨.

سلكان بن سلامة... فقال له محمد بن مسلمة: إن رسول الله قد أمرني بقتل بن الأشرف، وأنت نديمه في الجاهلية، ولم يأمن غيرك، فأخرجه إلى لأقتله... فخرج سلكان ومحمد بن مسلمة وعباد بن بشر وسلمة بن ثابت وأبو عيسى بن جبر (ومشي معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم)... حتى أتوه في ليلة مقمرة، فتواروا في ظلال جذوع النخيل، وخرج سلكان فصرخ: يا كعب، فقال له كعب: من هذا؟ فقال له سلكان: هذا أبو ليلى يا أبا نائلة، وكان كعب يكنى أبو نائلة، فقالت امرأته: لا تنزل يا أبا نائلة، إنه قاتلك، فقال: ما كان أخى ليأتينى إلا بخير، ولو يدعى الفتى لطعنة لأجاب... وأدخل سلكان يده في رأس كعب وشمها فقال: ما أطيب عبيركم هذا! ثم صنع ذلك مرة أو مرتين حتى أمنه، ثم أخذ سلكان برأسه أخذه نصله منها، فجأر عدو الله جأرة رفيعة، وصاحت امرأته وقالت: يا صاحبا، فعانقه سلكان وقال: اقتلوني واقتلوا عدو الله، فلم يزالوا يتخلصون بأسيا فهم حتى طعنه أحدهم في بطنه طعنة بالسيف، خرج منها مصرانه، وخلصوا إليه فضربوه بأسيا فهم... فقتل الله عز وجل ابن الأشرف، (١٠).

وزعم الواقدي أنهم جاءوا برأس كعب بن الأشرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم... وفي ذلك يقول كعب بن مالك:

فقدت بعد مصرعه النضير	فغدر منهم كعب سريعاً
بأيدينا مشهورة ذكور	على الكفين ثم وقد علته
إلى كعب أخا كعب يسير	بأمر محمد إذ دس ليلاً
ومحمود أخو ثقة جسور (١١)	فماكره فأنزله بمكر

(ويقول البيهقي إن كعباً في كلام له كان قد شرب بنساء المسلمين) (١٢). ولكن شعر (ابن مالك) هنا يصل إلى غاية المراد في تأكيد (فقدت بعد مصرعه النضير)، أحد أهم قبائل يهود يثرب، بموت سيدها، ومن الجدير بالذكر أنه في زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان، ذكر قتل (كعب بن الأشرف) عنده، فقال (ابن يامين) وكان يهودياً أسلم في غزو النبي للنضير: لقد كان قتله غدرًا، وسكت معاوية ولم يعقب كما لو كان راضياً عما يقال، أو سامعاً للقصة كما تروى

(١٠) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٩١، ١٩٢، انظر أيضاً السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٢٠٠.

(١١) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٩.

(١٢) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٩٠.

بموضوعية لا مجال فيها للمجاملة، وكان (محمد بن مسلمة) قاتل (كعب) حاضراً رواية (ابن يامين) لمعاوية، فنهض ثائراً يقول: يا معاوية، أيُفدر عندك رسول الله ثم لا تنكر، والله لا يظلني وإياك سقف بيت أبداً، ولا يخلو لي دم هذا إلا قتلته (١٣).

وبعد مقتل (كعب)، وعودة الرجال، قام النبي ينادي ورجع الصدى منه يسرى مجلجلاً:
من ظفرت به من رجال يهود فاقتلوه.
ومن ثم يروى ابن هشام:

فوثب محيصة بن مسعود من الخزرج، على ابن سنيّة، رجل من تجار يهود، كان يلبسهم ويبايعهم، فقتله، وكان حويصة بن مسعود (أخو محيصة) إذ ذاك لم يسلم، وكان أسن من محيصة، فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول: أي عدو الله قتلته، أما والله لرب شحم في بطنك من ماله، قال محيصة: والله لقد أمرني بقتله، من لو أمرني بقتلك، لضربت عنقك، قال: أو الله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟ قال نعم... فأسلم حويصة، (١٤).

وعليه؛ أذن فجر الأيام البدريّة، بمغرب مرحلة آن غروبها، وأخذت آيات القرآن تتنالي تحمل روح السياسة الجديدة، تنسخ ما قد سلف من آيات المرحلة السابقة، بآيات تنبئ بما هو آتٍ، توطئة لخلاص يثرب الكامل لسادتها الجدد.

نعم، قالت الآيات في المرحلة السابقة يقيناً:

- «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٦٢/ البقرة).

- «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور» (٤٤/ المائدة).

- «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله» (٤٣/ المائدة).

لكن السياسة الجديدة، جاءت بقرارات جديدة وحاسمة تقول:

- «إن الدين عند الله الإسلام» (١٩/ آل عمران).

(١٣) نفسه: ص ١٩٣.

(١٤) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٦٤.

- «أفغير دين الله ييغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعاً وكرها» (٨٣/ آل عمران) .

- «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» (٨٥/ آل عمران) .

وهى السياسة التى ابتغت انصواء اليهود الكامل، السياسى، والعقدى، بحيث لا يكونون أحلافاً على ذات القدر من الذدية السياسية والدينية، أو العمل على إجلائهم عن يثرب، أو استئصال شأفتهم، وهو الأمر الذى سيتم تحقيقه بإصرار ودون هوادة، والذى كان سببه الوضع الخاص لليهود كأصحاب كتاب سماوى، ودستور عقدى، وهو ما جعلهم المنكر السماوى الحى لنبوته النبى العربى، وهو ما كان يشكل خطراً دائماً وحقيقياً على الدولة وأيديولوجيتها.

وهنا تروى لنا كتب السير قصة غزوة (بنى قينقاع)، تلك القبيلة اليهودية التى يصف المؤرخون المسلمون رجالها بأنهم «كانوا أشجع يهود، وكانوا صاغة، وكانوا حلفاء عبادة بن الصامت، وعبد الله بن أبى بن سلول» (١٥).

غزوة قينقاع

عن ابن عباس قال:

لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر، فقدم المدينة، جمع يهود فى سوق قينقاع فقال: يا معشر اليهود، أسلموا قبل أن يصيبكم بمثل ما أصاب قريشاً (١٦).

فكان رد قينقاع المتحدى:

يا محمد إنك ترانا كقومك؟ لا يغرناك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس (١٧).

وهنا يعلن (الواقدى) ما كان مقدور الحدوث فى باطن الأيام بقوله: فحاصرهم رسول الله

(١٥) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٧٤.

(١٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٣.

(١٧) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٧٩.

خمس عشرة ليلة، لا يطلع فيهم أحد، ثم نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتفوا وهو يريد قتلهم،^(١٨).

ويتقدم رواية السير المسلمون بتقديم التبرير الذي رأوه مناسباً لنقض الصحيفة، والسير إلى قينقاع وأسره، بحكاية عن امرأة عربية، ذهبت تبتضع في سوق قينقاع، فتلاعب بها شباب اليهود، بأن ربطوا ثوبها بظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، فشد اليهود على المسلم فقتلوه^(١٩).

ومثل تلك القصة التبريرية واضحة الضعف والوهن، فالمرأة العربية التي سببت تلك الواقعة الهامة في تاريخ الدولة الإسلامية، لا ذكر لاسمها، ولا لقبيلتها، ولا ما إذا كانت مسلمة أم لا؟ ولا نعرف اسم الصائغ اليهودي، ولا من هؤلاء الذين تلاعبوا بها، بل والأخطر لا نعلم اسم ذلك المسلم الذي استشهد وهو يدافع عن المرأة، ولا إلى أي قبيلة ينتمي، ولم تزعم قبيلة أنه قد حدث مثل ذلك لأحد من رجالها، وهو الأمر الذي يخالف ما ألفناه مع المتفق عليه بكتب الأخبار والسير، والقصة بكاملها - في رأينا - مختلقة، صيغت على مثال نموذج قديم حدث زمن حرب الفجار الأولى وكان سبباً لها، وقد لاحظ الحلبي راوى السيرة ذلك التشابه بين الحادثتين، ففتوح بتذكير القارئ الفطن بقوله: «وقد تقدم وقوع مثل ذلك وأنه كان سبباً لوقوع حرب الفجار الأولى»^(٢٠). وربما وافقنا قارئ حبيب في رفضنا للقصة أعلاه، إذا ما أحبطناه علماً بالتبرير الحقيقي لما حدث، وهو ما جاء مروياً عن (الزهرى) عن (عروة):

نزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ (٥٨/ الأنفال). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أخاف من بني قينقاع فسار إليهم، ولواؤهم بيد حمزة^(٢١).

ولما كان يهود قينقاع، حلفاء للخزرج وسيدهم عبد الله بن أبي بن سلول، فقد قام عبد الله وهو يرى حلفاءه يساقون إلى الذبح مكتفين، بعد أن استسلموا، ليخاطب النبي ويقول: يا محمد أحسن في مواليي، فلم يرد عليه النبي، فقام يكرر، يا محمد أحسن في مواليي، ومرة أخرى يعرض

(١٨) نفسه: ص ٤٨١.

(١٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٤.

(٢٠) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٧٥.

(٢١) ابن سيد الناس: سبق ذكره، ج ١، ص ٣٥٣، انظر أيضاً الطبري: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٠.

عنه النبي، فيأخذ الغضب بعبد الله حتى يدخل يده في جيب درع الرسول يمسكه من لحمه الشريف وهو يقول: يا محمد أحسن في مواليتي، حتى غضب النبي غضباً شديداً، ورؤى لوجهه ظلل وهو يقول لعبد الله: ويحك، أرسلني، أرسلني، بينما ابن سلول لا زال ممسكاً به ويقول: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليتي، أربعمئة حاسر، وثلاثمئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود من الناس، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر!! وهنا قال له النبي: هم لك، (٢٢).

وهكذا ألغى الأمر النبوي بقتل بنى قينقاع، لكن شرط جلاءهم من المدينة خلال أيام ثلاثة لا تزيد، وبالفعل لم تمض الأيام الثلاثة حتى كان بنو قينقاع يحملون متاعهم راحلين، تاركين مزارعهم وحصونهم وما لم يقدروا على حمله، متجهين إلى أذرعات ببلاد الشام، وبذلك كان أول صدام بين النبي وبين يهود المدينة، وأول قرار يصدر يؤكد سيادة الرسول ويعنى قيام حاكم واحد لدولة المدينة، وهو القرار الذي أدى دوراً عظيماً في انكماش بقية المعارضين في يثرب لسلطان الدولة الجديدة، كما أدى من جانب آخر إلى تقليم أظافر (ابن سلول) وإضعاف مركزه، بهجرة حلفائه الذين كانوا حماية له من الأحمر والأسود من الناس، أي من اليهود والعرب، ويكفي أن نعلم مدى ذلك الأثر على (ابن أبي)، في فارق الساعات ما بين إمساكه بلحم جنب النبي الشريف، وإصراره على مطلبه، وبين مغادرتهم يثرب بقرار آخر، ما أن سمعه (ابن أبي) حتى عاد مسرعاً إلى النبي ليسأله بقاء قينقاع في يثرب، فحال بينه وبين الدخول إلى النبي جماعة من الصحابة، فلما حاول الدخول دفعوه إلى الحائط فشج وجهه، بينما قينقاع ينظرون ينتظرون أملين في نتيجة المحاولة، فلما ضرب (ابن أبي) بالحائط وشج، ذهبت قينقاع في طريقها وهي تقول: والله لا نمكث في بلد يفعل فيه ذلك بأبي الحباب، ولا نستطيع أن نتنصر له، وغادروا يثرب، بل والجزيرة جميعاً إلى الشام (٢٣).

وقد عقيبت الآيات على موقف (ابن سلول) بقولها: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين». فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين» (٥١، ٥٢/ المائدة).

(٢٢) الطبري: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٠.

(٢٣) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٧٨.

أما (الحلبى) كاتب السيرة، فلم يرض فيما يبدو بخروج قينقاع سالمين من يثرب، والرجوع عن قتلهم، فقال إن النبى دعا عليهم بالهلاك، فما بلغوا أذرعات الشام، حتى هلكوا جميعاً بتلك الدعوة^(٢٤).

وهكذا ذلت اللصير بمقتل (كعب بن الأشرف)، وغادرت قينقاع، وقلمت أظافر (ابن سلول) وشج وجهه أمام حلفائه وأهله، فى الوقت الذى استمرت فيه السياسة العسكرية على طريق الإيلاف، حتى جاءت سرية ذى قرد، لتكشف المدى الذى وصلت إليه قريش من هوان، ويروى لنا الطبرى أنها كانت فى جمادى الآخرة عام ثلاثة للهجرة، عند مياه فى نجد تدعى ماء القردة من بطن عالج، والقصة أن قريشاً خافت طريقها التى كانت تسلك إلى الشام، فسلخوا طريق العراق، فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة... ويعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا بن حارثة، فلقبهم على ذلك الماء، فأصاب تلك العير وما فيها، وأعجزه الرجال، فقدم بها على رسول الله... فكان الخمس عشرين ألفاً، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقسم الأربعة أخماس على السرية^(٢٥).

وهنا قام حسان بن ثابت ينادى العرب، يخبرهم بشأن قريش وجبنها، ساخراً من خوفها ورعبها قائلاً:

فلجأت الشام قد حال دونها	جلاد كأفواه المخاض الأوارك
بأيدي رجال هاجروا نحورهم	وأنصاره حقاً وأيدى الملائك
إذا سلكت الغور من بطن عالج	فقلوا لها ليس الطريق هنا لك ^(٢٦)

وكانت السبة عظيمة، والخسارة أعظم، ومجريات الأحداث التى تجرى مع سرايا يثرب تحمل لقريش خراباً تاماً مقبلاً، وما كان الانتظار بعد ذلك ممكناً، فقامت قريش لتتجه لحماية تجارتها ومصيرها، وتتأثر لكرامتها المهذورة، تريد ضرب المدينة والقضاء على هؤلاء الذين خرجوا منها متسللين، لتتقوى شوكتهم حتى درجة القضاء على السادة، وطريق التجارة العالمى، وذلك فى الغزوة الكبرى المعروفة باسم غزوة أحد.

(٢٤) الموضع نفسه.

(٢٥) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٩٢، ٤٩٣.

(٢٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٠، ١٧١.

الهزيمة

«فناديت بأعلى صوتي: يامعشر المسلمين
أبشروا، هذا رسول الله، فأشار إليّ:
أنصت، .

[كعب بن مالك الأنصاري]

حروب دولة الرسول

جزء أول

وبأحد تبدأ المرحلة الرابعة من مراحل تطور الدولة الإسلامية، التي تنتهى عند صلح الحديبية، ويروى لنا (ابن كثير) كيف بدأت حرب أحد بين المسلمين والمشركين فى قوله: «لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القلب، ورجع فلهم إلى مكة... مشى... رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلّموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وترككم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً، ففعلوا، قال ابن إسحق: ففيهم... أنزل الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقُوْنَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٦/ الأنفال).

... فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها، ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظعن (النساء) التماس الحفيظة، وألا يفروا،^(١).

ويستكمل (برهان الدين الحلبي) فى سيرته فيقول: «ويلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام ذلك، أرسل به إليه عمه العباس، بعد أن راودوه على الخروج معهم، فاعتذر بما لحقه من القوم يوم بدر، ولم يساعدهم بشيء، وذلك فى كتاب جاء إليه صلى الله عليه وسلم، وهو بقاء، أرسله العباس مع رجل استأجره من بنى غفار، وشرط عليه أن يأتى المدينة فى ثلاثة أيام بلياليها، ففعل... ويقال: أن عمرو بن سالم الخزاعى مع نفر من خزاعة، فارقوا قريشاً من ذى طوى، وجاءوا للنبي صلى الله عليه وسلم وأخبروه خبرهم، وانصرفوا،^(٢).

وعليه، فقد بلغت أخبار مسير قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة عاجلة من عمه العباس، الذى كان عيناً له مع بعض بنى هاشم على قريش، إضافة إلى هوى خزاعة مع النبي، التى كانت عضواً بقبائل الإيلاف، وظلت على إيلافها مع قريش لتتسقط أخبار قريش للنبي، وهو ما يفصح به (عبد الله بن أبى بكر) فى قوله: «كانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة رسول الله، أى موضع سره وعيونه على قريش»، وبخاصة (معبد الخزاعى) الذى لم يكن مؤمناً بدعوة الإسلام، فيما تخبرنا به صدور كتب الأخبار^(٣).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ١١، ١٢.

(٢) الحلبي: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٨٩، ٤٩٠.

(٣) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٣٥.

ولما بلغت الأنبياء رسول الله والمسلمين، فرح المسلمون، ورأى من لم يخرج منهم إلى بدر فلم يصب مغنماً، أن له نفعاً في وقعة قريبة، فيروى (ابن هشام) «فقال رجال من المسلمين... ممن كان فاته بدر: يا رسول الله؛ اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون إنا جبننا عنهم وضعفنا»^(٤). هذا بينما كان (عبد الله بن أبي بن سلول)، ذلك الذي تصفه كتب السيرة بأنه زعيم المنافقين، يرى غير ذلك، والجهاد عنده هو الجهاد سواء داخل المدينة أم خارجها، ولا يجد - وهو الرجل الموسر - في المغنم رغبة، قدر ما كانت نظرفته تقدم على رؤية تعمل الخبرة القتالية، والحكمة العسكرية، وكان الخروج من المدينة إلى (أحد) حيث عسكر المشركون على بعد ما لا يزيد عن ثلاثة أميال من المدينة، يعنى لابن سلول هزيمة محققة للمسلمين، ومن هنا تقدم بالرأى يقول:

يا رسول الله؛ أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا^(٥).

وقامت الأنصار بدورها تقول:

يا رسول الله؛ ما غلبنا أحد أتنا في دارنا... فكيف وأنت فيها؟^(٦).

ومع ذلك، ظل الراغبون من المتحفزين للنفل، أو للقاء الله على حميتهم للخروج إلى قريش، وظلوا بالنبي يحفزونه حتى قام فلبس لباس الحرب، فوضع البيضة على رأسه وتدرع بدرعين، وكان ذلك يوم الجمعة من شوال، من السنة الثالثة للهجرة.

وخرج المسلمون، ولكن على مشارف المدينة، لا أكثر من ميل منها، قرر (ابن أبي) العودة بأتباعه وهو سيد الخزرج، فناداهم بقوله:

ارجعوا أيها الناس، عصاني وأطاع الولدان، وما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟^(٧).

(٤) السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.

(٥) نفسه: ص ١٤٩.

(٦) الحطابي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩١.

(٧) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.

ورجع (ابن سلول) بمن تبعه من قومه «من أهل النفاق والريب، وكانوا ثلث الناس، حوالى ثلثمائة رجل»^(٨)، مما يشير إلى أن مجموع المسلمين الذين خرجوا إلى أحد كان تسعمائة مقاتل، مقابل ما تخبرنا به كتب الأخبار عن عدد مقاتلي مكة الذين زادوا عن الثلاثة آلاف، وهو موقف بالمقاييس العسكرية وحدها، كان يفسر بعقلية عسكرية كعقلية (ابن سلول) بأنه لون من الانتحار المؤكد، وأتى واضحاً في قوله: «علام نقتل أنفسنا ها هنا؟»، ومن ثم نستطلع وضع الجيشين في كتب الأخبار فتقول: «حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشوط من الجبانة، انحزل عبد الله بن أبي قريش من ثلث الجيش، ومضى النبي وأصحابه وهم في سبعمائة، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس، جنبوها، وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل... فكان أصحاب رسول الله فرقتين فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم»^(٩).

ومن ثم فكان حال الجيش الإسلامي، كحال قريش في بدر، منقسم على نفسه، لكنه في أحد، كان لا يشكل أكثر من ربع جيش قريش، وهي عوامل موضوعية، كانت كفيلة لمن يقرأها أن يتنبأ بهزيمة ماحقة للمسلمين، وهو ما قرأه (ابن أبي) الذي صقلته الحروب بالحنكة العسكرية، فنصح بعدم الخروج، ثم رأى إنقاذ أتباعه فعاد بهم إزاء وقعة هي في رأيه لون من الانتحار، ولا شك أن عودته كانت من جانب آخر ضغطاً على المسلمين ليتراجعوا إلى المدينة، وكان مثل ذلك الموقف كفيلاً بوضع (ابن سلول) في التاريخ الإسلامي ك رأس للمنافقين، وهو ما عبرت عنه عبارة ابن هشام:

فرجع بمن اتبعه من قومه، من أهل النفاق والريب^(١٠).

وهكذا تم وصف ثلث المقاتلين المسلمين أنصار رسول الله وأخواله، بأنهم منافقون، يرتابون في نصر الله لنبيه، وربما كان ذلك الوصف الذي دمج به ثلث المسلمين، راجعاً لكون (ابن سلول) وأتباعه لم يأخذوا في اعتبارهم إلا الواقع فقط، دونما أنزل الله تعالى وتبارك من وعد ويشري حيث يقول:

«سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب» (١٥١ / آل عمران).

«وإذا غدت من أهلك تبوء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم».

(٨) الحلي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٤.

(٩) البيهقي: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ١٦٣.

(١٠) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.

إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون .
ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين
ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن
تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمدكم ربكم بخمسة آلاف من
الملائكة مسومين ﴿١٢١: ١٢٥/ آل عمران﴾ .

ومن ثم؛ فإن موقف (ابن سلول) إنما يعنى عدم أخذه الوعد الإلهي مأخذ الجد، واعتماده
معطيات الواقع فقط في اتخاذ القرار، مما يشير إلى عدم إيمان حقيقي، لكن الواجب هنا التنبيه
إلى أن (ابن سلول) وهو يدعو إلى عدم الخروج من يثرب، وإشارته إلى أنه ما هاجمها أحد
وانتصر، إنما يعنى اعتماداً وثقاً على حصانة يثرب، وما بها من حصون وأطام، كما يعنى أن
الرجل يغامر بمدينة وأهله بالكامل في حال انتصار المهاجمين، وهو احتمال وارد أمام العدد
الهائل لجيش قريش، وإن كان ضعيفاً، وهى مغامرة قبلها على بلده وأهله، مع خيار النصر
المحتمل في رد المهاجمين، مفضلاً ذلك على أن تنزل بالمسلمين إذا خرجوا هزيمة محققة، قد
يفنى فيها الرجال جميعاً، وهو نصح لو أخذناه بإنصاف لأنصفنا الصديق والحق على الأقل،
خاصة أن ما حدث فى وقعة أحد بعد ذلك، كان هزيمة حقيقية للمسلمين على مستويات عدة .

وكانت تلك الهزيمة الذكراء لجيش المسلمين، مدعاة لمحاولة بعض المفسرين القول: إن وعد
الآيات بالإمداد بالثلاثة وبالخمسة آلاف ملك، كان يوم النصر البدرى، وليس يوم أحد، بينما وقف
آخرون موقفاً صارماً، يلتزم التاريخ وأسباب النزول وسياق الآيات فى السور مقارناً بالحدث،
بحجج فقهية تؤكد أن الآيات نزلت فى أحد تحفيزاً للمسلمين، أما السر فى عدم انتصار المسلمين -
رغم هذا المدد العظيم، وهو ما كان يعنى عدم نزول الملائكة، لأنهم لو جاءوا لحققوا نصراً سهلاً
دون جهد يذكر للمسلمين - فهو أن الإمداد كان معلقاً بشرط، هو التقوى ومصابرة عدوهم، لكن
المسلمين لم يصبروا بل فروا، فسقط الشرط، فتوقف الإمداد، ولم يمدوا بملك واحد، أما ذكر
بدر فى الآيات السالفة فقد جاء اعتراضاً فى سياق آيات أحد، تذكيراً بنعمة الله على المؤمنين
ونصره لهم فى بدر رغم ضعفهم ومذلتهم، ليحفزهم على خوض أحد بذات الثقة فى نصر الله،
مع حجة أخيرة تقول: إن القصة الواردة فى سورة آل عمران هى قصة أحد وحدها مستوفاة
مطولة، وإن مقارنتها بسورة الأنفال التى تعلق بـبدر، يقطع باليقين أن الآيات نزلت فى أحد
وليس فى بدر^(١١) .

(١١) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٨ .

وقائع أحد

وتجمع كل كتب السير والأخبار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يكره الخروج إلى أحد، لكنه خرج لرغبة أصحابه، ولما لبس لامته، جاءه الذين استكروهوه على الخروج يراجعون موقفهم ويعتذرون، فكان رد النبي: ما كان لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحارب، وجعل النبي لأصحابه في ذلك اليوم شعاراً يشبه شعار بدر، مع اختلاف بسيط، فقد أسقط من شعار بدر (يا منصور)، ليصبح بدلاً من (يا منصور أمت) كلمة واحدة تقول: (أمت، أمت) (١٢).

وعند خروج النبي إلى أحد قال له الأنصار:

- يا رسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟

- فقال: لا حاجة لنا فيهم (١٣).

ولما سار بجيشه ووصل رأس الثنية، وجد كتيبة كبيرة، فقال: ما هذا؟ قالوا: هؤلاء حلفاء عبدالله بن أبي من يهود... فقال:

إننا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك (١٤).

ويبدو لنا أن تلك الكتيبة كانت من قبيلة بنى قريظة، خرجت إعمالاً لبندود الصحيفة، وانتصاراً لحليفها الخزرج، لكن الواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن على ثقة كافية بهم، ومرة أخرى عرض الأوس على النبي بعد رجوع (ابن سلول)، الاستعانة بحلفائهم من يهود بنى النضير، حلفاء (سعد بن معاذ)، ومرة أخرى رفض النبي (١٥)، ومع ذلك فقد أصر (مخيريق) اليهودي على الخروج إلى أحد، وهو على دينه، وأوصى بماله للنبي إن هو قتل، وبالفعل قاتل الرجل حتى قتل، وآل ما يملكه إلى رسول الله، وفيه قال النبي الكريم: «مخيريق خير يهود» (١٦).

ولما كانوا بالقرب من أحد - حيث بدت لهم صفوف الثلاثة آلاف مكى تنتشر بدروعها وقضها

(١٢) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٩.

(١٣) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.

(١٤) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٣.

(١٥) نفسه: ص ٤٩٥.

(١٦) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٨.

وقضيضها، قد اتخذوا مواقعهم حسب خطتهم في بقاع أحد - استرسل الوحي يحمل إلى قريش برقية تقول:

﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ (٣٨ / الأنفال).

والبرقية هنا رغبة في السلم، لكنها رغبة المقتدر، لذلك فهي نصيحة أكثر منها رغبة، فإن تنتهوا وتعودوا إلى مكة، يغفر الله لكم ما قد سلف، وبمعنى موضوعي، توقف ما جرته الأحداث الماضية على مكة، لكن النصح هنا جاء مصحوباً بذكر المألأ القرشي الذين أهيل عليهم تراب القلب البدرى، «فقد مضت سنة الأولين»، أى مضى الأشياء ومضت معهم سنتهم ونهجهم، ولا معنى للاعتراك على ثأر لقوم ذهبوا، لكن ذلك التذكير كان كفيلاً بتأجيج لهيب الذكرى وحماية الرغبة في الثأر، بضرب تلك القوة البثرية التي إن بقيت فستقضى تماماً على قريش وتجارها، وحتى يتم تأمين طريق الإبل مرة أخرى، بعد أن أشرفت مكة على الهلاك بحصارها الاقتصادي.

ووقف (أبو سفيان / صخر بن حرب) يؤكد أن سنة الأولين باقية، بتصرفه تصرف (عتبة ابن ربيعة) في بدر، فقام ينادى أهل يثرب بعدم رغبة مكة في قتال يثرب، ويعلنهم أنهم يريدون فقط غرضاً محدداً، يتضح في قوله:

يا معشر الأوس والخزرج، خلوا بيننا وبين بنى عمناء، ولنصرف عنكم.

لكن الرجل (بسنة الأولين أيضاً)، وكرأس من رؤوس قريش، لم يع حتى الآن ما تمخضت عنه ظروف التطور، ولم يدرك ما جد في وجدان الأنصار ووعيتهم، وأنهم قد أدركوا إمكاناتهم ومستقبلهم، وأنهم قد أصبحوا المنافس الحقيقي لمكة، ليس فقط على الطريق التجاري، إنما أيضاً على من بالحجاز جميعاً، فكان ردهم أقبح الشنائم بأقذع اللعنات لأبى سفيان ورهطه (١٧).

وهنا قامت (هند بنت عتبة) مع نساء مكة وصباياها الغيد، اللاتي ترفلن في النعمة، فمشقوا القد، وحازوا الحسن واللطافة، يضربن الدفوف يحرضن رجال مكة ويغنين، مستخدمين أفصح فحيج أنثوى للإغراء، بنداء الوصال (وى - ها):

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأديار
ضرباً بكل بتار

(١٧) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٧.

إن تقبلوا نعانق ونفـرش النـمارق
إن تدبـروا نفـارق فراق غـير وافق^(١٨)

وعلى الجانب الإسلامى، ركز النبى خطته على حماية رجاله السيافة، بالرجال النبالة، فأنزل الرماة فى مواقع تواجه خيل العدو، وأمر عليهم نبالاً مشهوداً له، هو (عبد الله بن جبير)، وأمرهم بعدم ترك مواقعهم حتى يأتىهم منه الأمر بذلك، مهما حدث، فقط كان مطلبه منهم الذى أكدده لهم «اكفونى الخيل»،^(١٩).

أما قریش فكانت البادئة بتسخين أحد، «فخرج طلحة بن أبى طلحة، وأبو طلحة والده اسمه عبد الله بن عثمان بن عبد الدار... وطلب طلحة المبارزة مراراً، فلم يخرج إليه أحد، فقال:

يا أصحاب محمد؛ زعمتم أن قتلاكم فى الجنة، وأن قتلانا إلى النار...
فهل أحد منكم يعجلنى بسيفه إلى النار، أو أعجله بسيفى إلى الجنة؟

فلما لم يخرج إليه أحد، من بين المسلمين، نادى يقول:

كذبتم واللات والعزى، لو تعلمون ذلك حقاً، لخرج إلى بعضكم.

فخرج إليه على بن أبى طالب... فالتقيا بين الصفيين، فبدره على فصرعه، أى قطع رجله ووقع على الأرض وبدت عورته، فقال: يا ابن عم، أنشدك الله والرحم، فرجع عنه ولم يجهز عليه.. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما منعك أن تجهز عليه؟ فقال: ناشدنى الله والرحم، فقال: اقتله، اقتله،^(٢٠).

وهكذا، بدا تردد المسلمين واضحاً لأهل مكة، فخرج رجل ثان من صفوف المشركين يدعو للمبارزة، «فأحجم عن الناس حتى دعا ثلاثاً، فقام إليه الزبير بن العوام، فوثب حتى استوى معه على البعير، فعانقه، فاقتتلا فوق البعير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الذى يلى حضيض الأرض مقتول، فوقع المشرك فوقه عليه الزبير، فذبحه،^(٢١).

وارتفعت معنويات المسلمين بهذين القتيلين، وخرج عبد الرحمن بن أبى بكر من صفوف

(١٨) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥١، انظر الشرح للألفاظ ص ١٦٠ (والمبارق هى وسائل تغرش على الأسرة، كناية عن الدكاح).

(١٩) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٢٠) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٧.

(٢١) نفسه: ص ٤٩٩.

المشركين، فقال: من يبارز؟ فنهض إليه أبوه أبو بكر شاهراً سيفه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: شم سيفك، وارجع إلى مكانك، ومتعنا نفسك،^(٢٢). أما أبو دجانة (سماك بن خرشة) الأنصاري، ذو الخبرة الحربية، والشجاعة المتفردة بين أقرانه، فقد نهض يتناول من يد رسول الله سيفاً، ورجل مثل أبي دجانة إن قام للقتال، كان ذلك تحفيزاً لنفوس من يعرفون قدره، ويقول ابن هشام في أمر أبي دجانة:

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذ كانت، وكان إذا أعلم بعصاة حمراء فاعتصب بها، علم الناس أنه سيقا تل، فلما أخذ السيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبخر بين الصفوف، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصاة الموت، فقال رسول الله حين رأى أبا دجانة يتبخر: إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن^(٢٣).

ثم بدأت الواقعة فعلياً عندما هتف النبي صلى الله عليه وسلم برجاله: أمت، أمت، وبدأت وقعة أحد بداية متميزة، فقد صرع المسلمون أصحاب اللواء من بيت عبد الدار، ثم انتشر النبي وأصحابه، وصاروا كتائب متفرقة، فجاسوا في العدو ضرباً حتى أجهضوهم عن أنقالهم، وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات، كل ذلك تنضح بالنبل فتراجع مغلوله، وحمل المسلمون عليهم فنهكهم قتلاً^(٢٤).

ولاحت بوادر النصر، وتقهقر المشركون وهم يلقون بدروعهم وجحفهم وتروسهم، تخففاً للهرب، بينما علا صراخ نساء قريش بالمنعمات وهن يولولن، يبرز صراخهن الخائف مفاتن أنوثتهن، وأخذن يهرين أمام أعين المسلمين.

وقصدن الجبل، كاشفات عن سيقانهن، يرفعن الثياب، وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح، وينتهبون الغنائم^(٢٥).

بينما يصف (عبد الله بن الزبير) الموقف بقوله:

(٢٢) نفسه: ص ٤٩٩.

(٢٣) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٠، ١٥١.

(٢٤) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٠٩.

(٢٥) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٢.

والله لقد رأيتني أنظر إلى هند بدت عتبة وصواحباتها، مشمرات
هاريات، ما دون أخذهن قليل ولا كثير^(٢٦).

بينما يقول آخر:

والله لقد رأيت النساء يشتددن على الجبل، قد بدت خلايلهن وسوقهن،
رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبيرة - الرماة - الغنيمة،
الغنيمة^(٢٧).

وهكذا نزل الرماة يلهثون وراء الغنيمة، وهو ما يصوره أحدهم: «والله ما نجلس هنا لشيء، قد
أهلك الله العدو، فتركوا منازلهم التي عهد إليهم النبي ألا يتركوها»^(٢٨). ونهاهم أميرهم عبد الله
ابن جبيرة، فقالوا له: انهزم المشركون فما مقامنا هنا؟ وانطلقوا ينتهبون وثبت عبد الله بن
جبيرة، وثبت معه دون العشرة^(٢٩).

لكنها لقارىء مدقق، كانت الخطة والتكتيك، فقد تقهقر قلب جيش المشركين، وشمرت النساء
عن سوقهن يصعدن الجبل في المعتليات، وانطلق المسلمون خلفهن، وترك الرماة مواقعهم، بينما
كانت ميمنة (خالد بن الوليد) في مكانها لا تتزحزح، كذلك ميسرة (عكرمة بن أبي جهل)، ظلت
ثابتة دون حراك، حتى إذا ما نزل الرماة، أطبقت الأجنحة على الوسط، وثبت القلب المتقهقر
ليعاود الهجوم، في هجمة مرتدة سريعة، ثم ثنى (خالد) و(عكرمة) على الرماة، فحملوا على
من بقى منهم فقتلوه مع أميرهم ابن جبيرة.

وأحاطوا بالمسلمين، فبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والسلب، إذ دخلت
خيول المشركين تنادى فرسانها بشعارها: يا للعزى، يا لهبل، ووضعوا
السيوف في المسلمين وهم آمنون... واختلط المسلمون، وصار يضرب
بعضهم بعضاً من غير شعار، وهو أمت، أمت، مما أصابهم من الدهش
والحيرة^(٣٠).

أما الأخطر من نسيان المسلمين لشعارهم، نتيجة الدهشة والذهول، وقتلهم بعضهم بعضاً، هو

(٢٦) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣.

(٢٧) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢٩.

(٢٨) نفسه: ص ٢١٠.

(٢٩) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٢.

(٣٠) نفسه: ص ٥٠٢، ٥٠٣.

تمكن المشركين من الانغراس في العمق إلى نهايته، والوصول إلى موقع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتأخذ منه ثأرها، وتنال منه فيخمد الجسد الإسلامي ويستسلم، وهو ما خرجت من أجله، لإيقاف نهر الدم، وإنقاذ ما بقي من مصالحها، بقتل النبي عليه الصلاة والسلام بالذات وبالتحديد.

صرخة الشيطان

وعندما وصل المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، هرب أصحابه من حوله، حتى صار ينادى:

إلى يا فلان، إلى يا فلان، أنا رسول الله، فما يخرج إليه أحد، والنبل يأتي إليه من كل ناحية^(٣١).

ويروى (الطبري) إنه عند الهجوم على النبي، تفرق عنه أصحابه، فهرب بعضهم وعاد إلى المدينة لا يلوى على شيء، بينما صعد البعض الآخر إلى صخرة فوق الجبل، بينما استمر النبي ينادى:

إلى عباد الله، إلى عباد الله^(٣٢).

واستطاع (عتبة بن أبي وقاص) أن يصل إلى النبي، ويهشم بيضته فوق رأسه، بينما تمكن (عبد الله بن شهاب) من أن يشجه في جبهته، ثم كر عليه (ابن قملة الحارثي)، فكسر أنفه ورباعيته، وضربه بالمغفر فدخلت حلقتان من حلقات المغفر في وجنته الشريفة، كل هذا والرسول ينادي أصحابه^(٣٣). ثم وقع رسول الله صلى الله عليه وسلم، في حفرة، عندما هاجمه ابن قملة في كرة ثانية، فضربه على عاتقه ضربة شديدة، لكن الدرعين كانا وقاء له، لكن عزم الضربة جعل رسول الله يشكو من عاتقه بعدها شهراً أو أكثر^(٣٤).

وهنا لمح المحارب الصلب (أبو دجانة) رسول الله وهو على حاله هذا، فانطلق إليه ليرتمي

(٣١) نفسه: ص ٥٠٥.

(٣٢) الطبري: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥١٩، ٥٢٠.

(٣٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٦.

(٣٤) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥١٣.

فوقه يحميه، والنبل يتساقط عليه بغزارة حتى ملأ ظهره وهو لا يتحرك، في الوقت الذي أخذ فيه المهاجمون دورتهم الواسعة في كرة جديدة، انطلق أثناءها إلى النبي عدد من أصحابه، فأنهضوه من الحفرة، وأسرعوا به يصعدون شعب الجبل نحو صخرة منيعة، في اللحظة التي عادت فيها كرة المهاجمين، «فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ألا أحد لهؤلاء؟ فقال طلحة: أنا لهم يا رسول الله، فقال: كما أنت يا طلحة، فقال: رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه، وصعد رسول الله ومن بقى معه، فلحقوه، فقال: ألا أحد لهؤلاء؟ فقال له: طلحة مثل قوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فأذن له، فقاتل مثل قتاله وقتل أصحابه، ورسول الله وأصحابه يصعدون، ثم قتل، فلحقوه، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مثل قوله الأول، ويقول طلحة: أنا يا رسول الله، فيحبسه، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له، حتى لم يبق معه إلا طلحة فقال رسول الله: من لهؤلاء؟ فقال طلحة: أنا، (٣٥).

وتصف كتب السير أبا طلحة بأنه «كان رجلاً رامياً شديداً الرمي»، فنثر نبله، وأخذ يرمى والرسول يجلس خلفه محتمياً به (٣٦)، بينما كان النبي يرسل قوله الأسف على هرب أصحابه المهاجرين عنه: «ما أنصفنا أصحابنا»، ويشرح البيهقي «معناه ما أنصفت قريش (المهاجرين) الأنصار، لكون القرشيين لم يخرجوا للقتال دفاعاً عن النبي، بل خرجت الأنصار واحداً بعد واحد، (٣٧).

وظل (أبو طلحة) يرمى دفاعاً عن النبي يومذاك، ويترس دونه، حتى كسر ثلاثة أقواس، وكان المسلم يفل هارباً فيمر عليهما فيناديه رسول الله صلى الله عليه وسلم: انثر نبلك لأبي طلحة (٣٨)، حتى وتره رام أصاب يده في أوتارها فشلت من فورها فصرخ متألماً: حس، فقال له النبي: لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة، والناس ينظرون إليك، حتى تلج بك في جو السماء (٣٩).

وفي كرة رابعة، عادت موجة مهاجمة إلى المكان الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(٣٥) البيهقي: سبق ذكره ج ٣، ص ٢٣٦.

(٣٦) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٥.

(٣٧) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٣٥.

(٣٨) نفسه: ص ٢٣٩.

(٣٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٧، ٢٨.

بينما كان النبي قد تفهقر من مكانه مصعداً في الشعب، وخرج لهم (مصعب بن عمير) دون رسول الله، فوجد (ابن قمئة) مصعباً في دروعه وخوذته في مكان رسول الله، فشد عليه شدة قتله بها، وهو يظن أنه محمد، ثم أكمل دورة فرسه نحو المشركين وهو يصيح مهلاً: قتلت محمداً^(٤٠)، في اللحظة التي كان فيها الرسول يتابع صعوده في شعب الجبل متحاملاً على طلحة بن عبيد الله، والزيبر بن العوام، الذي هرع إلى طلحة يساعده في حمل رسول الله^(٤١).

وإذ يقول زعيم طبقة المفسرين ورواة السير والأخبار الحافظ ابن كثير، أن صيحة ابن قمئة: قتلت محمداً، قد أدت إلى بهتة عظيمة بين المسلمين^(٤٢)، فإنها على الفور أوقفت لا جدال يد القتل المكية عن استمرار القتل والقتال، فهذا ما جاءوا من أجله، وقد تحقق، ولم تعد ثمة ضرورة لاستمرار القتل، وبالفعل هدا الميدان تماماً بعد صيحة ابن قمئة، تلك الصيحة التي تصركت بنا التراثية على القول: إنها صيحة الشيطان، لا شيء إلا أنها قالت مكروهاً بحق النبي، رغم أن المتأمل بقتل من النزاهة، يمكنه أن يراها صيحة جاءت في موعدها تماماً، وكانت صيحة الإنقاذ لرقاب المسلمين، ولنبيهم.

هذا بينما يرى آخرون - بتخافل حقائق عدة - أن تلك الصيحة كانت السبب في هزيمة المسلمين، ومن ثم لا شك أنها كانت صيحة الشيطان الذي يعنيه هزيمة حزب الله، وذلك بالتأثير الذي فعلته الصيحة بنفوس المسلمين، وخوار عزيمتهم وفزعهم لما علموا أن نبيهم قد قتل، وهو المعلق به مصيرهم ومصير دولتهم، ولكن دقائق الحدث لا تترك لأصحاب ذلك الرأي ما يتمحلون به، لأن الهزيمة كانت قد حلت بالفعل قبل تلك الصيحة، وكانت يد القتل القرشية قد بدأت تفعل فعلها فيمن بقي من المسلمين، ووصل المشركون إلى النبي وفر أصحابه عنه، حتى أصيب إصابات شديدة، وكانت الصيحة متأخرة إلى حد بعيد عن الهزيمة التي تمت قبلها بوقت، عندما ضرب ابن قمئة مصعباً وهو يحسبه محمداً، وما كان ممكناً أن يصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في مؤخرة جيشه، إلا إذا كان ذلك الجيش قد تهاوى وتشرذم، ولم يعد هناك حائل بين المشركين وبين النبي، لكن هؤلاء يصرون، مستندين إلى روايات مثل رواية (الزيبر بن العوام):

(٤٠) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٣، انظر أيضاً البيهقي: ج ٣، ص ٢٣٨.

(٤١) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢١١.

(٤٢) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢.

وصرخ صارخ:

ألا إن محمداً قد قتل،

فانكفأنا، وانكفأ القوم علينا^(٤٣).

هذا بينما أصحاب تلك الرؤية، وفي روايتهم أنفسهم عما حدث، يظهر واضحاً أن (الزبير) كان يصعد مع (طلحة) يساعدان نبيهم الجريح على ارتقاء الشعب، بعد أن خلا الميدان حولهم من أصحابهم وبقية الصحابة إلى فرار، ومن بقي منهم أخذوا يضربون بعضهم بعضاً من البهتة، أما (البیهقي) فيقول:

وصاح الشيطان: قتل محمد^(٤٤).

ويقول (ابن هشام):

الصارخ: إزب العقبة، يعنى الشيطان^(٤٥).

أما من هو (إزب العقبة)؟ فهو ما يأتي في حديث منسوب لعبد الله بن الزبير، أنه رأى رجلاً طوله شبران على رحله، فقال: من أنت؟ قال: إزب، قال: ما إزب؟ قال: رجل من الجن، أما (الحلبى) الذى اعتدناه يقف مع ما لا يجده متسقاً ومتوافقاً، يتساءل أحياناً، ويبرر أخرى، فقد حاول تقديم تبرير لتضارب الروايات حول صاحب الصرخة، فقال: «ويجوز أن يكون قد صدر عن الثلاثة: ابن قمة، وإبليس، وإزب العقبة»^(٤٦).

وعليه، فإن تلك الصرخة المنقذة التى أطلقها (ابن قمة)، كانت سبباً فى تراخى أيدى قریش عن القتل، بينما النبى وطلحة والزبير يتسللون متخفين فى الشعب، يريدون صخرة عالية، تصادف أنها كانت الصخرة التى فر إليها بعض المسلمين الفارين، ولجأوا إليها لمنعتها، فكان أن رآه (كعب بن مالك) من أعلى الشعب وهو قادم مع صاحبيه، ويروى:

قد عرفت عيديه الشريفتين تزهزان تحت المغفر، فناديت بأعلى

صوتى:

(٤٣) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٥.

(٤٤) البیهقي: سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٤٥) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٥.

(٤٦) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٣.

يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله فأشار إلى: أنصت، فلما
عرف المسلمون رسول الله نهضوا، ونهض معهم نحو الشعب على بن
أبى طالب، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب،... فى نفر من
المسلمين^(٤٧).

لكن ليلمحهم (أبى بن خلف) وهم يخفون إلى النبی يساعده على الصعود، وقد تطرف
(أبى) عن قومه، فسمع صيحة (كعب بن مالك)، فعلم أن الرسول ما زال حياً، وبينما النبی يسند
رأسه تعباً فى الشعب، كر (أبى بن خلف) بفرسه وهو يهتف متسائلاً: أى محمد (١؟) لا نجوت
إن نجا، فقال القوم: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله: لا، دعوه فلما دنا
تناول رسول الله الحرية من الحارث بن الصمة،.. وانتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير
الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض،.. ثم استقبله فطعنه فى عنقه، طعنة تدأداً منها عن فرسه
مراراً^(٤٨)، وجعل يخور كما يخور الثور إذا ذبح،^(٤٩).

ولمزيد من المنعة، بعيداً عن متناول قریش نهض النبی صلى الله عليه وسلم إلى صخرة فى
الجبل ليعلوها، وقد كان بدن رسول الله بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس
تحت طلحة بن عبيدة، فنهض به حتى استوى عليها،^(٥٠)، وهكذا نال الإجهاد من النبی كل منال،
وأخذ منه الألم كل مأخذ، حتى أنه بعد العودة «ذكر عمرو مولى عفرة أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم، صلى الظهر يوم أحد قاعداً من الجراح التى أصابته، وصلى المسلمون خلفه
قعوداً»^(٥١).

ويعد أن امتنع المسلمون الذين بقوا مع نبيهم على الصخرة المنيعة - التى ما كان لأحد أن
يصعد عليها إلا ويصاب برماح وسهام الممتنعين فوقها - ومعهم سيوفهم، لا مجال لأخذهم، تقدم
أبوسفيان حتى اقترب من سفح الصخرة ثم نادى: «أفى القوم محمد؟ أفى القوم محمد؟ ثلاثاً،
فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه»، وهكذا كانت حصافة القائد تملأ على
رجالهم رغم الامتناع فوق الصخرة، أن يتركوا قريشاً تتوهم قتله، حتى لا يحاولوا الكر عليهم مرة

(٤٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٦.

(٤٨) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٦٦.

(٤٩) الحلبي: مج ٢، ص ٥١١.

(٥٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧.

(٥١) الموضع نفسه.

أخرى، كما سبق وأمر (كعب بن مالك) بعدم الإعلان عنه وأمره بالصمت، لكن (أبوسفيان) استمر ينادى «أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقى لك ما يسوؤك» (٥٢). فكان أن رد عليه (أبوسفيان) ومن معه ينادون شامتين متوعدين:

يوماً بيوم بدر، إن موعدكم بدر للعام القابل.

«فقال رسول الله لرجل من أصحابه: قل: نعم هو بيننا وبينكم موعد... ثم بعث رسول الله على بن أبى طالب فقال: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسى بيده، لئن أرادوها، لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزهم، قال على: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون؟ فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة» (٥٣).

وهكذا، انتهت غزوة أحد بثأر قريش، الذى أعملت له حسابات دقيقة، وهم تجار أصحاب حسابات، يدققون فيما لهم وفيما عليهم، تحذوهم المصلحة والمكاسب فى الأول وفى الآخر، فتؤكد كتب الأخبار أنهم قتلوا على التدقيق سبعين مسلماً، بسبعين مشركاً يوم بدر، وأسروا سبعين مسلماً بسبعين مشركاً يوم بدر، وهو ما يردفه المفسرون بالآية الكريمة:

«أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا»

(١٦٥/آل عمران) (٥٤).

(ومثليها هنا تعنى مثل الأمرين، السبعين قتيلاً، والسبعين أسيراً)، وهو ما عبر عنه منطق التاجر الأموى، أبى سفيان صخر بن حرب، وهو ينادى المعتصمين بالصخرة، مقدماً كشف حساب تجارى دقيق، يقول:

يوماً بيوم بدر، وإن موعدكم بدر العام القابل.

هو ما عقب عليه الطبرى فى حديثه عن أحد مقارناً ببدر، وهو يقول:

(٥٢) نفسه: ص ٢٧.

(٥٣) السهلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٧٠، ١٧١.

(٥٤) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٧.

فلما كان العام القابل في أحد، عوقبوا بما صنعوا، قُتل من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعون، وأسر سبعون، وكسرت رياعيته،
وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وفر أصحاب النبي
وصعدوا الجبل^(٥٥).

(٥٥) الطبري: سبق ذكره، ج ٧، ص ٤٧٥.

فروز أحمد

ولو كان من الأمر شيء ما قُتلنا ها هنا .
[عتاب بن قشير الأنصاري]

وكانت أحد ابتلاء فرز واختبار وتمحيص للمؤمنين الصادقين، منهم من أخذهم الرعب فولوا هارين من حول رسول الله حتى انكشف للمهاجمين، وهو صلى الله عليه وسلم يناديهم: أنا رسول الله، إلى يا فلان، إلى يا فلان، فلم يثبتوا وفروا عنه ليعتصموا بصخرة في أعلى الشعب، فأنبهم الوحي الكريم بقوله:

﴿إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم...﴾ (آل عمران / ١٥٣).

هذا عمن فروا، ثم هناك ما جاء وحياً يحدث عمن ظنوا بالله ظن الجاهلية، وشكوا في صدق الرسول بل وفي الدعوة برمتها، ليرد عليهم قائلاً:

﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ (آل عمران / ١٥٤).

ثم يتوجه الوحي نحو من قالوا: لو سمعوا نصحنأ لهم بالتحصن في يثرب، وعدم الخروج إلى المشركين ما قتلوا، قائلاً:

﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ (آل عمران / ١٦٨).

أما الذين تساءلوا كيف يهزمون والله معهم ورسوله؟ فقد جاءهم جواب الوحي مفحماً يذكرهم أنهم وإن أصيبوا في أحد، فقد سبق وأصابوا في بدر، ويقول:

- ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾ (آل عمران / ١٦٥).

- ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ (آل عمران / ١٤٠).

ثم يثنى الوحي بصدقه بالقول الفصل، لتأكيد أن ما حدث كان خطة إلهية مقدورة سلفاً، من الله تعالى، لفرز المؤمنين الصادقين عن غيرهم، بقوله:

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم
الذين نافقوا...﴾ (١٦٦، ١٦٧ / آل عمران) .

مواقف من الهزيمة

ونعود إلى عيون التاريخ نقرأ فيها المفاجأة التي رتبها قريش للمسلمين، بقرارات مقاتلين من
جيل جديد، تلتهم أسماؤهم مع نصال سيوف شرذمت شمل المسلمين وصعقتهم، مثل (خالد بن
الوليد) و(عكرمة بن أبي الحكم)، حتى صار المسلمون يضربون بعضهم ويقتلون بعضهم بعضاً
على غير هدى، ولا شعار، بعد أن أضاعت البهجة لبهم فنسوا شعارهم، ثم جاءت صيحة (ابن
قمئة): إن محمداً قد قتل، لتترك أثراً أعمق في الفارين يحتمون بالشعاب والصخور، فأصحاب
الشعب يقولون:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، فارجعوا إلى قومكم
فيؤمنونكم، قبل أن يأتوكم فيقتلونكم، فإنهم داخلون البيوت^(١).
وقد ذهب هؤلاء تحديداً إلى رأى يقول:
نلقى إليهم بأيدينا، فإنهم قومنا وينو عمننا.
ويعقب رواية السيرة بالقول:

وهذا يدل على أن هذه الفرقة ليست من الأنصار، بل من المهاجرين^(٢).

هذا؛ بينما كان بعض المسلمين ينتهز فرصة المعركة، ويحفز الناس للخروج إليها، من أجل
أخذ ثأره من مسلم آخر في حومة الوغى دون عيون تراه، مثل (الحارث بن سويد بن الصامت)
ابن صاحب صحيفة لقمان، ذلك المسلم الذي لم تؤثر فيه الأخوة الإسلامية والأممية الجديدة، بل
ظل أسير الحمية القبلية الجاهلية، يخضع رغبته الثائرة على مضض ينتهز لها فرصة، يريد بها
(المجذر بن زياد) الذي كان قد قتل أباه (سويد) في حرب الأوس والخزرج، وما أن تبدأ المعركة
ويختلط الناس بالناس، حتى يغمد سيفه في قاتل أبيه ليشفى غليل ثأره^(٣).

(١) البيهقي: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٢١٠.

(٢) الحلبي: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٤.

(٣) السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ١٦٨، انظر أيضاً: ابن سيد الناس؛ عيون
الأثر، سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥.

ثم موقف ثالث لأصحاب الصخرة الذين فروا من حول النبي، واعتصموا بها يردون عن أنفسهم في خفائها، وقد رأى هؤلاء رأياً آخر:

فقال بعض أصحاب الصخرة، لبت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمانة من أبي سفيان، يا قوم، إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم، قبل أن يأتوكم فيقتلونكم^(٤).

وقد بلغ الرعب أصحاب الصخرة أنهم كادوا يقتلون نبيهم وهو يخف إليهم متحاملاً على مناكب صاحبيه، وهم لا يميزونه، ورفعوا عليه نبالهم ورماحهم.

فقال رسول الله: أنا رسول الله، ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرح رسول الله حين رأى أن في أصحابه من يتمتع بهم... فقال الله عز وجل في الذين قالوا: إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» (١٤٤ / آل عمران)^(٥).

أما الموقف الرابع، فيمثله من جاء ذكرهم في الواقدي وهو يقول:

لما صاح إبليس: إن محمداً قد قتل، تفرق الناس، فمنهم من ورد المدينة، حتى دخلوا على نسائهم وجعل النساء يقلن: عن رسول الله تفرون^(٦)؟

وقد عدد (البلاذري) في أنساب الأشراف (٣٢٦/١) أسماء بعض الفارين من الميدان تماماً. الذين يمثلون موقفاً خامساً. بعد أن تركوا إخوانهم ورسولهم إلى مصيرهم، وهم عثمان بن عفان، وسواد بن غزية، والحارث بن حاطب، وسعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان، وخارجة بن عامر، وأوس بن قيطي، حتى أبعدوا عن المدينة بما يصل إلى ثلاثين ميلاً^(٧)، ولم يعودوا إلى يثرب إلا بعد أن وصلتهم الأخبار بعودة النبي إليها مع من بقي من أصحابه، فعادوا إليها من مهربهم بعد أيام ثلاثة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد ذهبتم فيها عريضة، ثم جاء الوحي بشأنهم يقول:

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤.

(٥) نفسه: ص ٢٤.

(٦) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣١٠.

(٧) نفسه: ص ٣٠٠.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ (١٥٥/آل عمران).

ويقول (ابن حبيب): «الذين تَوَلَّوْا يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فعفا الله عنهم من المهاجرين عثمان بن عفان بن العاص بن أمية، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسعد بن عثمان من الخزرج وأخوه عقبة بن عثمان»^(٨). وكان لهرب (عثمان بن عفان) من أحد، مدعاة بعد ذلك بسنين في الصراع السافر الذي قام على السلطة في الدولة الإسلامية، للتدليل على أن الموقف العدائي لبنى أمية من الهاشميين بل من النبي ودعوته، كان متأصلاً في نفوسهم، فحكى البخاري عن عثمان ابن وهب قوله: «جاء رجل حج البيت فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القعود؟ قالوا: قريش، قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر، فأتاه فقال: إني سألك عن شيء، أتحدثني؟ أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد؟ قال: نعم، قال: فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم فكبر، فقال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه، فأما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تغيبه عن بدر، فإنه كان تحته بنت النبي وكانت مريضة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه، أما تغيبه عن بيعة الرضوان، فإنه لو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه، فبعث عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة»^(٩).

ثم موقف سادس. أعلن تشككه في أمر الدعوة بكاملها، وعلاقة الرسول بالسماء، يمثله عتاب ابن قشير الذي وقف يتطلع إلى هزيمة المسلمين وهم يقتلون في أحد ويقول:

لو كان من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا^(١٠).

وجاوبه رجع الصدى ممن هم على مثل رأيه:

لو كان نبياً ما قتل، فارجعوا إلى دينكم الأول^(١١).

وهكذا كان الفرز، وهكذا جاءت أحد لتفصح بوقعتها عما بذات الصدور، وتحدد مواقف،

(٨) ابن حبيب: المحبر، سبق ذكره، ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩.

(١٠) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٩٤.

(١١) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٤.

وتصنف الأتباع تصنيفاً كامل التحديد والوضوح، لأنه مقابل كل تلك المواقف المتخاذلة والمؤسفة، كانت هناك مواقف أخرى وإن كانت قليلة نادرة ضعيفة، لكنها دخلت الفرز وبرزت كمواقف مبدئية صارمة لا تقبل المساومة، فهذا (أنس بن النضر) ينادى (عمر بن الخطاب) و(علي بن أبي طالب) و(أبا بكر) وصحبهم من أصحاب الصخرة ويقول:

يا قوم؛ إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا علي ما قاتل عليه محمد، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه يقاتل، حتى قتل^(١٢).

وهكذا، وبينما المهاجرون في فزعهم، والأنصار يقتلون الواحد بعد الآخر دون رسول الله وهو يصعد الشعب، وبينما المهاجرون يفكرون في اللحاق بقومهم، فإن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال له: يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمداً قد قتل، فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم،^(١٣).

ثم ذلك الأنصاري المبارز الفارس، (أبو دجانة / سماك بن خرشة)، الذي ترس عن الرسول يتلقى عنه النبل، وظل محارباً يخوض معه المواقف بعدها بذات البطولة، (وقزمان) الأنصاري، الذي أبلى في أحد بلاء يعادل في ميزان القتال جيش المسلمين جميعاً، فنزل الحومة لا يكل ولا يهرب ولا يتراجع، يتخطف سيفه رؤوس المشركين رأساً في إثر رأس، ويصول حتى ينغرس في عمق ثلاثة آلاف مقاتل دون خطوة واحدة للوراء، حتى أعمق بينهم، وحتى عددت له كتب السير عشرة قتلى، من بين اثنين وعشرين قتيلاً مكياً هم كل من قتل المسلمون من قريش في أحد، وبينما يعدد (ابن هشام) أسماء المقتولين من قريش، وقَاتليهم من المسلمين، نقتطع ما يخص (قزمان) وحده، حيث يقول ابن هشام:

... وكلاب بن طلحة، والحارث بن طلحة، قتلها قزمان... وأبو يزيد ابن عمير.. قتله قزمان، وصوَّاب غلام له حبشى قتله قزمان... والقاسط ابن شريح.. قتله قزمان... وهشام بن أبي أمية بن المغيرة قتله قزمان، والوليد بن العاص بن هشام بن المغيرة، قتله قزمان... وعبيدة بن جابر وشيبة بن مالك بن المضرب، قتلها قزمان.. قال ابن إسحق: فجميع

(١٢) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤.

(١٣) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

من قتل الله تبارك وتعالى من المشركين يوم أحد، اثنان وعشرون رجلاً^(١٤).

ومع ذلك تصر كتبنا التراثية على وصم قزمان بأنه كان منافقاً، وأنه من أهل النار، وأن الله قد ينصر دينه على الكافر بالفاجر^(١١٩)، حتى أن تلك الكتب قدمت روايات تستجمل (قزمان)، وتتجاهل معرفته من بين صحبه وآله من الأنصار، ومن تلك الروايات:

كان فينا رجل أنى لا يدري من هو، يقال له: قزمان، فكان رسول الله يقول إذا ذكر: إنه لمن أهل النار، فلما كان يوم أحد قاتل قتلاً شديداً... وكان ذا بأس، وأثبتته الجراح، فاحتمل إلى دار بنى ظفر^(١٥).

أما لماذا حمل إلى دار بنى ظفر بالذات، فإن كتب السيرة تروى روايات بعد أن تتذكر معرفتها بالرجل، فتعرف عند (ابن هشام) أنه «حليف بنى ظفر»^(١٦)، فهو لم يكن مجهولاً، إنما التجهيل جاء عن عمد، ورغم نسبة قتلاه العشرة من المشركين إلى الله جل وعلا، «فجميع من قتل الله تبارك وتعالى يوم أحد من المشركين اثنان وعشرون رجلاً»، ضمنهم عشرة قتلهم قزمان وحده، دون أن يفر إلى شعب، ولا أن يلجأ إلى صخرة، ولا أن يهرب إلى المدينة، ولا أن يوغل ثلاثين ميلاً هرباً بعيداً عن الميدان، لينتظر هناك أياماً يستخبر على من كانت الكرة، ليحدد موقفه، أما السر وراء كل هذا التجهيل والتبخيس لرجل هذا بلاؤه، فيرجع إلى حديث ترويه كتب السيرة عن قزمان وهو جريح في دار بنى ظفر:

فجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر، قال: بماذا أبشر؟ فوالله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت، فلما اشتدت عليه جراحه، أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه^(١٧).

وهو موقف يختلف إلى حد ما عن موقف (حاطب بن أمية) الذي أصيب ابنه (يزيد) في أحد، فحملوه إلى دار قومه واجتمع حوله أهله، فجعل المسلمون يقولون له من الرجال والنساء، أبشريا ابن حاطب

(١٤) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٩٢.

(١٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧.

(١٦) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٩٢.

(١٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧.

بالجنة، وكان حاطب شيخاً قد عسا في الجاهلية، فنجم يومئذ نفاقه فقال:
بأى شيء تبشرونه؟ بجنة من حرمل؟ غررتم والله هذا الغلام من
نفسه^(١٨)، وفي شرح السهيلي: الجنة من حرمل، يريد الأرض التي دفن
فيها وكانت تنبت الحرمل، أى ليس له جنة إلا ذاك^(١٩).

مقتل أسد الله

فى يثرب، وبعد العودة من أحد «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بدار من دور الأنصار،
من بنى عبد الأشهل وظفر، فسمع البكاء والنواح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله فبكى ثم
قال: لكن حمزة لا بواكى له، فلما رجع سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير إلى دار بنى عبد
الأشهل، أمر نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله^(٢٠). وهو ما يظهر مدى
اللوعة التي أصابت قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، على مصابه في عمه (حمزة بن عبد
المطلب)، الذي قتله (وحشى الحبشى) عبد (جبير بن مطعم)، انتقاماً لمقتل عم جبير (طعيمة بن
عدى) الذي سبق وقلته المسلمون فى بدر الكبرى، مع وعد لوحشى الحبشى بالعق من العبودية
إلى الحرية إن فعل، هذا مع وعد آخر تلقاه الحبشى الوحشى من (هند بنت عتبة) إن قتل حمزة
انتقاماً لأبيها وأخيها وعمها، وكان المقابل الذى سيناله وحشى من هند، هو ما يعبر عنه نداؤها له
كلما مربها فى أحد، أو مرت به، وهى تردد بغنج وبدلال وترغيب:

ويها أبا دسمة،

اشف

واشتف^(٢١).

ويرسم رواية السيرة، صورة حية لمقتل حمزة رضى الله عنه، بلسان قاتله وحشى، الذى
يروى، أنه بينما كان حمزة يصول بسيفه «مر به سباع بن عبد العزى الغبشانى، وكان يكنى أبا
نيار، فقال له حمزة: هلم إلىّ يا ابن مقطعة البظور، وكانت أمه أم إنمار... ختانة بمكة، فلما

(١٨) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٦٨.

(١٩) نفسه: ص ١٧٧.

(٢٠) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٣٢.

(٢١) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢.

التقيا فضربه حمزة فقتله. وهنا عثر حمزة فوقع، فأنكشف درعه الحديدي عن بطنه، فهزرت حريتي حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه، فوقعت في ثلته حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي، فغلب، فوقع، وأمهله حتى إذا مات، جللت فأخذت حريتي ثم تنحيت عن العسكر، ولم تكن لي بشيء حاجة غيره،^(٢٢).

وهنا هرولت (بنت عتبة) المدللة الثائرة، لتبقر بطن حمزة رضى الله عنه، وتخرج كبده وتلوك منه قطعة تشفياً، حتى إذا انتهت المعركة ورحلت قريش، مر رسول الله بعمه وهو على تلك الحال، فوقف على رأسه وقد أخذ منه الكمد مأخذاً، حتى جعل يقول:

لولا أن تحزن صافية، ويكون سنة بعدى، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن، لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم^(٢٣).

وقد عقب بعض المفسرين بالقول: إن الوحى جاء يرد النبى عن ذلك بقوله: «وإن عاقبتكم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به» (١٢٦/ النحل)، لكن ابن كثير بحصافته، يدرك أمراً، فيقول:

قلت هذه الآية مكية، وقصة أحد بعد الهجرة بثلاث سنين!! فكيف يلتئم هذا؟!^(٢٤).

أما ابن مسعود فيروى القول عن حال النبى يوم مقتل حمزة:

ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باكياً، أشد من بكائه على حمزة رضى الله عنه، وضعه في القبلة ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى نشق، وحتى بلغ به الغشى، وهو يقول: يا حمزة يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكريات، يا حمزة يا ذاب^(٢٥).

أما الأنصار، ورغم مصابهم في قتلاهم، فإنهم عندما شاهدوا حزن ابن أختهم على عمه قالوا:

(٢٢) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٢.

(٢٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٤١.

(٢٤) الموضع نفسه.

(٢٥) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٣٤.

والله لئن ظهرنا عليهم يوماً من الدهر، لنمعلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط^(٢٦).

ومن ثم - وعلى شرط مسلم - جاءت نساء الأنصار تبكي حمزة وتندبه، لما قال النبي: لكن حمزة لا بواكي له^(٢٧).

وهكذا عادت قريش بعد أن أشفت ثأرها، واستشفت لقتلاها، تحمل في ركابها حبلاً طويلاً تجر فيها الأسرى من المسلمين، تشعر أنها قد أعادت هيبتها في عيون الأعراب، وردعت من فكر بموادعة يثرب على طرق التجارة الداخلية، وأعادت لطريق الإيلاف أمنه، مع اعتزاز بنجاحها في إعادة كنانة إلى إيلافها، ومشاركتها قريشاً في أحد، وهو ما عبر عنه شعر هبيرة بن أبي وهب وهو يقول:

سقنا كنانة من أطراف ذي يمن	عرض البلاد على ماكان يزجيها
قالت كنانة: أنى تذهيرون بنا؟	قلنا: النخيل، فأموها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجر من أحد	هابت معد، فقلنا نحن نأتيها

فأجابه شاعر الرسول حسان بن ثابت وهو يقول:

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم	إلى الرسول، فجند الله مخزيها
أوردتموها حياض الموت ضاحية	فالنار موعدها والقتل لاقبها
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلتم	أهل القليب ومن ألقينه فيها

ثم قام (كعب بن مالك) يدعم (ابن ثابت) بالقول:

ونحن أناس لا نرى القتل سبة	على كل من يحمي الدمار ويمنع
جلاد على ريب الحوادث لا نرى	على هالك لنا عيناً لنا الدهر تدمع
بنو الحرب لا نعيها بشيء نقوله	ولا نحن مما جرّت الحرب نجزع

وهنا قام (عبد الله بن الزبير) يرد على (حسان بن ثابت) مؤكداً أن النصر كان حليف قريش، وأنهم مقابل شيوخ الملأ في بدر، قد قتلوا من سادة يثرب ومحاربيها من لا يقتلون شرفاً

(٢٦) الطبري: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٢٩.

(٢٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٩.

ومحتدأ، بل ويزعم أن قريشاً قد قتلت من اليتارية ضعف ما قتل المسلمون من قريش في بدر، ويقوم ذلك في قوله:

يا غراب البين؛ أسمعت فقل	إنما تتطرق شيئاً قد فعل
أبلغن حسان عنى آية	فقريض الشعر يشفى ذا الغل
كم قتلنا من كريم سيد	ما جد الجدين مقدام بطل
ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكى بقاء بركهـا	واستحر القتل فى عبد الأشل
فقتلنا الضعف من أشرفهم	وعدلنا ميل بدر فاعتدل

فأجابه (حسان) يرد له الصاع صاعين بقوله:

ذهبت يا ابن الزبعرى وقعة	كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم وثلاً منكم	وكذاك الحرب أحياناً دول
نضع الأسياف فى أكتافكم	
نخرج الإصبع من إسطاهكم	
وتركنا فى قريش عورة	يوم بدر، وأحاديث المثل

أما (هند بنت عتبة) فقد كانت ترسل شعرها يعلن استشفاءها بعد ثأرها من (حمزة)، وهى تنادى المسلمين بقولها:

نحن جزيئناكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان لى عن عتبة من صبر	ولا أخى وعمه ويكر
شفيت نفسى وقضيت نذرى	شفيت وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى على عمري	حتى ترم أعظمى قبرى ^(٢٨)

هذا، وإن كانت (هند) ترى فى نفسها بقية من رغبة لم تتحقق، فى القضاء على كل هاشمى وكل أنصارى، فتقول:

(٢٨) نفسه: ص ٣٩. (الخطأ العروضى فى الشطر الثانى من البيت الثانى من شعر كعب بن مالك هكذا فى الأصل).

رجعت وفي نفسي بلا بل رحمة
من أصحاب بدر من قریش وغیرهم
ولکنی قد نلت شیئاً ولم یکن
وقد فاتنی بعض الذی کان مطلبی
بنی هاشم منهم ومن أهل یثرب
کما کنت أرجو فی مسیری ومزکبی^(٢٩)

فقامت (هند بنت أثناة بن عبد المطلب)، سلیلة البیت الهاشمی، وقد استنفرها شعر (هند بنت عتبة)، لکرد علیها قاتلة:

خزیت فی بدر وبعد بدر
صبحک الله غداة الفجر
بکل قطاع حسام یغتری
إذا رام شیب وأبسوک عذری
یا بنت وقاع عظیم الکفر
م الهاشمیین الطوال الزهر
حفزة لیثی وعلی صقری
مخضباً منه ضواحی النحر

ونذرك السوء فشر نذر^(٣٠)

واستمر (حسان بن ثابت) یتبع قوافی (هند بنت عتبة)، لیلق بها ولقعة فاحشة، ویرفع الستر عن سرها، لیقول:

لعن الإله وزوجها معها
أخرجت مرقصة إلى أحد
بكر ثقال لا حراك به
وعصاك إسنك تتقسين بهما
فرحت عجزتيهما ومشرجهما
ونسيت فاحشة أتيت بها
زعم الولائد أنها ولدت
هند الهند عظمة البظر
فی القوم، مقتبة على بكر
لا عطن مغالبة ولا لجر
دقى العجاجة هند بالفهر
من دأبها نصاً على القتر
یا هند ويحك سبة الدهر
ولها صغيراً كان من عهر^(٣١)

(٢٩) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٢١٥.

(٣٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٩.

(٣١) الطبري: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٢٥، ٥٢٦.

نتائج غزوة أحد

«والله ما أبتغى أن يستغفر لي، إن قمت
إلا لأشدد أمره».

[عبدالله بن أبي بن سلول]

حروب دولة الرسول

جزء أول

يقول البيهقي مصوراً حال يثرب بعد هزيمة المسلمين في أحد بقوله:

وأخذ المنافقون عند بكاء المسلمين في المكر... وتحزين المؤمنين...
وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل^(١).

ونعت النفاق عند أحد تحديدأ، صار- كما هو واضح في كتب الأخبار- يلحق بكل معترض، أو بكل من عقب على الهزيمة بالتشكيك، وهو ما يظهر واضحاً في قول ابن كثير:

وقالت اليهود: لو كان نبياً ما ظهروا عليه، ولا أصيب منه ما أصيب،
لكنه طالب ملك تكون له الدولة وعليه، وقال المنافقون مثل قولهم، وقالوا
للمسلمين: لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذي أصابوا منكم^(٢).

والإشارة هنا إلى ثلاثمائة أنصاري، قرروا قبل المعركة البقاء في المدينة، وعدم الخروج إلى أحد، برأى عسكري عركته خبرتهم بمناعة مدينتهم، وإزاء ذلك الفوران، الذي بات يهدد هيبة الدولة الناشئة، ويعطى الفرصة للرؤوس المحنية للتعالي والتغامز، وما قد يجره ذلك من تردى هيبة صنعها المجاهدون بدمائهم في بدر، كان لابد من خطوة أولى لتهدئة روع المسلمين، ومن ثم استرسل الوحي يرد على هؤلاء بالقول الكريم:

- «الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن
أنفسكم الموت إن كنتم صادقين» (١٦٨/ آل عمران).

- «وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين...»
(١٦٦/ آل عمران).

- «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً» (١٤٥/ آل
عمران).

- «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم» (١٤٢/
آل عمران).

أما الذين حزنوا على المغانم الزائلة من عرض الدنيا، فقد توجه إليهم الوحي يقول:
- «ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب» (١٤/ آل عمران).

(١) البيهقي: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٢١٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٩.

- «ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون» (١٥٧/آل عمران) .
- «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون» (١٦٩/آل عمران) .

العلاج النفسي

والدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقبلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة نرزق، لئلا ينكلوا عند الحرب، ولا يزهدوا في الجهاد، قال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأُنزل الله تعالى: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله» (٣).

ثم يلتفت المصطفى إلى (جابر) رضى الله عنه ويقول له: «يا جابر؛ ألا أبشرك؟ قال: بلى بشرك الله بالخير. قال: شعرت أن الله أحيا أباك فقال: تمن على عبدى، ما شئت أعطكه، قال: يارب ما عبدتك حق عبادتك، أتمنى عليك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل مع نبيك، وأقتل فيك مرة أخرى، قال: إنه قد سلف منى القول، لا يرجع إليها» (٤).

وهكذا كان العلاج النفسى، والبلمس الشافى المداوى، ولم شتات الأنفس المبعثرة فرقاً وهدلاً، وتقوية العزائم بتثبيت الإيمان، لكن مؤرخينا لا يجدون - عافاهم الله - فى تلك الخطوة المداوية، والكلام السديد بالرأى الرشيد، كفاية وشفاء وغناء، إنما يطمحون دوماً كدأبهم إلى حديث الأحاجى والمعجزات، وهو حديث ما كان يشفى أصحاب أحد وهم مهزومون، قدر ما يشفيهم الوحي الصادق، والقيادة الحكيمة، لكن أحاديث الأحاجى كتبت على ما يبدو لأجيال بعد ذلك ستقرأ التاريخ، وربما تتساءل فى ضوء المشروع عقلاً، فكان إقامهم سلفاً تلك الدلائل على الإعجاز، رغم تَجَرُّع المسلمين مرارة الهزيمة فى هدوء وبطولة، فجاءتنا الروايات تقف بعضُها، لتعيد حديث الملائكة، وتؤكد أن الملائكة الأعلى المحارب قد هبط إلى أحد، وأعمل خبرته القتالية

(٣) انظر الحديث فى مسلم، رواه موقوفاً فى ٣٣ من كتاب الإمارة، بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة.
(٤) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٩٨ .

فى المعركة، غير مدركين إلى أى منزلق يذهبون بقلك المزاعم، ومنها ما جاء يحكى عن الوقعة فى حميتها، والرسول يتعرض للهجوم، وأمامه سعد بن أبى وقاص، فقال عليه الصلاة والسلام لسعد: ارددهم، قال: كيف أرددهم وحدى؟ فقال له: ارددهم، قال سعد رضى الله عنه: فأخذت سهماً من كنانتى فرميت به رجلاً منهم فقتلته، ثم أخذت سهماً آخر فإذا هو سهمى الذى رميت به، فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذت سهماً فإذا هو الذى رميت به فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فكان عندى فى كنانتى لا يفارق كنانتى.

ولا تظن الروايات إلى أن سعداً لو استمر بسهمه المبروك هذا، لأفنى المشركين، ثم تؤكد أن هذا السهم كان بعده عند بنيه... وروى عنه أنه قال: لقد رأيتنى أرمى بالسهم يوم أحد، فيرده على رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه، حتى كان بعد... فظننت أنه ملك.

ثم ينسب لسعد حديث آخر يقول فيه:

رأيت يوم أحد عن يمين النبى عليه الصلاة والسلام وعن يساره، رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عن رسول الله أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده^(٥).

بل وتحدد كتب التراث الرجلين البيض بالثياب البيض بالاسم فقد كانا الملكين (جبريل) و(ميكائيل)^(٦).

ورواية أخرى، تضع سعداً مرة أخرى، فى حبكة أخرى، تقول:

لما كان يوم أحد انكشفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسعد يرمى بين يديه، وفتى ينبل له كلما ذهب نبله أتاه بها، يقول: ارم أبا إسحق، فلما فرغوا نظروا: من الشاب؟ فلم يروه ولم يعرف^(٧).

ومثل تلك الروايات التى تصر على نزول الملائكة إلى أحد وحريها مع المسلمين، رواية تحكى عن أمر تعلمه كتب الأخبار، وهو أن (أبا الروم) أخو (مصعب بن عمير)، حمل اللواء من (مصعب) بعد سقوط أخيه شهيداً، وفى زحمة المعركة وهولها، ومع إصابة النبى تلك الإصابات الشديدة، ظن أبا الروم مصعباً، لكن الرواية تتم حياكتها لتخبرنا خبراً آخر يقول:

(٥) البخارى: كتاب المغازى، باب: إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا.

(٦) مسلم: كتاب الفضائل، باب قتال جبريل وميكائيل عن النبى يوم أحد.

(٧) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٦.

ولما قتل مصعب بن عمير رضى الله عنه، وسقط اللواء، أخذه ملك فى صورة مصعب... وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم للملك الذى على صورة مصعب: تقدم يا مصعب، فالتفت إليه الملك فقال: لست بمصعب، فعرف عليه الصلاة والسلام أنه ملك أُيد به.

هذا بينما يعقب الحلبى فى سيرته على الرواية فيقول: «... رأيت فى رواية أنه لما سقط اللواء، أخذه (أبو الروم) أخو (مصعب)، ولم يزل فى يده حتى دخل المدينة» (٨).

وفى سياق سوق المعجزات، لا يرضى (الحلبى) فى موضع آخر من سيرته، إلا بموتة قمينة لابن قمئة الذى شج النبى فى وجهه وضربه بالمغفر، فيقول:

إن هذه الشجة لم تشنه، بل زادته جمالاً... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقمأك الله... وقد استجاب فيه دعوة نبيه، فإنه بعد الواقعة خرج إلى غنمه فوافاها على ذروة الجبل، فأخذ يعترضها، فشد عليه كبشها، فنطحه أرداه من شاهر الجبل فتقطع (٩).

كذلك تتلى الروايات على (أبى بن خلف) الذى قتله النبى بالحرية، حتى يسكته عن إسماع المشركين ندائه وهو يهتف: أى محمد؟ لا نجوت إن نجا، لتقول بلسان عبد الله بن عمر:

مات أبى بن خلف ببطن رابغ، فإنى لأسير ببطن رابغ بعد هوى من الليل، إذا نار تتأجج لى فهبتها، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتنبها وهو يصيح: العطش العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، فإن هذا قتيل رسول الله، هذا أبى بن خلف (١٠).

ثم لا يجد مؤرخونا بأسا هنا من تكرار بعض ما صاغوه لبدر الكبرى، ومنها القول: «أخبرنا أشياخنا أن عبد الله بن جحش جاء إلى النبى يوم أحد وقد ذهب سيفه، فأعطاه النبى صلى الله عليه وسلم عسيباً من نخل، فرجع فى يد عبد الله سيفاً... وأصيبت يومئذ عين قتادة بن نعمان حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت أحسن عينيه وأحدّهما،

(٨) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٥٤٤، ٥٤٥.

(٩) نفسه: ص ٥١٣، ٥١٤.

(١٠) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٩.

وتفصيل إعادة تركيب العين في موضعها، في أن النبي رفع حدقته فوضعها موضعها ثم غمزها براحتة، وقال: اللهم اكسه جمالاً، فمات وما يدرى من لقيه أى عينيه أصيبت،^(١١).

ثم يعرج رواية السير والأخبار على ألوان أخرى من الروايات، قصدوا بها التدليل على صدق نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعصمته، وطهارته، وطهارة جسده، وما قد ينال المؤمن الصادق إذا ما نال من ذلك الجسد شيئاً، يرفع من مكانته ويزكيه، لكنها من جانب آخر. إن كانت قد حدثت. فإنها تلقى ضوءاً على المكانة التي وصل إليها رسول الله بين أتباعه وربما قصد بتلك الروايات وضعها في مقابلة مع أخبار من شك أو فروهم، لإثبات وجود المؤمنين الصادقين الثابتين، الواقفين بنبيهم إلى حد التبتل فيه، حداً لم يصله قبله إنسان ولا بعده، ومن تلك الروايات أن (مالكاً بن سنان الخدرى)، أبا (سعيد الخدرى)، قد امتص دم النبي من جروحه في أحد، وازدرد تلك الدماء، فقال النبي:

من سره أن ينظر إلى رجل لا تمسه النار، فلينظر إلى مالك بن سنان،
من مس دمي لم تصبه نار.

ويعقب (الحلبى) على ازدرداد دم النبي تعقيباً شارحاً مطولاً يقول فيه: «ولم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم، أمر هذا الذى امتص دمه بغسل فمه، ولا أنه غسل فمه بعد ذلك، كما لم ينقل أنه أمر حاضنته أم أيمن بركة الحبشية رضى الله عنها، بغسل فمها، ولا هى غسلته بعد ذلك لما شربت بوله صلى الله عليه وسلم، ففيها رضى الله عنها أنها قالت: قام رسول الله من الليل إلى فخارة تحت سريره، فبال فيها، فقامت وأنا عطشى فشربت ما فى الفخارة، وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يا أم أيمن، قومى إلى تلك الفخارة فأهريقى ما فيها، فقالت: والله لقد شربت ما فيها، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: لا يجف بطنك بعده أبداً... أى لا تشتكى بطنك... وقد شربت بوله أيضاً امرأة يقال لها بركة بنت ثعلبة بنت عمرو، وكانت تخدم أم حبيبة رضى الله عنها، جاءت معها من الحبشة،... وفى كلام ابن الجوزى، بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان الحبشية، خادمة أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم،... فقال لها حين علم أنها شربت ذلك: صحة يا أم يوسف، فما مرضت قط، حتى كان مرضها الذى ماتت فيه»^(١٢).

(١١) نفسه: ص ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣.

(١٢) الحبلى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥١٥، ٥١٦.

غزوة حمراء الأسد

هكذا كانت البلاسة الشافية لجراح أحد على المستوى النفسى، لإعادة تثقيت المؤمنين حول الإيمان، وحول نبيهم صلى الله عليه وسلم، وعلاقته الحميمة بمحببيه ومريديه والخاص له، أما على المستوى العسكرى، فإن (ابن هشام) راوى السيرة يحكى:

فلما كان الغد يوم الأحد، لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن الرسول فى الناس بطلب العدو... أنه لا يخرج من معنا أحد، إلا أحد حضر يومنا بالأمس.

ثم يعقب بالقول: «وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم» (١٣).

وعليه، فإن قريشاً لم تستمتع بنشوة نصرها سوى ليلة واحدة، أو بضع منها، وخاب فآلها فى هيبتها، وسقطت آمالها فى تأمين طريق الإيلاف، فلم تمض شوطاً عن المدينة، حتى خرج المسلمون وهم بعد جرحى، بزعامة قائدهم المقتدر، رغم ما أثقل جسده الشريف من آلام وجراح، إلى حمراء الأسد، ليومهم قريشاً أنه خرج لها مطارداً، وأن المسلمين لم يهنوا أو يتخاذلوا ليسلبهم لذة نصر الأمس، ونشوة عزهم الكاذب، وليثبت لهم أن ما حدث بأحد، كان أمراً اعتراضياً فى مشوار طويل سيطول مداه، وأن النبى لن يتراجع عما انتواه، وبالفعل خرج المسلمون إلى حمراء الأسد طاعة لنبيهم رغم جراحهم، فممنهم من كان به تسع جراحات، وهو أسيد بن حضير رضى الله عنه، وعقبة بن عامر رضى الله عنه، ومنهم من كان به عشر جراحات وهو خراش بن الصمة رضى الله عنه، ومنهم من كان به بضع عشرة جراحة، وهو كعب بن مالك رضى الله عنه، ومنهم من كان به بضع وسبعون جراحة، وهو طلحة بن عبيد الله... وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مجروح فى وجهه من أثر الحلقتين، ومشجوج فى وجهه، ومكسورة ربايعته، وشفته السفلى قد جرحت من باطنها، وشفته العليا قد كلمت من باطنها، متوهن منكبه لضربة ابن قملة لعنه الله، وركبته مجروحتان من وقعته فى الحفيرة، (١٤).

ثم نعلم أن خزاعة بمشركيها، رغم هزيمة المسلمين، ظلت على عهدا ليثرب وقائدها، وهنا يجب ألا ننسى، أن خزاعة لم تنس أبداً أن قريشاً سلبتها سيادتها على مكة وعلى البيت، وطردها

(١٣) السهيلي: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٢، ص ١٧٣.

(١٤) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٥١، ٥٥٢.

من مكة بعد أن تحالفت مع من والاها من قبائل العرب، بحيلة احتال بها سلف قريش (قصي بن كلاب) على (أبي غبشان الخزاعي)، فاشترى منه مفتاح الكعبة بزق من الخمر وقعود^(١٥)، لذلك:

كانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم
بتهمامة، صفتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها، ومعبد بن أبي معبد
الخزاعي يومئذ مشرك، مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مقيم
بحمراء الأسد، فقال: يا محمد؛ أما والله لقد عز علينا ما أصابك في
أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج من عند رسول الله بحمراء
الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا
الرجعة إلى رسول الله وأصحابه... فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما
وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر
مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في
يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحق عليكم ما لم أر مثله قط، قال:
وبلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل... فقال
النبي وهو بحمراء الأسد حين بلغه أنهم هموا بالرجعة، والذي نفسى بيده،
لقد سومت لهم حجارة، لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب^(١٦).

وعليه، شددت قريش في طريق العودة سراعاً نحو مكة، وهي تظن يثرب بجمعها قد خرجت
وراءها تطلبها، بينما كان النبي عليه الصلاة والسلام في طريق عودته من حمراء الأسد إلى
يثرب، بعد أن حقق غرض الإرهاب لقريش، ليبدأ بالمرحلة الثالثة من علاج نتائج أحد، بعد
العلاج النفسي، والإرهاب العسكري، فقام بضرب بسرعة وبقوة، كل القوى المناوئة والمضادة
في يثرب، وكل من سولت له نفسه التشفي أو التهكم أو ابتهاج الفرص، وهو ما بدأه بإصدار الأمر
بقتل (الحارث بن سويد بن الصامت)، الذي قتل (المجذر بن زياد) في أحد، ثأراً لأبيه:

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، عويمر بن ساعدة بضرب عنقه،
فقال له: قدّم الحارث بن سويد إلى باب المسجد واضرب عنقه، وقيل أمر
عثمان بن عفان بذلك (والمرجح أن عثمان هو الذي قتله)، فقدم ليضرب

(١٥) انظر: سيد القمني، الحزب الهاشمي، سبق ذكره،

(١٦) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٠: ٥٢.

عقده، فقال الحارث: لم يا رسول الله؟ فقال: بقتلك المجذر بن زياد... فقال الحارث: والله قتلتك، وما كان قتلى إياه رجوعاً عن الإسلام ولا ارتياباً فيه، ولكن حمية من الشيطان، وإنى أتوب إلى الله ورسوله مما عملت، وأصوم شهرين متتابعين، وأعتق رقبة، فلم يقبل منه للنبي صلى الله عليه وسلم^(١٧).

أما (ابن سلول) الذي عاد بثلاث جيش المسلمين من أحد، متشككاً في النصر الموعود، والملائكة المنزلة، فكان له شأن آخر، نقرأه في رواية تقول:

كانت عادة عبد الله ابن أبي بن سلول، إذا جلس النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر، قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله تعالى به وأعزكم، فأنصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم جلس.

ومثل ذلك القول المعتاد من (ابن سلول)، يشير إلى أمر الرجل كسيد من سادة المدينة، يوجه نصحه وأمره لرجال وأتباعه وحلفائه، بطاعة النبي، كما يشير لهم أنه بخطابه قد بدأ هو بالطاعة للنبي وعليهم اتباعه، كما أن تلك المقدمة الدورية منه كل جمعة، كانت تعنى من جانب آخر، تنازلاً مضطراً للسيد الجديد، كما كانت تمسحاً به وتزلفاً لبقية المؤمنين، وهو يعطيها كما لو كان يعطى برضاه، أو كمن تنازل عن السيادة وأمر أتباعه بالطاعة ولولاه ما أطاعوا، إنها المحاولة الدائبة من سيد انحدر أمره يريد التشبث بما بقي له من ظلال السيادة، ولو على من بقي له من أتباع، ليقوم ممثلاً لهم معطياً بيعة دورية للسيد الجديد، لكن بعد أحد، حدث ما جاء في كتب السير يقول:

فبعد أحد، أراد أن يفعل ذلك، فلما قام، أخذ المسلمون بثوبه من نواحيه، وقالوا له: اجلس عدو الله، والله لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت، فخرج وهو يتخطى رقاب الناس وهو يقول: كأنى إنما قلت هجراً؟! وقال له بعض الأنصار: ارجع يستغفر لك رسول الله، فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي، إن قمت إلا لأشدد أمره^(١٨).

وهكذا سقط ما كان قد تبقي لابن سلول من سيادة وتشريف، كان يلتمسه عبر تقديم سيد

(١٧) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٥٥، ٥٥٦.

(١٨) نفسه: ص ٥٩٤، انظر أيضاً ابن كثير: سبق ذكره، مج ٤، ص ٥٣.

المدينة الجديد لأتباعه، وانحدر أمره، وتضاءل حجمه وأمعن بقيّة الأنصار مع المهاجرين في تصغيره، حتى لا يكون فتنة للمسلمين بعد الهزيمة، وحتى لا يكون ذا أثر محسوس لمعارضة حية أو نشطة في الدولة الجديدة، زمن حرب ومعركة دائبة.

المعارضون

ثم كان أن سل الإسلام سيفه على الرؤوس الكبيرة داخل المدينة وخارجها، إرهاباً وإنذاراً، لتعود القبائل إلى الانكماش، ولا تجد في أحد فرصة للتطاول على دولة المسلمين الطالعة، وفي ذلك يذكرنا (ابن حبيب) بمقتل الرأس اليهودي (كعب بن الأشرف)، الذي هاله أمر قتلى المشركين في بدر وأفصح بالعداء للمسلمين، لكن ليضيف إليه رأساً آخر تم اجتثاثه، فيقول: «وفي سنة ثلاث، بعث محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة إلى كعب بن الأشرف فقتلاه... وبعث في النصف من رجب عبد الله بن أنيس إلى سلام بن أبي الحقيق اليهودي فقتله»^(١٩)، ويفصل لنا (ابن كثير) أمر اغتيال (أبي رافع / سلام بن أبي الحقيق) بقوله: «وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف، فاستأذن الخزرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل سلام بن أبي الحقيق وهو بخيبر، فأذن لهم، قال ابن إسحق: فحدثني محمد بن مسلم الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: وكان مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، أن هذين الحيين من الأنصار والأوس، كانا يتصاولان مع رسول الله تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن رسول الله إلا وقالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك، ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله قالت الخزرج: والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً. قال: فتذاكروا من رجل لرسول الله في العداوة كابن الأشرف، فذكروا ابن أبي الحقيق وهو بخيبر، فاستأذنوا رسول الله فأذن لهم، فخرج من الخزرج من بنى سلمة خمسة نفر: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة الحارث بن ربيعي، وخزاعي بن أسود حليف لهم... حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبي الحقيق ليلاً...، ثم يروى راويهم «فلما دخلنا عليه، أغلقنا عليه وعلينا الغرفة، فابتدرناه وهو على فراشه بأسياقنا، فوالله ما يدلنا عليه في سواد الليل إلا بياضه، كأنه قبطية ملقاة... وتحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه وهو

(١٩) ابن حبيب: المحبر، سبق ذكره، ص ١١٧.

يقول: قطنى قطنى... أما (ابن أنيس) فيؤكد المقتلة حتى الموت بقوله:

فوضعت السيف فى بطنه، ثم انكفأت عليه، حتى سمعت صوت العظم.

وقال (الزهرى): قال (أبى بن كعب): فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: فلما رأيهم قال: أفلحت الوجوه... فقال حسان بن ثابت فى ذلك، يعلم الحاضر والبادى أن سيف الإسلام وإن تراجع مهزوماً فى أحد، فلا زال قادراً على قطع الرؤوس:

يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف	لله در عصاة لاقيتهم
مرحاً كأسد فى عرين مغرف	يسرون بالبليض الخفاف إليكم
فسقوكم حتفاً ببليض ذفف	حتى أتوكم فى محل بلادكم
مستصغرين لكل أمر محجف (٢٠)	مستبشرين لنصر دين نبيهم

وإذ يصير (ابن حبيب) فى كتابه المحبر، على اغتيال أبى رافع سلام بن أبى الحقيق، بعد أحد مباشرة، فإن رواة السيرة فى مواضع مختلفة يحاولون تبرير المقتلة، فيقولون إنها حدثت فيما بعد، بعد وقعة الخندق، والسبب هو أن (سلام بن أبى الحقيق) كان أحد الذين حاربوا الأحزاب ضد دولة الرسول وهو ما يناقض ما جاء فى شعر (حسان بن ثابت)، عندما جمع بين مقتل (كعب ابن الأشرف) ومقتل (أبى رافع سلام بن أبى الحقيق) فى قصيدته التى تستعرض قوة السيف الإسلامى، ومعلوم أن (ابن الأشرف) قد تم قتله بعد أحد مباشرة لقولته التى قالها، هذا بينما نعلم من (ابن سيد الناس) فى مغازيه (عيون الأثر)، أن (أبا رافع سلام بن أبى الحقيق) قد قتل بعد أحد، وتم تسييد سيد بعده على خير هو (أسير بن رزام)، وذلك فى قوله: ولما قتل أبو رافع سلام ابن أبى الحقيق، أمرت يهود عليهم أسير بن رزام، فسار فى غطفان وغيرهم فجمعهم لرسول الله، ومن ثم فإن من حزب الأحزاب هنا هو (أسير بن رزام) وليس (أبا رافع)، لأن أبا رافع كان قد قتل بعد أحد، وقد تم خلط بعد ذلك بين كليهما، إذ أن (أسير بن رزام) هو الذى قتل بعد تحزيبه الأحزاب فى سرية إسلامية أخرى، سرت إليه لتقتله بعد غزوة الأحزاب أو الخندق كما سنرى (٢١). بل إنه فى رواية ابن هشام ما يؤكد قتل (أبى رافع) بعد أحد مباشرة، فى قوله السالف «وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف، فاستأذن الخرج رسول الله فى قتل سلام بن أبى الحقيق».

(٢٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ١٣٩: ١٤٢.

(٢١) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ٢، ص ١٤٥.

ثم انطلق سيف الإسلام داخل يثرب يعمل عمله لإسكات أى لون من ألوان الاستهانة بالدولة، وهى الاستهانة والمعارضة التى يمكن أن تشكل كارثة لدولة عسكرية فى زمن حرب، وهو ما نقرأه فى قصة اغتيال (أبى عفك/ عمرو بن عوف)، ذلك الشيخ الذى تخطى بعمره من الزمان قرناً، فلم تبق لديه قوى تمكنه من إمساك دمه واستمرار تجلده، وهو يرى مسلماً آخر هو (الحارث بن سويد بن الصامت)، وهو يذبح بباب المسجد النبوى وهو ابن (سويد بن الصامت) الذى عرف بين العرب بالحكمة، وبأنه صاحب صحيفة لقمان التى وافق عليها الوحى القرآنى، فانهزم دمع (أبى عفك) مرسلأً شعره نحيباً باكياً (الحارث) بن صاحب صحيفة لقمان، ورجل فى عمر (أبى عفك) إن أرسل نواحه فى الفيافى بين العريان، الذين يقدسون المسنين، ويعبدون الأسلاف ويحنون الهامة للمعمرين، لا يتركها إلا بقلوب كليمة موجوعة جزعة، وهو الشعر الباكي الذى جاءنا خبر منه فى رواية ابن إسحق عن غزوة سالم بن غمير لقتل أبى عفك، أحد بنى عمرو بنى عوف، ثم بنى عبيدة، وكان قد نجم نفاقه حين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن سويد بن الصامت، وإشارة ابن إسحق لنفاق الرجل تشير إلى أنه كان حتى قوله ذلك الشعر مسلماً، وما نافق إلا بتلك البكاكية التى تقول فى طرف منها:

لقد عشت دهرأ وما إن أرى	من الناس دارأ ولا مجمعأ
أبر عهدأ وأوفى لمن	يعاقد فيهم إذا ما دعا
من أولاد قليلة فى جمعهم	يهد الجبال ولم يخضعأ
فصدعهم راكب جاءهم	حلال حرام لشتى معأ
فلو أن بالعز صدقتم	أو الملك تابعتهم تبعأ

فقال رسول الله: من لى بهذا الخبيث؟ فخرج إليه سالم بن عمير، أخو بنى عمرو بن عوف (أى أحد رجال عشيرته) فقتله، وهو ما طربت له (إمامة المزيرية) حتى قالت:

تكذب دين الله والمرء أحمدأ	لعمركم الذى أمناك أن بئس ما يبنى
حباك حنيف آخر الليل طعنة	أبا عفك خذها على كبر السن

ولكن لمصرع رجل مثل (الحارث)، ثم مقتل رجل السنين والطوال والحكمة (أبى عفك)، كان لابد أن يدوى الصدى ليرجع الأمر ترجيعاً بين النفوس الجازعة، ولم تتمكن (عصماء بنت مروان) من الإمساك على إسلامها، فأرسلت عبراتها شجوناً، تقول تبكى وتهجو وتحرض، ليسرى شعرها بين الناس مرجعاً لوعتها وهى تقول:

باست بنى مالك والنبيت	وعوف، وباست بنى الخزرج
أطعتم أتاوى من غيركم	فلا من مراد ولا مذحج
ترجونه بعد قتل الرؤوس	كما يرتجى مرق المنضج
ألا أنف يتغى غميره	فيقطع من أمل المرتجى؟

ومن ثم لا يجد (ابن هشام) من أمر عبراتها إلا نفاقاً، بقوله:
«فلما قتل أبو عفاك نافقت».

وهو النفاق الباكي الذى استحقت عليه ما جاء ذكره (عند ابن هشام) فى قول النبى بين أصحابه هاتفاً:

ألا أخذ لى من ابنة مروان ؟

فسرى إليها ليلاً واحد من بنى عشيرتها، هو (عمير بن عدى) فكلاهما من بنى خطمة، فأعمل سيفه فى أحشائها وهى مستسلمة لنومها فى فراشها، ثم أصبح مع رسول الله فقال: يا رسول الله إنى قتلتها، فقال: نصرت الله ورسوله يا عمير.

أما النتيجة التى ترتبت على قتل عقيلة بنى خطمة، فهى هرع من لم يسلم منهم إلى إعلان إسلامه، «فذلك اليوم أول ما عز الإسلام فى دار بنى خطمة... فأسلم، يوم قتل ابنة مروان، رجال من بنى خطمة لما رأوا من عز الإسلام» (٢٢).

ويستمر راوى السيرة (ابن هشام) فى سرد ما سقط من أحداث فى سيرة (ابن إسحق)، ليضيف إلى مقتل (أبى رافع) و (أبى عفاك) و (عصماء بنت مروان)، عدداً من السرايا لعل أهمها سرية (عبد الله بن أنيس) لقتل سيد هذيل (خالد بن سفيان الهذلى) وسرية (زيد بن حارثة) إلى بنى فزارة.

ويروى (الطبرى) قصة سرية (عبد الله بن أنيس) فيقول: إن النبى عليه الصلاة والسلام بعث إلى (عبد الله بن أنيس) وقال له: «بلغنى أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى يجمع لى الناس ليغزو لى، وهو بنخلة - أو بعرنة - فأته فاقتله»، وذهب (ابن أنيس) حتى التقى بالرجل، وأخذه فى مسيره شوطاً بعيداً عن أصحابه وهو يحكى له عن رغبته فى الالتحاق به، حتى وجد

(٢٢) السهيلي: سبق ذكره، مج ٤، ص ٢٤٤، ٥٤٥.

منه فرصة بعيدة عن الأعين فقتله، وعاد إلى يثرب ليحكى لنا «فلما قدمت على رسول الله وسلمت عليه ورأى قال: أفلح الوجه» (٢٣).

أما سرية (زيد بن حارثة) إلى بنى فزارة بوادي القرى، فكانت إلى (فاطمة بنت ربيعة) المعروفة بأم قرفة، وكانت عجوزاً كبيرة تجاوزت من عمرها قرناً، وكانت مطاعة في قومها، ذات منعة وشرف وسيادة، بلغ صيتها كل العريان، وضربوا بعزها الأمثال، وبقي من الأمثال التي تتعلق بأم قرفة مثلاً على الأقل، وهما «أمنع من أم قرفة»، و«لو كنت أعز من أم قرفة ما زدت» (٢٤)، وهى كلها أسباب تكشف عن ملامح غزوة (زيد بن حارثة) وغرضها الذى تم بهبوطه عليها على غرة، فأعمل السيوف في الفزاريين، ثم أسرا أم قرفة وابنتها هنداً، وبينما أبقي على (هند) سبية، فقد أمر بقتل أم قرفة قتلاً ذكر (ابن هشام) أنه كان عنيفاً (٢٥)، وهو ما جاء تفصيله في (الطبرى) شارحاً: أنه تم ربط رجلها بحبلين، ثم ربط الحبلان ببعيرين متعاكسين، ثم ضرب البعيران فانطلقا، فشقاها شقاً (٢٦).

وهكذا جاء مسلسل الاغتيال والعنف والتصفية الجسدية، لإعادة تثبيت هيبة الدولة التي ترنحت في أحد، ولإعلان الإصرار الذي لا يتزعزع على استدامة الدولة وسيادتها والحفاظ على مستقبلها، ولومع التضحية بأرواح كثيرة.

ومن ثم كان ضرورياً أن تهدأ المدينة، بعد قبر الأصوات المعارضة، لكن بعد أن أصلت غزوة أحد الثارات بين اليثارية وبين المكيين نارا، كما تركت سرايا الاغتيال بدورها أحقاداً ثأرية في نفوس قبائل، قطع السيف الإسلامى رؤوس ساداتها وأشرافها. وهو الأمر الذى ظل قائماً ومحركاً لأحداث سيتناولها الجزء الثانى من هذا الكتاب، لحروب دولة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم.

(٢٣) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٣، ص ١٥٦.

(٢٤) نفسه: ج ٢، ص ٦٤٣.

(٢٥) السهيلي: (فى سيرة ابن هشام)، سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٧.

(٢٦) الطبرى: التاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٤٣.

حروب دولة الرسول

الجزء الثانى

حروب دولة الرسول

الجزء الثاني

مسار التاريخ

«أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»

[١٣ الشورى/ قرآن كريم]

فى الجزء الأول من هذا العمل، قدمنا تأسيساً تمهيدياً يساعد على تفهم المراحل التى اجتازتها دولة العرب وهى فى طور النشأة، والتى أقام نواتها الأولى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فى عاصمته (يثرب)، عبر حروب طويلة خاضها بصحبة رجاله، من أجل تأمين دولته الوليدة، وتوحيد قبائل العربان تحت راية دولة واحدة، وقائد واحد، وعبادة واحدة.

وإعمالاً لذلك؛ قمنا بقراءة واقع جزيرة العرب، الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، فى الفترة الواقعة قبل الدعوة، فكان حديثنا عن حكومة الملأ الابتدائية فى مكة، التى كانت شبه جمهورية، والتى قامت بهدف إحكام سيطرة الأرستقراطية التجارية المكية، على مختلف الشئون، فى خطوات بدأت بتقريش قبائل مكة زمن (قصي بن كلاب)، أى جمعهم بعد تفرق، ثم كانت الخطوة الثانية: الإيلاف، للتأليف بين قبائل مكة التجارية، وبين القبائل الضاربة على الخط التجارى الواصل بين مكة وبين الامبراطوريتين: الفارسية والرومانية، وبينها وبين القبائل المتناثرة فى باطن الجزيرة فى خطوط فرعية، ثم بين مكة وبين الامبراطوريتين.

وقد هياً مكة للقيام بهذا الدور التاريخى، مجموعة متسارعة من الأحداث، حيث كان مركز اليمن الزراعى قد تهاوى وكذلك التجارى، بينما تضعضعت أحوال الممالك العربية الشمالية:

الفساسنة والمناذرة، وذلك فى العصر الجاهلى الأخير، وهو ما أحدث فراغا سياسيا واضحا، كما انهارت مجموعة طرق تجارية أخرى لم يبق آمنًا منها سوى الطريق المار بمكة، نتيجة للحرب الضروس التى دارت بين الفرس والروم.

وكان لمنعة الطريق المار بمكة، دور حوّل مكة من قابضة للعشور على بضاعة الترانزيت المارة بها، إلى مركز للأرستقراطية التجارية التى نهضت بأمر تجارة العالم المعروف آنذاك، وهو الأمر الذى أدى إلى تراكم ثروى عظيم، بخزائن الأرستقراطية المكية، التى أخذت تتاجر لحسابها بثروات العالم.

ومع ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه أفراداً من عشائر مكية مختلفة، ومنع تحول هؤلاء نفر عن قبض العشور إلى التجارة لحسابهم، ومع حجم تلك التجارة الهائل، كان محتماً أن تبدأ الانقسامات الطبقيّة الحادة فى الظهور داخل القبيلة الواحدة، مما أدى إلى تهشيم الأسس الأولية القديمة لروابط العشيرة، وما صاحبه من اختلاف أوضاع الناس فى العملية التجارية التى تقودها مكة، مما ساعد على تحول تدريجى ابتدائى عن الولاء للقبيلة إلى الولاء للطبقة، وظهرت قيم الفردية، التى اتضحت فى إمكان تحديد قيمة الفرد دون جماعة، بتحول قيمة الشرف عن النسب القبلى وعدد النفرة، إلى ما يملكه الفرد من مال، وهكذا جمعت المصالح المادية لأول مرة، بين أفراد من قبائل مختلفة، كما جمع الشقاء بين المستضعفين على تفرقهم بين مختلف القبائل.

وقد لاحظنا بما قدمناه من أمثلة، أن كل تلك التطورات لم تصل فوراً إلى نتائجها الواضحة، فلم يتم تفجير القيم القديمة تفجيراً كاملاً، إنما تخفى المحتوى الطبقي الجديد برداء قبلى قديم، عندما سعت كل مجموعة من الأثرياء إلى ربط أفراد قبيلتها بهم وبمصالحهم، بالعتاء والمنح، وإشراك صغار التجار فى قوافلهم التجارية، وهو ما تمثل فى انقسام المجتمع القرشى إلى حزبين قبليين كبيرين بين أبناء العمومة، أو إلى طبقتين لكن بملامح قبليّة، يمثلهما البيت الأموى الثرى، والبيت الهاشمى الذى غلب عليه الفقر.

وكان مفترضاً أن يؤدى التفاوت الطبقي، وتناقضه مع الشكل القبلى، إلى مرحلة تفجر الشكل لمصالح المحتوى، لولا أن الشكل القبلى كان يؤدى للقيادة المكية - ولمصالح الأرستقراطية التجارية تحديداً - مكسباً ثروياً أكبر من التحول النهائى نحو الشكل الطبقي، لأن بقاء القبيلة وإطالة أمدّها كان يعنى مزيداً من التراكم الثروى لأرستقراطية مكة، وهو الأمر الذى يفسره مستوى المرحلة الفكرية.

وعلى المستوى الفكرى، كان الرب القبلى سيد القبيلة وسلفها البعيد، ومعبودها ورمز عزتها وكبريائها، وكان تجمع تلك الأرباب فى ضيافة الكعبة المكية يعنى مزيداً من الحضور التجارى لأتباع الأرباب، ومزيداً من المكاسب، وبينما كان المحتوى الطبقي يسير نحو تفجير الشكل القبلى

لصالح توحد القبائل جميعا، بتقارب مصالح الأثرياء من قبائل مختلفة، بحيث صار ممكنا رفض القبيلة وسيدها وسلفها المعبود لدى الفرد عن الشريحتين الاجتماعيتين، الأرستقراطية والمعدمة، فكان الأرستقراطيون ينحون نحو التوحد المصلحي الذي احتاج أدلجة أفرزت اعتقاداً في إله واحد يرعى تلك المصالح، ويكون في مرتبة تليق بمكانتهم السيادية والإدارية، فوق آلهة الكعبة جميعا، وراعيا غائبا لمصالحهم، كذلك كان المضطهدون والمعدمون والرقيق، في حالة رفض نفسى وعقلى لأرباب باتت لا تعدل في قسمة الأرزاق.

ومن ثم ظل التشردم القبلى قائما، وجنين الوحدة المقبلة لعرب الجزيرة في حالة إرهاب ومخاض، دون ميلاد حقيقى، بينما انتشر اعتقاد في مهمة باقية للأرباب القبلية، وهى التشفع لأصحابها لدى الإله الواحد الأعلى، فاتخذوها إليه زلفى، وهو ما كان إخضاعا نفسيا داخليا وذاتيا للقبائل، لمأ مكة وسيادتهم، باعتراف القبائل العربية بسيادة إله الملأ الأعلى على أرباب القبائل.

وبينما صراع النقيضين يفعل فعله التراكمى، لمصالح توحد كامل، يقضى على التمثيل القبلى، لمصالح نظام حكم مركزى جامع، يقوم على سلطة واحدة موحدة، لا تضع بحساباتها مصالح الملأ الأنانية الضيقة، بل تتجاوزها بضرب التعدد السلطوى والريوى لمصالح دولة كبرى ومصالح أعظم وأعم نفعا لكل عريان الجزيرة، حكم يمكنه أن يوحد تلك الشراذم المتأرجحة بين القبلية والتوحد نحو أمة واحدة، بدأت تسرى في الآفاق نبوءات الحكماء والكهان عن قدوم موحد فرد يتفق في مواصفاته مع حالة الجزيرة الاجتماعية، فهو لن يأتى ملكا، لأن أى قبيلة سترفض فوراً أن يحكمها ملك من خارج نسبها، لذلك سيأتى الملك بصيغة أخرى، صيغة جامعة مانعة يقبلها الجميع، ومن ثم سرى الإرهاب يلهب الأحاسيس القومية، بمقدم نبى منتظر^(١).

وكان تراكم الثروات العظيمة لدى الأرستقراطية المكية بحاجة إلى وسائل تنمية متعددة، بينما الواقع المتشظى بضالة وسائل الإنتاج فيه قد جعل تلك التنمية شبه معدومة، فظلت الثروات في حالة كنز وكمون لا تتحرك إلا مع موسم التجارة، دورة واحدة دون حراك حقيقى يعود بفوائده على المستوى القاعدى الأوسع لأفراد مختلف القبائل.

وللحفاظ على الثروات الكامنة تم كنزها في شكل معادن ثمينة، وهو ما أدى دوراً معطلا لدورتها الإنتاجية المفترضة، كما أدى بالتجار الوستطيين وبعض أفراد الأرستقراطية الواعية إلى

(١) ارجع في تفاصيل ذلك إلى موضوعنا: دور الحزب الهاشمى والعقيدة الحنفية في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية، مجلة مصرية، القاهرة، العدد التاسع/أكتوبر ١٩٨٦، ص ٦: ٢٧، والموضوع نفسه موسعاً في كتاب بعنوان: الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، القاهرة، ط ١، ١٩٩٠، انظر أيضاً التأسيس الذى مهدنا به للجزء الأول من كتابنا: حروب دولة الرسول، دار سينا، القاهرة، ط ١، ١٩٩٣.

قراءة آفاق المستقبل وممكناته، بينما ظل أغلبية الملاء على حالهم المحافظ الرجعي بالاكتمال حتى موسم التجارة .

ومثل تلك المقدمات تفسر لنا إسلام بعض التجار الواسطيين مثل أبى بكر بن أبى قحافة ومن كان على رأيه وقت كان الإسلام ينادى المستضعفين، حيث كان هؤلاء الواسطيون أقدر على قراءة حركة الواقع قراءة واعية بحكم موقعهم الاجتماعى، تلك القراءة التى أدركت غاية خط سير التطور. حتى يمكن أن يتحول أمن البيت المكى لأهله من الجوع والخوف إلى أمن لعرب الجزيرة جميعاً، بتوحد ينتهى إلى قوة واقتدار، ويؤدى إلى نظرة طموح نحو الامبراطوريتين المتهاككتين .

كذلك تفسر تلك المقدمات، تلك اللغة القومية الجديدة التى أخذت تسرى مع سقى الرياح فى فيافى الجزيرة، وأوردنا لها نماذج فى الجزء الأول من هذا العمل، ونعصده هنا بإضافة ما وجدناه مجدداً عند (الدينورى) فى الأخبار الطوال وهو يحكى عن (النعمان بن المنذر) ، ملك الحيرة العربى المسيحى، المنوب عليها من قبل كسرى فارس، ذلك الرجل الذى ظهر شعوره القومى العربى تجاه قومه، فقام يساعد (سيف بن ذى يزن) العربى اليهودى الذى ثار فى اليمن على الاحتلال الحبشى المسيحى لبلادهم، فتوسط النعمان لدى كسرى ليمد سيف بن ذى يزن بالسلاح والجند، حتى تحررت اليمن من الحبش، لكن لتسقط فى تبعية الفرس .

ولو تم تفسير موقف النعمان بأنه كان يوطىء لجيوش الفرس فى اليمن لظلمناه ظلماً بيناً، لأن ذلك التفسير سيجافى ما حدث بعد ذلك وينافيه تماماً، فقد استمرت سياسة النعمان فى موالاة القبائل العربيه، حتى توجس منه كسرى الذى وعى بدوره شكل التحولات التى تجرى فى الجزيرة ونذرهما، فتخلص منه، وأوجز سبب قتله فى خلاصة واضحة معبرة تماماً عن خط سير الأحداث، حيث قال:

وأما ما زعمت من قتلى النعمان بن المنذر، وإزالتي الملك عن آل عمرو
ابن عدى، إلى إياس بن قبيصة، فإن النعمان وآل بيته قد واطأوا العرب
وأعلموهم توكفهم خروج الملك عنا إليهم، وكان لهم فى ذلك كتب،
فقتله، ووليت الأمر أعرابياً لا يعقل من ذلك شيئاً^(٢) .

وقد تتالت الأحداث إثر ذلك، فأخذت بكر تغيير على سواد العراق كراً وقرأ^(٣)، ثم تصاعدت

(٢) الدينورى: الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمعزم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، ط ١، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٦٣، ١٠٩، ١١٠ .

(٣) الأصفهاني: الأغاني، المكتبة الحيدرية، ط ٢، الدجف، ج ٢٠، ص ١٣٢ .

المناوشات بين قبائل إياد والفرس، ليهزم العرب هزائم متتالية^(٤)، حتى تأتى موقعة ذى قار حيث تحقق القبائل العربية أول نصر عظيم لها على جيش الإمبراطورية، ذلك النصر الذى دوى أمره يرجع صدها بين مضارب القبائل الساهرة تسمر حول أخباره. مع فرح عام شمل الجزيرة جميعا، عبر بوضوح عن بدء شعور العرب بوحدة جنسهم، وعن ظهور نزوع قومى واضح لاشية فيه، ليلقى بصدها فى سمع الأجيال وهى تنصت إلى موحد العرب، النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو يعقب على نصر ذى قار قائلا: «اليوم أول يوم أنتصف فيه العرب من العجم وبى نصرناه»^(٥).

وفى مكة، كان أبرز من وعى إمكانات المستقبل وهى تلقى بمقدماتها أمام سادة مكة، رجل من الملأ حكيم، هو عتبة بن ربيعة، الذى وقف يطلب من قريش الكف عن محمد، لأن ما سيكون له من شأن سيكون شأنهم، وما سيحققه من عز وملك سيكون ملكهم وعزهم، لكن إصرار الملأ على المنافع الضيقة واستدامة الأرياب القبليّة جذبا للتجارة، أدى بذلك المتغير الآتى إلى أن يفرض وجوده فرضا، ليصل خط التطور نحو غايته الحتمية.

وعليه فقد نهض بإتمام التطور وأخذه إلى نهايته الناضجة، لصالح الطبقة الناجرة، ذلك الفرد المنتظر، نبى الإسلام الكريم - صلى الله عليه وسلم - الذى نشأ يتيما فقيرا كادحا، من البيت الهاشمى الذى حاز شرف النسب، لكن مع تواضع مادية، بل كان من الغصن رقيق الحال فى ذلك البيت، غصن عبدالمطلب وأبى طالب. ومع تجاوزه الصبا إلى اليفوع والرجولة، تحول محمد إلى التجارة لصالح أثرياء مكة، ثم تزوج من الشريفة الثرية السيدة خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - فخير الأمرين، وعاش الحالين، وعاین الطبقتين، مما كان كفيلا بوعى نافذ، كان وراء دفع الأمر نحو غايته ونتائجه الحتمية.

وإعمالا لما سبق، وبسبيل الاتساق مع السير الصحيح لوجهة التطور التاريخى، بدأ النبى - صلى الله عليه وسلم - دعوته بالمجاهرة بضرب المصالح الأنانية الضيقة لملأ مكة، ابتداء بضرب التعدد القبلى الربوبى، بهدف التوحد الآتى، ومن ثم كان إعلانه كفران قريش «قل ياأيها الكافرون...»، وسلبها لقبها الذى شرفتها به العرب (أهل الله)، وتسفيهه لمعتقداتها وعقائد العربان، مع رفضه الصارم لقواعد التجارة التى قعدوها، التى كانت تعطل سيولة رأس المال وتجمد دورته التتموية، فقام يهاجم كنز الذهب والفضة، بأوامر وحى يساير سذن الكون التاريخية ويلتقى معها، حتى وصل فى مغالاته إلى ذم المال فى ذاته، وهو ما جاء فى رواية ابن حنبل:

(٤) ابن كتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩، ج ١، ص ١٢٩.

(٥) خليفة بن خياط: الطبقات، تحقيق أكرم العمرى، مطبعة العائى، ط ١، بغداد، ١٩٦٧، ص ٤٣.

«إن النبي قال: تبا للذهب، تبا للفضة، فشق ذلك على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: أي مال نتخذ؟ فقال عمر - رضي الله عنه -: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا: أي مال نتخذ؟ قال: لسانا ذاكراً وقلبا شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه»^(٦).

وتكرر موقفه من المال في مواقف من أصحابه من التجار الوسطيين، فقال يوماً لعبد الرحمن ابن عوف - رضي الله عنه - : «ما بطأ بك يا عبد الرحمن؟ قال: ماذا يا رسول الله، قال - صلى الله عليه وسلم - إنك آخر أصحابي لحرقاً بي يوم القيامة، فأقول: ما حبسك عني، فيقول المال: كنت محاسباً محبوباً حتى الآن»^(٧).

وكان طبيعياً أن تسفر الدعوة عن عداء جهير بعد الجفرة، أدى بالنبي - صلى الله عليه وسلم - إلى وجهة مرحلية على خطوات الطريق الاستراتيجي الطويل، تحول بموجبها نحو المستضعفين والمعدمين والعبيد، يدعوهم إلى النسب والامتلاك، بل وامتلاك كنوز تتضاءل أمامها كنوز الملأ القرشي، إنها كنوز كسرى وقيصربهدف تشكيل نواة جماعة أولى لأمة جديدة واحدة من دون الناس، وعليه كان إعلان الوحي: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» (٥/القصص).

ويروي البلاذري: «كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا جلس في المسجد جلس إليه المستضعفون من أصحابه: عمار بن ياسر وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان وبلال بن رباح وأبو فكيهة وعامر بن فهيرة، وأشباههم من المسلمين، فتهزأ قريش بهم ويقول بعضهم لبعض: هؤلاء جلساؤه كما ترون، قد من الله عليهم من بيننا»^(٨).

وإعمالاً لذلك بات واضحاً أن المستضعفين هم من سيشكلون مادة الأمة الطالعة، وهم من سيكونون القادة والأئمة، وهم من سيرثون الملأ وحكومته، والسبيل أمة جديدة، تقوم على مبدأ جديد، يوحد ولا يفرق، يجمع أصحاب المصلحة في التغيير في مصهر واحد، عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها: «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (١٣ الشورى)، ومن هنا، وفي تلك المرحلة، قام الإسلام بضرب القبلية، بإحلال الولاء لجماعة الإسلام محل أي ولاء آخر، وهو ما دعا إليه

(٦) ابن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٩.

(٧) الشيباني: الاكتساب في الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماحه، تحقيق محمود عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٢٩.

(٨) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج ٢١، ص ١٥٦.

الوحي في قوله: «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم» (١١٣ / التوبة).

وقد أفصحت الصحيفة التي عقدت بعد ذلك بزمان بعد الهجرة إلى يثرب، عن قرار بقبالام الدولة على نظام اجتماعي جديد، يميزها كأمة أخرى تماماً دون بقية الأعراب، ووضعت أركاناً مبدأً للأمة الموحدة، معبرة عن التجمع الحضري الكيفي المتجاوز للتجمع القبلي الكمي، ومبدأ المبدأ الوارد في نصها المصنوع في مبدأها: «هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»^(٩).

وتسارعت الخطوات بعد الهجرة، بادئة بالمهمة الكبرى، وهي إسقاط نظام الملأ المكي، وحكومته شبه الجمهورية، وضرب ذلك النظام في أساسه الخرساني، بقطع طريق الإيلان التجاري المار قرب يثرب، بحروب بدأت رحاها يسرايا وغزوات، كانت الحروب التأسيسية لقباهام دولة الرسول في يثرب.

(٩) ابن هشام: السيرة النبوية، ضمن كتاب السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبدالرؤف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، مج ٢، ص ٢٤١.

التأسيس التاريخي للأمة

«إن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما
هى لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى،

[النبى محمد]

كان الانقلاب العظيم الذى جاءت به الدعوة، يتمثل فى رفض النموذج البدوى للإنسان العربى فى المرحلة القبل إسلامية، ومن ثم جاء الانقلاب ليسارع فى تفجير الأطر القبلية، ويبنى نموذجاً جديداً لإنسان الجزيرة، ويضعه ضمن منظومة اجتماعية جديدة، تنتقل بالفرد من الولاء للقبيلة إلى الولاء للأمة القومية، تلك الأمة التى كان عمادها الرئيس عقيدتها الجديدة.

وإذا كانت ترميزات الوحي المجازية قد جعلت من إبراهيم الخليل أمة وحده، كأب لجميع الأنبياء «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين» (١٢٠/ النحل)، فإنها جعلت من محمد - صلى الله عليه وسلم - آخر الأنبياء وخاتمهم، ومن ثم كان محمد بدوره أمة، وإذا كان هو كل الإيمان وكل الأنبياء فى دين واحد وذات واحدة، فلا شك أن المؤمنين به سيكونون بإيمانهم محمديين، أى سيكونون بدورهم أمة، لذلك جاءت الآيات تقول:

«ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير» (١٠٤/ آل عمران).

«كنتم خير أمة أخرجت للناس» (١١٠/ آل عمران).

«إن هذه أمتكم أمة واحدة» (٩٢/ الأنبياء).

وكان الشرط ليكونوا أمة، هو الاعتراف بمحمد رسولا خاتما، وبمن سلف من أنبيائهم أنبياء وأسلاف الأمة وتاريخها، وبالله الواحد رباً جامعاً لوحدهم في كيان اجتماعي عقدي واحد.

ومن البداية كان واضحاً أن هذه الأمة الجديدة هي الأمة الجامعة لعرب، بدأوا منذ وهلة فقط قريبة جداً يشعرون بوحدة جنسهم ويقوميتهم، إزاء تفجر أطر القبيلة، وهو ما تمثل في موقفهم من تحرير اليمن، ومن انتصار قبائل الشمال على الفرس في ذي قار.

ومن هنا أضحت واضحة أن مصطلح أمة في العقيدة الجديدة يعنى كياناً اجتماعياً جديداً، شديد الصلة بمعنى يناقض البداوة والقبلية، ويتماهاى مع معنى المدنية والحضارة.

ومنعا لأى التباس في عروبة تلك الأمة، مع وجود العبيد والموالى الذين دخلوا الإسلام من أصول غير عربية، جاء حديث سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - يقول:

«أيها الناس: إن الرب رب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما هي لسان، فمن تكلم العربية فهو عربي»^(١٠).

كان التوحيد الربوبى ناتجا لتطور ظروف المجتمع، لكنه أيضا كان مؤسسا للدولة الواحدة، وكان لابد أن يرافقه توحيد اثني جنسي يلغى أسلاف القبائل الذين هم أرباب في الوقت ذاته، لتحقيق الوحدة المرجوة، ومن ثم كان تأكيد النبي على ما سبق وأعلنه جده عبد المطلب بن هاشم، أن جميع قبائل العرب وإن تفرقت قبائلها وتشرذمت، فإنها إلى أب واحد تعود، هو إسماعيل بن إبراهيم أبو جميع الأنبياء، الذين هم بدورهم مسلمون.

وهكذا كان التوحيد الربوبى يتمثل في الالتفاف حول لاء واحدة هي قول لا إله إلا الله، والقبول بالانصواء تحت سلطة نبوية قائمة واحدة تتمثل في الشهادة لمحمد بأنه رسول الله، كأساس تنظيمي للحركة التاريخية نحو إقامة دولة مركزية للأمة الطالعة، وبحيث ينتقل العريان من الوضع القبلى إلى الوضع القومى.

ولتحقيق الهدف؛ كان لابد من خروج الفرد من منظومته القبلية إلى رحاب القومية الأرحب، مما يعنى انسلاخه الكامل فكريا وسلوكيا عن حالة التبدى والقبلية.

لكن تظهر الإشكالية الكبرى والمستعصية، حيث لم تشعر شرائد العرب القبلية بوحدة جنسها إلا بشكل ابتدائي كلون من العصبية غير الواضحة والضبابية، ناهيك عن انقطاع تلك القبائل عن

(١٠) نقلًا عن ابن تيمية: اقتضاء السراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ص ١٦٦، ١٦٩.

ماضيها وأحوال من سبقهم، وهو انقطاع تاريخي مع التاريخ لعوامل كثيرة معطومة، ليس هنا مجال عرضها، حتى أنهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، أو أن لهم أية علاقة بالحضارات السامية القديمة، ورغم أن البعض اليوم يقعد تلك الحضارات في مجلس التاريخ العربي، مع الإشارات إلى حضارات الجنوب اليمني، فإن هذا الاعتبار يقوم على الجغرافيا مع إسقاط الجانب اللغوي وخط الكتابة وغيره، وحتى ظهور الخط النبطي الذي تطور عنه الخط العربي بعد ذلك بقرون، فإن عرب الجزيرة أنفسهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، ولم يبدأ ذلك الشعور جلياً إلا مع دخول الرسملة وإفصاح المجتمع عن وجهه الطبقي، حيث بدت بوادره بفرح عم جزيرة العرب عندما انتصر حلف قبائل الشمال على جيوش فارس في وقعة ذي قار، وعندما تمكن ابن ذى يزن من تحرير بلاده من الأحباش.

وهكذا كان لابد للأمة من تاريخ يتصل بها، ويتواصل معها، ويجد لها موطئ قدم راسخ في عمق الزمان الماضي، فأى أمة لابد لها من عراقة تاريخية عميقة، وتاريخ يضرب بجذوره في الماضي البعيد المؤسس للتطور التالي المنشئ للأمم أصلاً.

ومن هنا كان الاتجاه نحو العمد التأسيسية العقدى لإلقائه في رحم التاريخ القديم، يربط النبي محمد بتاريخ النبوة منذ بداياتها المعروفة في القصص الديني، ليصبح تاريخ الأمة الجديدة تاريخاً نبوياً، ومعرفياً سماوياً، فتتم أسلمة جميع الأنبياء السابقين، كما يتم تقديس لغة قريش تحديداً باعتبارها اللغة العربية الكاملة، ويتم إعادتها إلى الزمن السماوى القبل خلقى، فتصبح لغة الملأ السماوى، ولغة آدم أبو البشر جميعاً في الجنة، ثم لغة جميع الأنبياء، ثم ستكون لغة أهل الجنة من بعد.

وعليه تم وضع الأنبياء في سياق تاريخي كان هدفه النهائي هو قيام دولة الإسلام المحمدية، وبحيث يكون النبي - صلى الله عليه وسلم - هو المحور والهدف الأول قبل آدم نفسه، ويظهر كل الأنبياء كخطوات تمهيدية تطورية تاريخية سابقة، كانت مهمتها التوطئة التاريخية لدولة النبي وأمة المسلمين، ويصبح جميع الأنبياء في بقاع مختلفة من عالم الشرق القديم، سواء من بنى إسرائيل، أو من أنبياء عرب كصالح وهود في الشام واليمن، أو في العراق كما في حالة إبراهيم، أو في مصر كما في حالة موسى، يصبح كل هؤلاء بموروثهم النبوى، وجدلهم المعرفى والحضارى مع حضارات المنطقة، هم الامتداد التاريخي للأمة العربية الطالعة، وهو الأمر الذي سيلتقى تماماً مع التوجهات المحمدية والتوجيهات لأتباعه بغزو تلك البلاد، باعتبارها ميراثاً تاريخياً، تقوم شرعيته على فلسفة الإسلام التاريخية، وكما ورث محمد كل النبوات، فإن كل بلدانهم بالتبعية وبالضرورة هي ميراث أتباع محمد، الذين هم أتباع لكل الأنبياء في جميع الأمم.

ومن هنا تتالت آيات القرآن الكريم لتعزيز تلك (التاريخية) للأمة الطالعة، بما حوته من قصص الأنبياء، لتكون بمثابة إعادة اكتشاف للهوية التاريخية ولتشكيل ماضى الأمة .

ولأن الغرض (توحد) فى أمة (مُوحَّدة) فى عقيدتها، فقد أصبح كل الأنبياء السوالمف موحدين، ومن ثم كان الهجوم التكفيرى على بعض الآراء والعقائد فى الديانات السابقة والتي دخلتها شبهة عدم التوحيد، كما فى بعض حالات أنبياء اليهودية وفى حالة يسوع المسيح . لتصبح القيم التي مثلوها هى القيم التي تتساقق وتتناغم وتتضافر مع دعوة النبى التوحيدية الموحدة لتوحيد قبائل العرب فى دولة مركزية واحدة .

ومن ثم تتالت الآيات القرآنية تؤكد «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء» (١٥٩ / الأنعام) ، وهى الآيات التي تعنى أن تلك القبائل إنما كانت فى الأصل على الدين النبوى التوحيدى الذى أسسه سلسال الأنبياء السابقين، وأنهم انقسموا بعد ذلك قبائل وشيعا، مما يعنى أن الوحدة والتوحيد كانا الأصل، ومن ثم ينقلب منطق التطور على عقبيه لصالح التأسيس التاريخى للأمة، ومن ثم كان نداء الآيات «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا» (١٣ / الشورى) ،

ومن أجل تحقيق وحدة الجماعة المسلمة التضامنية فى يثرب كان لابد من مركز تأسيسى يمثل المركز الحكومى الإدارى، وفى ذات الوقت يجب أن يكون مركزا مقدسا، ومن هنا أمر الرسول الأتباع عدد دخوله يثرب بترك ناقته على حريتها قائلا: «اتركوها فإنها مأمورة» ، لتبرك الناقة فيتقدس الموضع الذى بركت فيه ويبنى فيه المسجد الذى تقدر فى حديث النبى - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «لا يشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا، بل وحرم يثرب جميعا لتعادل بحرمتها مدينة مكة .

وفى المسجد كان المسلمون يلتقون بزعيمهم ومنه يوجههم، وفيه يتم توطيد انتمائهم العام للأمة، بإبعادهم عن المجتمع القديم وعزلهم عنه، كما تؤكد المعنى المدنى للدولة بإطلاق اسم المدينة على يثرب، مع هجوم عنيف على النزعة البدوية فى آيات القرآن الكريم، ومن نماذجها: «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله»

(٩٧ / التوبة) .

«ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويترىص بكم الدوائر»

(٩٨ / التوبة) .

«ومن حولكم من الأعراب منافقون» (١٠١ / التوبة) .

«قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان

فى قلوبكم» (١٤ / الحجرات) .

ومن ثم أصبح التمدن مرادفا للإيمان، حيث المدينة تؤكد الشعور بالانتماء والانتماء والمواطنة وبالهيبنة الحضارية، لكن بينما كانت حاضرة مثل مكة قد تخلت عن الإغارات البدوية على القبائل الأخرى نهائيا، لظرفها الاقتصادي والمجتمعي، وتأكيد حرمة مدينتها وحرمة، فإن يثرب على العكس بدأت غاراتها العسكرية من الوهلة الأولى، للحصول على المقومات الاقتصادية لبناء الدولة، حيث قال النبي - صلى الله عليه وسلم - :

«لم تحل الغنائم لأحد قبلنا، وذلك أن الله تعالى رأى عجزنا وضعفنا فوهبها لنا»^(١١).

ومن ثم تقدست أيضا تلك الغارات، وشرعت الغنيمة وأصبحت بدورها حلالا ومقدسا. أما قريش ومشركوها فقد كانوا يشكلون بوجودهم ضرورة لتحقيق الإسلام، حيث يبرز النقيضان ويتضحان، وكانت حربهم إزاء الثيرية عليهم، مع الظفر الذي تحقق ليثرب، مدعاة لأن يرى العرب فيها رعاية غيبية تقف إلى جوار المسلمين وتدعمهم، وهكذا أبرز ذلك التناقض النقيض المهزوم كنموذج منهار في طريقه إلى زوال.

أما أبو سفيان صخر بن حرب، فقد زلف لسانه بعد ذلك بزمان طويل، يحكى عن حروب النبي - صلى الله عليه وسلم - لقريش وحصارها اقتصاديا، فقال: «كنا قوما تجارا وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى تهكت أموالنا»^(١٢).

(١١) الثعلبي: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت، ص ٢٤٩.
(١٢) المقدسي: البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦، ج ٦، ص ٩٤.

الوسطية بين النقائص

«إن الدين عند الله الإسلام»

[١٩] آل عمران / قرآن كريم

كان يوم بعث - وبعث موضع بالمدينة - كانت فيه وقعة عظيمة، قتل فيه خلق كثير من أشرف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبق من شيوخم إلا القليل. وقد روى البخارى فى صحيحه عن عبيد بن إسماعيل عن أبى أمامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: «كان يوم بعث يوماً قدمه الله لرسوله، قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة، وقد افترق ملاؤهم وقتل سرائهم»^(١٣).

هذا نص ابن كثير الواضح اللماح، الذى يعلن فى إيجاز بليغ، بلاغا واضح المعانى، حول الظروف التى انعقدت فيها الاتصالات بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وبين أخواله من خزرج يثرب، ومن لحق بهم من بعض الأوس القليل، حيث يشرح ببساطة وضع عرب يثرب - من خزرج وأوس - المنهار والمتفسخ، بعد مقتلة يوم بعث بين القبيلتين، وقتل الرؤوس منهم والسادة، مما جعلهم فراغا من أصحاب (الكاريزما) الرئاسية والحكمة المشيخية، وهو ما رآه ابن كثير ترتيبا ربانيا قدمه الله هدية لرسوله، بقتل الرؤوس الكبرى من كلتا القبيلتين، مما هياهم لقبول

(١٣) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٨، ج ٣، ص ١٤٦.

السيادة النبوية دون مشاكل كثيرة، ودون منافسين أقوياء.

وغنى عن البيان أن عاملاً آخر أساسياً، هياً لذلك الحلف ومهد له، هو المصاهرة الوثيقة التي سبق أن تمت بين الخزرج وبين بيت النبي الهاشمي، ناهيك عن كون موقف الخزرج - تحديداً، إضافة لقرابة الخثولة - كان رداً واضحاً على قريش وسادة البيت الأموي، إزاء وقفهم السابقة مع أوس يثرب ضد الخزرج، يومى معبس ومضرس، وهى الوقفة التي عمد إليها ملاً مكة لتفتيت يثرب وتمزيقها شيعاً، كى لا تشكل خطورة على تجارة مكة، لوقوعها على عصب طريق الإيلاف الشامى، ولإجهاض قوتها حتى لا تطالب بنصيب من الجعالات التي كان يدفعها ملاً مكة للقبائل القائمة على الطريق التجارى. بحيث أسقطت مكة يثرب من حساباتها تماماً، بعد تلك الوقائع الدامية بين بطونها. وتأسيساً على ذلك استشرى خزرج يثرب الوعد النبوى بوعى نافذ، لوحدة تلم الشمل، تقف بها يثرب كمنافس له شأنه أمام مكة وسادتها، وربما تكون عاصمة للدولة الكبرى الموعودة مع تداول الأيام، عندما يأتى الله بأمره.

ورغم أن كتب الأخبار الإسلامية والسير والتاريخ، وماتقدمه وسائل التربية الإعلامية والدينية، تجعل يثرب جميعاً تستقبل سيدها الجديد المهاجر بالترحاب، وتصيح بنشيد: «طلع البدر علينا، بعد أن امتلأت منهم الجوانح بالإيمان، فمنحوا النبي والمهاجرين بيوتهم ونساءهم وعقولهم وأرزاقهم، فإن العين الحصيفة المدققة، والقراءة المحايدة المتأنية، لا تجد ذلك الزعم أبداً، حيث نجد وقد يثرب الذى التقى بالنبي فى عكاظ، كان من بيت عبد الأشهل الخزرجى وحده وهم أحوال النبي، وأن اللقاء التالى بعد عام كان يضم اثنى عشر، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وكان لقاء العقبة الحاسم قبل الهجرة، يضم ثلاثة وسبعين، منهم أحد عشر أوسياً فقط، وستون خزرجياً، وهو ما يشير إلى أن هؤلاء الأوس كانوا من عقلاء قومهم فأدركوا قيمة الدعوة وما سيتحقق بها، أو أنهم أهل سلام ومصالح ترتبط بذلك السلام، جعلهم يقبلون ذلك العقد مع صاحب الدعوة ويحضرونه. وفى مستوى آخر - يأخذ بسوء الظن - يمكن احتساب أوس العقد دسيمة أوسية على ذلك الاجتماع التاريخى، لتسقط أخباره، وهو أمر وارد فى ذلك الصراع، وتكشف عنه بعد ذلك الأعداد الكبيرة للأوس المنافقين بعد الهجرة ولزمن طويل، ناهيك عن كون وجود الجواسيس كان أمراً مألوفاً، وكان بداخل المهاجرين أنفسهم جواسيس لملاً مكة، وهم من قال الوحى بشأنهم: «يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون» (٢٧ / الأنفال).

ثم هناك مستوى ثالث فى قراءة موقف الأوس، يتمثل فى مباحدة أبى عامر بن عمرو بن صيفى الأوسى مع خمسين من أتباعه ليثرب بعد الهجرة، كارها للنبي والمهاجرين، ومشاركتة بعد ذلك فى وقعة أحد ضد النبي. إلا أن الواضح الجلى هو أن النبي قد دخل يثرب فى حمى

أحواله الخزرج أساسا، مع تعصيد من بعض عقلاء الأوس، وهو ما يفصح عن قدر شديد من المبالغة فى روايات الإخباريين عن إيمان عرب يثرب جميعا قبل الهجرة مباشرة، ويدل عليه ما حدث فى وقعة بدر، حيث لم يتمكن النبى من جمع أكثر من ثلثمائة رجل معه فى الوقعة، مهاجرين وخزرجيين وأوسيين، وهو أمر ذو دلالة إن قارناه بما حدث بعد استتباب الأمر فى المدينة للنبى، وقدرته على حشد قوة تماثل عشرة أضعاف ما جمعه فى بدر، وهو ما يشير إلى انضمام جموع أخرى متأخرة إلى حلف النبى اليثربى.

لكن ذلك لا يعنى سوى أن يثرب قد استقبلت الرسول، متهياةً لذلك بحكم ظروفها وتكوينها، التى أتاحت لها دون أى موقع آخر بالجزيرة، ففيها كان أحوال الرسول وحلفاء البيت الهاشمى، وفيها كان اليهود وحكاياتهم عن أنبيائهم مع كتابهم المقدس، وهو ما كان عاملا جوهريا فى وضع التاريخ الدينى موضع احترام من عرب يثرب، إضافة إلى النبوة التوراتية التى كانت تتواتر هناك عن مقدم نبى آخر الزمان، كما كان التوحيد اليهودى مدعاة لاختلال علاقة عرب يثرب بالوثنية، وهو ما هياهم لقبول فكرة التوحيد عندما جاءت عربية، وقد تهيأت يثرب بعد ذلك لأخذ دورها الريادى كعاصمة للدولة المقبلة، فى تحولها التدريجى للتوحيد إيمانيا، بل وطبقيا، بذوانها فى مستوى مادى متقارب، كنتاج للتوزيع العادل للغنائم، وتحولت الجماعة الإسلامية إلى جيش متكامل ووحدة عسكرية، مقاتلة، بدأت تدهام بدورياتها طريق الإيلاف الشامى، لتضرب حول مكة حصارها الاقتصادى.

فلم ينسلخ من الأيام سوى أشهر سبعة بعد الهجرة إلى يثرب، حتى خرجت دوريات المسلمين تقطع على قريش طريقها إلى الشام، وكان أولها سرية حمزة بن عبد المطلب، وبعدها بشهر سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب، وبعدها بأيام سرية سعد بن أبى وقاص. ورغم أن كثيرا من تلك السرايا الأولى لم تحقق غايتها بالاستيلاء على قوافل قريش، فإنها وضعت تجارة قريش على حافة الخطر، وأشعرت الملأ أى أمر ينتظرهم من محمد، خاصة بعدما قام النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه يغزو الطريق بهدف آخر، هو إرهاب حلفاء قريش على طريق الإيلاف، لتفكيك الإيلاف بين تلك القبائل وبين قريش، وبعد النجاح الذى لاقته تلك الغزوات حيث تمكن النبى من سلخ إيلاف بنى مدلج، وأخذ عليهم عهد المواعدة، كما تمكن من عقد عقود مكتوبة مع بنى ضمرة بن بكر من كنانة.

وجاء أخطر إنذار لقريش، عندما تمكنت سرية عبد الله بن جحش، من الاستيلاء على قافلة لقريش، ضربت أثناءها بالتحريم المكى للأشهر الحرم عرض الحائط، فقتلت، وسلبت، وأسرت، لتعلن القوة الجديدة فى يثرب عن رفضها لقواعد قريش الدينية، واستخفافها بتلك القواعد،

بخاصة مع تلازم ذلك باتخاذ النبي للقدس قبلة له وللمسلمين، وصيامه يوم الغفران اليهودي، ذلك الاستخفاف الذي استهجنه قريش تعلن في العريان أن محمداً قد انتهك حرمة الأشهر الحرم، لكن ليرد النبي عليهم وحياً يقول: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير» (٢١٧/البقرة).

وبينما ينقطع قمع يثرب عن مكة، وتخرج سرايا يثرب إلى ميناء الجار على البحر الأحمر لتمنع شحنات القمح المصري من الوصول إلى مكة، ودوريات المسلمين تنقض على طريق الإيلاف كل لحظة، كان صفوان بن أمية يردد لسان حال قريش وهي تقول:

«إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعوا محمداً، ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسكن؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء»^(١٤).

ولعل أهم وقعة كبرى حولت بالفعل مسار التاريخ بعدها، كان سببها قافلة كبرى لقريش بقيادة صاحب اللواء أبي سفيان بن حرب، وهي وقعة بدر الكبرى، حين تحول اتفاق الأنصار مع النبي في العقبة الثانية إلى غايته المضمرة، من ميثاق دفاعي إلى حلف هجومي محارب، تحولت معه عناصر الجماعة الإسلامية كلها - مهاجرون وأنصار - إلى دولة محاربة هجومية، دولة عسكر ومغانم، كالقبيلة تماماً، وبذات منطقها، لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة، ممثلة شخصياً في رسول الله ورمزياً في ذات الله، وإلى المصالح المادية المباشرة التي جمعت بالفعل أعضاء الدولة، وكان بدء الغزوات والمغانم نقطة التحول الكبرى التي لعبت دوراً عظيماً في جذب الأتباع من مستضعفي القبائل ومحاربيهم، بعد أن ظل النبي - صلى الله عليه وسلم - يدعو في مكة ثلاثة عشر عاماً دون إجابة، ولم يتبعه خلال كل تلك السنوات سوى حوالي المائة نفر، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة إلى جنة الخلد، ولكن عندما تم الإعلان عن تحلة الغنيمة من أموال الآخرين المخالفين للدعوة ودولتها، أصبح حل مشكلة المعدمين حقيقة ملموسة، ومكاسب عينية تدعوهم إلى الانخراط مع العصبية الإسلامية، وبعد فترة من الزمن ستصبح تلك المكاسب كبيرة إلى الحد الذي سيدفع رجالات قريش المميزين إلى الانخراط في جيش المسلمين، وهو ما يفصح عنه إسلام (عمرو بن العاص) الذي ذهب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يؤكد أن هجرته ليست للمال بل لله ورسوله، لكن ليحييه النبي -

(١٤) أبكار السقايف: نحو آفاق أوسع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ١٤٥٨.

صلى الله عليه وسلم - بكل صراحة ووضوح: «نعمنا بالمال الصالح للرجل الصالح». ثم أرسله قائداً عسكرياً غازياً وهو يقول له: «إنى أريد أن أبغضك وجهاً يسلمك الله فيه ويغضبك، وأزغب لك زغبة من المال»، ومن ثم كان إعلان النبى - صلى الله عليه وسلم - تمييز عمرو بقوله: «أسلم الناس وآمن عمرو»^(١٥).

ومع النصر البدرى الساحق، أصبح النبى مرموق الود من القبائل، خاصة المتاخمة ليثرب، مما وسع نطاق الدولة الوليدة وحدودها، بحدود القبائل المودعة لها على كافة الطرق، دون أن تعلن هذه القبائل ولاعها الدينى لدولة النبى بإشهارها الإسلام، كان الغرض عسكرياً وسياسياً فى هذه المرحلة من مراحل بناء الدولة، بهدف مرحلى تكتيكى على الطريق الاستراتيجى الطويل، يهدف إلى إضعاف جبهة حكومة الملأ المكية، وتفكيك إيلافها مع القبائل، وإسقاط هيبتها أمام العربان، وقد لحق نتيجة ذلك ضرر جسيم بالعمود الخرسانى لمنظومة مكة المتمثل فى ثروتها التجارية، وهو ما حدا بالقبائل إلى مراجعة موقفها من قريش، إزاء القوة اليثربية الطالعة، فى الوقت الذى أخذت فيه أحوال المسلمين الاقتصادية فى التحسن المطرد، بعد أن وضعت بدر بيد المسلمين القوة المادية، سلاحاً، ومالاً، ومنحتهم مزيداً من الثقة النفسانية فى أنفسهم وفى مشروعاتهم وفى قائدهم، فامتلاًوا - بتلك القوة المعنوية - جرأة، وأخذوا بتأديب المخالفين فى يثرب، وإلقاء الرعب فى قلوبهم، بل وقتل أى شخص يتجرأ على معارضة الدولة.

هذا - بالطبع - مع نتائج أخطر على مستوى الشكل الاجتماعى للدولة، كنتاج طبيعى لتعزيز سلطة النبى الحاكمة، وهى النتائج التى أخذت تتضح فى تراجع الدولة الوليدة عن الأممية المطلقة والأخوة المطلقة التى كادت فى بدئها أن تكون مشاعاً، وذلك بعقد صحيفة المعاقل فى مرحلة تالية، التى كانت إعلاناً مكتوباً سافراً عن سلطة النبى كسيد مطلق ليثرب جميعاً، ومن ثم بدأت مع صحيفة المعاقل مرحلة جديدة بتكتيك تمثل فى تراجع دقيق ومحسوب عن الأممية المطلقة، لتأخذ الدولة السمى الوسطى بين الأممية، وبين الدعوة إلى صلة الأرحام والمحافظة على العلاقات العشائرية.

وقد بدأت تلك السياسة الوسطية تتضح بعد غزوة بدر مباشرة، حيث لاحظنا - كما شرحنا فى الجزء الأول من هذا العمل - بداية توازن الدولة بين النقائص، فكانت دعوتها لتوحد أممى تحت راية واحدة وفى ظل سيادة دولة موحدة وتحت إمرة سلطة نبوية واحدة، وضمت فى شكلها الاقتصادى تقارباً مادياً زاد من ذلك التوحد، لكنها إبان ذلك كانت تضم أيضاً الرقيق والعبيد مما حملها من الداخل للون طبقى، ومع التراجع عن التنديد بالثروة والأثرياء، وخفوت صوت

(١٥) السهيلي: الروض الأنف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ج ٣، ص ١٩٣.

المستضعفين في الروى والأحاديث، بدأت الدولة تفسح بداخلها فجوات المجتمع الطبقي، ثم فجوات المجتمع القبلى معا، حيث كانت الدعوة للرحم والعشيرة مدعاة لوضوح شكل الدولة فى أضموامات قبلية محزومة وموثقة بوثق الدولة الواحدة . أما إذا تتبعنا أنساب العشرة المبشرين بالجنة، فسنجدهم تمثيلا قباليا وسلياديا لأهم البطون القرشية، فهذا أبوبكر وطلحة يمثلان تيم، وهذا على يمثل هاشما، وهذا عثمان يمثل أمية، وهذا عمرو وسعيد بن زيد يمثلان عدى، وهذا عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص يمثلان زهرة، وهذا الزبير يمثل أسدا، وهذا أبو عبيدة يمثل فهر بن مالك، وهو التمثيل الذى أصبح يوازى فى يثرب، حكومة الملاء القرشية فى مكة . (وقد لاحظ ذلك بذكاء الأستاذ خليل عبدالكريم) .

وتأسيسا على كل ذلك، فإن غزوة بدر قد أفضت إلى نتائج هائلة على المستوى النظرى والعملى، وحددت مواقف كثيرة كان الإفصاح عنها مؤجلا حتى يأتى الله بأمره، لكن أهم ما حققته هو وضعها بداية النهاية لسيطرة الملاء القرشى، وسيادة حكومته البدائية شبه الجمهورية، بالقضاء على سادتها المترفين، أولئك المنافس الحقيقى لفكرة الدولة الواحدة، وهو ما سيتم تثبيتته بعد زمن بالاعتماد على التوازن بين النقااض، فى مملكة وراثية كبرى ستمسك بأعنتها قبلية النبى: قريش، وهى العودة التى ما كانت لتتم لولا العودة إلى صلات الرحم والعشيرة، التى وضحت فى تحرك رحم النبى لأهله الهاشميين فى وقعة بدر، وأمره لرجاله بعدم قتل أى من بنى هاشم، ليتوازن ذلك مع نقيضه من بعد، فيصب الأمر كله بيد الطبقة التى سيتم دعمها بالتدريج خلال حياة الرسول نفسه، لتقف على رأسها الطبقة منظومة قريش القبلية، ليظل حال التاريخ العربى والإسلامى بعد ذلك وحتى اليوم، إعمالا للمقدس واتباعا له، يظل واقفا على حافة الوضع الاجتماعى الاقتصادى المعروف بالإقطاع التجارى، ويبقى المأثور مصرا على أن الخلافة من قريش، وليس من الأنصار.

ويتضح ذلك جليا عندما نقرأ المراحل اللاحقة فى تطور أحوال الأمة الطالعة، بعد أن استقام أمرها، حيث بدأت تفتح صدرها تماما للتجار، خاصة بعد فتح مكة، وحيث احتلت طبقتهم فى الإسلام مكانا، كان مكانهم الطبيعى فى الفرز التطورى، ولا ننسى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان هو من يحاول دوما جذب تجار مكة وأثريائها لدعوته، وبعد هذه النقلاات سنلاحظ دون عناء كيف خففت السور اللاحقة والمتأخرة - التى تناغمت بصدقها مع متغيرات الواقع - من حدثها إزاء الأثرياء، وهذا لتنديدها بهم، مع حقوت متساوق فى الاهتمام بقضايا المستضعفين، بعد أن كان هؤلاء المستضعفون المقاتلون مادة الحركة ووقود حروبها، وتحول من بقى منهم حيا إلى طبقة كبار الملاك، وهو ما يكفى أن نذكر له مثلا واحدا فقط، يتعلق بأكبر الصحابة زهدا وتقسفا وورعا، وكان أرق نظرائه حالا وأقلهم مالا .

عن على رضى الله عنه .. لقد رأيتنى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنى لأرابط الحجر على بطنى من الجوع، وإن صدقتى اليوم لتبلغ أربعين ألف دينار،^(١٦).

ثم يمكننا أن نلاحظ المال نفسه الذى كان محل هجوم شرس وضار، وأحل للمسلمين مصادرتة بالغزو، وهو يتحول ليصبح بالإمكان بقاؤه وتناميهِ، بعد تطهيره بالزكاة والصدقات، وبييت كسبا حلالا، وتسعة أعشار الرزق فى التجارة، والمال والبنون زينة الحياة الدنيا. لقد كانت خطوات التاريخ فى طريقها إلى إنضاج الطبقة التجارية - وليس الغاؤها - فى سبيل كيان سيادى يسد الفراغ السياسى تحت لواء عقيدة عقدتها حتمية السنن الكونية.

وجولة سريعة للعين فى كتبنا التاريخية ستلاحظ دون عناء يذكر كيف أضحت التجارة فى أحاديث النبى هى أطيب مكاسب المؤمنين^(١٧)، وأن التاجر الأمين مع الكرام البسرة يوم القيامة^(١٨)، ولما كانت الأمانة أساس التجارة القرشية، فقد طالهم الوعد جميعا، ثم لابد أن نلاحظ أنه لم تفرض ضريبة واضحة خاصة بالتجارة، أما أبو يوسف فيورد لنا حادثة لها فى سياقنا هذا دلالاتها الواضحة، حيث يقول:

أن السعر غلا فى زمن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال الناس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن السعر قد غلا، فوظف وظيفة نقوم عليها، فقال: إن الرخص والغلاء بيد الله، وليس لنا أن نجوز أمر الله وقضائه^(١٩).

أما العبيد فقد غامت قضيتهم تماما، بل ولم يعطهم النبى من أموال الفىء باعتبارهم فى كفالة غيرهم من الأحرار^(٢٠)، ثم نجد النبى بعد ذلك يهدى بنفسه أعدادا من العبيد لآخرين، كما فى أمثلة عديدة، فقد أهدى العبيد لأخته من الرضاعة (الشيماء) ولغيرها، ويتقبل الهدايا عبيدا أيضا. وهو ما سجدته فى مواضعه من هذا العمل.

(١٦) الحلبى: سيرة الأمين المأمون إنسان المعين، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨، مج ٢، ص ٤٧٣. ويشرح الحلبى أن تلك كانت صدقة العام الواحد فقط.

(١٧) الشيبانى: شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢، ج ٣، ص ٢٠١٢.

(١٨) الشيبانى: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد سماحة، تحقيق محمود عزنوس، مطبعة الأتوار، القاهرة، ط ١، ١٩٣٨، ص ٣٧.

(١٩) أبو يوسف: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٤٩.

(٢٠) ابن سلام: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٣هـ، ص ٧٣.

ومن ثم خرجت إلى تاريخ العرب تلك الحالة الوسطية التي تتوازن بين النقائص، على كل المستويات: بين القبلية وبين التطبيقية، بين العشائرية وبين الأممية، بين الوحدة الشاملة وبين تضمن تلك الوحدة للقبائل في شكل حزم وأضمومات، وبين إلغاء الشفعاء واستبدالهم بشفيع واحد هو نبي الإسلام، وبين الوجدانية المطلقة للإله التي لا تقبل شراكة، ومن ثم كانت التراجعات التي اعترفت بمقدسات القرشيين والتي كانت تعد وثنيات، كالأعتراف بالكعبة، ثم في فتح مكة يتم تقديس الكعبة ذاتها وحجرها الأسود، وشعائر الوثنيين القديمة كالطواف والسعى، وتكريس المقامات والمواضع كالصفا والمروة وعرفات. لقد باتت الدولة بحاجة إلى معبد مؤسسى له تاريخه، بعد الرجوع عن القدس (أورشليم)، معبد يجتمع عنده جميع العربان، لكنه معبد قريش قبيلة الرسول في المقام الأول، وسدنته الهاشميون آل البيت.

كذلك تم الوقوف وسطياً بين نقائص أخرى، وبين البدء بالدعوة إلى عتق الرقيق وجعلهم أنساباً، وبين ما فرضته حروب الدولة من ضرورة استمرار ذلك النظام العبودى، متمثلاً في سبايا تأتي من الحروب وانتصارات الدولة، ثم بين الدعوة إلى عقيدة جديدة تؤسّم جميع الناس تحت رايبتها، وبين ضرورات فرضتها الظروف، حيث تم ترك كثير من القبائل على عقائدها فترة من الزمن، لكن مع موادعتها وعقد المحالفات بينها وبين دولة يثرب النبوية، إزاء حرب تلك الدولة مع مكة، مع ما فرضته ظروف أخرى متأخرة، في غزوات النبي على أصحاب الأراضى الخصبة، وقيمة تلك الأراضى التي كان يمكن أن تبور تماماً، مما أدى إلى قرارات باتفاقيات مع أصحابها، تقرهم على دينهم وعلى أرضهم، على أن يدفعوا شطر المحصول لحكومة يثرب، وما تطور بعد ذلك في نظام الجزية.

ثم تطور آخر على ذات الخط بين النقائص، عندما صب الأمر كله بيد دولة يثرب النبوية، وامتألت خزائنهما بالخيرات، ليأتى نداء جديد بأن من يعلن إسلامه معترفاً بوحداية الله وسيادة رسوله، يضمن سلامة حياته وماله، على أن يدفع الضرائب للدولة في نظامى الزكاة والصدقة، وهى مجموعة الخطوات التي اقتربت مرة وتباعدت مرة من القرار بأن الدين عند الله هو الإسلام. وهى مجموعة التوازنات الوسطية التي تأرجحت مع المستجدات والتطورات على أرض الواقع، وتركت بصماتها بين نقائص خلقت فجوات دائمة في تاريخ الإمبراطورية الإسلامية، كانت تختل معها أثقال الميزان فتتأرجح كفتاه إزاء الموقف الوسطى على الخط الفاصل بين توازنات النقائص، مما أعطى الفرصة دوماً لأقدار السياسة، وبحرفية وسطاء السياسة المحترفين من رجال الدين، لتبرير مواقف تجد لها بين كفتى الميزان أثقالاً مناسبة دوماً.

صحيفة المعاقل

«اليهود دينهم والمسلمين دينهم»

[نص بصحيفة المعاقل]

بين بدر وأحد لم تتوقف سرايا المسلمين عن مداومة طريق الإيلاف، وشن حملاتها التأديبية على القبائل، مع ظاهرة جديدة تمثلت في شرع نظام الاغتيال، باغتيال رؤوس القبائل وأشراف الناس وسرايتهم وحكمائهم، وبدأ تطبيق ذلك النظام باغتيال كعب بن الأشرف الذي رثى قتلى بدر شعراً. وتبعه قطع عدد من الرؤوس خاصة بعد وقعة أحد.

وعند العودة الطافرة من بدر الكبرى، كان الوحي يسترسل طالبا من المسلمين اليقظة والاستعداد لقتال أعدائهم، وذلك في النص «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم» (٦٠/ الأنفال)، فأما عدو الله وعدو المسلمين فمعروف، وهم ملأ مكة، أما من هم أولئك الآخرون غير الملأ المكى الذين يعلمهم الله ولا يعلمهم سواد المسلمين؟ إنه ما أوضحته الأحداث التالية بنداء النبي - صلى الله عليه وسلم - لرجاله: «من ظفرت به من رجال يهود فاقتلوه»، وهو ما تم تنفيذه بالفعل في عدة رؤوس يهودية، وهو المنحى الذي جاءت مفاصله في آيات تنسخ حرية الاعتقاد، لتنتهي العمل بآيات من قبيل «لکم دینکم ولی دین» (٦/ الكافرون)، وتلغى الصفح الجميل والصبر الأجل، لتؤكد معنى جديداً هو «إن الدين عند الله الإسلام» (١٩/ آل عمران).

وهى السياسة التى ابتغت انصواء اليهود الكامل، السياسى والعقدى، تحت لواء الدولة الجديدة وسيادة مؤسسها، أو استئصال شأفتهم من يثرب. وهو الأمر الذى كان سببه الوضع الخاص جداً باليهود، كأصحاب كتاب سماوى ودستور عقدى وأيديولوجيا تاريخية موثقة، وهو ما جعلهم المنكر الحضارى الحى للنبوة النبى العبرى، مما كان يشكل خطراً دائماً وحقيقياً على الدولة الوليدة وأيديولوجيتها العبرية، وهو ما صب فى إعلان واضح يسفر عن الهدف، فيما جاء مروياً عن الزهرى عن عروة:

نزل جبريل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهذه الآية: «وما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين» (٥٨ / الأنفال)، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أنا أخاف من بنى قينقاع، فسار إليهم ولواؤه بيد حمزة» (٢١).

ومن ثم انجالت غزوة قينقاع عن هجرتهم من يثرب كأول قبائل يهود يتم إجلاؤها عن المدينة، مع استيلاء المسلمين على كراعهم وأسلحتهم وأرضهم. ولكن لأن الرياح لا تأتى عادة بما تشتهى السفن، فقد أجمعت قريش أمرها على قتل محمد، بعد أن طال حصاره لها حتى كاد يقضى عليها، وذلك فى الرقعة المعروفة بوقعة أحد، التى انهزم فيها المسلمون هزيمة مريرة، أدت بالبيهقى إلى تصوير حال يثرب بعد الهزيمة بقول واضح يقول: «... وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل» (٢٢).

وترنحت الدولة (الطالعة)، وكان لابد من اتخاذ عمل سريع وحاسم ودموب لا يكل ولا يهدأ، لإصلاح ما أفسدته أحد، وذلك بضرب كل من سولت له نفسه الطمع فى النيل من سلطان الدولة، ولما لم يكن ممكناً الخروج فى ذلك الطرف إلى قريش، والجروح لم تزل طازجة، ومعنويات المسلمين فى حضيضها، فقد اتجه السيف الإسلامى إلى اجتثاث الرؤوس التى أخذت ترتفع وتتطاوّل على السلطان المحمدى فى يثرب أو خارجها، ومن ثم تدحرجت رؤوس عدة، منها رأس (سلام بن أبى الحقيق) المعروف بأبى رافع، و(أبى عفاك عمرو بن عوف)، و(عصماء بنت مروان عقيلة ابن خطمة)، وخالد بن سفيان سيد هذيل، وفاطمة بنت ربيعة زعيمة فزارة ومحل شرفها وفخرها، ليكون هذا المسلسل من العنف والاغتيالات والتصفية الجسدية، إعلاناً عن أن السيف المحمدى وإن كسرت منه الذوابة فى أحد، فإنه مازال قوياً مقتدراً بل وعنيفاً، إعلاناً عن

(٢١) ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمال والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ج ١، ص ٣٥٣.
(٢٢) البيهقى: دلائل النبوة، تحقيق عبدالمعطى قلمجى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ج ٣، ص ٢١٦.

إصرار لا يتزحزح على استدامة الدولة والحفاظ على مستقبلها، ولو مع التضحية بأرواح كثيرة .
بهزيمة أحد كان لا بد من وقفة متأنية، تؤجل - مؤقتاً - بعض القرارات، حتى يأتي الله بأمره،
ويستعيد المسلمون - إبان ذلك التأجيل - قوتهم وتعافيهـم المعنوي، كذلك دفعت الهزيمة في أحد
سيد يثرب ليفصح لرؤوس قريش الصلبة عن الأغراض البعيدة للدعوة، كي لا تتكرر مأساة أحد
بهذا العنف، فهذا (أبو قتادة الأنصاري) تهزه مناظر أهله مذبحين في أحد، ومشهد الحمزة
مبقوراً، فيشير بالتمثيل بجثث قتلى قريش في أحد، لكن ليرد عليه سيد الخلق - صلى الله عليه
وسلم - مفصلاً برسالة تقول:

يا أبا قتادة:

«إن قريشاً أهل أمانة، من بغاهم أكبه الله تعالى إلى فيه، وعسى إن
طالت بك مدة، أن تحقر عملك مع أعمالهم، وفعالك مع فعالهم، ولولا أن
تبطر قريش، لأخبرتها بما لها عند الله»^(٢٣).

ومن هنا نعود إلى ابن سعد نسمة وهو يقول في طبقاته الكبرى: «إن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - لما هاجر إلى المدينة، صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان يحب أن
يصرف إلى الكعبة .. فنزلت عليه: قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها،
فوجهه إلى الكعبة .. وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى إلى بيت المقدس .. ونزل فرض شهر
رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر، في شعبان، على رأس ثمانية عشر شهراً من
مهاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذه السنة
بزكاة الفطر»^(٢٤).

وهو ذات ما أكده ابن الأثير في سرده لأحداث العام الثاني للهجرة، ولحظه ابن كثير
الدمشقي، وهو يسرد أحداث ينسبها للعام الثاني للهجرة^(٢٥)، في قوله:

وفيها - أى عام ٢ هـ - حولت القبلة .. وفيها فرض صيام رمضان ..
وفيها فرضت زكاة النصب وزكاة الفطر، وفيها خضع المشركون من أهل
يثرب واليهود .. صانعوا المسلمين وأظهر الإسلام طائفة كثيرة من
المشركين واليهود، وهم في الباطن منافقون .. قال ابن جرير: وفيها كتب

(٢٣) الحلبى: السيرة .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٢٥.

(٢٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ٨٠٥، ٣.

(٢٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥، مج ٢، ص ١١٥، ١١٦.

الرسول - صلى الله عليه وسلم - صحيفة المعامل ، وكانت معلقة بسيفه^(٢٦) .

إن حديث ابن كثير هنا يجسم أموراً كثيرة مختلف عليها بين كتاب السير والأخبار، فهناك من يشير إلى أن صحيفة المعامل قد كتبت بين أهل يثرب جميعاً وبين المسلمين، وأنها كتبت بعد الهجرة مباشرة، بينما يذهب آخرون إلى توقيتها بنهاية العام الثاني للهجرة . وأهمية حديث المعامل ترجع لارتباطه بأحداث أهم سببته ونتجت عنه، وقد ذهب ابن كثير في مبتدأ فصله مع الكثرة القائلة بكتابة المعامل مبكراً وقت الهجرة، بحيث تبدو يثرب جميعاً قد عمها الإيمان، وبحيث يظهر النبي - صلى الله عليه وسلم - سيداً يملك كل مقومات السيادة من الوهلة الأولى، فخص لسيادته الجميع بما فيهم يهود يثرب، فكتبوا معه معاهدة تعاقلية، يردون فيها كل أمر إليه وحده، وقد ذهبنا في الجزء الأول من هذه الدراسة ذات المذهب، حتى نبهنا إلى ضرورة إعادة النظر في ترمين صحيفة المعامل، الدكتور عبد الهادي عبد الرحمن^(٢٧)، وكانت إعادة النظر مدعاة لنتيجة مفادها إن القول بعقد المعامل عند الهجرة مباشرة، أمر يخالف معطيات الواقع، وشروط الفهم السليم، وكان للرجل في ذلك فضل غير منكور.

الواقع يقول بمهاجرة النبي ضعيفاً متخفياً هارباً من مدينته وأهله، إلى حمى أخواله في يثرب، ولاجئاً مع أتباعه إلى مدينة أخرى غريب عليها، وهو ما يحيط الصورة - التي رسمتها كتب الأخبار والسير لذلك الاستقبال الهائل والطاعة العمياء والكاملة من اليثارية لسيدهم المكي - بكثير من الشك وعدم القبول، حيث تناقض تلك الصورة الإخبارية بشدة بنود الصحيفة التعاقلية، التي وضعت أمر يثرب جميعاً بيد النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذات الوقت الذي تؤكد فيه ذات الكتب أن غالب أهل يثرب كانوا إما يهوداً أو وثنيين، وإن من دخل منهم في حلف الدعوة كان في الغالب من المنافقين أو الدسائس على المسلمين، ومن هنا رجع ابن كثير عما قال في البداية ليؤخر زمن صحيفة المعامل إلى السنة الثانية للهجرة، بحيث تبدو الأحداث منطقية بشكل أكثر، وبحيث تبدو النتائج متفقة مع مقدماتها من أحداث، فاختار زمننا تحول فيه المسلمون إلى قوة قادرة على فرض هيمنتها.

وللتحديد أو محاولة التدقيق في الزمن الذي كتبت فيه المعامل، نجد أن غزوة قينقاع لم يرد فيها - في أي رواية إخبارية - أية إشارة لتعاقد المسلمين مع اليهود، كما لم نسمع بمناظرة يهود

(٢٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٧ .

(٢٧) عبد الهادي عبد الرحمن: جذور القوة الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨، وقد ذهب الباحث المتميز إلى توقيت المعامل بعد غزوة بدر مباشرة .

قينقاع للنبي بنقض العهود، كما حدث في وقائع أخرى تالية مع قبائل يهودية أخرى، وهو ما يشير إلى أنه حتى غزوة قينقاع لم تكن تلك الصحيفة قد كتبت بعد، ومن هنا نظن أن تلك الصحيفة قد كتبت ضمن مجموعة الإجراءات الحاسمة مع التراجعات المحسوبة، التي تمت بعد هزيمة المسلمين في أحد.

ومعلوم أن هزيمة أحد قد هزت معنويات المسلمين بعنف، ودفعت المناوئين للتطاول عليهم، لكنها لم تقض على القوة العسكرية الإسلامية التي تنامت وتضخمت منذ بدر الكبرى، وكان مقتل ذلك العدد من المسلمين في أحد غير ذي تأثير حقيقي، وكان الأمر بعدها أمر معنويات تحتاج إلى ترقيق وإصلاح سريعين، ومن ثم نجد الحكاية الإخبارية تأتينا ببعض الروايات التي تؤكد أن حملة النبي على القبيلة الثانية النضير، جاءت بعد وقعة (بئر معونة)^(٢٨)، ونحن نعلم أن بئر معونة قد وقعت بعد أحد بزمان، وبعد وقعة الرجيع التي وقتها الواقدي في صفر سنة أربع للهجرة^(٢٩)، ونعلم أيضاً أن بنى النضير قد نابذوا النبي بنقض العهود والمواثيق في تلك الغزوة^(٣٠)، مما يشير إلى أن صحيفة المعازل كانت قد عقدت قبل غزوة النضير، وفي الزمن الواقع بين غزوة أحد وبين غزوة النضير، وهو ما يمكن الكشف عنه في قراءة البيهقي:

اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -:
أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حبراً، حتى
نلتقى بمكان المنصف، فيسمعوا منك، فإن صدقوا وآمنوا بك، آمنا بك، فلما
كان الغد، غدا عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالكتائب فحصرهم
فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن
يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا على بنى قريظة بالكتائب وترك
بنى النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم^(٣١).

ويفهم من الحديث هنا أن يهوداً أرادت اختبار نبوة النبي بالحوار المعرفي والفقه الديني، لكن النبي رأى أن يتعامل معهم بمنطق آخر فجرد عليهم كتائبه العسكرية، وقاتل النضير حتى نزلت على عهد مكتوب معه، ثم أن قريظة رضيت بالعهد دون قتال، ولا نعلم عهداً تمت سوى صحيفة المعازل، وهو الأمر الذي يعضد ما ذهبنا إليه في توقيع المعازل إبان محنة تطاول الرؤوس بعد هزيمة أحد، وما يبدو لنا أن المعازل قد تمت ضمن سلسلة الإجراءات السريعة التي

(٢٨) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.

(٢٩) نفسه: ج ٤، ص ٦٤.

(٣٠) نفسه: ج ٤، ص ٧٧.

(٣١) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٩.

حدثت لعلاج آثار أحد، لرفع روح المسلمين المعنوية، بإخضاع قبائل المدينة جميعاً للسلطان النبوي، وتأمين الجبهة الداخلية، في نفس الوقت الذي قدمت فيه دولة الإسلام تنازلاً تراجعياً واضح في النص: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»^(٣٢). وإذا كان الإخباريون يصرون على ربط صحيفة المعامل زمنياً بمجموعة أخرى من الإجراءات تمت في ذات الزمن، مثل تحويل القبلة وفرض الزكاة والصوم العربي.. إلخ، فمن المحتمل أن تكون تلك الإجراءات بدورها قد تمت ضمن مجموعة التراجعات التي أفرزتها أحد.

لقد كانت الحسابات التي سبقت الهجرة، واستمرت حتى غزوة بدر الكبرى، تعمل حساباً لقوة اليهود بالمدينة، مما جعل النبي يحاول استمالة اليهود والتقرب منهم لتحبيدهم على الأقل، وفرض على أتباعه صوم يوم الغفران اليهودي (يوم كيפור/ عيد الفصح)، وهو اليوم الأهم والأعظم في تاريخ اليهود، يوم خروجهم من مصر عبر سيناء لاحتلال فلسطين، بل واتجه النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - مع أتباعه وجهة اليهود في الصلاة، نحو أورشليم القدس، وقد سبق ذلك ورافقه آيات تمجد أنبياء بني إسرائيل، الذين هم أسلاف اليهود الإسرائيليين وأجدادهم، وتمجد التوراة ككتاب سماوي صادق «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور» (٤٤/ المائدة) و«وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله» (٤٣/ المائدة)، بل وتمجد اليهود ذاتهم بتأكيد أن الله قد فضلهم على العالمين.

ومع ذلك ظل اليهود يهوداً، يستمسكون بدينهم ولا يرضون بمحمد سيّداً، رغم كل الإشارات والتوضيحات التي كانت تصر على تأكيد أن محمداً من ذات النسل، فهو الحفيد البعيد لإسماعيل شقيق إسحاق بن إبراهيم، وأن القرابة العرقية قائمة، وأن انتظار اليهود لمخلص نبوي مقبل يجد صدها في النبي العربي الذي يحقق نبوءة التوراة، حتى جاءت وقعة (أحد) لتستدعي تحركاً سريعاً يكفل انضواء هؤلاء التام لسلطان الدولة لتأمين المدينة داخلها، فتمت صحيفة المعامل كما جاء خبرها السريع عند البيهقي، مع تحرك آخر على مفصل قريش يهدىء من عوارمها ويطمئنها، فكان أن تم إلغاء الصوم اليهودي مع تقرير الصوم العربي الرمضاني، كما تم تحويل القبلة إلى كعبة مكة.

يقول ابن سعد: «نزل فرض شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر، في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجر رسول الله»^(٣٣). ويؤكد جميع أهل السير أن وقعة بدر الكبرى كانت في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة، وهو ما يقوله ابن الأثير: «وفي السنة

(٣٢) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط ٥، ١٩٨٥، ص ٦١.

(٣٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ١، ج ٢، ص ٨.

الثانية كانت وقعة بدر الكبرى فى شهر رمضان فى السابع عشر وقيل التاسع عشر وكانت يوم الجمعة، (٣٤).

لكن؛ إذا كان الصيام الرمضانى قد فرض فى شعبان من ذلك العام، وكانت وقعة بدر الكبرى قد وقعت فى رمضان من ذات العام، فلا أقل من أن نسمع من كتب الأخبار والسير عن ظروف المسلمين وهم صائمون، ومتى أهلوا بالصيام ومتى أفطروا، وهل قاتلوا صائمين أم مفطرين، وهى العادة مع كتب الأخبار التى تفصل تلك الأمور وتدقق بشأنها فى كل غزوة، مثلما حدث بشأن تأخير الصلاة فى غزوة (قريظة)، وما حدث بشأن الصيام الرمضانى فى فتح مكة، حيث تجد تفاصيل صغيرة ودقيقة. والمعنى المقصود هنا هو أن الصيام الرمضانى لو كان قد فرض قبل بدر الكبرى، بينما بدر قد وقعت فى شهر رمضان، لوجدنا لمسألة الصيام مكانها فى سرد الأحداث البدرية وهو ما لم يحدث مما يعنى وجوب تأجيل فرض الصيام الرمضانى والزكاة وتحويل القبلة وصحيفة المعاقل معا إلى الفترة التى افترضناها، خاصة مع ارتباط تلك الأحداث فى سياق واحد يناسب بعضه بعضا، وهو الفرض الذى يقبل الخطأ كما يقبل الصواب.

وإعمالا لذلك كله، فإن الآيات الكريمة التى تحدثت عن التوراة وهداها ونورها، وعن تفضيل الله لبنى إسرائيل، والقص الطويل عن أنبياء التوراة من إبراهيم إلى إسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى وداود وسليمان.. إلخ، كل ذلك أفرغ محتواه فى الصحيفة التى عقدت بين جميع أطراف القوى فى يثرب، والتى كانت أولا: نتيجة لتحول حال المسلمين بعد بدر من ضعف إلى قوة، ومن لاجئين إلى مواطنين على ذات الدرجة، وكانت ثانيا: محاولة لفرض الهيمنة وإعادة الأمر كله لسيّد المدينة الجديد بعد التهاوى المعنوى فى هزيمة أحد، لتأمين الجبهة الداخلية ليثرب مؤقتا، كما كان لوقعة أحد نتيجة أخرى هامة، تمثلت فى تحويل القبلة إلى الكعبة - هذا إن كان فرضنا صادقا - فى رسالة واضحة لكل الأعراب، أن قطع طريق الإيلاف وضرب مصالح الملأ الأنانية، لا يعنى بالضرورة ضرب الرمز الدينى المكى، ورسالة موجزة برقية لأهل مكة أنفسهم تهدى من روعهم إزاء سيد يثرب، أما أصحاب السير والأخبار فلم يجدوا سببا واضحا يعلل التحول عن أورشليم إلى مكة، سوى ما رده الإخباريون مع الطبرى أن النبى: «كان يحب أن يصلى قبل الكعبة، فأنزل الله.. قد نرى تقلب وجهك فى السماء» (٣٥).

ثم جاء التحول إلى الصيام العربى ليلتقى مع تقديس يوم العروبة (يوم الجمعة وكان يسمى يوم العروبة) فى وقت مبكر، ليعلن فى إشارات واضحة منحى التحول، أما أبرز الشواهد على أن

(٣٤) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١١٦ / معلومات النشر.

(٣٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ٤١٦.

صحيفة المعاقل قد عقدت في ظرف يستعرض فيه المسلمون قوتهم، أنها علقت بسيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو ما لم يكن ممكناً زمن الهجرة عندما كان المسلمون قلة ضعيفة لاجئة إلى يثرب، وكان تعليقها بسيف رسول الله رسالة ذات معنى لجميع سكان يثرب وللمنافقين، ولحق ذلك جميعه تدريب آخر للمسلمين على نظام الدولة المؤسسية، ففرضت الضرائب (الزكاة)، أما أهم بنود الصحيفة التي كانت ترفرف على سيف النبي، فهي تلك التي قالت في مفتتحها: «هذا كتاب من محمد النبي الأمي، وهو ما يشير إلى المعاقل كفرمان صادر من سلطة النبي السيادية، فرغم أن المعاقل كانت بين أطراف، فإن تلك الأطراف لم تكن متكافئة، لأن صيغتها وأسلوبها وإيحائها، ناهيك عن ذلك الاستهلال في مفتتحها تشكل قراراً صادراً من سيد قوى فوق بقية الأطراف، فهي بمثابة كتاب أمان من النبي لسكان يثرب، إضافة إلى أن الصياغة لم تقل: (هذا كتاب من محمد بن عبد الله)، إنما فرضت صفة النبوة على جميع الموقعين أدناها، وهو الأمر الذي استثمر رغبة اليهود والمشركين اليثارية في الأمان بعد سل سيف الاغتيال وتجريد الكتائب بعد أحد، ليمنحهم سلاماً مشروطاً بسيادة المسلمين ونبيهم، وهو ما توضحه قراءة بقية بنود صحيفة المعاقل.

وضمن تلك البنود يأتي النص الذي يؤكد أن المعاقل قد تمت ..

«.. بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون على ريعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط، وينو عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (ويتم ذكر كل بطن من البطون وكل دار)، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم،.. وإنكم مهما اختلفتم في شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم،.. وإن بطانة اليهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار، يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله،» (٣٦).

والمطالع لهذه البنود سيلمس فوراً أمراً شديداً الأهمية، حيث يتضح حصول المهاجرين على أساس اقتصادي يرفع عبثهم عن إخوانهم اليثارية، وإلغاء نظام المؤاخاة نتيجة ذلك، فالنص يؤكد المهاجرون من قريش على ريعتهم يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط، ومن ثم

(٣٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

أصبح على الأنصار أن يعودوا إلى معاقلمهم الأولى ،على ريعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، أما البدد الذى يؤكد بوضوح أن تلك الصحيفة لم تكن قد عقدت قبل بدر الكبرى، فهو تلك السلطة الواضحة فى إرجاع كل الأمور بالمدينة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى الخروج من المدينة لليهودى لا يتم إلا بإذن محمد - صلى الله عليه وسلم - والأكثر بلاغة فى كل هذا، أن الصحيفة سردت البيوت والأفخاذ اليتيرية فى معاقلمها، وسط تلك الأفخاذ والبيوت تم وضع المهاجرين كأحد أبناء البلد وكفخذ من الأفخاذ اليتيرية الأصلية، بحيث اكتسب المهاجرون بصحيفة المعاقل وجودهم الشرعى، ليتحولوا من لاجئين إلى مواطنين، بل أفصح الأمر عما هو أشد بياناً، فغدا الأنصار تابعين لا مجيرين ومتبوعين .

وكانت النغمة العربوية الواضحة فى صيام رمضان وتقديس يوم العروبة، ثم العودة عن اغتراب القبلة الأورشليمية إلى الكعبة العربية المكية، إشارة واضحة إلى بدء التخلّى عن ممالأة يهود المدينة، والإفصاح بتلك الإشارات القوية إلى أن الأمر كله عائد فى النهاية إلى أهل الله القرشيين، وأن القدس كله فى محل كعبتهم، وهى الطمأنة لقريش وتأكيد أن الإسلام لا يهدد أبداً مصالح مكة السياسية ولا الدينية المرتبطة دوماً بالاقتصادية، وأن خط سير التاريخ يحث خطاه إلى نتائجه النهائية، وأن الحروب جميعاً ما كانت إلا لتوحيد العرب بزعامة قرشية يمثلها أشرف الخلق وسيدهم المصطفى - صلى الله عليه وسلم -

أما المعجزة القومية الكبرى التى قدمتها الدعوة إلى العرب، فتتمثل فى إعلان أن رب الأديان الكبرى المحيطة بالجزيرة، هو رب واحد، هو رب العالمين، وأن هذا الرب قد اختار محمداً العربى، وأنه تكلم إليه باللغة العربية، ليسحب بذلك الامتياز الذى كان قاصراً حتى ذلك الوقت على اليهود والمسيحيين ليمنحه للعرب المسلمين، الذين وصفهم ذلك الإله العالمى بأنهم خير أمة أخرجت للناس .

حروب دولة الرسول

الجزء الثانى

الباب الأول

دية بنى عامر

الوقائع من أحد إلى الخندق

غدر العربان

«ما أنا والله قتلت خبيبا، لكن أبا ميسرة أخوا
بنى عبد الدار أخذ الحرية فجعلها فى يدي ثم طعنه» .

[معاوية بن أبى سفيان]

بينما كانت السرايا والغزوات تصيف باستمرار مزيداً من التراكم المادى والسلاح لدولة النبی
اليثريية، فإنها كانت - من جانب آخر - تسهم باستمرار فى ضعفة الحكومة المكية وسيورها نحو
الانهيار، هذا إضافة إلى تعبئة القبائل المجاورة لمكة، والتي آبت - رعباً وخوفاً وربما طمعاً - إلى
حلف يثرب، مثل قبائل مزينة وجهينة، ناهيك عن قبائل أخرى حالفت يثرب طائفة مختارة
كراهية فى قريش، مثل خزاعة (الحارس القديم للكعبة المكية)، والتي سبق وخلعتها قريش
وأقصتها عن مكة إقصاءً، ومن هنا وجدت خزاعة فى محمد وفى يثرب حليفاً تحارب من خلاله
قريشاً، فلعبت دوراً تجسسياً عظيماً على قريش لصالح يثرب، كان له أثر بعيد فى حسم أمور
كثيرة لصالح الدولة اليثريية، ومع هذا وذاك، تمت عقود المودعات بين يثرب وقبائل الساحل
التي فضلت الخضوع ليثرب، رغبة فى مغامرات قريش المارة بطريق الساحل، وتجنباً لحرب
يؤذنون بها من الله ورسوله .

وقد توافقت مع تلك الخطوات الخطوة الضرورية والحاسمة لهيبة الدولة فى يثرب وسيادتها،

بضرب المنازع الأعظم داخل يثرب، اليهود، الشاهد الدينى القدسى الحى، صاحب دستور رفض التنازل عنه أمام الدستور القرآنى، وهو ما كان من غير الممكن استمراره فى ظل دولة توحيدية موحدة تحكم بدستور واحد وتعبد إليها واحداً وتتظم تحت إمرة قائد واحد، ومن ثم شكلت كل تلك الخطوات المحسوبة بدقة وإحكام هيبة عظيمة للدولة الطالعة، ساعدت على اتساع سطوتها فى المحيط العربى، حتى جاءت وقعة أحد بضربة موجعة وغير متوقعة على جدول الحسابات، وهو الأمر الذى أدى إلى ترنح هيبتها فى نفوس الأعراب، وهو الأمر الشديد الخطورة آنذاك، ولم يكن مسلسل الاغتيالات الذى طال الرؤوس من القبائل بكاف لإقناع العربان، بالكفاية القمعية للدولة، فكان أن شهدت تلك المرحلة بداية التطاول على الدولة اليثربية الطالعة.

وبينما المسلمون يلمون شعثهم فى خطوات متسارعة وحاسمة، بعقد المعادل، وتكثيف السرايا المسلحة، للإعلان أن الدولة لم تزل قوية، وأنها وإن انكسرت فى أحد، فإن يراعها لم يزل بإمكانه أن يطول ويضرب ويؤدب لإخضاع القبائل، وبسرعة خرجت سرية أبى سلمة إلى بنى أسد فى المحرم من السنة الرابعة للهجرة - بحسابات الواقدى - وبعد شهر واحد من هزيمة أحد.

لم تكن جراح أبى سلمة قد أبلت بعد، وكان الجرح الذى أصابه فى أحد بعضده لم يزل طازجا، وأمره النبى بالخروج على رأس السرية برجالها المائة والخمسين إلى مضارب بنى أسد، وعند وصوله مضاربهم فرع الأسود من سرية الرجل الجريح وهربوا تاركين نعما كثيرة من الإبل والشياه، غنيمة للمسلمين، وأسروا منهم ثلاثة.

ثم يحكى لنا (عمرو بن أبى سلمة) عن أبيه، أنه لما دخل المدينة انتفض به جرحه فمات، لثلاثة بقين من جمادى الأولى، فاعتدت أمى حتى خلت أربعة أشهر وعشر، ثم تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودخل بها فى ليال بقين من شوال، فكانت أمى تقول: ما بأس من النكاح فى شوال والدخول فيه،^(١) والمعلوم أن أم سلمة كانت امرأة شديدة الجمال قوية الشخصية ذرية اللسان فصيحته. ثم تأتى سرية عاصم بن ثابت إلى عضل والقارة.

عن أبى هريرة قال:

بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - سرية عينا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت .. فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة، ذكروا لى من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم .. حتى لحقوهم .. وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا

(١) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٦٤.

ألا نقتل رجلا منكم، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم اخبر عنا رسولك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالذبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قاتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً.. فخرجوا به من الحرم ليقتلوه.. (٢).

والنص أعلاه أورده ابن كثير نقلاً عن الواقدي، لكن ابن كثير لاحظ اختلافاً بين رواية الواقدي وبين رواية ابن إسحاق، فقال:

ولنذكر كلام ابن إسحاق ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف..

قدم على رسول الله بعد أحد رهط من عضل والقارة، وقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئونا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معهم نفرًا ستة من أصحابه.. فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع، ماء لهذيل بناحية الحجاز.. غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيل، فلم يبرح القوم وهم في رجالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم، فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً.. ثم قاتل حتى قتل، وقتل صاحبه.. أما خبيب وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة وأعطوا بأيديهم، فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران نزع عبد الله بن طارق يده من القران، ثم أخذ سيفه واستأخر القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبّره بالظهران، وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة.. وذكروا

(٢) نفسه: ص ٦٤، ٦٥.

أنهم لما صلبوا زيد بن الدثنة رموه بالنبل ليفتنوه عن دينه، فما زاده إلا إيماناً وتسليماً^(٣).

والتصائب هنا واضح جلي، في شأن الغرض الذي خرج له المسلمون الستة إلى ماء الرجيع بعضل والقارة، فهناك قول: إنهم كانوا جواسيس لرسول الله (سرية عينا)، يستقصون أخبار هذيل، وهو فيما يبدو ما لم يرتح له الطبري وابن الأثير وابن إسحاق، ربما لوجوب أن تأتي الأخبار المطلوبة من السماء دون عناء، أو بخبر الملاك جبريل، الذي كثيراً ما ذكرت عنه صحف السير. أنه كان يقوم بمثل تلك المهام للدولة وزعيمها، ومن هنا قال هؤلاء بخبر آخر، هو أن ما حدث كان كميناً محبوكة، حبكته لحيان ذلك البطن الهذلي، بغرض النيل من هيئة الدولة التي اهتمت بعد أحد، ويبدو لنا أن ذلك الإجماع يجنح إلى الصواب، إذا ما تذكرنا أن العربان لا تترك ثأرها، وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - سبق وأرسل سرية اغتالت من هذيل رأسها (خالد بن سفيان ابن نبيح الهذلي)، وهو ما يبرر الحدث ويفسره، فما وصل الصحابة الأجلاء إلى ماء الرجيع، حتى برزت لهم هذيل، لقتل منهم أربعة، وتأسر اثنين تسلمهما لقريش هما خبيب بن عدي وزيد ابن الدثنة.

ويخبرنا ابن هشام أن حجيراً قد ابتاع خبيبا، وأن صفوان بن أمية ابتاع زيدا، وتم قتلها ثأراً، ويقول ابن هشام: إنهم لم يعجلوا في قتلها تعظيماً لحرمة الأشهر الحرم، فلما انقضت خرجوا بخبيب من جوار الحرم الذي وضعوا قواعد أمنه، حيث صلبوه على خشبة بعيداً عند ثنية التنعيم، وكان قاتله هو معاوية بن أبي سفيان، الذي حاول أن يبرئ نفسه بعد ذلك بزمان، عندما دار الزمن دورته ليملك أعنة دولة الإسلام، فكان يقسم: والله ما أنا قتل خبيبا، لكن أبا ميسرة أخوا بني عبد الدار أخذ الحرية فجعلها في يدي ثم طعنه^(٤).

لقد استهانت هذيل بالدولة اليعربية، وما جاءت استهانتها إلا بعد هزيمة أحد، وإزاء تلك الاستهانة انطلق لسان شاعر النبي حسان بن ثابت يهجو لحيان الهذلية، معبراً عما آل إليه الأمر في يثرب يومذاك ليقول:

إن سرك الغدر صرف لا مزاج له
فأت الرجيع فسل عن دار لحيان
قوم تواصوا بأكل الجار بينهم
فالكلب والقرود والإنسان مثلان

(٣) نفسه: ص ٦٦: ٦٨. انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٧.

(٤) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢٦.

لويطلق التيس يوما قام يخطبهم

وكان ذا شرف فيهم وشان^(٥)

وكالمعتاد في مثل تلك الأحوال، كان لابد من شيء يبلسم الجراح، ولو بالجروح إلى الخيال تستمد منه قوة الاستشفاء النفسى، بأسطورة تأتينا في شكل خبر يتم تناقله بين كتاب السيرة عن عاصم بن ثابت، الذى ثبت للهذليين حتى قتل رافضا أن يعطى بيديه، وكانت سلافة بنت سعد بنت سهيل قد نذرت حين أصاب عاصم ولديها فى أحد، لكن قدرت على رأس عاصم لتشرين فى قحفه الخمر، لكن هذيل لا تستطيع أن تأتى برأس عاصم، لماذا؟ لأن الله قد علم بنذر سلافة، فأرسل إلى جسد الشهيد جنوداً تحميه من هذيل، فى شكل زنابير تجمعت على الدم المراق، فلم يقدروا منه على شيء^(٦)، ولا يرضى ابن الأثير بحماية الزنابير وينتهى الأمر، بل يأتينا بخبر أشد أسطرة فيقول: إن الوادى قد ابتلعه، لأنه كان قد عاهد الله ألا يمس مشركا ولا يمس مشرك، فمعه الله فى مماته كما منع فى حياته^(٧).

وهو الأمر الذى حدث له نموذج شبيه مع الأسير الثانى خبيب، فهذه ماوية مولاة حجير تحكى بعد ذلك بزمان روايتها العجيبة فتقول: «حبس خبيب بمكة فى بيتى، فطلعت عليه يوما وإن فى يده لقطفا من العنب، أعظم من رأسه، يأكل منه، وما فى الأرض يومئذ حبة عنب، ليردف البيهقى الذى آل على نفسه جمع العجائب، راوياً عن أمية الضمرى الذى حكى لولده وعن ولده الذى حكى لحفيده، أنه تسلل ليلاً لإنقاذ خبيب عن الصلب، ويقول: «جئت إلى خشبة خبيب فرقيت فيها، وأنا أتخوف العيون، فأطلقت، فوقع على الأرض، ثم اقتحمت فانتبذت قليلاً ثم التفت، فكأنما ابتلعه الأرض، فلم يذكر لخبيب رمة حتى الساعة»^(٨). هذا رغم أن رواية ابن كثير توضح لنا دون لبس كيف اختفى جسد خبيب، برواية أمية الضمرى ذاته، الذى أكد هذه المرة أنه حمل جثة خبيب على ظهره وسار به حتى تنبه له الناس، فأسرع برميته على الأرض، ثم يقول ما نصه: «وأهلت عليه التراب برجلي»،^(٩).

ثم يأتى يوم بئر معونة

وهو يوم قبائل سليم، التى تكاثرت عليها سرايا يثرب وغزواتها تقفوبعضها بعضاً، عندما

(٥) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٠.

(٦) نفسه: ص ٦٥.

(٧) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٨.

(٨) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٣١.

(٩) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٢.

تداعى المسلمون فى أحد لتجدها سليم فرصة الثأر وشفاء الغليل، فيما رواه أنس بن مالك، ويشير إلى أن سليم قد سلكت مسلك هذيل ذاته، فذهب بعضهم إلى المدينة يستمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مدداً على عدو لهم، معلنين اتباعهم له، فيمدهم النبى بأربعين من خيار المسلمين، ومعهم رسالة يحملها خال النبى حرام بن ملحان الأنصارى، إلى سيد بنى عامر (عامر بن الطفيل)، الذى ما أن يطالع الرسالة حتى يعمل سيفه وسيوف سليم فى الأربعين مسلماً عند بئر معونة، ثم يبقى على مسلم واحد هو عمرو بن أمية الضمري، فقط ليقول له متحدياً:

ارجع إلى صاحبك فحدثه، فخرج عمرو

إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره .

وحديث بئر معونة بدوره - فى كتبنا الإخبارية - يحمل بغض التضارب، فرغم أن البيهقى بحديث أنس بن مالك قد قال: إن سليم استمدت النبى المدد على عدو لها^(١٠)، فإن ابن كثير يروى عن ذات الراوى أنس بن مالك رواية أخرى تقول:

بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبعين رجلاً لحاجة، يقال لهم القراء، فعرض لهم حيان من بنى سليم: رعل وذكوان، عند بئر يقال لها بئر معونة، فقال القوم: والله ما أردنا إياكم، وإنما نحن مجتازون فى حاجة للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقتلوهم، فدعا النبى عليهم شهراً فى صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت^(١١).

وهنا يختلف السبب، كما يختلف عدد المسلمين، هذا إضافة إلى رواية ثالثة تقول:

قدم أبو براء، عامر بن مالك بن جعفر، ملاعب الأسنة، على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم، ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك.. فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة المعنق، ليموت فى أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين.. فلما نزلوا بعث حرام بن ملحان بكتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر فى الكتاب حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بنى عامر

(١٠) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٤٢، ٣٤٨.

(١١) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٣.

فأبوا.. فاستصرخ عليهم قبائل من سليم من عسوية ورعل وذكوان والقارة، فأجابوه إلى ذلك، حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رجالهم حتى قتلوا عن آخرهم.. وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمري.. وأخذ عمرو أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم^(١٢).

والرواية هنا تلتقى إلى حد كبير برواية عضل والقارة فى أسبابها، وهو الأمر الذى لا يمكن قبوله، حيث يقع المسلمون فى الخطأ ذاته مرتين، ومن غير المعقول أيضاً تصور النبى - صلى الله عليه وسلم - يرسل ببساطة خيرة رجاله إلى سليم، التى أخذها الرعب من النبى كل مأخذ، بعد السرايا والغزوات المتتالية عليها، كما أنه من غير المستساغ أبداً أن يرسل النبى سبعين رجلاً ليعلموا سليم أو عامر القرآن وقواعد الإسلام، بينما كان يكفى شخص واحد أو شخصان لأداء تلك المهمة، بدلاً من أن يفقد من رجاله عدداً لم يفقده فى معاركه الكبرى، ثم لا يمكن أن نفهم كيف يذهب سيد من بنى عامر هو ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين إلى سيد آخر من بنى عامر أيضاً هو عامر بن الطفيل، ليستصرخ عليهم عامر بن الطفيل العامرى قبائل أخرى هى قبائل سليم؟ إن هذا الإرباك لا ينجلى إلا إذا تصورنا مؤامرة قد عقدتها سليم مع بنى عامر، فما كان ممكناً أن يستجيب النبى لدعوة كتلك من سليم، إنما كان ممكناً أن يستجيب لبنى عامر، خاصة إذا كان الداعى عامرياً فى كرامة وشهرة ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين لتقتلهم سليم.

كما يجب ألا نذهب مع القول أنه دعاهم ليعلموا العامريين الإسلام فكان يكفى فرد أو اثنان كما قلنا، لذلك يجب قبول الرواية التى تقول أن سلاعب الأسنة قد استمدهم على عدوله، وللتشجيع - ربما - تم تحديد هذا العدو بعدوة النبى سليم تحديداً، لمزيد من حبكة المؤامرة وجعلها قادرة على الإقناع والتمريض.

ومما يعضد ذلك التفسير المفترض لما حدث، هو أمر ذلك الحلف الغريب الذى نتحدث عنه كتب السير والأخبار، والذى تم عقده بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وبين بنى عامر، حيث يستمر ابن كثير فى سرد قصة يوم بئر معونة ليقول: إن عمرو بن أمية الضمري، الذى أطلقه عامر بن الطفيل ليلبلغ رسالته المتحدية للنبى - صلى الله عليه وسلم - «خرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا فى ظل هوفيه، وكان مع العامريين عهد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجواره، ولم يعلمه عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ قالوا: من بنى عامر، فأملهما حتى إذا ناما، عدا عليهما وقتلهما،

(١٢) نفسه: ص ٧٤، ٧٥.

وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأراً من بنى عامر.. فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبره الخبر، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لقد قتلت قتيلين لأدينيهما،^(١٣).

ومرة أخرى لا يترك مأثورنا حديث الأحاجي المعجز، فيقول الإخباريون: «لما قتل الذين بيئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري، قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، قال: لقد رأيته بعدما قتل، رفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض»^(١٤).

وهكذا تروى المعجزة على لسان من لقبته كتبنا التراثية بعدو الله (عامر بن الطفيل)، ومع ذلك لم يؤمن الرجل رغم ما رأى؟! وبينما (البيهقي) يزيدنا إعجازاً بقوله: إن النبي دعا على ابن الطفيل فأصابه الطاعون وذلك في عام الوفود سنة تسع للهجرة. هذا بينما نجد ابن الأثير يورد سبباً آخر لموت ابن الطفيل، هو أن أبا براء ملاعب الأسنة الذي أجار مسلمي بئر معونة قد رأى في قتل ابن الطفيل لهم تعدياً على إجارته، فطعن ابن الطفيل وهو على فرسه، فسقط ابن الطفيل ليموت وهو يقول: «إن مت فدمي لعمي»^(١٥).

ومع بقظة سليم وتحفز عامر، ومع ضرورة اتخاذ موقف ردع سريع برزت سياسة الاغتيال مرة أخرى، لتنتقم لشهداء المسلمين، فيرسل النبي يستدعي عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أسلم بن حريش، ليوجههما وجهة أخرى لقطف رأس كبير بأمره القائل: «أخرجنا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب، فإن أصبتم منه غرة فاقتلاه». ويحكي ابن الضمري فيقول: «فأتينا مكة فطفنا أسبوعاً وصلينا ركعتين فلما خرجت لقيني معاوية بن أبي سفيان فعرفني»^(١٦)، فصرخ بأعلى صوته: هذا عمرو بن أمية.. فقاموا في طلبى وطلب صاحبي، فقلت له النجاء، هذا والله الذي كنت أحذر، أما الرجل فلا سبيل إليه فأنج بنفسك، فخرجنا نشدد حتى أصعدنا في الجبل، فدخلنا في غار فبتنا فيه ليلتنا وأعجزناهم هرباً، فرجعوا وقد استترت دونهم بأحجار»^(١٧).

ويمكن ابن الضمري من الوصول إلى منطقة أبعد، عند غليل ضجنان، فيدخل غاراً يبيت فيه ويحكي: «فبينما أنا فيه إذ دخل على رجل من بنى الدليل بن بكر، أعور، طويل، يسوق غنماً له،

(١٣) نفسه: ص ٧٥.

(١٤) الموضوع نفسه، انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٢.

(١٥) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٢.

(١٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٢.

(١٧) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١.

فقال: من الرجل؟ فقلت رجل من بنى بكر، قال: وأنا من بنى بكر،.. ثم اضطجع معي فيه، فرفع عقيرته يتغنّى ويقول:

ولست بمسلم مادمت حيا ولست أدين دين المسلمين

فقلت: «سوف نعلم، فلم يلبث الأعرابي أن نام وغط، فقممت إليه فقتلته أسوأ قتلة قتلها أحد أهدأ، قمت إليه فجعلت سية قوسي في عينه الصحيحة ثم تحاملت عليها حتى أخرجتها من قفاه»^(١٨). ويتابع روايته «ثم خرجت حتى هبطت فلما أسهلت في الطريق، إذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان الأخبار، فقلت: استأسرا، فأبى أحدهما فرميته فقتلته، فلما رأى الآخر ذلك استأسر، فشددت وثاقه ثم أقبلت به إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - .. وقد ربطت إيهامه بوتر قوسي، فلقد رأيت النبي يضحك، ثم دعا لى بخير»^(١٩).

ومع فشل بعثة ابن الضمرى لقتل سيد مكة، كان لابد من عمل سريع إزاء قبائل سليم التي باتت ساهرة الأجفان تتوقع الثأر الآتى لا محالة، وبالفعل جاءها الغزو فجأة بقيادة النبي نفسه، لكن لتهرب سليم جميعا ويتركوا منازلهم وأنعامهم فيجمع المسلمون أنعامهم ويعودوا بها إلى يثرب فيما عرف بغزوة (قرقرة الكدر)^(٢٠).

وكان من غير الممكن الاستمرار طويلا للإيقاع بالناس وقعة كبرى تعيد للدولة هيبتها، وتعيد العريان إلى سابق انكماشهم، ومن ثم كان لابد من تحديد هدف كبير، وإيجاد سبب مناسب يكون مدخلا إلى ضربة كبرى تعيد إلى المسلمين ثقتهم في أنفسهم، وتلقى الرعب في قلوب الذين كفروا.

(١٨) الموضع نفسه.

(١٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٣.

(٢٠) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٠.

غزوة النضير

«اخرجوا من بلدى فلا تسكنوننى بها.. وقد أجلتكم
عشراً فمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه» .

[رسالة النبى إلى بنى النضير]

مرة أخرى نعود إلى خبر ذلك العهد الغامض والملتبس بكتبتنا الإخبارية، والذي عُقد بين النبى صلى الله عليه وسلم - وبين بنى عامر، ورغم المكيدة التى راح ضحيتها ما بين الخمسين إلى السبعين من خيار المسلمين فى بئر معونة، والتى دبّرت بشكل غير واضح فى مأثورنا، وقاد مذبحه الزعيم العامرى (عامر بن الطفيل)، فإن أمية الضمرى عندما قتل عامريين فى طريق مودته، وجد النبى غير راض عما فعل، بل أعلن أن عليه تأدية الدية فى العامريين القتيلين، أن بينهما عهداً، وهو العهد الذى لم يعلم به الصحابة، وهو ما يوضحه عدم علم ابن الضمرى لذى قتل العامريين .

والأكثر التباساً أن يقول الطبرى: «إن عامر بن الطفيل كتب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إنك قتلت رجلين لهما منك جوار وعهد فأبعث بديتهما» (٢١) .

الأمر هنا غير مقبول إطلاقاً، فعامر بن الطفيل يكيد للمسلمين، ويقتل بمعاونة قبائل سليم

(٢١) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١ .

سبعين مسلماً، ثم يرسل للنبي طالبا الدية لعامريين قتلتهما الضمري ثأراً، ويصبح موقف النبي - صلى الله عليه وسلم - غير مفهوم في إصراره ليس على الانتقام وإنما في أداء الدية لبنى عامر!! كما حدث بغزوته على أهل الرجيع ودار لحيان انتقاماً لسبعة فقط من رجاله في مؤامرة مثيلة، وعليه فما يبدو لنا أن السبب الواضح في الإصرار على دفع الدية للمعتدى، كان إيجاداً لسبب لما هو أعظم وأجل، ألا وهو إجلاء بنى النضير، تلك القبيلة اليهودية الكبرى عن يثرب، وخاصة أن النضير كانوا حلفاء الأوس، وكان المنافقون من الأوس أكثر، وهم من كانوا وراء غليان المدينة بالنفاق بعد هزيمة أحد. خاصة أن كتب الأخبار التي أفاضت في أمر دية بنى عامر، قد توقفت تماماً عن ذكرها بعد غزوة النضير، حتى لا نعلم بعدها هل تم أداء تلك الدية فعلاً أم لا؟ كما لو كان أصحاب السير والأخبار يعلمون بدورهم أن دية بنى عامر إنما كانت المدخل لإعلان الحرب على النضير، لتطهير يثرب، وتقليم أظافر المنافقين بإبعاد حلفائهم الأقوياء، ثم - من جانب آخر - تقوية الروح المعنوية للمسلمين بنصر وغنائم تعوضهم عن هزيمة أحد.

ويتضح دور دية بنى عامر والإصرار عليه فيما أدت إليه من نتائج باهرة، توضحها رواية الطبري عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما ذهب إلى بنى النضير، يستعين بهم في أداء دية العامريين، بما أصبح بينهم وبين الرسول من تحالف في صحيفة المعاقل، فتقول الرواية:

فانطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى قباء، ثم مال إلى بنى النضير مستعيناً بهم في ديتهم، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر وعلى وأسيد بن حضير،.. فلما أتاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستعينهم في دية ذلك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه^(٢٢).

إن أي قارئ كان لابد أن يتوقع من بنى النضير تسويفاً أو مماطلة أو رفضاً، لكن يبدو أن يهود نضير قد قدروا الأمر تقديراً عميقاً، فما زال خروج يهود قينقاع المهين ماثلاً في الأذهان، وهناك صحيفة معاقل تضمن لهم قدراً من السلام لا يرجون غيره، مع مسلسل الاغتيالات الذي نال رجالهم المقدمين، ناهيك عن معرفتهم أن المسلمين قد صاروا مقتدرين مالياً على أداء مثل تلك الديات بعدما حصلوه من مال نتيجة غزوة بدر الكبرى، ومن ثم كانت الحكمة تقتضى إجابة مثالية واضحة، لا تعطى أية فرصة لنقض صحيفة المعاقل ولما يمض عليها من الشهور سوى ستة، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، رغم ما في ذلك من نكاية بعهدهم مع بنى عامر وحلفهم معهم، وهو ما يعلمنا به ابن إسحاق، الذي أكد أن النضير

(٢٢) الموضع نفسه.

مثلاً كانت قبل الهجرة على حلف تأخ مع أوس يثرب، كانت على ذات الحلف مع بنى عامر^(٢٣) ومعنى أن يدفعوا الدية عن مسلمين، أنهم اتخذوا جوارهم وفكوا حلفهم مع العامريين. ويتابع الطبرى روايته فيقول: إن يهود النضير عندما أجابوا النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ما طلب:

قام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه، قاموا في طلبه، فلحقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسأله عنه، فقال: رأيته داخل المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى انتهوا إليه.. فقالوا: يارسول الله، انتظرناك رمضيت، فقال: يهود همت بقتلى وأخبرني الله عز وجل^(٢٤).

أما كيف همت نضير بقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو جالس وسط رجاله، وكيف علم النبي وحده بتلك المؤامرة، فهو ما تخبرنا به رواية ابن إسحاق وهو يقول: «فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج عائداً إلى المدينة»^(٢٥)، وقد أخبرته السماء عبر وسيطها جبريل أن يهود نضير قد خلا بعضهم ببعض فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذا، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جنب جدار من بيوتهم قاعداً، فمن رجل يعطو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه»^(٢٦).

ومن ثم لم يكن هناك سوى رد واحد على خبر السماء الصادق بخيانة بنى نضير الواضحة، وهو الجلاء عن يثرب، وزيادة في النكاية بهم أرسل النبي لهم واحداً من الأوس هو محمد بن مسلمة، يحمل إليهم رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - تنذر وتقول بلا لبس:

اخرجوا من بلدى فلا تساكُنُوننى بها، وقد هممت بما هممت به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رئى بعد ذلك، ضربت عنقه^(٢٧).

لقد كانت نضير تظن عبر تاريخها الطويل أن يثرب بلدها هي، لكن ها هي الرسالة واضحة مفصحة تؤكد أنها قد أصبحت بلد الرسول، وأنه سيدها، وأن عليهم مغادرتها فوراً وخلال أيام

(٢٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.

(٢٤) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١، ٥٥٢.

(٢٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.

(٢٦) الموضع نفسه.

(٢٧) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٤١.

عشرة، أو يكونوا فى خسر، تقطع بعدها منهم الرقاب إن ظلوا قائمين. ويقول البيهقى: أن النضير لما رأت أن محمد بن مسلمة الأوسى يحمل لها تلك الرسالة القاسية، وهو كشخص بحد ذاته يعد رسالة أخرى من النبى لهم بخذلان الأوس لهم، تساءلت عن حلفها مع الأوس وعقدها قائلة لابن مسلمة: «يا محمد؛ ما كنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس، فقال محمد بن مسلمة: تغيرت القلوب»^(٢٨)، أو بنص الطبرى «تغيرت القلوب ومحا الإسلام العهد»^(٢٩).

وهنا يعلمنا ابن سعد عبر طبقاته أن عبد الله بن أبى بن سلول أرسل لهم يقول: «لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة، وحلفائكم من غطفان»، ومن ثم كانت إجابة زعيم النضير، الذى لقبته العرب سيد الحاضر والبادى، حى بن أخطب: «إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك»^(٣٠).

وهو أيضا ما أكدته ابن كثير وهو يروى «فبعث لهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرصونهم على المقام، ويعدونهم بالنصر، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمى حى بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهد»^(٣١).

وهنا تسترسل آيات الوحى تنذر وتوعد وتقول:

«ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب
لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم
والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا
ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون» (١١، ١٢ /
الحشر).

وكان الإنذار واضحا لا يحمل أى لبس، وهو ما كان كفيلا بتراجع المنافقين وحساب مواقفهم بدقة، بحيث لا نرى عند حصار المسلمين للنضير أى تحرك من جانب الأوس، ولا من جانب ابن سلول وأشياعه، أما قريظة فقد فهمت الرسالة، ومن ثم التزمت صحيفة المعاقل وهو ما يقوله ابن سعد فى تقريره:

(٢٨) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٦٠.
(٢٩) الطبرى: تاريخ... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٢.
(٣٠) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٤١.
(٣١) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.

واعترزتهم قريظة فلم تعنهم، وخذلهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان،
فأيسوا من نصرهم^(٣٢).

أما الطبري فقد أفصح عن موقف قريظة في إعلان زعيمها كعب بن أسد:
لا ينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حي^(٣٣).

ويحكى أن سلام بن مشكم قال لرفيقه حيي بن أخطب: «يا حيي أقبل هذا الذي قال محمد،
وإنما شرفنا على قومنا بأموالنا، قبل أن تقبل ما هو شر منه، قال: وما هو شر منه؟ قال: أخذ
الأموال، وسبى الذرية، وقتل المقاتلة، فأبى حيي، وأرسل حيي إلى رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - إنا لا نريم دارنا فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكبر
المسلمون معه وقال: حاربت يهود،؟^(٣٤).

ويقول ابن كثير أن النصير لما «ناذبوه بنقض العهود، عند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم..
فحاصروهم ست ليال..^(٣٥)، لكن يهود لم تستسلم، وهنا أمر النبي بهدم مساكنهم المنتشرة حول
حصونهم، كما أمر بالماول وتقطيع النخل والأشجار وحرق المزروعات، فنادوه:

يا محمد؛ قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال
تقطيع النخل وتحريقها؟^(٣٦)

ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون؟^(٣٧).

وقال الحلبي في سيرته:

لما قطعت العجوة، شق النساء الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل.
وعند ذلك نادوه.. يا أبا القاسم.. ما هذا الفساد؟.. يا محمد زعمت أنك تريد
الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل
عليك الفساد في الأرض؟ وقالوا للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد وأنتم
تفسدون؟^(٣٨).

(٣٢) الموضع نفسه.

(٣٣) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٣.

(٣٤) الموضع نفسه.

(٣٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.

(٣٦) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٢.

(٣٧) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٨٢.

(٣٨) الحلبي: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٤.

قال السهيلي في شروحه:

فوقع في نفوس المسلمين شيء من هذا الكلام^(٣٩).

هنا لم يكن الأمر مسألة مبادئ توجه إليها الانتقادات والملاحظات، أو أفكار تعاب، فالمعركة يجب أن تحسم، ولن تحسمها سوى القوة العسكرية لا الأخلاقيات التي قعدها قوم مزارعون وضعوا لها الأعراف لحماية زروعهم، وعليه فقد جاء الرد وحيا يرفع الملامة عن النبي وصحبه، يؤكد ألا ملامة في قطع الزرع وحرق النخيل، فكله بأمر الله وحده وإرادته، ليقول الآي الكريم «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين» (٥/ الحشر).

واستمر الحصار يوما وراء آخر حتى بلغ خمسة عشر يوما، وهنا «صالحوه على أن يحقن دماءهم وله الأموال والحلقة»^(٤٠). ولهم ما حملت الإبل، ووافق النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - لكن حتى لا تحمل الإبل متاعا، فقد أعطى لكل ثلاثة أفراد بعيراً واحداً يركبون عليه ويحملون عليه ما يمكن حمله.

وجاء وقت توزيع الغنائم، وفي ذلك يقول الحلبي «كان نخل بنى النضير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة، أعطاه الله تعالى إياه.. وأكثر الروايات، أن أموال بنى النضير أي مواشيهم كالخيل ومزارعهم وعقارهم، حق لرسول الله خاصة له.. حبساً لنوائبه، وكان ينفق على أهله منها، وكانت صدقاته منها»^(٤١). وفي الحديث عن عمر بن الخطاب أنه قال: «إن أموال بنى النضير كانت مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالصة»^(٤٢). وهو ما جاءت بشأنه الآيات لتحسم أمره، حيث أوضحت أن المسلمين لم يبدلوا في سبيله ولم يحاربوا من أجله، ومن ثم فهو أمر قد حدث بتفاوض بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين بنى النضير، لذلك فهو من حق النبي وحده، حين تقول الآيات «وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب» (٦/ الحشر)، أما ما حدث لنضير فهو بأمر الله، حيث تؤكد الآيات «ولكن الله يسلط رسوله على من يشاء والله على كل شيء قدير» (٦/ الحشر).

وخرجت النضير من ديارها ذليلة مهانة، يقودها حبي بن أخطب الذي عرفت له العرب فضل السيادة والشرف فلقبته سيد الحاضر والبادي، واتخذ المرتحلون طريق الشمال، لكن لينزل

(٣٩) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٤٠) نفسه: ص ٥٥٣.

(٤١) الحلبي: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٧، ٥٦٨.

(٤٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر، ومسلم في ٣٢ من كتاب المغازي ١٥، باب حكم الفيء، الحديث ٤.

بعض سادة النصير على يهود خيبر مثل سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحيى بن أخطب مع جمهور من يهود النصير، بينما يستمر باقى الركب يقطع الفيافى باتجاه أرض الميعاد ليستقر هناك فى فلسطين .

أما الآيات الكريمة فكانت تختتم الحدث، يتردد صداها بين فيافى الجزيرة ويسرى مع الرياح يسمع مضارب القبائل فى كل مكان، ورجع الصدى منه يرجف قلوب العرب ويصك أسماعهم، حيث تقول:

«سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب» (١ : ٤ / الحشر) .

تأديب العربان

«فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة
فإنك من غر الرجال الصعالك» .

[حسان بن ثابت]

كان خروج النصير وسادتها من أشراف العرب وسراتهم بهذا الشكل المزرى، وانتهيارهم أمام المسلمين رغم حصونهم التي كانت فى نظر العرب معازل كبرى، عاملاً عظيماً الأثر فى بث الرعب فى قلوب العربان الذين لا يملكون حصونا ولا صياصى . ورجعت الأصداء أخبار ذلك النصر المبين، فكانت حكاية العربان الراجفة المزلزلة، عن تلك القبيلة التى استقرت فى يثرب قروناً، وكونت لنفسها بين العرب جليل المكانة، ليطيح بها السيف المحمدى خارج حدود جزيرة العرب جميعاً، وكان طبيعياً أن ترجف هذيل وتسفى رياح الحدث بأعصاب رجالها وتشتت أمنهم، فتأثر أصحاب الرجيع لم يزل قائماً، وكان تأديب فخذها اللحيانى أمراً آتياً لا محالة، لكن لحيان الهذلية كانت قد وعت درس أصحاب (بئر معونة)، الذين هربوا ما أن حذروا بمقدم جند الله وتركوا الديار وفروا فراراً غير كريم، ومن ثم باتت لحيان ساهرة الأجفان تتشمم الأخبار، بينما كان النبى يلج برجاله عليهم، لكن ليسلك طريقاً غير الطريق المضروب لدار لحيان، ليسقط عليها فجأة ويأخذ منها غرة، فسلك برجاله طريقاً طويلاً وعثاً وعراً نحو الشام، حتى يرى العرب أنه يريد أمراً بعيداً، لكن ليلتف بجيشه الثقافة كبرى لم تغب عن عيون لحيان المرعوبة، فتركت له

الديار ليصلها فيجدها فراغاً، وأصحابها قد صعدوا رؤوس الجبال وتمنعوا بوعورة بيئتهم، وأخذوا معهم أموالهم وأنعامهم في مواضع الأمان، وهنا اتخذ القائد خطاً آخر ليستدير على مواضعهم المنيعه من طريق عسفان، ذلك الطريق شديد الوعورة قرب مكة، مما كبد النبي وجيشه مشقة ووعناء شديديتين. لكن مكة ظنته قادماً إليها، فخرج إليه خالد بن الوليد على رأس مائتي فارس، وهو أمر لم يستعد له المسلمون، وكانت مواجهته تحتمل هزيمة يقينية، مما اضطر جيش المسلمين إلى إلغاء الحملة التأديبية الثأرية على لحيان الهذلية، بعد كل ما تكبده جيش المسلمين من مشاق، مع الانسحاب الهادئ والمحسوب تجاه يثرب دون إثارة ابن الوليد وجنده، بعد التفاف واسع آخر، والعودة بلا أى مخيم وبدون تحقيق أى هدف للحملة، وهو ما ترك أثره فيما رده النبي العائد برجاله وهو يقول دون أن يظفر بشيء:

أعوذ بالله من وعاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال^(٤٣).

ولم تنقض أيام يثرب على الجند المكدود، حتى صدع الناس بأمر نبيهم للخروج على غطفان، التي كانت حليفاً للنضير، والتي وعدت بإمدادهم وتراجعت، لكن معنى ذلك أنها ركبت مركب العداء لحكومة يثرب ولصاحب الدعوة، ومن ثم كان من الضروري إرهابها وتقليم أظافرها بغزوة تأديبية، هي الغزوة المعروفة (بذات الرقاع)، التي أراد بها النبي بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان، لكن غطفان علمت بمسيره فجمعت حشودها واستعدت استعداداً عسكرياً متميزاً لملاقاة الجيوش ووصل المسلمون ليجدوا أنهم قد فقدوا عنصر المفاجأة، ويروا أمامهم جيشاً مستعداً متجهزاً. ليرى لنا الطبري ما حدث في قوله: «الناس ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمسلمين صلاة الخوف، ثم انصرف بالمسلمين»^(٤٤).

ومع الحملات الفاشلة على التوالى، كان لابد أن يجد رواتنا عاقابهم الله ما يسدون به الفراغ بين الانتصارات، فالتجأوا كعادتهم إلى حديث المعجزات ففي غزوة ذات الرقاع، يروى لنا الإمام النووي رواية عجيبة تقول «وفي هذه الغزوة جاءته - أى إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - امرأة بابن لها، فقالت: يا رسول الله هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان، ففتح فاه فبزق فيه وقال: اخساً عدو الله، أنا رسول الله، ثم قال - صلى الله عليه وسلم -: شأنك بابنك، لن يعود إليه شيء مما كان يصيبه، فكان ذلك»^(٤٥).

(٤٣) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٩٨.

(٤٤) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٦.

(٤٥) الحلبي: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧٦.

وفى تلك الغزوة التى لم تحقق شيئاً، نجد حديثاً آخر يملأ الفراغ بالمسليات من معجزات، حيث لا ملائكة، ولا دور عسكري يقوم به جبريل، فتقول إحدى الروايات أن المسلمين عانوا من الجوع إزاء ذلك الالتفاف الطويل، فنفتت ميرتهم من الطعام، فعثروا على ثلاث بيضات نعام، فقال النبى للصحابى جابر: «دونك يا جابر فاعمل هذه البيضات، قال جابر: فعملتهن ثم جئت بهن فى قصعة، فجعلنا نطلب خبزاً فما نجد، فجعل النبى وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز، حتى انتهى كل إلى حاجته، أى إلى الشبع، والبيض فى القصعة كما هو» (٤٦).

ويبدو أن تلك الغزوة التى خاف فيها النبى والمسلمون القتال، حتى صلوا صلاة الخوف، كانت مدعاة لكثير من حديث المعجزات، لملء فراغ كان يجب أن يملأه جند السماء، وهى معجزات شبيهة بالمعجزات اليسوعية، فطرد الشيطان من الأجساد، وإطعام الجمع الغفير فى القفر بالقليل من الطعام، معجزات معلومة للمسيح، فيسرع قد سبق وأخرج الشيطان من جسد ابن المرأة الكنعانية، كما أطعم جمعا غفيراً برغيف وسمكتين بعد أن باركها، وبقيت فضلات تملأ أجولة، ثم تأتى هنا معجزة شبيهة بالمعجزات السليمانية، يتحول فيها النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى قدرة التحادث مع الحيوانات، وهو ما ورد فى قصة البعير الذى جاء وحدث النبى بشكواه فأنصفه (٤٧).

ومن خبر ذات الرقاع تنقلنا كتب السير إلى غزوة بدر الآخرة، حيث كان أبو سفيان قد تنادى بالمسلمين المختبئين فوق الصخرة فى غزوة أحد قائلاً: يوماً بيوم بدر، وإن بدرأ موعداً العام المقبل، وقد حان موعد اللقاء المضروب، بمرور عام كامل على وقعة أحد.

ويحكى لنا ابن هشام خبر غزوة بدر الآخرة بقوله: «ثم خرج فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان، حتى نزل، واستعمل على المدينة عبد الله بن أبى بن سلول.. فأقام عليه ثمانى ليال ينتظر أباً سفيان» (٤٨)، لكن أباً سفيان لم يأت لموعده بعدما علم بخروج المسلمين مستعدين إلى سوق بدر، حيث نزلوا مسلحين بالعتاد والتجارة، متجهزين لكلا الأمرين، ولما كانت بدر سوقاً للأعراب، يطلب فيها التجار الأمن والأمان، فقد جاء مخشى بن عمرو الضمرى إلى النبى، وكان قد كتب عهد مواعدة مع النبى عندما غزاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غزوة ودان، ليسأل النبى - صلى الله عليه وسلم -:

يا محمد! أجنث للقاء قريش على هذا الماء؟

(٤٦) نفسه: ص ٥٧٧.

(٤٧) نفسه: ص ٥٧٨.

(٤٨) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤٨.

لقد جاء الرجل يتساءل، وماء بدر في حمي بنى ضمرة، لا يريدون عليه حرباً، ويطلبون له الأمان والسلام للرواج التجارى، لكن ليجيبه النبى بالقول القاطع والحاسم:

نعم يا أخا بنى ضمرة، وإن شئت رددنا إليك ما كان بيننا وبينك،
وجاللدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك.

لكن ليجيبه الرجل من فوره:

لا والله يا محمد، مالنا بذلك من حاجة! (٤٩).

ويخبرنا الواقدي أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد خرج إلى بدر الآخرة فى ألف وخمسمائة من الجند المسلحين، وأقام على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده مدة الموسم وهى ثمانية أيام، والسوق قائمة، والمسلمون يتاجرون وهم يحملون السلاح، فكان لا ينازعهم فى السوق منازع، فريحوا عن الدرهم درهمين (٥٠) ليعقب الوحى الكريم على الحدث بقوله:

«فانقلبوا بنعمة من الله وفضل نم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم» (١٧٤/ آل عمران).

وهكذا أسفر أمر بدر الآخرة عن إعلان لجميع العربان بجبن أهل الله المكيين عن الخروج لملاقاة جند الله اليثريين، جبن قريش وتراجعت وأخذت تخسر أسواقها، بعد أن خسرت طريق الشام المار بالمدينة، وانهارت سمعتها بين الأعراب، وزيادة فى تمريغ تلك السمعة وإظهار هوان قريش، أرسل كعب بن مالك رسالة شعرية - يردددها العربان - لأبى سفيان، تعيره هو وقريش وتقول:

وعدنا أبا سفيان بدرأ فلم نجد	لميعاده صدقا وما كان واقيا
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا	لأبت ذميما وافقت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه	عمرا أبا جهل تركناه ثاويا

أما حسان بن ثابت الذى يجبن عند الحرب، ويرسل لسانه سليطا عند الحاجة، فقد أرسل برقية تقول:

فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة فإنك من غر الرجال الصعالك (٥١)

وهو الأمر الذى آذى قريشا، حتى جاء صفوان بن أمية إلى أبى سفيان لاثما يقول: «قد والله

(٤٩) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٩.

(٥٠) نفسه: ص ٩١، انظر أيضاً الحلبى: السيرة... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٠.

(٥١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤٩.

نهيتك يومئذ أن تعد القوم، وقد اجتروا علينا، ورأوا أننا أخلفناهم، وإنما أخلفنا الضعف،^(٥٢).

هذا ما كان عليه حال قريش، أما حال يثرب فلم يكن مرضياً لأهلها، فالحملات تفشل، والعربان تتطاول، والدولة بحاجة دائمة إلى أعمال كبرى تعلن دوماً عن حجم القوة الإسلامية، وهنا يحكى لنا ابن كثير أنه قد بلغ النبي أن الدنو من أبواب الشام، أمر سيفزح قيصر الروم فزعا شديداً، وكان الخبر هاماً، فليس هناك رسالة للعربان أفصح ولا أقوى من فزع عظيم الروم ذاته.

وإعمالاً للخبر، «ندب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس، فخرجوا في ألف من المسلمين، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل من بنى عذرة، فلما دنا من دومة الجندل، أخبره دليله بسوائم بنى تميم، فسار حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل، فتفرقوا، فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بساحتهم، فلم يجد فيها أحداً، فأقام فيها أياماً، وبث السرايا، ثم رجعوا وأخذ محمد بن مسلمة رجلاً منهم فأتى به رسول الله، فسأله عن أصحابه، فقال: هربوا أمس،^(٥٣).

هكذا وصلت أخبار الجيش الحمدي، وهكذا كان أهل الحدود البيزنطية يسمعون بما يحدث في باطن الجزيرة، لهذا كان تصرفهم عندما سمعوا بمقدمه عليهم، وكانت إجابة أكيدر حاكم دومة الجندل على غزوة النبي بعد عودته إلى يثرب، فهي أن أرسل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بجبة من ديباج منسوج فيها الذهب،^(٥٤).

وفي طريق العودة من دومة الجندل، رأى النبي أن يمر بمضارب فزارة وهو في استعداداته العسكرية هذا، ولم يجد عيينة بن حصن الفزاري سيد فزارة، سوى مودعة سيد يثرب، وكانت مودعة عيينة مكسباً لو صدق، حيث كان بإمكانه أن يجمع عشرة آلاف فتى من المحاربين عند الحاجة، ومن هنا منحه النبي عهداً يرعى بموجبه سوائمه في تغلمين عن قرب من يثرب، حيث أجذبت أراضي عيينة، ومر المسلمون بسلام عائددين إلى المدينة^(٥٥). ولم تمض أسابيع حتى كان عيينة يدعو على سوائم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقتل رعايته ويعود إلى أرضه بما غنم من أموال النبي - صلى الله عليه وسلم -.

هذا بينما كانت قريش في أمر آخر، تحسب حساباتها، وتراجع أمر تجارتها، وما شاع بين العربان عن جبنها.

(٥٢) الحلبي: سيرة... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨١.

(٥٣) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٣، انظر أيضاً البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٨٩، ٣٩٠.

(٥٤) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٣١.

(٥٥) الطبري: تاريخ... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٤، انظر أيضاً الحلبي: سيرة... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٢.

غزوة الخندق

«كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر،
وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط» .

[معتب بن قشير الأنصاري]

خطوات سريعة، تلك التي اتخذها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أجل تطهير المدينة وخلصها للمسلمين، ثم بها تصفية كثير من المعارضين من المنافقين والمشركين واليهود، وقبلها كان قد تم طرد يهود قينقاع، ومن بعد أحد تم عقد المعادل - فيما ذهبنا إليه من اجتهاد افتراضى - لكن النبي كان يعلم يقينا، أن وجود يهود بكتاب مقدس، ومأثور تاريخي، وسلسلة من النبوات قفت بعضها بعضا، يعنى وجود منكر دائم لنبوته، وداخل مدينته، وفي عقر دار دولته الصغيرة، ومن ثم كانت تلك الخطوات المتسارعة لتطهير يثرب، بطرد بنى النضير، وسيدهم حى بن أخطب ذلك الشريف السيد الداهية، الذى ما خرج من يثرب إلى خيبر، حتى أخذ سادة النضير وأشرافهم، سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وانحدر بهم إلى مكة، ليدرك ثأره من محمد.

وكانت سرايا المسلمين وغزوات النبي، قد أرهقت قريشا وقطعت سبيلهم إلى الشام، ثم جاءت سلسلة سرايا الاغتيال، التى ألقت نتائجها موادعات وتحالفات للقبائل الضاربة على الطريق

التجارى، مع محمد ورجاله، مما قطع إيلافهم مع قريش، ووصل الأمر بقريش إلى الجبن عن ملاقاته محمد على ماء بدر فى بدر الآخرة، رغم أن أبا سفيان صاحب اللواء القرشى، كان صاحب الموعد التهديدى فى أحد، ومن ثم استجابت قريش من فورها لسعاية يهود نضير، الذين أخذوا على عاتقهم إقامة حلف عظيم بين العرب مع قريش، لضرب العصبة المؤمنة فى يثرب، ضربة قاتلة ونهائية.

وهكذا أسفرت دية بنى عامر عن طرد يهود النضير، لكنها أفرزت أيضا أول جمع عظيم لجند قريش، مع أحابيشها المتحمسين فى الدين، المعظمين للكعبة والأشهر الحرم، وكانوا يرون محمداً قد خرق تلك التحريمات فجاءت عليه الحرب، ثم فرسان كنانة وأهل تهامة وأشباس غطفان وأشداء نجد، وكان هؤلاء بدورهم قد وتروا فى زعامتهم المغلوطة، ولم ينس الغطفانيون من بنى فزارة، مقتلة عقيلتهم الشريفة أم قرفة، التي مزقها زيد بن حارثة فى غزوة مفاجئة أخذتهم على غرة. لكن غطفان لم تكن ذات مصلحة مباشرة مادية فى تلك الحرب الشاملة، ولأن اليهود قد أدركوا ذلك، فقد تعاقدوا مع الطماع الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري على اتفاق يحصل بموجبه عيينة على تمر خير لمدة عام كامل، فوافق من فوره^(٥٦).

وتحرك الجيش العظيم، الذى يربو على عشرة آلاف من المقاتلين الأشداء، بين فيافي الحجاز ميمما شطر يثرب، ليكون أول جيش يجمعه العرب بهذا الحجم تعرفه جزيرة العرب تحت قيادة واحدة، وتحت رايات قريش، لينزل الجمع الهائل بمجمع الأسيال من رومة بين الجرف والغابة، قرب جبل أحد، مركز الانتصار الأول لقريش، ولم تكن المعركة هذه المرة بغرض الانتقام فقط، إنما بغرض التصفية النهائية، وهو الأمر الذى بلغ يثرب فقامت من فورها بالتعبئة القصوى، لكن لتصل تعبئتها فقط إلى ثلاثة آلاف رجل، إزاء جيش جرار من المحاربين.. ووقع فى أيدي المسلمين!!

ويوجز لنا ابن هشام قصة تحزيب الأحزاب فى قوله:

كانت غزوة الخندق فى شوال سنة خمس.. كان من حديث الخندق أن نفرأ من اليهود، منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى، وحيى بن أخطب النضرى، وهوذة بن قيس الوائلى، وأبو عمار الوائلى، فى نفر من النضير ونفر من بنى وائل، هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى قدموا على قريش مكة، فدعوههم إلى حرب رسول الله -

(٥٦) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩، ج ١، ص ٣٤٣.

صلى الله عليه وسلم - وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعاهم إلى حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ابن إسحاق: فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بنى فزارة، والحارث بن عوف.. في بنى مرة، ومسعر بن ربيعة فيمن تابعه من قومه من أشجع^(٥٧).

ويستكمل الطبري:

فلما سمع بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضرب الخندق حول المدينة.. وكان الذي أشار على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالخندق سلمان الفارسي، وقال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا^(٥٨).

ومعلوم أن الخندق أمر لم تعرفه العرب قبلا، ووافق الرسول من فوره على الخندق الفارسي واستحسنه، ووجد فيه خلاصا مفاجئا، وفكرة لماعة لإيقاف الهدير الآتي، ومن ثم كانت مكافأة صاحب الفكرة المنفذة في قول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -: «سلمان منا آل البيت»، حيث جاء الخندق ليكون إنقاذا حقيقيا لموقف ميثوس منه، وكان القائد النبيل سيد الخلق أجمعين، قد استفاد من درس أحد وأخطائها، ومشورة عبد الله بن أبي بن سلول، التي كان قد أهملها زمانها وسط حمية رجاله وحماسهم للخروج من يثرب إلى أحد. وأدرك القائد أنه إزاء حشد لن يعود إلا بعد إسقاط دولته، والقضاء عليه وعلى رجاله، ومن ثم كان الخندق إنقاذاً للموقف على عدة مستويات:

الأول: أن حلف الأحزاب قد قام بغرض خوض معركة خاطفة حاسمة تنهى دولة الرسول في يثرب وتسقطها، اعتمادا على حشده لقوى بشرية عظيمة، بينما اتجهت خطة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى تحصين المدينة بالخندق لإفقاد الحلف مزية المعركة السريعة الحاسمة، وإجباره على المكوث في البرد القارس، وهو ما كان كفيلا بفقد الأحزاب لزخم القتال، وما قد يطرأ من نتائج وخيمة مع طول الانتظار، خاصة مع ما يحمله هذا الحلف من تناقضات بين المتحالفين، وبذلك أفقد الخندق المهاجمين عوامل انتصارهم، وأطاح بالتفوق العددي.

ثانيا: كان الخندق تأمينا عسكريا لم يسبق للعرب معرفته، حيث يضمن أكبر قدر من الأمان

(٥٧) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٥٨) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٦.

لمن هم فى داخل يثرب، لديهم الغذاء والميرة، بينما يترك المهاجمين فى العراء مع ما جمعوا من ميرة - مهما كان حجمها - فهو حجم ما أمكن للدواب حمله، وهو آيل إلى نفاد إن طال الحصار دون اختراق الخندق.

ثالثا: أن الخندق قدم حلا مثاليا لمشكلة كبرى وهو ما أوضحه عبدالهادى عبدالرحمن، فضمن عدم وقوف المسلمين وحدهم لملاقاة الأحزاب، إنما ضمن بقاء بقية سكان يثرب من غير المسلمين بالداخل، وهو الضمان الذى جعل من لم يسلموا بعد، والمنافقين فى محنة كبرى، ففى العراء يمكن للمنافقين ألا يحاربوا، بل أن يجدوا فرصة وغرة من المسلمين وقت هياج المعركة واختلاط الحابل بالنابل، أما وهم بالداخل، وإزاء جيش سيضطر إلى العبور إن استطاع ليستأصل الجميع دون تفرقة، فهو ما يعنى أن يثرب أصبحت تتعرض لغزو حقيقى، ودخول الغزاة على أهلها، وهو ما يعنى أيضا أن كل فرد بالمدينة قد انخرط راغبا أم غير راغب فى جيش الدفاع عن بلده، وسواء، كان مسلما أم لا. لقد حول الخندق أمر المدينة إلى وطن، وأجج الشعور الوطنى، فكل رجل زوجة وأطفال ومال وبيت وحقل يدافع عنهم. لقد جعل الخندق من المعركة غزوا للوطن ودفاعا وطنيا، ومن ثم سيحارب الرجال والبيوت وسيحارب الشجر والحجر، وستحارب النساء بل وربما الأطفال، سيحارب المشرك والمنافق. إن الخندق كان دعوة لقريش وأحزابها لغزو حرمة بلد وبيت ودار، فحول المدينة جميعا إلى رجل واحد، وحول معادلة الثلاثة آلاف جندي إزاء العشرة آلاف إلى معادلة أخرى، إلى شعب يدافع عن وطنه ضد غزاة، شعب تكتل جميعه مع دروب بلده وحوائطها وزرعها وسوائها، إزاء جيش وإن كان عظيما فهو يفتش العراء، بعيدا عن دياره، يأكل ميرته لتتقص كل يوم، ليس بينهم ألفة، فهم أحزاب لا أهل بلد واحد، يأكلون بعضهم بعضا بتضارب المصالح بينهم، إنه الأمر الذى لا محالة يستدعى الآن ويقوة نصيحة عبد الله بن أبى بن سلول وهو يقول للنبي فى أحد:

يا رسول الله؛ أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا^(٥٩).

وهكذا؛ ما إن بلغ سيد المدينة - صلى الله عليه وسلم - أمر مسير يهود بين العرب لتحزيبهم حتى ضرب الخندق الفارسي، لأول مرة فى جزيرة العرب، ثم نرى هذا السيد، النبي، الرسول،

(٥٩) السهيلي: الروض الأنف... سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٩.

القائد، فى مرآة قادة التاريخ، وهو يقف نموذجاً بين رجاله، يحمل أثرية الخندق، ويضرب بفأسه مع رجاله كتفا بكتف ويداً بيد.

ولم تتوان قريظة عن الوفاء بمعاقبتها مع النبى، فأمدت جيشه بآلات عظيمة للحفر ونقل الأثرية، وهو ما قررته كتبنا الإخبارية وهى تمر على الخبر سريعة دون توقف، فى برقية موجزة مقتضبة تقول: «استعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة، ومساحى وكرازين ومكاتل»^(٦٠).

ونستمع هنيهة للصحابى البراء وهو يروى نتفا من أيام حفر الخندق فيقول:

لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخندق، رأيته ينقل التراب من الخندق، حتى وارى عنى التراب جلد بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعت يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة وهو ينقل التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا، ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يمد صوته بآخرها .. أبينا، أبينا»^(٦١).

ويستكمل ابن إسحاق قصة الخندق فيقول:

ولما فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسياال من رومة، بين الجرف وذى غابة، فى عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذى نقيم إلى جانب أحد، وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب عسكره هنالك، والخندق بينه وبين القوم .. حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا:

(٦٠) الحلبى: سيرة .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٣٢.

(٦١) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٨.

والله؛ إن هذه لمكيدة.
ما كانت لتكيدها العرب^(٦٢).

هنا وجدت قريش وأحزابها إزاء تكتيك عسكري جديد لم تكن تعرفه العرب، ووقع في أيديها، ومن ثم أرسل سيد الأحزاب إلى سيد المدينة يستغفر فيه القتالية العربية، ليخرج إليه من وراء الخندق قائلاً فيما كتب:

باسمك اللهم؛

فإني أحلف باللات والعزى، وأسأف ونائلة، وهبل، لقد سرت إليك في جمع وأنا أريد ألا أعود أبداً حتى أستأصلكم، فرأيته قد كرهت لقاءنا، واعتصمت بالخندق، قد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب لتعرفها، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا، ولك منى يوم كيوم أحد.

فكان رد سيد الخلق على سيد مكة بقوله - صلى الله عليه وسلم -:

بسم الله الرحمن الرحيم
أما بعد،

من محمد رسول الله، إلى صخر بن حرب، قد أتاني كتابك، وقديما غرك بالله الغرور، أما ذكرت أنك سرت إلينا، وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا؟

فذلك أمر يحول الله بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأسأف ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك يأسفیه بنی غالب^(٦٣).

معجزات الخندق:

ثلاثة آلاف كبير وصغير وشاب وحدث، هي أقصى إمكانات التعبئة العسكرية، التي تمكنت

(٦٢) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١، ٢٦٣.

(٦٣) الحلبي: سيرة... سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٥٧.

يثرّب من حشدها، إزاء عشرة آلاف مقاتل يحاصرون مدينتهم، وليس هناك خبر عن إمداد سماوى، ولم يأت جبريل وجنده، ومن ثم وقف الرواة مع الحديث البديل عن التعبئة السماوية، مع تفاصيل بها عبر ووعود، وهى التفاصيل التى يمكن من خلال بعض الثغرات فيها المرور إلى حديث الأحاجى والمعجزات، ومنها رواية ابن إسحاق التى تقول:

حدثت عن سلمان الفارسي: أنه قال: ضربت فى ناحية من الخندق، فغلظت على صخرة، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريب منى، فلما رأى أضرب، ورأى شدة المكان على، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب ضربة، فلمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به ثالثة فلمعت تحته برقة أخرى، قلت: بأبى أنت وأمى يارسول الله، ما هذا الذى رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟

قلت: نعم.

قال: أما الأولى فإن الله قد فتح على بها اليمن، أما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب وأما الثالثة، فإن الله فتح على بها المشرق^(٦٤).

حتى الآن والأمر واضح ليس فيه ألغاز، وطبيعى تماما، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يضرب الصخرة الغليظة بالمعول الحديدى فتقذح شرراً، فيتساءل سلمان، ويرد الرسول بالحكمة النبوية عن فتوحات قادمة، فى وقت يحتاج فيه الجند إلى تقوية الروح المعنوية، وهم فى أسوأ حال، وقد أخذ الرعب بهم، مع ذلك الحصار الهائل الذى تكتل فيه العرب كتلة رجل واحد ضدهم، وهو الرد الحكيم الكفيل بطمأننة النفوس الجازعة. فالدلالة فيه أن كل ذلك الذى يحدث زوبعة طارئة منتهية، ليس ذلك فقط، بل إن الجزيرة جميعاً ستكون ملك أمر المؤمنين، وبعدها الفتوح الكبرى لأقطار الأرض جميعاً، ولكن ذلك الحديث الذى قصد منه النبى بحكمته إذهاب الغم عن المؤمنين والكرب، تلقفته مع ذلك البرق اللامع روايات تذهب به مع الزيادات التدريجية إلى دائرة الأساطير، وتتحوّل آمال النبوة المقبلة مع تلك الروايات إلى تجليات كبرى انفلت معها الشرر ليصبح ضوءاً مبهرأ معلنا وجود قدرات كبرى إلى جوار النبى ورجاله، حيث يروى النسائى ذات الرواية لكن مع بعض الإضافات فيقول:

(٦٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهلى... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٢.

فندر ثلث الحجر، وسلمان الفارسي قائم ينظر، فبرق مع ضربة رسول الله برقة، ثم ضرب الثانية وقال: وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلمات الله، وهو السميع العليم، فندر الثلث الآخر وبرقت برقة، فرآها سلمان، ثم ضرب الثالثة وقال: وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلمات الله وهو السميع العليم، فندر الثلث الباقي، وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذ رداءه وجلس، فقال سلمان: يا رسول الله رأيتك حين ضربت، لا تضرب ضربة إلا معها برقة، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: أرى والذي بعثك بالحق، قال: فإنني حين ضربت الضربة الأولى، رفعت لى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة، حتى رأيتها بعيني، قالوا: يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريها ونخرب بأيدينا بلادهم، فدعا بذلك.

قال: ثم ضربت الضربة الثانية، فرفعت لى مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني، قالوا: يا رسول الله ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريهم، ونخرب بأيدينا بلادهم، فدعا.

ثم قال: ثم ضربت الثالثة فرفعت لى مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعيني، ثم قال رسول الله: دعوا الحبشة ما وادعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم (٦٥).

ولا ينتهي حديث الصخرة والبرقات الثلاث إلى هنا، إنما يتزايد ويتضخم، لتتحول الشرارات الثلاث - التي رآها سلمان، لأنه كان بجوار النبي - صلى الله عليه وسلم - والتي استدعت دهشة النبي وهو يسأل سلمان: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ - تتحول إلى برق إعجازي أسطوري يسجل آية عظمى، فيدونها ابن الأثير بعد صياغتها الجديدة، ليس فقط لإبراز المعجزة، إنما أيضا لإبراز قوة النبي الجسدية الهائلة التي صدعت الصخرة فيقول:

فأخذ المعول، وضرب الصخرة ضربة صبدعها، وبرقت منها برقة أضواء ما بين لابتى المدينة فكبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكبر المسلمون، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة كذلك، ثم خرج وقد صدعها، فسأله سلمان عما رأى من البرق، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أضواء الحيرة وقصور كسرى في البرقة الأولى، وأخبرني جبرائيل أن

(٦٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٣.

أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء. وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها^(٦٦).

أما البيهقى، باعتباره صاحب كتاب دلائل النبوة، وجامع تلك الدلائل التى رآها جميعاً إعجازية، فقد وجد فى قصة الصخرة مناسبة طيبة ليقدمها بما يليق بها من دلائل النبوة، ليكرر، ولكن ليفصل القول بقوله:

فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيتها (أى لابتى يثرب)، حتى لكان مصباحاً فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكبيرة فتح، فكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الثانية فصنعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيتها، حتى لكان مصباحاً فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكبيرة فتح وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الثالثة فكسرها، وبرق منها برقة أضاءت ما بين لابتيتها، حتى لكان مصباحاً فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكبر المسلمون.

فقال سلمان: بأبى أنت وأمى يارسول الله، لقد رأيت شيئاً ما رأيته قط، فالتفت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى القوم فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يارسول الله بأبينا أنت وأمنا، قد رأيناك تضرب، فخرج البرق كالمرج، فرأيناك تكبر ولا نرى شيئاً غير ذلك، فقال: صدقتم، ضربت ضربتى الأولى فبرق الذى رأيتم، أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثانية، فبرق الذى رأيتم، أضاء لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل - عليه السلام - أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق منها الذى رأيتم أضاءت منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل - عليه السلام - أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا.

(٦٦) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٩.

ويعقب البيهقي تعقيباً واضح المدلول بقوله: إن الرسول أراد بذلك أن يبلغهم النصر^(٦٧). وقد استدعى حديث تلك الصخرة تداعيات وأخباراً عن صخور أخرى وصياغات أخرى، وهو ما جاء في رواية ابن هشام عن ابن إسحاق، تقول:

وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتنى فيها من الله عبرة في تصديق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون، فكان مما بلغنى، أن جابر بن عبد الله كان يحدث: أنه اشتدت عليهم في بعض الخندق كدية، فشكوها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعوه، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالذي بعثه بالحق نبياً، لانهالت حتى عادت كالكتيب^(٦٨).

وإذا كانت خاتمة حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البيهقي: فأبشروا، مع الإلحاق التوضيحي: «يبلغهم النصر»، كان القصد منها أن يرفع روحهم المعنوية بالاستبشار، بل ويصبح ذلك النصر سهلاً وبسيطاً حين الشأن إذا قورن بما بيته الأيام القادمة للمسلمين من فتوحات لأقطار الدنيا، فإن هناك من الصحابة من كان له رأى آخر، إزاء حصار المدينة، وما أخذ المسلمين من رعب وفرع حتى بلغت القلوب الحناجر، فهذا معتب بن قشير يعقب على حديث الصخرة والفتوح المقبلة ساخراً يقول برواية ابن الأثير:

ألا تعجبون؟

يعدكم الباطل!!

ويخبركم أنه ينظر من يثرب الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا!؟^(٦٩).

أوبرواية ابن هشام:

كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!؟^(٧٠).

(٦٧) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ٤١٩.

(٦٨) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٠.

(٦٩) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٩.

(٧٠) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

ولهذا السبب، ولتلك القولة التي كانت تعبر عن مكنون صدر الرجل إزاء حال واقع بصراحة العريى التي لا تعرف التزويق، وباندفاعه الحر، فقد أدرج أهل الأخبار معتب بن قشير في طائفة المنافقين، لكن ليلاحظ ابن هشام أن ابن قشير لا يمكن احتسابه منافقا، لأنه كان من مقاتلى النصر البدرى الأكبر، وهم من غفر الله لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، وأصبحوا جميعا من أهل الجنة، وفي ذلك يقول: «وأخبرنى من أثق به من أهل العلم، أن معتب بن قشير لم يكن من المنافقين، واحتج بأنه كان من أهل بدر»^(٧١)، ورغم ذلك، فقد جاء الوحي يرد على ابن قشير قائلا: «وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا» (١٢/ الأحزاب).

ومع الحصار، واشتداد الأزمة، يستطيب رجالنا حديث الأحاجى ليستمرثوا الاستمرار فيه، فيروى ابن إسحاق:

وحدثنى سعيد بن مينا أنه حدث أن ابنة بشير بن سعد أخت النعمان بن بشير، قالت: دعتنى أم عمرة بنت راحة فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى، ثم قالت: أى بنية اذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله بن راحة بغذائهما.

قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا ألتمس أبى وخالى، فقال: تعالى يابنية؛ ما هذا معك؟ قالت: قلت: يارسول الله هذا تمر بعثتنى أمى به إلى أبى بشير بن سعد وخالى عبد الله ابن راحة، يتغذيانه، فأمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ فى أهل الخندق أن هلم إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب^(٧٢).

ومع الجوع إبان العمل الدؤوب الذى يسابق الزمن قبل وصول قريش، تتنالى أحاديث الطعام المبارك، فى معجزات تتنالى شبيهة بالمعجزات اليسوعية المعلومة، ومثله رواية أخرى عن ابن إسحاق عن سعيد بن مينا عن جابر بن عبد الله قال:

عملنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الخندق، فكانت عندى

(٧١) الموضع نفسه.

(٧٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٠.

شويهة غير جد سميئة، فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمرت امرأتى فطحنت لنا شيئا من شعير فصنعت لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاه فشويناها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما أمسينا وأراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الانصراف من الخندق، وكنا نعمل فيه نهارنا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا، قلت: يا رسول الله إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا، وصنعنا معها شيئا من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معى إلى منزلى، وإنما أريد أن ينصرف معى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحده.

فلما أن قلت ذلك، قال: نعم، ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بيت جابر بن عبد الله، قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقبل الناس معه، فجلس وأخرجنا إلى بهو، فبارك وسمى ثم أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس، حتى صدر أهل الخندق عنها (٧٣).

وذاات الرواية تروى عن جابر أيضا، لتفسر السروراء زيادة ذلك الطعام القليل ليكفى ألف رجل على الأقل ويفيض عليهم، فتقول:

وجئت امرأتى فقالت: بك وبك.. فأخرجت لنا عجينا فبسق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبسق وبارك، ثم قال: ادع خبازة فلتخبز معك، واقدحى من برمتك، ولا تنزلوها، وهم ألف، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هى، وإن عجيننا كما هو (٧٤).

ورغم كل الأحاجى وروايات المعجزات، فإنك تلمس واقع الحال واضحا، كما جاء فى رواية ابن كثير البتى شريحت كيف عظم البلاء على الناس، واشتد الخوف بالمسلمين، لا تغنيهم فيه برمة تفور أو تمر وشويهة مباركات، حتى ظن المؤمنون كل ظن، وأخذ كثير منهم يتهرب من العمل فى ذلك البرد القارس، مثل أوس بن قيطى الذى جاء للبنى يتحدث نيابة عن قومه: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة، بينما طائفة أخرى تهبط المعنويات وتثبط الهمم وتقول للناس: يا أهل يثرب لا مقام لكم هنا فارجعوا، بينما يسترسل الوحى معقبا على تلك المواقف المتخاذلة ليقول:

(٧٣) الموضع نفسه.

(٧٤) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٠.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾
(١٣/ الأحزاب)

وهو ما يؤكد تقرير الطبري عن فريق آخر، فقد «أبطأ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عملهم رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف من العمل، ويتسللون إلى أهاليهم بغير علم الرسول» (٧٥).

قريظة تنقض العهد:

وحفر أكبر خندق عرفته الجزيرة، ويمتنع به أهل يثرب من هجوم الأحزاب، مع محاولات يائسة لعبوره من قبل المهاجمين، انتهت بفشل ذريع مع التراجع، مما أدخل الطمأنينة بعض الشيء في النفوس الجازعة لحصانة خندقهم، ولم يبق غير الانتظار لنفاد ميرة المهاجمين، ومجادة كل من يحاول اقتحام الخندق.

وقد أثبتت قريظة حتى حفر الخندق، وعيها الدقيق بموقفها الشديد الحساسية، وحتى لا يكون مصيرها مصير قينقاع ونضير، فالتزمت بنود صحيفة المعاقل، وأمدت المسلمين بالمساحي والمكائل والكرازين، من أدوات الحفر اللازمة، وكان الموقف الدقيق يحتاج تحوطاً، فقد أحاط الخندق بالمدينة تماماً، اللهم إلا جبل سلع بالخلف، وكان بذاته مانعاً طبيعياً قوياً، يكفيه بعض الرماة ليصبح حصناً مديعاً لا يمكن اجتيازه، ثم حصن قريظة القوي المتين على حافة المدينة ومواجهة الأحزاب، يطل عليهم مباشرة، وهنا كانت نقطة الضعف التي كان يدركها جميع الأطراف: المسلمون، وقريظة، والأحزاب، فكان يكفي أن تفتح أبواب حصن قريظة، ليمر منها جند الأحزاب إلى داخل يثرب لينتهي الأمر قوياً، وقد وعى المهاجمون ذلك وقرروا اللعب عليه، فتحرك محزب الأحزاب (حيى بن أخطب) زعيم النضير المطرود من يثرب، ليدق أبواب حصن قريظة طالباً لقاء زعيم قريظة (كعب بن أسد). وتدور هنا أقلام كتاب السير والأخبار قصة ما حدث في ذلك الموقف الدقيق بقولها: «وخرج عدو الله حيى بن أخطب حتى أتى كعب ابن أسد القرظي، صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان قد وادع الرسول - صلى الله عليه وسلم - على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده، فلما سمع كعب حيى بن أخطب، أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه ورد عليه في الحوار التالي، كما أوردته كتبنا الإخبارية:

(٧٥) الطبري: تاريخ... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٦.

حيى: ياكعب افتح لى .

كعب: ويحك يا حيى، إنك امرؤ مشنوم، إنى عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بينى وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا .

حيى: ويحك، افتح لى أكلمك .

كعب: ما أنا بفاعل .

حيى: والله إن أغلقت دونى إلا جشيتك أن أكل معك منها .

وهنا، وحيى يستفز كعب، يعيره بمسبة كبرى فى العربان، وينعته بما هو أنكى من البخل وإغلاق الباب دون جائع، يفتح له كعب باب الحصن ليخلق خلفه سريعا، ويستمر الجوار:

حيى: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة، ويغطفان على قادتها وسادتها .. قد عاهدونى وعاهدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه .

كعب: جئتنى والله بذل الدهر، بجهام قد هراق ماءه، يرعد ويبرق وليس فيه شىء . ويحك، دعنى ومحمداً وما أنا عليه، فلم أر من محمد إلا صدقا ووفاء .

وتستمر كتبنا الإخبارية فى الرواية لتقول: «فلم يزل حيى بكعب، يفتله فى الذروة والغارب، حتى سمع له، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً، لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً، أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، ويرى مما كان عليه، فيما بينه وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم-» (٧٦) .

وهكذا تقرر كتب السير أن قريظة قد نقضت العهد، لكنها لا توضح علامات ذلك النقض المحورية، والتي كان يمكن أن تكون قاتلة ونهائية لو فتحت أبواب حصونها، لكنها لم تفعل، ويبدو أن المقصود بالنقض هنا هو تفكير قريظة، وإعمالها ذلك التفكير خلال أيام، ثم فيها علاج الموقف، المتأزم من جانب النبى، قبل أن تسقط قريظة فعلا فى خيانة واضحة .

ويلغ النبى بما له من عيون بما يحدث فى حصون بنى قريظة، ويلغ الأمر كذلك المسلمين المجاهدين المكذوبين الفرعين، وأخذ بهم الخوف والرعب، فطلب النبى سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، وقال لهم: انطلقوا

(٧٦) نفسه: ص ٥٧١ . انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي .. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١، انظر أيضاً ابن الأثير .. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٠ .

حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ ثم أضاف القائد الحصيف وهو يرى معنويات رجاله في التداعي «فإن كان حقا، فالحنا لى لحننا أعرفه، ولا تفتوا فى أعضاء الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس»^(٧٧).

ووصل الوفد حصن قريظة، ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يابنى قريظة، وأنا خائف عليكم مثل بنى النضير أو أمر منه، فقالوا: أكلت يابرأبيك،^(٧٨).

وهكذا بدأ الحوار بخطاب تهديدى، كان رده تحديا بجراح الألفاظ وقبيح الشتائم، وهو يصوره ابن هشام بقوله: «إن رجال وقد النبى خرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، نالوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد بن معاذ، وشاتموه، وكان رجلا فيه حدة، فقال له سعد بن عباد: دع عنك مشاتمهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسلموا عليه وقالوا: عضل والقارة (الرجيع)، أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه».

وفهم النبى اللحن والرمز الهامس، وكان المسلمون ينتظرون إجابة وقد زاغت منهم الأبصار، فما كان من القائد الحكيم إلا أن رد بأنه لا شىء إطلاقا يستدعى كل ذلك الفزع، وأن كل شىء على ما يرام، وهو ما تمثل فى صيحته التهليلية «الله أكبر، أبشروا يامعشر المسلمين»^(٧٩).

وتأزمت الأزمة فعلا، وكان لابد من تحرك سريع وحاسم، قبل أن تقدم قريظة بالفعل على فتح أبوابها للأحزاب، وتستجيب لدافع العصبية والثورة لبني جلدتها نضير وقينقاع، حيث تفيد مصادر أخرى أنهم اشترطوا على السعدين لمواصلة الالتزام بالصحيفة، والاستمرار فى المدد، إعادة بنى النضير للمدينة^(٨٠). ومن ثم بدأت دراسة الموقف مرة أخرى على أناة وهدوء وتدبر، لتصل إلى نتيجة مفادها: أنه إذا كانت نقطة ضعف المدينة هى حصن قريظة، فإن بين الأحزاب نقطة ضعف أخرى هى غطفان الفزارية، أتباع الأحقق المطاع الطماع عيينة بن حصن، فهم ليسوا أبداً أصحاب سيادة وثروات مثل المكيين، كما لم يكونوا أصحاب مصلحة فعلية فى القضاء على محمد، فلم يدفعهم إليه إلا ثأر أم قرفة، والحصول على المغانم، وهو ما يمكن علاجه بالمغريات المالية.

(٧٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهلى... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

(٧٨) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٠٣.

(٧٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهلى... سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

(٨٠) أبكار السقايف: نحر أفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ج ٢، ص ١٥٠٠.

وعند هذه اللحظة من التفكير المتأنى أرسل النبي سراً إلى قائدى غطفان: عيينة بن حصن والحارث بن عوف، يفاوضهما على الانسحاب من الأحزاب مقابل ثلث ثمار المدينة، وجرت المساومات السرية أخذاً ورداً، اشترط معها عيينة النهم نصف تلك الثمار، لكن ليشترط عليه النبي فى مقابل ذلك الإيقاع بين الأحزاب وبين قريظة^(٨١).

وقام النبي يخبر السعدين بما اتفق عليه مع غطفان، فيحتج السعدان ويقولان: «إنا نرى ألا نعطيهم إلا السيف»، ليرد النبي على سعد بن معاذ: «فأنت وذاك»، فيتناول ابن معاذ الصحيفة ويمحو ما بها من تعاهد اتفاقى ويقول: «ليجهدوا علينا»^(٨٢)، بينما يأتى من غطفان رجلها الداهية نعيم بن مسعود الأشجعى ليرى النبي ويسمع منه خطته للإيقاع بين الأحزاب، فيقول له الرسول - صلى الله عليه وسلم -:

خذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة^(٨٣).

ويفهم نعيم المقصود ويستوعب الخطاب ويبدأ فى التنفيذ، ويدرك أن الأمر الآن أمر عسكري وخدع، فالعبرة بالنهايات والخواتيم، وليست العبرة بقواعد قد تؤدى إلى دمار، وعليه يزوى ابن هشام كيف تمت الخدعة وكيف حبكها نعيم بن مسعود، فيقول:

ثم إن نعيم بن مسعود.. بن غطفان، أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: «... إن قومى لم يعلموا بإسلامى»^(٨٤)، فمرنى بما شئت، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخذل عنا إن استطعت فالجرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة،.. فقال: يا بنى قريظة.. إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وأن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهروهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونسأؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا

(٨١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٥٢، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٢.

(٨٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٥٣، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٢.

(٨٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٥.

(٨٤) لم ير كتاب السير فى فعل نعيم بن مسعود إلا إسلاماً، دون أن ينفقوا مع اتفاق غطفان مع النبي.

مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم، يكونوا بأيديكم، ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه .

فقالوا له: لقد أشرت بالرأى .

وخرج حتى أتى قريشا، فقال لأبى سفيان بن حرب، ومن معه من رجال قريش .. إنه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم، فاكتموا عنى، فقالوا: نفعل، قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين: من قريش وغطفان، رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم .

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً .

وأخذت الريبة برؤوس قريش، ثم استبطأت فتح قريظة أبواب حصونها للأحزاب، وزاد الأمر توتراً قدوم تلك الليالى الشاتية القارسة على رجالهم فى العراء، مع النفاذ المتزايد للميرة، وهنا يقول لنا ابن هشام:

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس .. أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة .. فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال كي تناجز محمداً .. فأرسلوا إليهم: إن اليوم سبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا .. ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم، حتى تعطونا رهنا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى تناجز محمداً، فإننا نخشى إن ضركم الحرب واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا إلى بلادكم، وتتركونا والرجل فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا لبنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلادكم .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا
رهنًا، فأبوا عليهم ..

وخذل الله بينهم ..

وبعثت عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ
قدورهم وتطرح أبنيتهم .. ثم قال أبو سفيان: يامعشر قريش، إنكم والله ما
أصبحتم بدار مقام .. أخلفتنا قريظة .. ولقينا من شدة الريح ما ترون ..
فارتحلوا فإني مرتحل .. فانشمروا راجعين إلى بلادهم^(٨٥) .

ورغم أن ابن هشام يعلم أين كانت الخديعة، وكيف دبرت، ومن دبرها، للإيقاع بين الأحزاب
وقريظة، فإنه يقول بهدوء المؤمن الوثاق: «وخذل الله بينهم» . وحتى يتضح ذلك التدخل
الإلهي، الذي يجب أن تظهر له مظاهر واضحة، في أدوات فاعلة تليق بحجم فاعلها فقد ورد
القول عند ابن قتيبة:

أما رياح الشمال والجنوب فقد ساءلت بعضها عمن يتوجه لمساعدة
رسول الله، عن عكرمة قال: لما كانت ليلة الأحزاب قالت الجنوب للشمال:
انطلقى نمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت الشمال: إن الحرة لا
تسرى بالليل، فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا^(٨٦) .

وهو الأمر الذي جاء تأكيده وحيا يقول:

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود
فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً»
(٩/ الأحزاب) .

وهي الجنود الملائكية التي لم تحارب أبداً في الخندق، وهو ما جاء مشروحاً عن مجاهد:
«وجنود لم تروها يعني الملائكة، ولم تقاتل الملائكة يومئذ»^(٨٧) وهو ما يعني أن الملائكة كانت
وراء تلك الريح الصرصر العاتية، وأنها أخذت تعبت بالمهاجمين وتقلع خيامهم وتكفأ قدورهم
وتطفئ نارهم .

وهكذا يعود ابن هشام من قوله: «وخذل الله بينهم» إلى القول بقدرات لله أعظم بكثير من

(٨٥) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي .. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٥، ٢٦٦ .

(٨٦) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، مج ٢، ج ١، ص ٢١١ .

(٨٧) البيهقي: دلائل .. سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٤٨ .

أساليب الخداع الإنسانى، فيتابع القول: «ويبعث الله عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قُدورهم وتطرح أبنييتهم»، مصوراً فعل الطبيعة قاصراً فقط على الأحزاب، لكن بعد سنوات من الخندق، نجد الصحابى أبا حذيفة يحكى لجلسائه مشاهد القتالية مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول له جلساؤه: والله لو كنا شهدنا ذلك، لكننا فعلنا وفعلنا، فيغتاظ أبو حذيفة من سهولة الكلام، بعيداً عن واقع الفعل، ليحكى لهم عن تلك الليالى الشاتية قوله:

لا تمنوا ذلك؛ لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبوسفيان ومن معه فوقنا وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أنت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها، فى أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهى ظلمة ما يرى أحداً إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبى - صلى الله عليه وسلم - ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هى بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم ويتسللون، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك (٨٨).

ويختتم ابن إسحاق وقعة الخندق، ومع آخر القوافل المرتحلة من الأحزاب وغبارها يسطع فى الأفق تشيعها كلمات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول لأصحابه: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، لكنكم تغزونهم»، ثم يعقب راوى السير بقوله: «فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان رسول الله يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة .. رواه البخارى، (٨٩). وقولة الرسول هنا تعبر تعبيراً صادقاً عن واقع حال قريش بعد الخندق، فلم تعد ذلك العدو الفتى المهدد الهادر، إنما شاخت وضاعت هيبتها بين العربان.

وهكذا جاء الحدث الكبير الذى تمثل فى تحزيب أحزاب العرب ضد يثرب، بنتائج أيضاً كبيرة لكن بعكس ما توقع الأحزاب وما كانوا يرجونه، فقد تلاحمت يثرب، ورغم جبن بعضهم وهربهم، ونفاق آخرين، ورغم ما مر عليهم من ليالى رعب وفزع شاتية، فإن الحدث أيقظ لدى الناس شعوراً وطنياً جارفاً زاد من تلاحم المهاجرين والأنصار، حيث شعر المهاجرون أن الدار قد أصبحت دارهم، وصدق الله وعده لنبيه بانضمام الأحزاب راجعين إلى بلادهم، ناهيك عن النتيجة الأهم والأخطر من كل هذا، وهى تحرير يثرب تماماً من العنصر اليهودى، بغزوة قريظة، التى قضت على اليهود، وجعلت المنافقين عرايا من أى حلفاء، مما اضطرهم فى النهاية للخضوع التام لسلطان الدولة.

(٨٨) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١٦.

(٨٩) نفسه: ص ١١٧.

مذبحة قريظة :

عن عائشة: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل وجاءه جبريل فرأيته من خلال الباب قد عصب رأسه الغبار، فقال: يا محمد أوضعتم أسلحتكم؟ فقال: وضعنا أسلحتنا، فقال: إنا لم نضع أسلحتنا بعد، أنهد إلى بني قريظة، ثم قال البخاري.. عن أنس بن مالك قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم، موكب جبريل حين سارع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بني قريظة (٩٠).

أو برواية الطبري:

فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معجراً بعمامة من استبرق، على بغلة عليها رحالة، عليه قطيفة من ديباج، فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إلى بني قريظة، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منادياً فأذن في الناس:

من كان سامعاً ومطيعاً، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة (٩١).

ولمزيد من التأكيد على أن المسير إلى قريظة كان أمراً إلهياً، حملة جبريل إلى الرسول الأمين، يقدم البيهقي الشواهد الدالة على مقدم مبعوث الإله الأول جبريل، يحمل ذلك الأمر السماوي، في قوله:

وخرج النبي فمر بمجالس بينه وبين قريظة، فقال: هل مريبكم من أحد؟ قالوا: مر علينا دحية الكلبي على بغلة شهباء، تحته قطيفة من ديباج، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : ليس ذلك بدحية، ولكنه جبريل عليه السلام، أرسل إلى بني قريظة ليؤذن لهم ويقذف في قلوبهم الرعب.

هذا؛ ومن المعلوم أن دحية هذا رجل معلوم الشأن لأهل يثرب، فهو دحية بن فروة بن فضالة، من الخزرج، وكان صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٩٢).

وطاعة لأمر السماء، خرج المسلمون إلى بني قريظة ليضربوا عليهم الحصار، ولما يهدأ بعد

(٩٠) نفسه: ص ١١٩.

(٩١) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨١.

(٩٢) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩.

غبار سوائم وخيول الأحزاب المغادرة . واصطف جنود الرحمن يتحلقون حول الحصون القرظية ، ويصل الرسول إلى مقدمة الدوائر المقاتلة مقترباً من الحصون ، وبينما يصنع له أصحابه بالحجف ما يشبه البوق ليسمعهم كلامه ، كان يهود قريظة يرهفون الأسماع وهم يرجفون لندائه . صلى الله عليه وسلم - :

يا إخوة القردة والخنازير:

لكن ليرد المرتعدون:

يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً!! (٩٣) .

ليعود النبي يناديهم:

يا إخوان القردة:

هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته؟

وتفهم قريظة الرسالة لترد راعشة:

يا أبا القاسم ما كنت جهولاً!! (٩٤) .

وأمام ما تراه قريظة ، أخذت تصرخ طالبة من محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يرسل إليهم من حلفائهم أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسى ، وسمح الرسول لأبى لبابة بالمرور إلى حصونهم ليسمع منهم ، ونصت مع كتب السير لذلك المسمع يقول:

قالوا: يا أبا لبابة: ماذا ترى وماذا تأمرنا به فإنه لا طاقة لنا بالقتال؟

ولم نجد قولاً لأبى لبابة ، بل إشارة وحركة ذات معنى ، فيورد ابن كثير رده على التساؤل:

فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه وأمره عليه ، يريد أنهم إنما يريد بهم

الذبح (٩٥) .

وهو ذات ما يرويه الطبرى فى قوله:

ثم أنهم بعثوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ابعث إلينا أبا

لبابة بن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف ، - وكانوا حلفاء الأوس -

(٩٣) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٠ .

(٩٤) الطبرى: تاريخ .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٢ .

(٩٥) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢١ .

نستشيره فى أمرنا، فأرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليهم، فلما رأوه

قام إليه الرجال

وجهش إليه النساء

والصبيان ييكون فى وجهه

فرق لهم

وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن نزل على حكم محمد؟

قال: نعم

ثم أشاره بيده إلى حلقه

: إنه الذبح^(٩٦).

وندخل مع الطبرى إلى حصن قريظة الكبير، نستمع لما يدور فى الداخل، فى تلك الهذيات البارقة الراجفة من الزمن، لنسمعه يطالع ما يحدث ويقول:

وقد كان حى بن أخطب النضرى، قد دخل على بنى قريظة فى حصونهم، حيث رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاء لكعب بن أسد بما كان قد عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم:

يا معشر يهود؛ إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارض عليكم خلا لا ثلاثا، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هى؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدق.. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا.. قال: فهل نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد.. ولم نترك وراءنا ثقلا يهمننا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن الليلة ليلة سبت، وأنه عسى يكون محمد وأصحابه قد أمتوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا؟.. قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة حازما^(٩٧).

(٩٦) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٤.

(٩٧) نفسه: ص ٥٨٣.

وينتهي المشهد داخل الحصن بقرار من قريظة، أنها لن تقاتل، وأنها ستنزل على حكم رسول الله وتستأسر جميعاً، وبالفعل ينزلون في طابور طويل يكتف فرداً فرداً بالحبال التي تصلهم ببعضهم، لينتظروا مصيرهم، آملين في موقف الأوس أحلافهم لحقن دمائهم، مثلما فعلت الخزرج من قبل مع قبائل يهود التي خرجت بأرواحها، وتركت المال والعقار والعتاد، وبينما هم في وهمهم هذا، نسمع الطبرى يقول:

ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في دار امرأة من بنى النجار (أى من الخزرج وليس من الأوس)، ثم خرج - صلى الله عليه وسلم - إلى سوق المدينة.. فخذق بها خنادق^(٩٨).

وقد بدا الأمر كما لو كان يسير حسبما توقعت قريظة من الأوس، حيث توثبت الأوس حول النبي تذكره بأن قريظة مواليها دون الخزرج، وأنه سبق ومنح حياة يهود أموالهم من الخزرج، يطلبون كرامتهم إزاء كرامة الخزرج في المواقف السابقة، وهنا يجيبهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذاك سعد ابن معاذ»^(٩٩).

في ذلك الوقت كان سعد يعانى من قطع أصاب أكحله (شريانه) بسهم غارب جاءه من خارج الخندق إبان الحصار، ولم تلجأ كتبنا التراثية هنا إلى حديث الأحاجي والمعجزات التي ينسبونها للنبي - صلى الله عليه وسلم - لأن سعداً لقي نهايته الفاجعة خلال أيام، حيث قام النبي - صلى الله عليه وسلم - يحسم له جرحه بنفسه كياً بالنار، لكن يده انتفخت ثم انفجر الشريان بالنزيف، فعاد النبي إلى كيه مرة أخرى ليسد مخرج الدم بالنار فانتفخت يده مرة أخرى، أما الرواة فقد رأوا أن المعجزة لم تحدث هنا، لأن الأكحل إن قطع فلا علاج له كما أفادوا، فهناك ما يمكن علاجه بالمعجزات وهناك ما لا يمكن علاجه كقطع الأكحل.

وبينما سعد على حاله هذا، أرسل إليه النبي وجاء به في مشهد يرويه الطبرى بقوله:

فلما انتهى سعد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال - صلى الله عليه وسلم - : قوموا إلى سيدكم.. فانزلوه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أحكم فيهم، قال: فإني أحكم فيهم بأن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء..

(٩٨) نفسه: ص ٥٨٨.

(٩٩) نفسه: ص ٥٨٦.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسعد:

حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة^(١٠٠).

وهنا يكشف لنا الطبرى سر الخنادق التى أمر النبى بخندقها، بينما كان القرظيون يكتفون بالجيال، حيث يقول: إن النبى قد بعث إليهم، فضرِب أعناقهم فى تلك الخنادق، يخرج إليه إرسالا، وفيهم عدو الله حى بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، المكثرون لهم يقول كانوا نحو الثمانمائة إلى التسعمائة^(١٠١).

ويبدأ مشهد المذبحة كالتالى:

أتى بعدو الله حى بن أخطب.. مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:

أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك أبداً.

ثم أقبل على الناس فقال:

أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب الله وقدره، ملحمة قد كتبت على بنى إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه^(١٠٢).

ويشرح لنا رجالتنا من أهل السير كيف كانت المذبحة، فيصور لنا الواقدي أحد المشاهد بقوله:

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر لنا يشق لبنى قريظة فى الأرض أخاديد، ثم جلس، فجعل على والزبير يضربان أعناقهم بين يديه^(١٠٣).

ويحدد لنا البيهقى مكان المقتلة بدقة فيقول:

قتلوا عند دار أبى جهل التى بالبلاط، ولم تكن يومئذ بلاطاً، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التى كانت بالسوق^(١٠٤).

ويشرح لنا ابن هشام أنه بينما كان الأوس حلفاء قريظة فى الجاهلية، فإن الخزرج لذلك السبب

(١٠٠) نفسه: ص ٥٨٧، ٥٨٨.

(١٠١) نفسه: ص ٥٨٨.

(١٠٢) نفسه: ص ٥٨٩.

(١٠٣) نفسه: ص ٥٩٣.

(١٠٤) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠.

كانوا يحملون لقريظة العداوة، ولما كان الخزرج أخوال النبي، فقد حبس الأسرى القرظيين لديهم، ثم عند المذبحة أمرهم هم بإجراء المذبحة، فيقول مصوراً لنا مشهداً أوسع للمذبحة:

فجعلت الخزرج تضرب أعناقهم، ويسرهم ذلك، فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الخزرج، ووجوههم مستبشرة، ونظر إلى الأوس فلم ير ذلك فيهم، فظن أن ذلك للحلف الذي بين الأوس وقريظة، ولم يكن بقي من بنى قريظة إلا اثنا عشر رجلاً، فدفعهم إلى الأوس، فدفع إلى كل رجلين من الأوس رجلاً من بنى قريظة، وقال: ليضرب فلان، وليذفف فلان (١٠٥).

أما شأن سعد بن معاذ فعرف من خبره أن أكله الذي حسمه له النبي - صلى الله عليه وسلم - قد عاد وانفجر بعد مذبحة قريظة، ولما كان هو صاحب الحكم الذي هو حكم الله، فقد وجبت مكافأته، فيما يرويه البيهقي:

إن جبريل أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - في جوف الليل، معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يا محمد؛

من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟

فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجر ثوبه، مبادراً إلى سعد بن معاذ، فوجده قد قبض.

ومن ثم وقف النبي يشير إلى سعد وهو يعلن:

إن هذا الذي تحرك له العرش..

وشيع جنازته سبعون ألف ملك (١٠٦).

أما ابن سيد الناس فيؤكد مشاركة الملائكة في تشييع جسد سعد إلى مثواه الأخير بقوله:

ولما حمل سعد علي نعشه، وجدوا له خفة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إن له حملة غيركم (١٠٧).

وفي مجال الإشادة بسعد بن معاذ وتكريمه، يروي الترمذى والنسائى حكاية البغلة والجبة التى أرسلها أكيدر دومة الجندل إلى النبي هدية، فى القول: إنها

(١٠٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٧.

(١٠٦) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩، ٢٨.

(١٠٧) ابن سيد الناس: عيون الأثر... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٠٤.

جبة من ديباج، منسوج فيها الذهب، فلبسها - صلى الله عليه وسلم - فقام على المنبر وجلس فلم يتكلم، ثم نزل فجعل الناس يلمسون الجبة وينظرون إليها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

أتعجبون منها؟

لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن مما ترون (١٠٨).

ثم نعلم من مآثورنا علما جديداً بشأن تلك المذبحة، حيث يعلمنا أنها لم تقتصر على الرجال فقط، بل نالت أيضا من الصبية، حيث يقول الطبرى مدعما من كل رجال السير والأخبار أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قد أمر بقتل كل من أنبت منهم (١٠٩).

وهو أيضا ما يأتينا تأكيده في حكاية ابن إسحاق عن صبي نجا من المذبحة هو عطية القرظي، حيث يقول:

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أمر بكل من أنبت منهم .. عن عطية القرظي قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أمر أن يقتل من بنى قريظة كل من أنبت منهم، وكنت غلاما، فوجدوني لم أنبت، فخلوا سبيلي، رواه أهل السنن الأربعة .. وقد استدل به من ذهب من العلماء، إلى أن إنبات الشعر الخشن حول الفرج دليل البلوغ (١١٠).

وعن كثير بن السائب أن بنى قريظة عرضوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - فمن كان محتلما أو نبتت عانته قتل، ومن لم يكن قد احتلم ولا نبتت عانته ترك (١١١).

وكاد ينجو من المقتلة رجل واحد من أشرف قريظة، لولا رغبته هو في الموت ذبحا، هو أبو عبد الرحمن الزبير بن باطا القرظي، وكان يوم وقعة بعاث قد من على ثابت بن قيس وخلي سبيله، فلما أصبح ثابت مسلما، رأى أن يرد الدين إلى أبي عبد الرحمن، فذهب بحكايته القديمة ودينه بالحياة يرويها للنبي ويطلب حياة أبي عبد الرحمن، فمئحه إياها، وذهب ثابت يبشر أبا عبد الرحمن بالحياة، ليدور بينهما الحوار التالي:

(١٠٨) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٣١.

(١٠٩) الطبرى: تاريخ .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٩١.

(١١٠) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٧.

(١١١) البلاذرى: فتوح البلدان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ج ١، ص ٢٣.

أبو عبد الرحمن: أى ثابت، ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحى كعب بن أسد؟

ثابت : قتل.

أبو عبد الرحمن: فما فعل سيد الحاضر والبادى حى بن أخطب؟

ثابت : قتل.

أبو عبد الرحمن: فماذا فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عزال ابن سمؤال؟

ثابت : قتل.

أبو عبد الرحمن: فما فعل المجلسان - يعنى كعب بن قريظة وبنى عمرو ابن قريظة؟

ثابت : ذهبوا، قتلوا.

أبو عبد الرحمن: فإنى أسألك بيدى عندك يا ثابت، ألا ألحقننى بالقوم، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قبلة دلو نضح، حتى ألقى الأحبة.

وهنا أخذه ثابت من يده وأوقفه فى طابور المذبحة ليأخذ دوره، فضربت عنقه(١١٢).

وبعد الانتهاء من شأن المذبحة، أتى دور الغنائم والسبايا، فأما الغنائم فيحصيها لنا ابن سعد فى قائمة طويلة كالتالى:

ألف وخمسمائة سيف

ثلاثمائة درع

ألفا رمح

ألف وخمسمائة ترس وجحفة

جمال ونواضح كثيرة(١١٣).

(١١٢) الطبرى: تاريخ... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٩، ٥٩٠.

(١١٣) ابن سعد: الطبقات، مج ١، ج ٢، انظر أيضاً: الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مرسدن جوزر، منشورات جامعة أكسفورد،

لندن، ١٩٦٦، ج ٢، ص ٥١٠.

وهى القائمة التى تشى بمدى العدة والعتاد التى كانت فى حوزة قريظة، وهو أيضا ما يفصح عن رغبة قريظة فى النأى عن الحرب طمعا فى مصير نصير وقينقاع للخروج بأرواحهم دون عتادهم وأموالهم.

وجاء دور السبايا ليقول ابن سعد:

واصطفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ريحانة بنت عمرو لنفسه، وأمر بالغنائم فجمعت، فأخرج الخمس من المتاع والسبي، وأمر بالباقي فبيع فى من يزيد، وقسمه بين المسلمين^(١١٤).

أما ريحانة بنت عمرو، التى اختارها النبى، فقد قال بشأنها ابن كثير:

عرض عليها النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يعتقها ويتزوجها فاختارت أن تستمر على الرق، ليكون أسهل عليها، فلم تزل عنده حتى توفى عنها عليه الصلاة والسلام^(١١٥).

ويؤكد الطبرى موقف ريحانة فى قولها لسيدها الجديد:

تتركنى فى ملكك، فهو أخف علىّ وعليك، فتركها، وكانت حين سبها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تعصت بالإسلام، وأبت إلا اليهودية^(١١٦).

وفاضلت السبايا حتى بيعت بقيتهم لرجال نجد، وكان عائد البيع عظيما، وتم شراء خيل وسلاح إضافى بثمنهم، لتتضخم الأعتدة العسكرية الإسلامية وكراعها بمخزون عظيم لما هو آت.

وهكذا جاءت دية بنى عامر بمجموعة من التداعيات أخذ بعضها بعقب بعض، فطردت نصير من يثرب، لكن ليحزب زعمائها الأحزاب فى غزوة الخندق التى انتهت بدورها لصالح يثرب، بالانسحاب بعد الخدعة، لينتهى الأمر بالقضاء على بنى قريظة، وتطهير المدينة تطهيراً كاملاً، وسيطرة النبى سيطرة تامة على يثرب، مع نموها فى ثروة المسلمين وقوتهم العسكرية، وهو الأمر الذى دفع المنافقين لحسم مواقفهم، حيث لم يعد لهم سند من حلفائهم اليهود، ولم يعد بإمكانهم التناول على القوة الإسلامية المتعازمة، وانتهى أمرهم بالخضوع الكامل لسيد

(١١٤) الموضع نفسه عند ابن سعد.

(١١٥) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٨.

(١١٦) الطبرى: تاريخ... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٩٢.

المدينة وهى النتائج التى أوجزتها الآيات الكريمة بإيجازها البليغ تبلغ العربان وتذكرهم بقولها:

«ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال
وكان الله قوياً عزيزاً. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من
صياصيهم»^(١١٧) وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً.
وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كل شىء
قديراً» (٢٥/٢٦/٢٧ / الأحزاب) .

(١١٧) الصياصى: نوع من الحصون .

حروب دولة الرسول

الجزء الثاني

الباب الثاني

الاعتراف بقيام الدولة

إخضاع القبائل

«يا رسول الله؛ لا تحرم علينا حلالاً ولا تحل لنا حراماً!!»

[زيد بن رفاعه الجذامي]

بالطبع لم تنفذ يثرب اتفاقها مع غطفان الفزارية، بعد أن مزق السعدان الصحيفة التي كان من المزمع تنفيذها مع عيينة بن حصن الفزاري، للتخذيّل بين الأحزاب، لذلك ما أن انصرفت الأحزاب عن يثرب، وعلم القرشيون بحجم المكيدة التي دبرها الغطفاني الداهية نعيم بن مسعود، حتى عاد عيينة بن حصن ببعض خيل غطفان، ليغيروا على لقاح النبي بالغابة، لكن بالجوار كان سلمة بن الأكوع، يراهم، فيركض نحو التلول يرتقيها موجهها وجهه شطر يثرب منذراً صائحاً: واصباحاه، عدة مرات، ثم يهرع نازلاً يمنع القوم بنباله ويروي لنا ابن كثير بطولية ذلك المسلم الفرد في صورة رائعة وهو يقول:

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هارياً، ثم عارضهم، فإذا أمكنه الرمي رمى.. وبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صياح ابن الأكوع، فصرخ بالمدينة: الفرع الفرع، فترامت الخيول إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما اجتمعوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر عليهم سعيد ابن زيد وقال: اخرج في طلب القوم حتى ألحقك بالناس.. وأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.. واستنقذ بعض اللقاح، وسار الرسول حتى نزل

بالجبل من ذى قرد، وتلاحق به الناس، فأقام عليه يوماً وليلة، وقال سلمة ابن الأكوع يا رسول الله لو سرحتنى فى مائة رجل، لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ...إنهم الآن ليغبقون فى غطفان.. ثم رجع قافلاً إلى المدينة.. (ويقول ابن الأكوع) ثم رجعنا، وردفنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ناقته حتى قدمنا المدينة^(١).

ومرة أخرى تتعرض لقاح الرسول لغدر الأعراب، الذين أطمعتهم سوائمه، فقدم على النبى ثمانية رجال من عريضة، وأظهروا الإسلام، وبعد أيام اشتكوا للنبى سوء حالتهم الصحية بداخل يثرب، وأنهم أهل بوادى لا يطيقون المدن والزروع، فتأذن لهم بالخروج لرعاية لقاحه، الذى يرمى بذى الحدر بناحية قباء، فظلوا فيها فترة، ثم عدوا على لقاح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقتلوا واحداً من عبيد النبى^(٢)، فكان أن أرسل وراءهم سرية كرز بن جابر الفهري، ليقبض عليهم، ويلقوا جزاء ما قدمت أيديهم بحق النبى وبحق الدولة، وهو الجزاء الذى جاءنا ذكره فى البيهقى وهو يروى:

فلم ترتفع الشمس، حتى أتى بهم، فأمر بمسامير فأحميت، فكواهم، وقطع أيديهم وأرجلهم، وألقاهم فى الحرة ليستسقون فلا يسقون، حتى ماتوا^(٣).

ويضيف ابن سيد الناس أنه قد أمر إضافة لذلك بسمل عيونهم^(٤).

ومع تلك التحركات الطامعة الغادرة من الأعراب، كان على يثرب أن تكثف مرة أخرى من سراياها المسلحة التأديبية المندرة، لقنوب القبائل إلى سابق انكماشها، فكانت سرية عبد الله بن أنيس الجهنى، التى سرت إلى خيبر لتلتقم من مشاركة سادتها فى تحزيب الأحزاب، فيقطع ابن أنيس من خيبر رأسها: أسير بن رزام، جزاء وفاها لما قدمت يداها^(٥). لتتبعها سرية عكاشة بن محصن الأسدى مغيراً على قومه بنى أسد فى الغمر، ويبدو أن الأسود عرفوا رأس الحكمة من الغارة السابقة للنبى عليهم، فهربوا مع نعمهم وشياهم، ويصل عكاشة فيجد الديار فراغا، لكنه لم

(١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥١: ١٥٣، انظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٥٨: ٦١.

(٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦٧.

(٣) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٧.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١١٩.

(٥) نفسه: ص ١٤٦.

يشأ أن يرجع فارغا، فهجم على بنى عمومة لهم ليستاق منهم مائتى بغير يعود بها مغنما إلى يثرب^(٦).

وإذا كانت حكمة الأسود تدعوهم كل مرة إلى الفرار بأموالهم وأرواحهم، فإن الثعالب من بنى ثعلبة كانت لهم حكمة أخرى، فما أن هبطت عليهم سرية محمد بن مسلمة بذى القصة باتجاه الريدة فى عشرة من المسلمين، حتى نذربه الثعالب بدهائهم، وأحدقوا بالسرية وحملوا على رجالها تقتيلاً، ولم ينج سوى مسلم واحد خرج سليماً، ليحمل محمد بن مسلمة جريحاً ويعود به إلى المدينة.

وفوراً يرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سرية أبى عبيدة بن الجراح للضرب على يد بنى ثعلبة بقوة، ويمده بأربعين مقاتلاً يهبطون على ذى القصة متسللين متخفين ليفاجئوا الثعالب فى عماية الصبح، ولكن مرة أخرى ينذربه الثعالبية - متأخرين بعض الشيء - فيهربوا إلى دروبهم وشعابهم بين جبال يعلمون سبلها، ولا يتمكن المسلمون منهم فيكفوا بحيازة أنعامهم التى تركوها، وينحدروا بها عوداً إلى المدينة.

وسلط تلك الأحداث، يأتينا خبر طلاق زيد بن حارثة من زينب بنت جحش، وتوزيع السماء لزينب من النبى، ليخرج من بعدها زيد للاستشفاء النفسى، فى عدد من السرايا المتوالية، أو ليرسله النبى فى عدد من السرايا المتتابعة، لا يهدأ ولا يكل، فينزل بسرية على بنى حارثة من قبائل سليم ليصيب منهم سوائهم، ثم يردفها بسرية إلى العيص تعترض طريق قافلة تجارية قرشية قادمة من الشام، بها فضة عظيمة، فيستولى على ما فيها، ثم يتبعها بسرية ثالثة إلى بنى ثعلبة، فيغنم منهم أنعاماً جزيلة، ثم يخرج بسرية رابعة إلى حسمى من وراء وادى القرى، بأمر من الرسول - صلى الله عليه وسلم - انتقاماً من بنى جذام الذين قطعوا الطريق على صديق النبى دحية الكلبي، الذى كان يتمثل به جبريل الملاك، فيسلبوه منحة قيصر له، ويفزل زيد بساحتهم فيقتل منهم قوماً كثيرين، ويذبح زعيمهم الهنيد وولده، ويأخذ نعمهم وماشييتهم ونساءهم، وما يربو على خمسة آلاف شاة، وألف بغير، غير مائة من السبايا وعدد عظيم من الغلمان، ولا يصاب البطل المسلم المتميز زيد فى كل تلك السرايا إصابة واحدة.

لكن بين جذام والنبى كان كتاب موادة سابق، فيهرع أحد الناجين هو زيد بن رفاعة إلى النبى، فى نفر من قومه فيهم أبو يزيد بن عمرو - ثم نستمع إلى المشهد حال دخوله على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ابن سعد وهو يحكى:

(٦) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦١.

(٧) نفسه: ص ٦١، ٦٢.

فدفع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتابه الذى كان كتب له ولقومه، وقال:

يا رسول الله! لا تحرم علينا حلالا ولا تحل لنا حراما.

فقال الرسول:

وكيف أصنع بالقتلى؟

قال أبو يزيد بن عمرو: أطلق لنا يا رسول الله من كان حيا، ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: صدق أبو يزيد^(٨).

وما أن يرحل الجذاميون، بما كان لهم عند النبى، حتى يخرج زيد مرة أخرى بسرية خامسة إلى وادى القرى^(٩). لتعطى تلك السرايا دلالتها حيث بدأت تأخذ وجهة الشمال الرومى والمشرق الكسرى، ويزداد تأكيد المقاصد والدلالات، بإغارة عبدالرحمن بن عوف مرة أخرى برجاله على قبائل كلب فى دومة الجندل بالشمال، وهناك يعلن زعيمهم الأصبغ اتباعه للدولة وللدين ويشهر إسلامه، ويزوج ابنته تماضر لقائد السرية عبد الرحمن بن عوف، ليعود بها وبالعهد إلى المدينة^(١٠). ولكن وجهة الشمال حيث كنوز كسرى وقيصر الهدف الأعظم، لازالت بحاجة إلى تأكيد، فتخرج إليها سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر فى فداك، ليغير عليهم على غرة، فيهمزهم، وهم من كانوا من القوة بحيث هزموا قبل البعثة فيالق كسرى، لكن الرعب يأخذهم فيفرون قبل وصول السرية ديارهم، ويتركون له ألفى شاة وخمسمائة بعير يعود بها، أما كلب التى كانت فى الطريق، فقد تركت له طريق العودة وهربت من ديارها بنسائها وأموالها رغم ما تأكد لها من عهود مع دولة النبى - صلى الله عليه وسلم -^(١١).

وهكذا أبليت السرايا وبلغت رسائلها إلى الشمال الرومى، ووصلت برقيات الرعب إلى زعيم نصف العالم آنذاك: قيصر الروم.

(٨) نفسه.

(٩) الموضع نفسه.

(١٠) نفسه: ص ٦٤، ٦٥.

(١١) نفسه: ص ٦٥.

غزوة المصطلق

«سمن كلبك يا كلبك!!»

[عبدالله بن أبي بن سلول]

يا منصور: أمت، أمت،

صيحة الفرع المرعبة التي دوت على ماء (المريسيغ) فجأة ودون سوابق أو ممهّدات، بمضارب (بنى المصطلق)، ليهبط عليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - برجاله فى جمادى الآخرة من عام ستة للهجرة، فتأخذهم الفجأة وتشلهم الصعقة، فما يفيقوا إلا على قتلاهم وأسراهم وسباياهم وأموالهم ونعمهم، تجمع بيد السيد المنتصر^(١٢).

وبين السبايا وقفت بنت السادة الرافلة فى النعيم، زوجة مسافع بن صفوان المصطلقى، (جويرية بنت الحارث) سيد المصطلق، تنتظر دورها^(١٣)، فتقع فى سهم جندى مسلم اعتيادى هو قيس بن الشماس، ومن ثم تحكى لنا جويرية وهى ترى ما آلت إليه، باحثة عن مخرج يلائم مكانتها:

رأيت قبل قدوم النبى - صلى الله عليه وسلم - بثلاث ليال، كأن القمر

(١٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، مج ٤، ص ٨، ٦.

(١٣) نفسه: ص ١٩.

يسير من يثرب، حتى وقع فى حجرى، فكرهت أن أخبر بها أحداً من
الناس، حتى قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما سبينا، رجوت
الرؤيا^(١٤).

ولتحقيق الرؤيا، ساومت أسرها ثابت بن قيس، على أن تدفع له فداءها عن نفسها ويطلقها
حرة، بموجب مكاتبة على العتق بذلك، وهى تعلم يقينا أنها أسيرة لا تملك مالا تشتري به نفسها،
ولا تعلم حتى إن هى اشترت نفسها أين تذهب بعد أن ذهب قومها قتلا وأسرأ، ومن ثم قررت أن
تختبر الرؤيا، فذهبت إلى النبى لتطلب منه إعانتها فى مكاتبتها!!

وهنا تقول لنا أم المؤمنين السيدة عائشة الغيور:
فوالله ما أن رأيتها على باب حجرتى، فكرهتها وعرفت أنه - صلى
الله عليه وسلم - سيرى منها ما رأيت.

أما ماذا رأت السيدة عائشة - رضى الله عنها - ؟ فهو ما توضحه فى قولها:

كانت امرأة حلوة ملاحه

لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه

ويشرح لنا السهيلي شارح السيرة المعنى قول أم المؤمنين بقوله:

الملاح أبلغ من المليح ..

والملاحه هى البياض ..

وملاحه: فى العينين

وقال الأصمعى: ..

الملاحه فى الفم ..

وقول عائشة .. من الغيرة عليه والعلم بموقع الجمال منه - صلى الله عليه وسلم -

ونتابع الحدث وهو يتحرك، فنرى جويرية الأسيرة تدخل على النبى - صلى الله عليه وسلم -
لتقول:

يا رسول الله:

أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار

(١٤) البيهقى: دلائل .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٠.

سيد قومه

وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك

فوقعت في السهم للثابت بن الشماس

فكاتبته على نفسي

فجئت أستعينك في كتابتي

وهنا يتطلع سيد الخلق، العارف بمواطن الجمال والملاحة، ويملاً عينيه منها، ليعقب السهيلي على ذلك التطلع الطويل بقوله: «أما نظره عليه السلام لجويرية، حتى عرف من حسنها ما عرف، وإنما ذلك لأنها كانت امرأة مملوكة، ولو كانت حرة، ما ملأ عينه منها، لأنه لا يكره النظر إلى الإماء، ويجوز أن يكون نظر إليها، لأنه نوى نكاحها، كما نظر إلى المرأة التي قالت له: إني وهبت نفسي لك.. وقد ثبت عنه عليه السلام. الرخصة في النظر إلى المرأة، عند إرادة نكاحها».

وكان ما توقعته جويرية الحساء، التي تعرف قدر حسنها، وقدمت لها الأقدار تحقيق رؤياها، حين قال لها النبي بعد تأمله الطويل:

فهل لك في خير من ذلك؟

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: أقضى عنك كتابك وأتزوجك.

قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت.

وهنا تعقب السيدة عائشة - رضي الله عنها -: «وخرج الخبر إلى الناس، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها^(١٥)».

ويقول ابن سيد الناس: «وكان الإبل ألفى بعير، والشاة خمسة آلاف شاه، وكان السبي مائتي بيت»^(١٦).

وبينما كان حسن جويرية وملاحتها يحل على أهلها بركة وسلاماً، لتزف إلى سيد الخلق في

(١٥) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، انظر معه شرح السهيلي، مج ٤، ص ٨، ٩، ١٨، ١٩.

(١٦) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٢٤.

زيجة جديدة، عكر صفو العرس حدث جديد أحدثه عبد الله بن أبي بن سلول، مع نفر من أتباعه ممن تنعتهم كتب الأخبار بالمنافقين، وهو ما يأتينا خبره في عدد من الروايات، أولها ما رواه ابن هشام في قوله: إنه بينما المسلمون يتزاحمون على ماء المريسيع، وردت واردة الناس، ومع عمر ابن الخطاب أجير له من غفار يقال له جهجاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجاه، وسان ابن وبرة الجهني حليف بن عوف من الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رھط من قومه، فقال:

أو قد فعلوها؟

قد نافرونا وكاثرونا

والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول:

سمن كلبك يأكلك

أما والله لئن رجعنا المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحالتموهم بلادكم، قاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير دياركم،^(١٧).

ويسمع الصبى (زيد بن أرقم) ما بدر من ابن سلول، وما أفصحت عنه شفتاه من مكنون صدره، ليهرع من فوره إلى النبي يهمس له بما قال ابن سلول، ويسمع الأنصار همس الصبى، فينبرون دفاعاً عن رجلهم المقدم: «يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبنا على ابن سلول ودفعنا عنه»،^(١٨).

وتحتد بعمر أعصابه وتأخذه الغضبة أخذاً فيقول للنبي وهو يردد: مر عباد بن بشر فليقتله، لينافس عمر ولد عبد الله بن سلول الذي يحمل اسم أبيه (عبد الله)، فيهرع إلى مجلس النبي يقول: «إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلا، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه»،^(١٩).

ولكن حكمة سيد الخلق أفصح وأنصع وأكرم، فتنفرج شفتا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله:

(١٧) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧.

(١٨) الموضع نفسه.

(١٩) نفسه: ص ٨.

فكيف يا عمر إذا تحدث الناس:
أن محمداً يقتل أصحابه؟
ويلتفت إلى (عبد الله بن سلول) الابن ويقول له بكل حب أبوى ورحمة نبوية:
لا

بل نترفق به
ونحسن صحبته ما بقى معنا^(٢٠).

وهى الحكمة والرحمة البليغة، التى كانت رداً غير منتظر، وضع ابن سلول فى موقف شديد الهزال أمام قومه، ليعقب الشعور بالفزع والرعب شعور المهانة والتدنى والخجل، وهى المشاعر التى دفعته يسعى للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليحلف له بأغلظ الأيمان، بأنه ما قال ما قال ولا تكلم به .

وكى تتم معالجة الأمر على وجه السرعة، لقمع دعوى الجاهلية، وإيقاف أى طارئ جانبي قد يحدث بين انصارى ومهاجر هنا أو هناك، وما قد يجره أى حدث جانبي من تفكك فى الجبهة الإسلامية، أمر النبي القائد الفذ وزيره عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل الفورى على عجل ودون إبطاء، فى ساعة هجير شديدة القیظ، ويحكى ابن إسحاق:

فلما استقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحياه تحية النبوة وسلم عليه، وقال يأنبى الله، والله لقد رحمت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأى صاحب يا رسول الله؟ .. يارسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا.

ثم مشى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسا من الأرض، فوقعوا نياما.

ويعقب ابن إسحاق على تلك القسوة من القائد على رجاله، بقوله: «وإنما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس، من حديث عبد الله ابن سلول»^(٢١).

(٢٠) الموضع نفسه.

(٢١) نفسه: ص ٨٠، ٧٨.

أما إجابة الرسول الحكيمة لعبد الله بن سلول الابن، ولعمر بن الخطاب، فسرعان ما آتت ثمارها، فيما أخبرنا ابن هشام عن ابن سلول: «فجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعمر، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله، لأرعدت له أنوف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» (٢٢).

ولم يكن حدث ابن سلول المعكر الوحيد لصفو العرس الجديد، فالصبي زيد بن أرقم الذى مدحه النبى وكرمه لما حمل إليه مقالة ابن سلول، وأمسكه من أذنه وقال - صلى الله عليه وسلم -: «هذا الذى أوفى الله بأذنه»، وجد له دوراً، فعاد يهمس للنبي أنه «سمع رجلا من المنافقين يقول ورسول الله يخطب فيهم: لئن كان هذا صادقا، لحن شر من الحمير، فيرد عليه الصبي: «فهو والله صادق، وأنت شر من الحمار» (٢٣).

ويتعالى التشكيك فى نبوة النبى من بعض رجاله، فيما يرويه البيهقى:

وفقدت راحلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بين الإبل، فسعى لها الرجال يلتمسونها، فقال رجل من المنافقين كان فى رفقة الأنصار: أين يسعى هؤلاء؟ قال أصحابه: يلتمسون راحلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضلت، فقال المنافق: ألا يخبره الله بمكان راحلته؟ فأنكر عليه أصحابه ما قال، وقالوا: قاتلك الله، ناقت (٢٤).

أما أشد المنكرات من أحداث معكرة، صاحبت غزوة المصطلق، وعكرت عرس النبى بجويرية، ما جاء بحديث الإفك عن أم المؤمنين الغيورية، تصحب زوجها فى زفة عرسه، لتلوك الألسن عنها بالفحشاء وترميها بالشاب صفوان بن المعطل فى القصة المعروفة التى أتى بها عصابة من الأفاكين، حيث حسمت السماء الأمر بتدخلها بالوحى الصادق، الذى برأ أم المؤمنين مما أتى به أهل الإفك والبهتان.

(٢٢) نفسه: ص ٧.

(٢٣) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٧.

(٢٤) نفسه: ص ٥٩.

غزوة الحديبية

«أما الرحمن فلا أدري والله ما هو؟!»

[سهيل بن عمرو]

بمجيء شهر ذي القعدة، بداية موسم الحج الجاهلي، وفجأة، وبدون أى علامات أو مقدمات منذرة، يتم التحول دورة كبرى، عن السرايا الصغيرة والغزوات المتناثرة، إلى الهدف الأكبر، يوم قام النبي من نومه ليعلن لأصحابه خبر رؤيا رآها في منامه، أنهم يدخلون معه مكة يطوفون بالبيت آمنين، وهو ما يعقب عليه السهيلي في شروحه «كان النبي قد رأى ذلك في منامه، ورؤيا الأنبياء وحى»، (٢٥).

ومن ثم، نادى المنادى بين مسلمي يثرب، وبين عريان جهينة ومزينة وخزاعة وغيرها من حلفاء يثرب الذين حالفوها سياسيا بإسلام من البعض ويعدم إسلام من آخرين، ويقول ابن إسحاق: «واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه.. فأبطأ عليه كثير من الأعراب ويتابع ابن سعد يقول: «واستنفر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه إلى العمرة، فتهيأوا وأسرعوا، ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيته فاغتسل ولبس ثوبين، وركب راحلته القصواء.. ثم دعا بالبدن التي ساق فجعلت ثم أشعرها في الشق الأيمن وقلدها، وأشعر

(٢٥) السهيلي: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٨.

أصحابه أيضا.. وهى سبعون بدنة.. وأحرم ولبى.. وخرج معه من المسلمين ألف وستمائة،^(٢٦).

ولاشك؛ أنه مثلما كان للنبي عيونه داخل مكة، فإن مكة ما كان ليفوتها أن تدس عيوننا لها بيثرب، تلك العيون التى - لا بد - قد أخذتها الدهشة، وهى ترى النبى يفعل فعل قريش، فيدعو إلى عمرة، ويمارس ذات شعائر قريش، فيسوق أمامه البدن (البعير المساقة هديا للذبح)، بعد أن جلها وفلدها، بل ويسير أمام رجاله يلبى فيلبون، معلنا أنه قد جاء ساعيا معتمرا لا يريد حربا^(٢٧). فى الوقت الذى كانت تأتیه عيونه الخزاعية بخبر يقول: «إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعهم، وهم قاتلك أو مقاتلوك»^(٢٨).

ورغم التظاهرة الدينية الواضحة، التى أرادها النبى رسالة مبلغة إلى قريش، لتعلم أنه جاء محترما مشاعرها وشعائرها وطقوسها، وهى الطقوس المرتبطة جميعا بتجارها ومكاسبها، وما فى تلك الرسالة من طمأننة ضمنية وإبراق فصيح بالتحولات الآتية: فإن مكة لم ترفى ذلك العدد الهائل من المقاتلين الذين يصل عددهم إلى ألف وستمائة، سوى محاولة مكشوفة لدخول مكة تحت ستار العمرة، محتمية بحرمة الأشهر الحرم، لتعمل سيوفها فى بطن مكة من الداخل بغتة، وهو الدرس الذى لم تنسه قريش منذ سرية عبدالله بن جحش التى انتهكت الأشهر الحرم، وحلها الكلم القرأى وصادق عليها، لذلك ما أن بلغت أخبار بدء يثرب بالمسير إلى مكة، حتى أخذت مكة تهيب رجالها على الطريق، لتقف فى وجه الغزو الآتى. وبلغ النبى أن على الطريق قد وقف بنو لؤى بجموعهم وخيلهم، فتوجه إلى رجاله قائلا:

أشيروا على، أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم،
فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موتورين محرومين، وإن نجوا تكن عنقا قطعها
الله؟ أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟^(٢٩).

كان بإمكان المسلمين أن يميلوا على مضارب بنى لؤى الخالية من الرجال، ليقتلوا ما شاءوا من أطفالهم، وتكون عنقا قطعها الله، وكان بإمكانهم أن يتوجهوا عن طريق آخر إلى مكة، فإن اعتراضهم قريش قاتلوها، وردأ على استشارة النبى رجاله جاءه جواب أبى بكر الصديق الحكيم... من حال بيننا وبين البيت قاتلناه،^(٣٠).

(٢٦) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٦. انظر أيضا ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦٩.

(٢٧) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٦.

(٢٨) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٩، ١٠٠.

(٢٩) نفسه: ص ١٠٠.

(٣٠) الموضع نفسه.

وإعمالاً للمشورة، يخبرنا ابن سعد بما تلى ذلك من أحداث؛ فيقول:

سار النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى دنا من الحديبية، وهي طرف الحرم، على تسعة أميال من مكة، ف وقعت يدا راحلته على ثنية، تهبطه على غائط القوم، فبركت، فقال المسلمون: حلّ، حلّ، يزجرونها، فأبت أن تنبعث، فقالوا: خلأت القصواء.

وهنا تأتي برقية جديدة لقريش لمزيد من الطمأنة، تحمل في فحواها معاني لذوى العقول، في قول المصطفى - صلى الله عليه وسلم -:

إنها ما خلأت، لكن حبسها حابس الفيل، أما والله لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله، إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فقامت، فولى راجعا عوده على بدء، حتى نزل بالناس على ثمد من أثماد الحديبية^(٣١).

وبينما القوم ينيخون رحلهم، حمل بشر بن سفيان الكعبي خبراً آخر عند عسفان، يقول للنبي:

يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، وقد نزلوا بذى طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قدموها إلى كراع الغميم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

يا ويح قريش

لقد أكلتهم الحرب

ماذا لو خلوا بيني وبين سائر العرب؟

فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا،

وإن أظهرني الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين،

وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة^(٣٢).

وتحاشياً للاصطدام بجيش خالد بن الوليد، قال النبي بين رجاله: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟»، فيقوم له دليل يسلك معه النبي وجيشه طريقاً وعرأ بين الشعاب، حتى يهبط الوادي، وتعلم قريش بمكانه، فترسل له حليفاً له من خزاعة، هو بديل بن

(٣١) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢ ج ١، ص ٦٦.

(٣٢) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٥.

ورقاء، برسالة، ليرده إليهم النبي برسالة أخرى تؤكد أنه جاء معظماً لحرمة بيتهم، رمز تجارتهم ووسطوتهم وسلطانهم ومعتقدهم، ويذهب بديل بالرد النبوي ليقول «يامعشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً معظماً لهذا البيت»، لكن قريشا التي تعلم هوى خزاعة مع النبي تتهم بديل وتخونه، ذلك الهوى الذي كان يعلمه كتاب السير والأخبار، وهو ما أفصح عنه ابن كثير في قوله:

وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - مسلمها ومشرکها، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة (٣٣).

ولتجب على بديل بردها:

وإن كان جاء لا يريد قتالا، فوالله لا يدخلها علينا عدوة أبداً، ولا تحدث العرب بذلك عنا (٣٤).

وتتذكر قريش ما حدث لقريظة، ذلك الحدث الذي أذهل العرب جميعاً وقريشاً بخاصة، فأى قتال كان في الجزيرة، كان لا يصل إلى إبادة ذلك العدو جميعاً، وإبادة قوم بكاملهم، وما صاحب الحدث من إنذارات تمثلت في الآي الكريم «سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب»، ليأخذ الرعب بقلب مكة قابضاً منها على الجوانح والحشايا، وتظن بالنبي الكريم سوء الظن، وتتسارع أنفاسها وهي تتصور دخوله عليها، ومصير كمصير قريظة وفناء من على وجه الأرض إلى آخر الدهر، فقامت تدفع برسلها إليه رسولا في عقب رسول، فتبعث بعد بديل مكرز بن حفص، وهو من عامر بن لؤي الذين يحملون للنبي كراهية، فلما رآه النبي مقبلاً، قال «هذا رجل غادر»، ثم قال له ماسبق وقال لبديل ليحملة إلى مكة (٣٥).

ثم يردفون وراء مكرز، الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، وهم قوم قد تدرشوا في حب البيت حتى قدسوا أمره جميعاً، وصاروا يمثلون أشد الاتجاهات تعظيماً لحرمة البيت وشعائره، فلما رآه النبي قادماً عن بعد، قال لرجاله: «إن هذا من قوم يتألهون»، ويشرح ابن سيد الناس معقبا شارحا «يتألهون: يعظمون أمر الإله، قال الخشني: التأله التعبد، ورأيت عن ابن الكلبي في نسب الحليس ابن ريان: أنه الحليس بن عمرو بن عامر بن المغفل (٣٦)، ومن هنا كان التصرف الذي يمكن أن يوقع الحليس، فقال النبي بسرعة: «ابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه»، أى ارسلا النوق المشعرة المجلة المهداة للذبح ليرأها، وهنا يقول ابن هشام:

(٣٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٨.

(٣٤) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٦.

(٣٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٨.

(٣٦) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٢.

فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده ، وقد أكل
أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - إعظاما لما رأى ، فقال لهم ذلك ، فقالوا : اجلس ، فإنما
أنت أعرابى لا علم لك (٣٧) .

وترسل قريش رسولا آخر إلى مجلس النبى ، من سادة ثقيف ، هو (عروة بن مسعود الثقفى) ،
الذى وصل إلى مجلس النبى وجلس قبالة مباشرة ، ليفصح عن رعب قريش وذكرى قريظة فى
قوله :

يا محمد

أرأيت إن استأصلت قومك ،

فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟

يا محمد

جمعت أوشاب الناس (الأوياش) ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟

لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا !!

لكن ليرد عليه أبو بكر على الفور :

أَمْصُصْ بظُر اللات

أنحن نكشف عنه ؟

فيلتفت عروة ليسأل النبى : من هذا يا محمد ؟

ولما لم يكن من المقبول ألا يعرف عروة شخصية أبى بكر ، فإن الاستنتاج هو أن أبا بكر كان
ملبسا بالحديد ، خوذة ودروع ، ويجيبه النبى : « هذا ابن أبى قحافة ، فيرد عليه عروة معرضا عن
إهانته » والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بهذا ، ولكن هذه بها .

ويستمر عروة يحدث النبى ، ويتناول لحية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلما حدثه ،
« والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الحديد فجعل يقرع
يده إذا تناول لحية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقول : أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل
أن لا تصل إليك ، فيقول عروة : ويحك ما أظفك ، ما أغظك ، .

ويبتسم رسول الله ، لأن عروة لم يعرف ابن أخيه وهو مدرع بالحديد ، ذلك الحديد الذى كان

(٣٧) ابن هشام : السيرة فى كتاب السهيلى .. سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٢٦ .

كافيا لإقناع عروة أن الأمر ليس أمر عمرة أبداً، ويتساءل عروة: من هذا يا محمد؟ فيجيبه: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة.

وكان المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلاً من بنى مالك، ثم فر إلى النبي مسلماً، ودفع عنه عمه عروة ديّتهم جميعاً، وهنا يقول عروة للمغيرة: «أى غدر؟ وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟».

ويتطلع عروة حوله، فيرى بين إبل الهدى جملاً مهدى لأبى جهل، وهو ما جاء في قول ابن عباس «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أهدى عام الحديبية في هداياه جملاً لأبى جهل، في رأسه برة من فضة».

ويقلب عروة النظر هنا وهناك فيزداد عجباً، فالرسول لا يبصق بصاقاً إلا ابتدره أصحابه، ولا يتنخم نخامة إلا تسابقوا عليها يتلقونها بأكفهم يدلكون بها وجوههم، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، ولا يحدون النظر إليه تعظيماً وإجلالاً، فينهض الرجل مشدوها مبهوراً، ويعود إلى قريش يقول:

يامعشر قريش؛

إنى قد جئت كسرى فى ملكه

وقيصر فى ملكه

والنجاشى فى ملكه

ورأى والله ما رأيت ملكاً قط فى قومه

مثل محمد فى أصحابه (٣٨).

وهنا يخطر للنبي خاطر، قبل أن تعود إليه رسل مكة، فيختار من رجاله رجلاً عزيزاً على ملة مكة وأشرفهم من الأمويين، هو (عثمان بن عفان) الأموى، فيرسله إلى أهله بمكة يحمل رسالة إليهم، ويتأخر عثمان في العودة، لأمر كان مقدوراً في باطن الزمان، حيث تسرى شائعة لا تعلم من أطلقها؟ أن عثمان بن عفان قد قتلته قريش، ومن ثم توجب الانتقام، فيدعو النبي المسلمين فجأة ودون مقدمات واضحة، إلى بيعته، تسليماً له فى أى قرار يتخذه دون مناقشة، فكانتبيعة الرضوان على أى أمر يراه النبي حتى لو كان الموت، ومن هنا كانت تلك البيعة تسليماً لما هو فى باطن الساعات الآتية، آت. وكوفىء جميع من أعطى التسليم فى قول النبي لهم: «لا يدخل النار إن شاء الله أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها» (٣٩).

(٣٨) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٢. انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٦؛
٢٩، انظر أيضاً شرح السهيلي فى الروض الأنف... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٥.
(٣٩) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٧٣.

وبانتهاه البيعة، يظهر عثمان ابن عفان سليماً معافى ليس فيه شيء، وتعلم قريش أنها لن تستطيع أن تزحزح محمداً ورجاله، وأنها لن تنجو من مصير قريظة إلا بالتساهل، خاصة بعدما بلغت الرسالة: «والله لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها»، وهي ما تعنى رغبة في الصلح.

وتساهلت قريش فأرسلت سهيل بن عمرو، رجل المفاوضات المحنك إلى النبي، لكنها بدافع من الأنفة والعزة، وضعت للصلح شروطاً تضمن لها كرامتها أمام الأعراب، وهو ما وعاه النبي فور أن رأى سهيل يهل على المسلمين، فالتفت إلى رجاله يقول: «لقد سهل الله لكم أمركم»^(٤٠). ويجلس سهيل مع النبي، ويعرض عليه عروض مكة، وهي الصلح بهدنة مدتها عشر سنوات، لا يتعرض فيها أحد للآخر، وهو ما يضمن عودة الأمان للطريق التجاري، ويوافق النبي. وأن من أحب أن يحالف قريشاً من العرب حالفها، ومن أحب مخالفة محمد حالفه، ويوافق النبي.

وترتفع المطالب المكية تدريجياً للاختبار وجس النبض ليقول سهيل:

ومن أتى محمداً بغير إذن وليه رده إليهم، ويوافق النبي.

ثم تتعالى نبرة التشدد أكثر فيقول سهيل: وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه إليه، ويوافق النبي.

ويستمر سهيل: ويعود محمد بـرجاله عن مكة هذا العام ليعودوا في العام المقبل دون سلاح أو حديد إلا سلاح الراكب المسافر العادي، حيث يتركها لهم أهلها ثلاثة أيام، يعتمر بها ثم يتركها مغادراً، ويوافق النبي.

ويقول ابن كثير: إن المسلمين وهم يرون تشدد سهيل وتساهل النبي أمامه كادوا يهلكون غماً وغيظاً ونكدًا، ويزداد الغم عندما تبدأ كتابة كتاب الصلح الرسمي، فعندما بدأ النبي يملأ علياً بن أبي طالب الكتاب قائلاً: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، رد سهيل على الفور:

أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟!

اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب.

ويهتف المسلمون بالرفض والاستهجان والشجب، يصرون على «بسم الله الرحمن الرحيم، لكن النبي يقول لعلي: «اكتب باسمك اللهم؛ هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، لكن ليعترض سهيل: بالقول:

(٤٠) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٥.

لو كنا نعلم أنك رسول الله
ما قاتلناك. لكن اكتب اسمك
واسم أبيك.

فيأمر النبي علياً أن يمحو «رسول الله»، فيرفض على رفضاً قاطعاً قائلاً: «والله لا أمحاك أبداً،
فيمسك النبي الصحيفة - فيما روى البخاري - ويمحو «رسول الله»، ويكتب بخط يده «محمد بن
عبد الله»^(٤١).

وبينما المسلمون في غم وشدة وكرب، يأتي ما يزيد الهم همماً والكرب كرباً، فيفاجئهم أبو
جندل ابن سهيل بن عمرو قد انفلت من مكة يرسف في قيوده ليصل في تلك اللحظة الحرجة
إلى النبي جالساً مع أبيه يكتبون صلحهم ليقفز سهيل بن عمرو قائلاً للنبي - صلى الله عليه وسلم:
«وهذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده، فيرد النبي: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، لكن ليرد
سهيل بعنف، مقسماً إن لم يفعل: «والله لا نصالحك على شيء أبداً»، فيقول النبي - صلى الله
عليه وسلم - «إذن فأجره لي»، فيقول أبوه «ما أنا بمجير له لك»، فيعود النبي للقول راجياً: «بلى،
فافعل»، لكن ليرد سهيل «ما أنا بفاعل».

ويروى لنا ابن كثير تفاصيل تلك الوقائع فيما يروى:

فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكتب الكتاب هو وسهيل بن
عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، وقد انفلت
إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان أصحاب رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - قد خرجوا لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - فلما رأوا من الصلح، والرجوع، وما تحمل عليه رسول
الله في نفسه، دخل من ذلك أمر عظيم على الناس حتى كادوا يهلكون، فلما
رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه وقال: يا محمد قد
لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينتزعه
بتلابيبه ويجره، يرده إلى قريش؛ وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته:
يا معشر المسلمين، أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني، فزاد ذلك الناس
إلى ما بهم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا أبا جندل، اصبر
واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً، إنا

(٤١) ابن سيد الناس: عيون... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٤.

عقدنا مع القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهداً، وإننا لا نغدر بهم، فوثب عمر بن الخطاب يمشى مع أبي جندل إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدكم دم كلب، ويدنى قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه، فضن الرجل بأبيه^(٤٢).

وقد لقي عمر بن الخطاب من أمر هذا الصلح رهقاً شديداً استنفره استنفاراً حتى ذهب إلى النبي يقول:

ألم تعدنا أن نأتى البيت ونطوف به؟
قال: نعم.

وبين الإجابة، وبين واقع ما يحدث، أخذت الحيرة والرعدة الغاضبة عمر ليذهب إلى أبي بكر يقول فى حوار متوتر:

عمر: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟
أبو بكر: بلى.

عمر: أولسنا بالمسلمين؟
أبو بكر: بلى.

عمر: أوليسوا بالمشركين؟
أبو بكر: بلى.

عمر: فعلام نعطي الدنيا فى ديننا؟
أبو بكر: يا عمر الزم غرزك، فإننى أشهد أنه رسول الله.

عمر: وما شككت منذ أسلمت إلا الساعة!!

ويشرح السهيلي معقبا على قولة عمر، التى لم تحوله إلى مناقق كما هى العادة مع المعترضين والشكاكين:

وفى هذا أن المؤمن قد يشك، ثم يحدد النظر فى دلائل الحق، فيذهب

(٤٢) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧، انظر أيضاً البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٦، ١٠٥، انظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٧٠، ٧١، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦.

شكه، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: هو شيء لا يسلم منه أحد^(٤٣).

وأمام شك رجل فى وزن عمر، وهو من هو، وهو وزير الرسول، وهو الذى عز به الإسلام، جاء الوحى ليقطع الشك باليقين الصادق مؤكداً:

«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق» (٢٧ / الفتح).

و «إنا فتحنا لك فتحا مبيناً» (١ / الفتح).

ومع تأكيد الوحى أن الرؤيا قد صدقت، وأن كتاب الصلح كان فتحا مبيناً، كان يفترض أن يهدأ الأمر ويستكين، لكن بعض صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان لهم رأى آخر، فقال رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت، وصد هدينا، ورد رسول الله رجلين من المسلمين كانا قد خرجا إليه، فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قول أولئك فقال: «بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح»^(٤٤). ومن ثم يثنى ابن هشام موضعا ما حدث من لبس عند الصحابة، فيقول: «إن بعض من كان مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال له لما قدم المدينة: ألم نقل يا رسول الله أنك تدخل مكة أمنا؟ قال: بلى، أفقلت لكم من عامى هذا؟ قالوا: لا، قال: فهو كما قال لى جبريل عليه السلام»^(٤٥).

ونعود إلى المسلمين وهم فى كربهم إبان كتابة الصحيفة الرسمية فى اتفاق هدنة ومصالحة، لندرى النبى بعد توقعيات الشهود يقوم ينادى رجاله لاستكمال شعائر العمرة التى لم تتم، قائلا: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، ليقول لنا ابن الأثير أن الناس جميعا قد تعصبوا على رسول الله، فى قوله «فما قام أحد، حتى قال ذلك مراراً، فلم يقم أحد منهم، فدخل على أم سلمة فذكر لها ذلك، فقالت: يا نبى الله اخرج ولا تكلم أحداً منهم، حتى تنحر بدنك وتحلق شعرك، ففعل، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما»^(٤٦).

ويقول ابن هشام: إن النبى «قدم إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق.. فرأى الناس أن رسول الله قد نحر وحلق، فوثبوا ينحرون ويحلقون.. عن ابن عباس قال: حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون، فقال رسول الله: يرحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله

(٤٣) السهيلي: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧، ٣٨، انظر أيضاً ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٠.

(٤٤) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦١.

(٤٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢.

(٤٦) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٥.

المحلقين، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: والمقصرين، فقالوا: يارسول الله فلم ظهرت بالترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: لم يشكروا،^(٤٧).

أما الرجل الآخر الذى جاء النبى مسلما فردّه إعمالا لبند الهدنة، فهو أبو بصير بن عتبة، حيث هرب إلى يثرب ولحق بالرسول - صلى الله عليه وسلم - فكتب فيه للنبي الأزهر بن عوف والأخس بن شريق، ويعثا بالكتاب رجلا من بنى عامر ومعه مولى له، يطلبون رد أبي بصير، فردّه معهما، لكن ما أن غادروا يثرب حتى انتهز أبو بصير فرصة أخذ فيها سيف العامرى وقتله، وعاد للنبي يقول: «يارسول الله وفيت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه، أو يعيث بى، وغادر أبو بصير مجلس النبى ميمما خارج يثرب نحو الساحل، على طريق تجارة قريش، ليتبعه النبى بقوله يردد:

ويل أمة محش حرب

لو كان معه رجال؟!

وبلغت كلمات النبى المستضعفين بمكة، «لو كان معه رجال، فخرج إليه نحو سبعين رجلاً من المستضعفين يقطعون تجارة قريش، يقتلون رجالها ويسلبون ما فيها، حتى اضطرت قريش أن تكتب للنبي تسأله بصله الرحم أن يأوى أبا بصير ورجاله فى يثرب، وأنها لا حاجة لها بهم، فعادوا إلى يثرب بموافقة مكة، ورغم بنود عهد الهدنة^(٤٨).

ولم يكن ذلك أول كسر لبند صحيفة الهدنة، وهو وإن تم برضا قريش، فهو رضى المكره، وكان بتحريض من النبى، لكن حدثت كسر أخرى، عندما هربت أم كلثوم بنت عقبة إلى النبى، وخرج وراءها أخوها عمارة والوليد ليردها عليهم النبى بعهد الحديبية، وببساطة تامة يقول ابن هشام عن رد النبى - عليه الصلاة والسلام - «فلم يفعل، أبى الله ذلك»^(٤٩). قاله هو الذى أبى وليس النبى، بدليل الوحي القائل: «ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار» (١٠ / الممتحنة).

ورغم تأكيد النبى، والله، أن ما حدث كان أعظم الفتح، فإن هناك من شك، وهناك من اعترض، ومن جانبهم رأى كتاب السير والأخبار أن يضيفوا للأمر بعض المبهرات من أحاجيهم المعتادة، فيروى البيهقى عن البراء:

(٤٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩.

(٤٨) نفسه: ص ٣١.

(٤٩) نفسه: ص ٣٢.

كنا مع النبي أربع عشرة مئة، والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء ماء منها، فتوضأ ثم مضى ودعا، ثم صبه فيها، فتركها غير بعيد، ثم أنها أصدرتنا نحن وركائبنا.

ومعجزة مائية أخرى، يرويها لنا الصحابي جابر في حوار له مع شعبة إذ يقول: أتى رسول الله بماء في تور، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشرينا ووسعنا وكفانا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا ألفاً وخمسمائة^(٥٠).

ثم معجزة ثالثة حول تكثير الطعام عندما جاع الجيش في قول الصحابة للنبي: «يا رسول الله، لو انتحرننا من ظهورنا، فأكلنا من لحومها وشحومها وحسونا من المرق، أصبحنا غداً إذا غدونا عليهم وينا جمام، قال: لا، ولكن ائتوني بما فضل من أزوادكم، فبسطوا أنطاعاً ثم صبوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم، فدعا عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبركة، فأكلوا حتى تضلعوا شبعاً، ثم لقلفوا فضول ما فضل من أزوادهم في جريهم.. عن عبد الله قال.. كنا نأكل مع النبي ونحن نسبح تسبيح الطعام،^(٥١).

نتائج الحديبية:

يقول ابن الأثير عن صلح الحديبية: «فما فتح في الإسلام قبله فتح أعظم منه، حيث آمن الناس كلهم، فدخل الإسلام في تينك السنين مثلما دخل فيه قبل ذلك وأكثر»^(٥٢). ويقصد ابن الأثير بالسنين، السنين اللتين مرتا ما بين صلح الحديبية وبين عام فتح مكة، وهو الفتح الذي سبق وشك فيه الصحابة، وتساءلوا رغم الوحي الواضح: أوفتح هو؟ حتى اضطرسيد الخلق إلى القسم بالله للناس أنه فتح قائلاً: «أى والذي نفسى بيده إنه لفتح»^(٥٣). فكيف يمكن رؤية ما حدث في الحديبية باعتباره بالفعل أعظم الفتح.

إن قليلاً من التمعن في خط سير الأحداث، سيكشف من فوره عن صلح الحديبية كفتح عظيم

(٥٠) أخرجه البخارى فى ٦٤ كتاب المغازى ٣٥ باب غزوة الحديبية، الحديث ٤١٥٢.

(٥١) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ١١٥، ١٢٠، ١٢٩.

(٥٢) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٥٣) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١ ص ٧٦.

بالفعل، وعمل دبلوماسي من أعظم أعمال الدبلوماسية والسياسة، يستحق أن تدرسه بإمعان أكاديميات العالم العسكرية، وأنه كان بمصداقية الرسول الكريم وبلاغه الوحي الصادق، هو فتح الفتوح.

* لو عدنا قليلا إلى وراء نطالع تطور الأحداث بعد غزوة الخندق ستلحظ دون جهد يذكر أن خيبر بعد نزول يهود يثرب إليها بقياداتها، ودورها الذي قامت به في الخندق، قد تحولت إلى مركز قوة طالع، مع النشاط الذي لم يهدأ لليهود بين قبيلتي أسد وغطفان لتجديد الأحلاف القديمة، مع الإغراء بميرة خيبر الزراعية، ناهيك عن مفاوضاتهم لقبائل الشمال من فذك وما وراءها.

وكان وصول المعلومات إلى النبي عن خيبر أولا بأول قد كونت لديه فكرة واضحة عن تنامي قوة خيبر، بحيث دخلت توازنات القوى وأصبحت مركز قوة جديد، أزاح قريش إلى موقع خلفي، وكان معنى أن تترك خيبر تتنامى دون تدخل يحد من ذلك التطور، فهو ما كان يعنى أن المدينة سوف تصبح بين طرفي معادلة شديدة الخطورة، فخيبر في الشمال مع أحلافها، وقريش في الجنوب، وأي تحالف ثنائي بين خيبر وقريش كما حدث في الخندق كان كفيلا بتهديد حقيقى لدولة يثرب.

ومن ثم كانت عمرة الحديبية التي وعى مؤرخونا أهدافها فأسموها غزوة الحديبية، حيث كان النبي قد توجه نحوها بعسكره مسلحين مدرعين ملبسين بالسلاح، لكنه عندما التقى ببديل بن ورقاء الخزاعي حملّه إلى قريش رسالة واضحة تقول:

إننا لم نجىء لقتال أحد

ولكننا جئنا معتمرين

وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأخذت بهم

فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس

وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا

والأ فقد حموا

وإن هم أبوا

فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو
لينفذ الله أمره^(٥٤).

(٥٤) الديار بكرى: تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د.ت، ج ٢، ص ١٨.

وهكذا أعلن النبي لقريش أنه يعلم بحالتها المنهكة والمتردية، وأنه مع ذلك يعرض عليها من الخيارات ثلاثة: أولاً هدنة محددة المدة، وكى يدفعهم لقبول الهدنة، أرفق بخيار الهدنة خيارات أخرى أشد قسوة عليهم، وجاءهم بقوة مسلحة قادرة، ولم يعلن لأصحابه أبدا الرغبة فى الهدنة بل وعدهم بالفتح، حتى يظهروا أمام قريش وسفاراتها إليهم فى أكمل استعداد للانقضاض، ولم يظهر لهم إطلاقاً مآقر فى ضميره لدفع قريش إلى قبول الهدنة.

وقد وضح لدينا مدى شعور قريش بالضعف، الذى ظهر فى إرسالها السفراء واحداً إثر آخر، أما أبرز الشواهد على أن النية على الهدنة كانت معقودة بداخله وحده، وربما علم بها أبو بكر فقط. تتمثل فى أنه سمح بتسرب الأخبار لقريش عن مسيرة إليها، بقصد أن يعلموا بتحركه، ثم إعلانه ذلك صراحة لكن ضمن خيارات أخرى، مع تشديده على رجاله بإظهار القوة، ثم خطوته المحسوبة بدقة بإرسال عثمان بن عفان الأموى تحديداً برسالته إلى أهل مكة، ثم حرصه الواضح بعد ذلك لتذليل كل العقبات التى تقف أمام عقد الهدنة مع سهيل بن عمرو، مع ذلك القدر من المرونة الذى فاجأ رجاله وجعلهم يجأرون بالمعارضة والوجبة مما يحدث.

* لأول مرة يعترف الملأ المكى سادة الحجاز وأشراف العرب، أصحاب الأشهر الحرم، وأهل الله ورعاة بيته، رجال العرب المقدمون وسراتهم، لأول مرة يعترفون فى عهد مكتوب وكتاب موثق بشهادات اليهود، بدولة يثرب، ويسيدها، اعتراف واضح من سيد لسيد أنه سيد، بل هو اعتراف من سادة العرب للسيد الجديد أنه رئيس دولة مستقلة ذات سيادة، وهو ما يعنى تخلى قريش عن فكرة قيادتها وحدها للعرب، بدليل البند الخاص بترك الحرية لمن أراد أن يدخل فى عقد محمد، واكتفائها بتحسين نفسها ضد مؤثراته، وهو الأمر الذى سمح بعد ذلك بانتشار أتباعه يدعون بين العرب، ودخول العرب فى حلف يثرب بأعداد لم تشهدها الدولة من قبل، أليس ذلك إذن فتح الفتوح؟!

* ومن بنود الصحيفة أصبح بإمكان النبي مع رجاله أن يزوروا مكة أياماً ثلاثة، وهو أمر شديد الخطورة، حيث سيكون بإمكان أهل مكة أن يروا بنيانه ودولته ورجاله عن قرب، مما يتيح لهم المقارنة والفهم.

* كما أدت الحديبية إلى تفكك المجتمع المكى وإنهيار مقاومته النفسية بعد تدهور قناعة أهل مكة بإمكان استمرار قريش السيادة، ومن ثم دخل رجالهم المقدمون فى دين الله، وكان أبرزهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

* كان اليهود يشكلون فى بداية الأمر مطمحاً لدعوة الإسلامية، للانضواء تحت لوائها واتباع صاحبها، لكن بمرضى الوقت تكشف لليهود وللنبي - صلى الله عليه وسلم - اختلاف توجهاتهم بل

وتضاربها، وكان استمرار وجود اليهود فى يثرب على يهوديتهم يشكل شرخاً عميقاً فى بناء دولة قامت على أيديولوجيا دينية واحدة موحدة، وعليه فقد كانوا عقبة كأداء بحسبانهم أصحاب كتاب من ذات المصدر السماوى الذى يأتى منه الكلم القرآنى، وكان مفترضاً أن يكونوا مصدقين لما أتى محمد من آى الكتاب القرآنى، لكنهم إطلاقاً لم يعترفوا له بهذه الصلة مع السماء، وكان رأيهم باعتبارهم أصحاب الكتاب الأول هو العامل الحاسم لدى العربان فى مدى صدق علاقة الآى القرآنى بالسماء، لكن وجودهم فى يثرب وعدم اتباعهم دعوة النبى الدينية حمل للعربان إشارات واضحة ودلالات بإنكارهم عليه تلك النبوة، فكانوا المنكر السماوى القائم فى الواقع العربى للوحى القرآنى، وهو ما أدى إلى بدء صراع طويل معهم انتهى بطردهم من يثرب، وطردهم من رحمة الإله بعد ما كانوا عنده أفضل العالمين. وتم أثناء ذلك إزاحة رموزهم الدينية إلى الوراء، فحلت الكعبة المكية محل أورشليم، وعاد النبى إلى تمجيد المعبد الذى قدسه الجاهليون طوال عصورهم الجاهلية، وهى العودة التى صحبت باحترام ذلك البناء المكى المتواضع هندسياً ومعمارياً، وإلقائه فى رحم تاريخ أقدم يعود به إلى زمن آدم ثم إبراهيم وإسماعيل، وهو التحول الذى لفت انتباه قريش، حيث بدأت تلحظ ما يمكن أن يتحقق لها مع محمد وبه، وهم يرونه نتيجة الخندق يتخلص من آخر يهودى بيثرب، ليتحول تماماً مع غزوة الحديبية إلى المشاعر العربية القرشية المكية، فيهل بالمناسك الأولى التى هى مناسكهم وأعرافهم التى تواضعوا عليها، ثم لا شك يتذكرون قول عتبة بن ربيعة حكيمها المقدم، وهو يقول لهم منذ زمان قبل أن يواريه ثرى بدر: «أطيعونى وخلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن للذى سمعت منه نبأ، فإن أصابته العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن ظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به».

* والمقصد من هذا كله أن عقلاء مكة، قد أصبحوا الآن يرون ما لم يكن بإمكانهم رؤيته من قبل، خاصة بعد أن وجه أنظارهم لما ينتظرهم من أمجاد، بغزواته على حدود الروم فيما بين ٦٢٦ و ٦٢٩ م، وجلى لديهم أنهم فقط بالاتفاق السلمى والتسليم له ولقيادته، يمكنهم المحافظة على مكانتهم وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، والخروج معه إلى الدنيا الرحبة، خاصة بعد أن رأت النبى - صلى الله عليه وسلم - يفتح لها الأبواب ويعد لها المواقع فى منظومة دولته سياسياً ودينياً واقتصادياً ومجتمعياً.

* وكان اعتراف النبى لقريش بقواعد التعامل مع البيت المكى الحرام، وبالعمره، وبالنسق الدينى الجاهلى المتعلق بالكعبة، بلاغاً واضح المعانى والمعالم بخطواته التوفيقية الجديدة، ومن ثم تصرف النبى فى الحديبية بحكمة ومهارة رجل السياسة وسائس الدولة الدبلوماسى، وهو ما لم يفهمه المسلمون الصحابة لأول وهلة، بينما كان عروة بن مسعود يعود يعلن لقريش قبيلة النبى

أن ولدهم قد أصبح ملكاً لا تدانيه ملوك الأرض، وأنه ما رأى ملكاً مثله قط، وهي مجموعة المتوافقات التي أدت خلال الهدنة، بل خلال أشهر قليلة، إلى اندفاع العريان وجند قريش إلى سيد الدولة اليثربية، يعلنون الطاعة والإسلام، وعلى رأسهم خالد بن الوليد، الجندى الحاذق الذي سيصبح سيف الدولة وسيف الله، وعمرو بن العاص داهية العرب ورجل السياسة الذي لا يشق لمكره غبار، وغيرهم ممن شكلوا من بعيد قيادات العسكرية تاريخاً العربية.

* وتأسيساً على ما أدت إليه الحديبية من اعتراف سادة العرب لمحمد بالسيادة، مع الاعتراف الواضح بدولته، صنع الرسول لنفسه وللدولة خاتماً رسمياً، ليصدق به على رسائله الرسمية للعالم، التي بدأت تفد على الملوك والقيصرة ممهورة بخاتمه، يدعوهم فيها إلى اتباعه، ووصلت تلك البعث الأولى من العرب إلى الدنيا تعلن النجاشي والمقوقس وعظيم الروم وكسرى فارس بقيام دولة جديدة على خريطة عالم ذلك الزمان.

* أما النتيجة الأهم إطلاقاً وتتشابك مع كل الأسباب والنتائج، فهي أن النبي قد تمكن بصلح الحديبية من تأمين خطوطه الخلفية من أي تحرك معاد تقوم به قريش، ومع انهيار قريش توجه النبي إلى مركز القوة الصاعد، إلى خير.

فتح خيبر

«الله أكبر

خربت خيبر

إنا إذا نزلنا بساحة قوم

فساء صباح المنذرين،

[النبي - صلى الله عليه وسلم -]

«وأثابهم فتحاً قريباً... وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها» (الفتح ١٨، ٢١).

وهذا وعد آخر بفتح قريب، تليه فتوح أخرى مقبلة لم يتمكن المسلمون منها، لكن الله يمهد لها لهم، فيحيط بها ويجهزها للفتح، حيث يبدو أن الأتباع لم يعجبهم ما حدث بالحديبية، ولم يدركوا مرامي العهد البعيدة، وأفصح بعضهم عن أن النبي لم يحقق لهم في الحديبية ما وعدهم به سلفاً، ومع تأكيده لهم أن ما تم من عقد صلح الهدنة كان فتحاً عظيماً، فإن رؤاهم قصرت عن تتبع البصيرة النبوية وهي تعمل في الآتي، ومن هنا جاءت تلك الآيات بوعدهم جديد، يعرض المسلمين عن فتح مكة ويثيبهم بدلاً عنها بفتح آخر قريب، إضافة لفتوحات أخرى أعظم حاولوها ولم يقدروا عليها، ومن ثم عقب الحكم على الآيات بقوله:

أخبرني عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله: وأثابهم فتحاً قريباً، قال: خيبر، وأخرى لم تقدروا عليها أحاط الله بها، قال: فارس والروم^(٥٥).

وعقب موسى بن عقبة بقوله: ولما رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية، مكث عشرين يوماً أو قريباً من ذلك، ثم خرج إلى خيبر، وهي التي وعده الله إياها. أما مروان والمصور فقد قالوا: انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح بين مكة والمدينة^(٥٦)، وهو الأمر الذي يفصح عن معرفة القائد بدواخل رجاله، وضرورة الإسراع بما يعوضهم بغنائم فورية، عوضاً عن أملهم الطموح في ثروات مكة العظمى، وهو ما وعاه البيهقي وهو ينقل عن الرواة القول:

انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله عز وجل فيها خيبر، وعدكم الله مغنماً كثيرة تأخذونها

فعجل لكم،

هذه خيبر^(٥٧).

وفي الطريق إلى خيبر، كانت غطفان بثقلها، تلك القبيلة الغزارية التي يقودها الطماع الأحق المطاع، الذي خذل في اتفائه السرى بالخذق، وتم التخاذل بين الأحزاب دون أن يجنى لطمعه مغنماً، وعاد صفر اليديين، فلا هو حارب برجاله مع قريش فغنم، ولا هو عاد من محمد بما اتفقا عليه من مكاسب.

ومن ثم كانت خطة القائد أن ينزل الرجيع ليقطع بين غطفان وخيبر، وكان توقع القائد صائباً، فقد جهزت غطفان رجالها لما سمعت بمسير جند الله لتظاهر خيبراً ضد الجيش الإسلامي، وهنا، وما أن تحرك رجال غطفان نحو الرجيع حتى سمعت مؤخرة جندهم ضجيجاً خلفهم، في بيوتهم، وجلبة شديدة، فعاد رجال غطفان سراعاً إلى ديارهم، خوفاً على أموالهم ونسائهم وذرائعهم، لكن كتبنا الإخبارية لا تحيطنا علماً شافياً وواضحاً بحقيقة ما حدث في ديار غطفان مما أجبرها على لزوم ديارها^(٥٨).

(٥٥) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٣.

(٥٦) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٣.

(٥٧) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٧.

(٥٨) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١٦، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة في كتاب السهلي، ج ٤، ص ٤٠.

المهم، وما يجب استنتاجه، أن غطفان لظمت ديارها بعد خطة مقدرة ومحكمة أجبرتها على عدم الحركة، ليستمر الجيش اليرشى فى تقدمه الوئيد الهادئ الكامن، يسير ليلاً ويكن نهاراً، يستخفى حتى يبيغ خيبر فجأة فى حصونها وصياصياها. ويصل جند الله سارين دون صوت عند سدول الليل، يحيطون بالحصون دون أن يصدرؤا صوتاً أو يشعلؤا ناراً، حتى تبدأ خيوط الفجر تضئ المزارع حول الحصون، ويخرج مزارعو خيبر كعادتهم مع إشراقة الصباح، يسحبون ماشية الحرث والسكك والفتوس، لكن ليلمح أحدهم الخوذ والدروع المتحركة، ويلمحهم آخر كامنين بين الزروع، ليكتشف مزارعو خيبر الدوائر المحكمة تحيط بهم من كل جانب، فيرجعون يدفعهم الفرع صارخين نحو حصونهم:

محمد؛ والخميس معه.

ليجواب صراخهم الفازع هتاف النبى فى رجاله معلناً بدء الهجوم

الله أكبر

خربت خيبر

إنا إذا نزلنا بساحة قوم

فساء صباح المنذرين^(٥٩).

كانت خيبر أرض زرع وسط بدر جياح، خربت غدر العريان وإغاراتهم المتكررة وقت نضوج المحصول، عندما كانوا يهبطون عليها كالجراد يذهبون عرق الشهور والتعب والجهد، وهوما دعا الخيابرة إلى إقامة عدد من الحصون القوية والصياصى، لصد تلك الغزوات البربرية، لكن التجربة الجديدة مع الجيش الإسلامى المنظم، أثبتت أنهم ليست مانعهم حصونهم، فتدنى المسلمون يفتتحون الحصون حصناً حصناً، ليسقط حصن ناعم، وعنده يستشهد الصحابى محمود بن مسلمة، عندما ألفت عليه امرأة خيبرية رجاها من على سور الحصن، ثم حصن النطاة ليسقط بعده حصن الشق، ويهرب سكان كل حصن إلى الحصن الذى يليه، حتى يتحصنوا جميعاً فى الحصون الخمسة الباقية: الأخبية والوطيح والسلام والقموص والكتيبة.

ويظن الخيابرة أنهم باتوا فى أمان، فيرفضون النداء المردد حولهم بالخروج من الحصون مستسلمين، ليمر أربعة عشر يوماً من الحصار، انتهى بعدها النبى إلى قرار يتم تنفيذه لأول مرة فى بلاد العرب، هو الأمر بإقامة المنجنيق لذك الحصون، ذلك السلاح الذى كان قاصراً على

(٥٩) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١٧، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهلى... سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٠، انظر أيضاً ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٦.

جيوش الإمبراطوريات. وأيقن المتحصنون بالهلاك، وأنه لو ضربها بالمنجنيق لدكها دكاً، وآل مصير البقية الباقية إلى مآل قريظة.

وما أن يشاهد المتحصنون شكل العمل وطبيعته، ويدركون أنها أيام حتى ينتصب السلاح الرهيب، حتى يخرج من الحصن تحت راية السلام زعيمهم كنانة بن أبي الحقيق، حاملاً للنبي صلحاً على شروط صلح النصير: أن يغادروا بلادهم، ويتركوا للنبي أموالهم وحصونهم وأرضهم، لا يأخذون معهم لا صفراء ولا بيضاء، اللهم إلا ما يستر العورة من لباس، فقط نظير أن يخفن النبي - صلى الله عليه وسلم - دماءهم، ووافق النبي، وهو ما نقله ابن كثير عن الواقدي وهو يروى:

فنزل إليه ابن الحقيق، فصالحه على حقن دمائهم ويسيرهم، ويخلون بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة، على البر، إلا ما كان على ظهر الإنسان، يعنى لباسهم^(٦٠).

ثم يردف:

فنزّلوا من شدة رعبهم منه فصالحوه، وأموال بني النصير المتقدم ذكرها، مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله خاصة^(٦١).

لكن الصلح بهذه الشروط الواضحة لم يسر حتى كمال اكتماله، فقد أضاف النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الشروط شرطاً آخر، حول الأموال حين قال: ويرثت منكم ذمة الله ورسوله، إن كتمتم شيئاً. فصالحوه على ذلك^(٦٢).

أوما جاء عند ابن سعد برواية ابن عباس، في سؤال النبي - صلى الله عليه وسلم - للزعيم الخيبري المرعوب كنانة بن أبي الحقيق، وأخيه الربيع: أين أنيتكما التي كنتما تعيرانها أهل مكة؟

ويرتبك الزعيم المهزوم، ويجف حلقه وهو يقول متلعثماً: هربنا فلم نزل تضعنا أرض وترفعنا أخرى، فذهبنا، فأنفقنا كل شيء، فيرد النبي - صلى الله عليه وسلم -:

(٦٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠٠.

(٦١) نفسه: ص ٢٠٤.

(٦٢) الموضع نفسه.

إنكما إن كنتما تكتمانى شيئاً فاطلعت عليه، استحللت دماءكما وذرايكما.
فقالا: نعم^(٦٣).

وهنا نعلم أنه كان شركاً وقع فيه الزعيمان، حيث نعلم أن النبي كان يعلم سلفاً بأمر كنز عظيم، بل كان يعلم بمكانه، حيث يقول ابن سعد: إن الله قد دل رسوله على ذلك الكنز^(٦٤)، بينما يوضح لنا ابن هشام في سيرته، سر معرفة الرسول بالكنز المخبوء، في قوله:

أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجل من يهود فقال لرسول الله -
صلى الله عليه وسلم -:

إني قد رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة.

وهو ما دفع النبي للشرط السابق ذكره، والذي أورده ابن هشام في قوله:

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكنانة:

أرأيت إن وجدناه عندك؛ أأنتك؟

قال: نعم^(٦٥).

وهنا نتابع من ابن سعد، الذي لم يعلم بأمر ذلك اليهودي الذي باع قومه وأفشى سر الكنز العظيم، مما دعا ابن سعد لاعتبار معرفة النبي بأمر الكنز خبراً إلهياً، فنجده يقول في روايته متابعاً:

فدعا النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من الأنصار فقال: اذهب إلى قراح كذا وكذا، ثم ائت النخل فانظر نخلة عن يمينك أو عن يسارك، فانظر نخلة مرفوعة، فأنتى بما فيه. فانطلق، فجاء بالآنية والأموال^(٦٦).

والآن وقد كشف خداع الرجلين، وجيء بكنزهم للنبي، توجه النبي إلى كنانة مرة أخرى يسأله ما بقى من كنزه، فأنكره،

فأمر به رسول الله الزبير بن العوام فقال:

(٦٣) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨١.

(٦٤) نفسه: ص ٧٧.

(٦٥) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

(٦٦) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨١.

عذبه حتى تستأصل ما عنده.

فكان الزبير يقدح بزند في صدره، حتى أشرف على نفسه.

ثم دفعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة^(٦٧).

وانطلق السيف الإسلامي يعمل في المستسلمين، ليقتل منهم في قول ابن سعد «ثلاثة وتسعين رجلاً من يهود، منهم الحارث أبو زئنب، ومرحب، وأسير، وياسر، وعامر، وكنانة بن أبي الحقيق، وأخوه، وإنما ذكرنا هؤلاء وسميائهم لشرفهم»^(٦٨).
وكان تبرير تلك المقتلة واضحاً لكل ذى عينين، وهو ما ألح ابن كثير على شرحه وبيانه في قوله:

قلت: ولهذا، لما كتموا وكذبوا وأخفوا ذلك المسك الذي كان فيه أموال جزيلة،

تبين أنه لا عهد لهم!!

فقتل أبي الحقيق، وطائفة من أهله، بسبب:

نقض العهد والمواثيق!!

.. فقتل رسول الله ابني أبي الحقيق

وأحدهما زوج صفية بنت حيى بن أخطب

وسبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نساءهم وذرائعهم وأموالهم

بالنكث الذي نكثوه

وأراد إجلاءهم عنها، فقالوا:

يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا لأصحابه غلال يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر، على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل^(٦٩).

(٦٧) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

(٦٨) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٧٧.

(٦٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠٠.

وهكذا، وبعد المقتلة التي نتجت عن نقض العهود من زعماء خيبر، رأى من بقى منهم أن يقترحوا على النبي أمراً آخر، هو أن يظلوا في أرضهم يزرعونها ويفلحونها ويستخرجون خيراتها، بدلاً من مغادرتهم وخراب الأرض ويوارها من بعدهم، على أن يظلوا على دينهم دون تبعية دينية، لكن مع تبعية خراجية، يعطون بموجبها ليثرب شطر محصولهم، مع شرط تنبيهه من النبي، يقول لهم مردفاً:

على إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم^(٧٠).

وبانتهاء المعركة، جاء دور السبايا وتقسيم الأموال، فأما الأموال التي أوجف عليها المسلمون بالخييل والركاب، فقد قسمت بينهم، أما التي استسلمت وعقدت الاتفاق، فعائدها كان خاصاً لرسول الله، أما السبايا فقد تم تقسيمهن بين المقاتلين من جند الله.

ويؤكد لنا رواية السير والأخبار جميعاً، أن غزوة خيبر قد فشى فيها إتيان المسلمين لنساء يهود على ملأ، ففشت السبايا الخبيريات في المسلمين، إلى الحد الذي دفع النبي لوقف اغتصاب النساء الحبالى، يناشد رجاله بندائه الراقى الرحيم:

لا يحل لامرئ أن يسقى ماءه زرع غيره^(٧١).

وكان النبي قد قتل كنانة بن أبي الحقيق، زوج صفية بنت حيى بن أخطب سيد النصير، وكان قد سبق وقتل أباهما حيى في مذبحة قريظة، لذلك، وحتى لا ينصرف ذهن كائد للإسلام ونبيه الكريم، إلى أن قتل زوجها كنانة، كان للاستيلاء على صفية، فإن كتب الأخبار تأتي هنا واضحة لا تحمل في خبرها لبساً، فتعلمنا أن النبي لم يعلم بجمال صفية بنت حيى زوجة كنانة، إلا بعد أن قتل زوجها بالفعل، لنقضه العهود والمواثيق، وتتفق جميعاً حول رواية أنس بن مالك الذي قال:

قدمنا خيبر، فلما فتح - صلى الله عليه وسلم - الحصن،

ذكر له جمال صفية بنت حيى بن أخطب

وقد قتل زوجها

وكانت عروساً

فاصطفاها لنفسه^(٧٢).

(٧٠) ابن سيد الناس: عيون... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٦.

(٧١) نفسه: ص ١٧٣، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٤١.

(٧٢) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٧.

وقد قدرت الأقدار، أن تحظى صفية بالإكرام، فتحظى بسيد الخلق أجمعين، - صلى الله عليه وسلم -، رغم أنها بنت عدو الله حيى بن أخطب، الذى حزب الأحزاب، وزوج زعيم يهود خيبر كنانة بن أبى الحقيق، الذى نقض العهود والمواثيق، بعد اتفائه السلمى مع النبى، وهو ما يشرحه أنس فى قوله:

جمع السبى

فجاء دحية الكلبي فقال: يا رسول الله اعطني جارية من السبى،

قال: اذهب فخذ جارية،

فأخذ صفية بنت حى،

فجاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال:

يا نبى الله، أعطيت دحية صفية بنت حى سيد قريظة والنضير؟ ما

تصلح إلا لك!!

قال: ادعوا بها، فلما نظر إليها - صلى الله عليه وسلم -

قال: خذ جارية من السبى غيرها^(٧٣).

وفى رواية أخرى أن دحية الكلبي صديق النبى، تم تعويضه عن صفية بسبعة رؤوس دفعة واحدة، وهو ما أخبرنا به ثابت فى قوله: «وقعت صفية فى سهم دحية، وكانت جارية جميلة، فاشتراها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسبعة رؤوس، ودفعها إلى أم سليم تصنعها وتهيتها»^(٧٤).

وما أن ارتحل الجيش عن خيبر، حتى أناخ فى سد الصهباء فى الطريق إلى يثرب، وضربت للنبي وصفية قبة، ظل فيها النبى معها من الأيام ثلاثة، أو بتعبير ابن كثير:

وأقام ثلاثة أيام يبنى بها..

وكانت التى جمعتها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومشطتها

وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان، أم أنس بن مالك^(٧٥).

ويروى البيهقي:

وقد بات أبو أيوب ليلة دخل بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائماً

قريباً من قوته.

(٧٣) نفسه: ص ١٩٨.

(٧٤) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٤.

(٧٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١٢، ٢١٣.

ولما خرج الرسول من القبة سأله عن طوافه حول القبة كل ذلك الوقت، فرد أبو أيوب مفصلاً عن مدى إخلاص الرجال لصاحب الدعوة:

لما دخلت بهذه المرأة،

وذكرت أنك قتلت أباه وأخاه وزوجها

وعامة عشيرتها،

فخفت لعمر الله أن تغتالك^(٧٦).

وهو الأمر الذي يجد صداه فيما أفصح عنه لسان صفية عندما آلت إلى النبي في قولها: «كان رسول الله من أبغض الناس إليّ، قتل زوجي وأبي، فما زال يعتذر إليّ ويقول: إن أباك ألب على العرب.. حتى ذهب ما بنفسى»^(٧٧).

أحداث في خيبر:

وفي خيبر أحداث حدثت، تفصح عن كثير مما في النفوس من مكامن، وتكشف عما في العقول من مفاهيم، فهذه صفية تصفو للنبي ويزول ما بنفسها من بغض له، لتخبره وهو يبنى بها داخل القبة برؤيا رأتها، يأتينا خبرها في قص البيهقي علينا:

أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى بصفية.. ورأى - صلى الله عليه وسلم - بعين صفية خضرة، فقال: يا صفية ما هذه الخضرة؟ قالت: كان رأسي في حجر بن أبي الحقيق وأنا نائمة، فرأيت القمر زال من مكانه فوق في حجرى، فأخبرته بذلك، فلطمنى وقال:

تمنين ملك يثرب!؟

أو

تمنين هذا الملك الذي بالمدينة!؟

فأعجب الرسول - صلى الله عليه وسلم - برؤياها^(٧٨).

(٧٦) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٠، ٢٣٢.

(٧٧) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠١.

(٧٨) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٠، ٢٣٢.

وهو الرد الذى يعبر عن رؤية العرب آنذاك للنبي كملك على يثرب، أو رؤيتهم الأوسع لما هوأت، فى صياغة ابن هشام لرد كنانة على زوجته صفية:

ما هذا إلا لأنك تمنين ملك الحجاز محمداً؟^(٧٩)

وهو ما أعجب ابن كثير فطرب له وهو يوصف رؤيا صفية فى قوله: «فسألها ما شأنها؟ فذكرت له ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة رضى الله عنها وأرضاها»،^(٨٠).

ومفهوم كنانة بن أبى الحقيق، ومفهوم صفية بنت حياى عن النبوة بحسبانها ملكاً، هو الفهم الطبيعى الناشئ عن تأسيس دولة للعرب فى يثرب، وهى رؤية واضحة من صفية تتفق مع مفاهيم توراتها، قبل أن تعاشر النبي وتعرف معنى النبوة الحققة، فهى لا تعلم حسب مآثرها الدينى سوى الملك، كملك داود، وملك سليمان وغيرهما، أما أنبياء التوراة فكانوا مجرد دراويش، وما يفعله محمد هو بالمطابقة فعل داود وسليمان عندما وحدا قبائل البدو فى دولة تأسيسية فى فلسطين، وفى ضوء هذا الفهم يلتقى تجريد الكتائب والجيش مع أساليب ملوك التوراة، وهو الأمر الذى ترك فى نفسها فى مبدأ الأمر بغضاً شديداً لذلك الملك الذى حلمت به، وزادها بغضاً ما رآته يفعل بقومها إزاء إخفائهم أمر كنزهم عنه، ويروى ابن هشام مشهداً لاشك كان ذا أثر عميق فى نفس صفية، حيث يقول نقلاً عن ابن إسحاق:

ولما افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القموص، حصن بنى الحقيق، أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بصفية بنت حياى بن أخطب وبأخرى معها، فمر بهما بلال، وهو الذى جاء بهما، على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التى مع صفية، صاحت، وصكت رجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: أغربوا عنى هذه الشيطانة.

وأمر بصفية فحيزت خلفه،
وأبقى عليها رداءه.

فعرف المسلمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اصطفاها لنفسه، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لبلال: أنزعت منك الرحمة يا بلال، حتى تمر بامرأتين على قتلى من رجالهما؟^(٨١)

(٧٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

(٨٠) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٧.

(٨١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

وهكذا كان الرسول ينبه هذا وينهى ذلك، ويحاول رفع القسوة وانعدام الرحمة، ويمنع نكاح الحبالى من النساء، ومع ذلك ظلت هناك مظاهر للقسوة تنبؤ هنا وتطفو هناك، مثلما حدث مع محمد بن مسلمة الذى لم يكتف بقتل كنانة زوج صفية ثاراً بأخيه محمود الذى ألقيت عليه الرحي، حيث يقول الواقدي: «إن محمد بن مسلمة ضرب ساقى مرحب فقطعهما، فقال مرحب: أجهز على يا محمد، فقال محمد: ذق الموت ذق، كما ذاقه أخى محمود، وظل الرجل على حاله يعانى لولا أن مر عليه الإمام على ففصل رأسه عن جسده رحمة به»^(٨٢).

ومن الجدير بالذكر أن الرواة اختلفوا فى أمر صفية، هل ظلت محظية ضمن جوارى الرسول أم تزوجها لتصبح من أمهات المؤمنين، خاصة أنه قد بنى بها ولم تكمل عدتها، لكن تميل الأغلبية إلى أنه أعققها وتزوجها، وهو ما جاء فى الشاهد: «قال حماد، قال عبد العزيز لثابت، يأبأ محمد، أنت قلت لأنس ما أصدقها؟ قال أصدقها نفسها، فحرك ثابت رأسه كأنه صدقه»^(٨٣) بمعنى أنه تزوجها بدليل أنه أعطاها صداقاً، وأن هذا الصداق كان عتقها.

ولا يمضى من الزمن هنيهات وأيام، حتى يحدث أمر جلل، حيث كانت محاولة اغتيال سيد الخلق بالسم، وهو ما جاء فى رواية تقول:

دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على صفية، ومعه بشر بن معرور، وهو أحد بنى سلمة، فقدمت إليهم الشاة المصلية، فتناول رسول الله الكتف وانتهش منها، وتناول بشر عظماً وانتهش منه^(٨٤).

ويلوك النبى نهشته من لحم الكتف، ليلفظه بسرعة ويهتف بضيوفه «ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرنى أنه مسموم، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان، ويموت بشر من نهشته، ويشعر النبى بأثار السم القاتل تسرى فى بدنه، فيحتجم يومئذ، وقد حجه مولى بنى بياضة بالقرن والشفرة، وبقي رسول الله بعده ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذى توفى فيه، فقال: «ما زلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر عدداً، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهرى، فتوفى رسول الله شهيداً، قال ابن هشام: الأبهى هو العرق المعلق بالقلب.. فكان المسلمون يرون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد مات شهيداً، مع ما أكرمه به الله من النبوة»^(٨٥).

ثم نعلم من كتب الأخبار والسير والتاريخ، أن تلك الشاة المسمومة، جاءت صفية هدية من

(٨٢) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤١٦.

(٨٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٥.

(٨٤) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١١.

(٨٥) للموضع نفسه.

قريبة يهودية لها هي زينب بنت الحارث أهدتها لها لتقدمها إلى سيد الخلق المصطفى، ولما سألها النبي لم اقترفت ذلك العمل الشنيع؟ قالت: «قتلت أبى وعمى وزوجى وأخى.. قال القاضى عياض: واختلفت الآثار والعلماء، هل قتلها النبي - صلى الله عليه وسلم - أم لا؟» (٨٦).

ورغم أن غزوة خيبر كانت ناجحة بكل المقاييس، إلا أن رواتنا لم يعودوا بقادرين على تجاوز منهجهم الإعجازى، فى إلحاق كل حدث بمعجزات مناسبة، ونموذجاً لذلك ما روته الأخبار عما حدث أمام أحد حصون خيبر فى رواية ابن كثير حيث يقول:

فتراموا.. حتى أصاب نبلهم بنان النبي - صلى الله عليه وسلم -، فأخذ عليه السلام كفاً من الحصى فرمى حصنهم، فرجف بهم حتى ساخ فى الأرض، وأخذهم المسلمون أخذاً باليد (٨٧).

من غير أن يدرك ذلك الراوية أن هذا الحل العملى، كان بديلاً مناسباً عن كل ذلك الحصار الطويل وساعات المعارك وإقامة المنجنيق، وأنه كان بالإمكان فى سويحات أن يرمى النبي تلك الحصى على كل حصن لينتهى الأمر بكل بساطة، ويؤمن الجميع إزاء تلك المعجزة الكبرى، وهو ما يذكرنا بحصى بدر الإعجازية.

وأحاديث أخرى عن معجزات أخرى، تبرز وسطها رواية هي بحق من اللطائف، لتعبر عن الجزاء الفورى للمؤمن بالنكاح حتى للموتى، وهو ما جاء خبره متعددأ فى كتب الأخبار عن الراعى الأسود الذى أسلم يوم خيبر ودخل المعركة، فقتل بحجر، وجاء الرسول ووقف أمام الشهيد الذى أسلم من لحظات، «فالتفت إليه رسول الله ومعه نفر من أصحابه، ثم أعرض عنه، فقالوا: لم أعرضت عنه؟ قال: إن معه الآن زوجته من الحور العين» (٨٨).

وبينما الجيش فى الطريق إلى يثرب، يأمر الرسول بالالتفاف دورة كبرى، يهبط بها بغتة على وادى القرى، وفى أربعة أيام أنهى الأمر وقسم غنائم وادى القرى على أصحابه، وعامل يهود الوادى على أرضهم بشروط خيبر، يزرعون أرضهم ويعطون نصف منتوجها ليثرب، وبلغ ذلك يهود ثيماء فذلك، وبينما يعرج عليهم أتوه هم بالطاعة، يصالحونه على ذات الشروط دون حروب (٨٩).

(٨٦) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٥٧.

(٨٧) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠٠.

(٨٨) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٦.

(٨٩) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١٩، انظر أيضاً البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٧١، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٦، ١٨٨.

وهكذا جاءت حصافة يهود خيبر بمنفذ لقبائل الشمالي، الضاربة على مواطن الخصب، لتتجو من الذبح والدمار، فسارعت القبائل تدفع الجبايات، وتؤوب لسلطان الدولة العربية معلنة الخضوع طوعاً، ليبرز هيكل الدولة واضحاً في قواعد زراعية ثابتة، تتجاوز مفهوم الغنيمة البدوي الابتدائي، الذي كان سائداً حتى غزوة خيبر.

ثم يأتي خبر حادث آخر يحمل أكثر من دلالة، فيعود الركب المنتصر قافلاً نحو يثرب، نسمعه من الواقدي عن أم عماره عندما قالت:

سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالجرف وهو يقول: لا تطرقوا النساء بعد صلاة العشاء، قالت: فذهب رجل من الحي فطرق أهله فوجد ما يكره، فخلى سبيلها ولم يهجر، وضمن بزوجه أن يفارقها، وكان له منها أولاد وكان يحبها فعصى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرأى ما يكره^(٩٠).

ويتأكد ذات المعنى في رواية مثيلة عن سعيد بن المسيب قال:

لما نزل النبي - صلى الله عليه وسلم - المعرس، أمر مناديه فنادى: لا تطرقوا النساء، فتعجل رجلان، فكلاهما وجد مع امرأته رجلاً^(٩١).

ويبدو أن الأمر كان متكرراً مع خروج المجاهدين، حتى قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله، إلا نصب له يوم القيامة فقيل له: هذا خلفك في أهلك، فخذ من حسناته^(٩٢).

ولما أصبح الأمر فيما يبدو شديد الوطأة على المجاهدين، كثير التكرار، قام الرسول هذه المرة خطيباً في الناس يقول مهدداً متوعداً بالنكير:

ألا كلما نفرنا غازين في سبيل الله، خلف أحدهم له نبيب كنيب التيس يمنح أحدهم الكلبة؟

أما والله إن يمكنني الله من أحدهم، لأنكلنه عنه^(٩٣).

(٩٠) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١٩.

(٩١) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، مج ١، ج ١، ص ٢١٨.

(٩٢) أبو داود: السنن، ج ٢، ص ٨٠٧.

(٩٣) صحيح مسلم: ج ٣، ص ١٣١٩.

كانت تلك الأحداث تجرى بين خيبر ويثرب، بينما مكة تحاول أن تتسمع الأخبار، يهبطها الحجاج بن علاط السلمي قادماً من عند النبي، ولا يعلمون أنه من أتباعه، ليجمع أموالاً له عندهم، ويحكى الحجاج قائلاً:

ولم يكونوا قد علموا بإسلامي، فقالوا: الحجاج بن علاط؟ عنده والله الخبر، أخبرنا عن محمد، فإن قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر وهو بلد يهود وريف الحجاز، قلت .. هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثلها قط، وأسر محمداً أسراً، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بما كان أصاب من رجالهم.

فقاموا، وصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم عليكم فيقتل بين أظهركم، قال: قلت: أعينوني على جمع مالي بمكة، وعلى غرمائي، فإنني أريد أن أقدم خيبر، فأصيب من نفل محمد وأصحابه، قبل أن يسبقني التجار إلى هناك.

فقاموا فجمعوا لي مالي كأحث جمع سمعت به.

وهنا يسمع العباس عم النبي وعينه على قريش بالخبر الذي أتى به الحجاج بن علاط، فيهرول إلى الحجاج فزعاً، لكن ليهمس له الحجاج سرّاً:

احفظ على حديثي يا أبا الفضل، فإنني أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت، فإنني والله تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم، يعني صفية بنت حبي، ولقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها، وصارت له ولأصحابه.

وفي هذه الساعة، رأى العباس أن أمر ابن أخيه قد صار أمراً، وأنه قد بات في مكانه أن يعلن أتباعه له جهراً، حتى إذا كان اليوم الثالث، لبس العباس له حلة، وتحلق، وأخذ عصاه وخرج حتى أتى الكعبة فطاف بها، فلما رآه قالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والله الذي حلفتكم به، لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه،^(١٤).

وقد وضع هذا الإعلان القاسي قريشاً ورجالها العقلاء في موقع الحيرة، فلم يعرفوا هل يحزنون لنصر محمد الذي هو عدوهم الألد، أم يفرحون وهو ولد لهم وفخرهم بانتصاراته، لكن

(١٤) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٦، ٤٧.

المؤكد أن نصر خيبر قد قوبل بحماسة قومية انتشرت في الفياض مع أخبار السلطان العظيم لدولة الإسلام. أما الناتج المؤسسي لتلك الغزوة الكبرى فقد تمثل في قيام دولة يثرب على هيكل إنتاجي وفر لها الأسس الزراعية المستقرة في خيبر.

أما العرب الذين خذلوا النبي من مزينة وجهينة ويكر عندما دعاهم إلى الحديبية^(٩٥)، فقد أخذوا درساً من نوع يليق بهم، فتم حرمانهم من غنيمة خيبر التي وزعت فقط على من حضر الحديبية^(٩٦).

(٩٥) الواقدي: المغازي، تحقيق مارسدن جونز، مؤسسة الأعلمي، بيروت، د.ت، ج ٢، ص ٦٢٠.

(٩٦) ابن آدم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٤٢.

حروب دولة الرسول

الجزء الثاني

الباب الثالث

فتح الفتوح

الإسلام وقاء

«الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم،
حتى يقوم بلال ينهق فوق الكعبة،

[خالد بن أسيد]

وهكذا أمنت قريش بالحديبية على تجارتها، وعلى حلفائها، لكن التكوين العسكرى لدولة يثرب، وقيام العسكرية فيها على المغانم، كان يتطلب دوماً إيجاد المنافذ لهؤلاء الجند، ومن ثم استمرت سياسة السرايا العسكرية على قبائل العرب، فخرج أبو بكر على رأس سرية أغار بها فجأة على بنى فزارة، ليقتل الناس على مائهم، ويغنم المال والذراى والنساء، وينقل أبو بكر فتاة غاية فى الجمال للصحابى سلمة مكافأة له على بلائه، ويحكى سلمة كيف حصل على تلك الغادة الموصوفة بأحسن العرب، فى قوله:

إنه لما اشتدت المعركة مع فزارة، نظرت إلى عنق من الناس فيه من الذرية والنساء نحو الجبل، وأنا أعدو فى آثارهم، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل، فرميت بسهم وقع بينهم وبين الجبل، فجئت أسوقهم إلى أبى بكر حتى أتيت على الماء، ومنهم امرأة من فزارة عليها قشع من آدم، ومعها ابنة لها من أحسن العرب، فنقلنى أبو بكر بنتها.

فما كشفت لها ثوباً حتى قدمنا المدينة، ثم بت فلم أكشف لها ثوباً فلقينى

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى السوق، فقال لى: يا سلمة هب لى المرأة، فقلت: والله يا رسول الله لقد أعجبتنى وما كشفت لها ثوباً، فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتركنى حتى إذا كان الغد لقينى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى السوق فقال: يا سلمة هب لى المرأة، فقلت: يا رسول الله والله لقد أعجبتنى وما كشفت لها ثوباً، فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتركنى، حتى إذا كان الغد لقينى رسول الله فى السوق فقال: يا سلمة هب لى المرأة لله أبوك، قلت: يا رسول الله ما كشفت لها ثوباً وهى لك يا رسول الله.

ويشئ إصرار الرواية على أن سلمة لم يكشف لها ثوباً، أنها ستنتهى إلى رسول الله، لكن الرواية تستمر لتقول: «بعث بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أهل مكة وفى أيديهم أسارى من المسلمين، ففداهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتلك المرأة»^(١). وفى هذه الإضافة خلل واضح، حيث لم يكن فى ذلك الوقت تحديداً أى أسارى من المسلمين فى مكة، كما كان العقد قد وقع بالحديبية فى هدنة مدتها من السنوات عشر.

ويعد سرية أبى بكر إلى فزارة خرج عمر بن الخطاب على رأس سرية إلى تربة من وراء مكة، فهرب الناس وعاد عمر ورجاله إلى يثرب، ثم تلتها سرية ثالثة بقيادة بشير بن سعيد إلى بنى مرة فى فديك، ونزل بلادهم واستاق نعمهم لكن لتكر عليه قبائلها ويقتلون جميع أفرادها، ويهرب بشير بن سعيد إلى بيت يهودى يخفيه ويأويه ليعود بعد أيام إلى يثرب مستخفياً، فيعود النبى - صلى الله عليه وسلم - ليرسل عليهم غالب بن عبد الله الكلبي وأسامة بن زيد فى سرية تالية، وهناك يدركون فرداس بن نهيك، فيشهر عليه أسامة السيف فيصرخ الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله، ولكن أسامة ورفاقه لا يمهلونه وينزلون عليه بسيوفهم فيقتلونه. ويحكى أسامة يقول:

فلما قدمنا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبرناه فقال: يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها تعوداً من القتل.. فكررنا حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت يومئذ^(٢).

وهنا نجد عودة إلى البدء، أيام كانت الدعوة طازجة فى مكة، تحمل للناس بشرى وسلاماً،

(١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٢١.
(٢) الموضع نفسه.

حيث يعود هنا الأمر ببرز بين العريان، فيستجيب له الرسول الكريم، فيعلن الأعرابي شهادته بوحداية الإله ليأمن على حياته وماله، ليصبح ذلك الإعلان في زمن الهدنة إعلاناً صريحاً من سيد الدولة الليثرية، أنه يكفي للعريان الشهادة للإله بالوحداية، والاعتراف له بأنه رسول هذا الإله، ليصبح للشاهد الجوار والأمان، وتصبح شهادته توقيعاً معلناً على ميثاق الدولة، وبموجبها يصبح مواطناً يستحق رعاية الدولة وحمايتها، كما يصبح هو فرداً في جنودها، وهي السياسة التي ستؤتي ثمارها خلال أشهر قليلة، أدت إليها مجموعة غزوات وسرايا جعلت للأمن سوراً بابيه الإيمان، حيث يجتمع للنبي خلال تلك الأشهر، جيش يربو على عشرة آلاف محارب.

ولم يلحظ الأتباع في مبدأ الأمر تلك العودة، لإيقاف الأطماع في الغنائم دون قواعد واضحة، قد تضرب الدولة بعد الاعتراف بها رسمياً ضرراً جسيماً، فتأتى سرية أبى حدرد لتؤكد عزم النبي على التحول إلى شكل الدولة، بالشهادة لأيديولوجيتها، تلك الشهادة التي تعنى توقيع ميثاق الانضمام إليها، وهي السرية التي حكى لنا عنها قائدها، وهو يقول:

بعثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أضمر في نفر من المسلمين منهم أبو قتادة للحارث بن ربي ومسلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن أضمر مربنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له، ومعه متبع له ووطب، فسلمنا عليه بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه مسلم ابن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتبعه، فلما قدمنا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبرناه الخبر.

وجاء الجواب وحياً يقرع القاتل، ويؤكد خلل رواية أبى حدرد، حيث توضح الآيات أنه لم يكن بين القاتل والمقتول شيء سوى استلابه متاعه واغتنام ما معه، رغم أن الله قد منّ على المسلمين بمغانم عظيمة كفتهم الناس، وأن عليهم من الآن اتباع الأمر الجديد، ليتابع أبو حدرد قائلاً:

فنزّل فينا القرآن: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضريتم في سبيل الله فتيبنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبنوا إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (٩٤ - النساء) (٣).

عمرة القضاء

وانصرم عام على الحديبية، وجاء الموعد من العام التالي سريعاً يهرع، وآن أوان مغادرة أهل

(٣) نفسه: ص ٢٢٤.

مكة لمكة، ثلاثة أيام، ليدخلها المسلمون يعتمرون، ومن جانب قريش كان عليها أن تفي بعهدها، لتثبت لكل العرب، أنها لازالت ذلك البلد الآمن المفتوح لمن أراد من العرب، لكنها هذه المرة تحديداً كانت تعلم يقيناً أن تركها ديارها إنما عن ضعف منها، كما لا شك هي تعلم أن جميع العريان بذلك الأمر نفسه تعلم، فلم تكن تلك العمرة لأجل مزيد من الرواج التجارى، إنما كانت تنازلاً واضحاً ونقصاً فى السيادة لسيادة أخرى منافسة على ذات الدار وذات الأيديولوجيا وذات المعبد، فلم يكن المعتمرون أفراداً فرادى، إنما جيش كبير هو فى النهاية ذلك الجيش المعادى الذى بدأ يتحول عن قطع الطريق إلى التطهر نحو السيادة الدينية، حيث يخبرنا ابن سعد أن عدد المعتمرين قد وصل إلى الألفين عدداً^(٤)، وكل تلك المعانى تفصح عنها تصرفات سيد الخلق نفسه، فيما رواه ابن عباس، أن بعض أهل مكة بقى فى مكة فضولاً وتطلعاً ورصدًا، وأن من بقى منهم فى مكة:

صفوا عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسجد اضطبع بردائه، وأخرج عضده اليمنى ثم قال: رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة^(٥).

ولتأكيد رسالة القوة أمام عيون العريان، أمر النبى رجاله قائلاً:

اكتشفوا عن المناكب واسعوا فى الطواف

وهو ما عقب عليه البيهقى موضحاً الداعى له:

ليرى المشركين قوتهم وجلدهم..

فاستكف أهل مكة الرجال والنساء والصبيان، ينظرون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وهم يطوفون بالبيت^(٦).

وتصعق قريش مأخوذة، عندما ترى النبى، ذلك الذى حاصرها اقتصادياً وقتل أفلاذ كبدها، وفكك عرى إيلافها، وأعلن كفرانها، يسلك مسالكها وينسك مناسكها ويهل بشعائرها، فيسعى بالبيت، وبالصفا والمروة، وهو ما فاجأ الصحابة المسلمين أنفسهم، فما كانوا يرون أنهم بعائدين إلى شعائر الجاهلية ومناسكها، وهو ما جاء واضحاً فى رواية ابن هشام وهو يروى لنا المشهد النبوى داخل مكة بقوله:

(٤) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، ج ٢، ص ٨٧؛

(٥) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٢٧.

(٦) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.

ثم استلم الركن!؟

وخرج يهرول، ويهرول أصحابه معه!؟

.. واستلم الركن اليماني!؟

ومشى حتى يستلم الركن الأسود!؟

ثم هروا كذلك ثلاثة أطواف

ومشى سائرهما فكان ابن عباس يقول:

كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك أن رسول الله إنما صنعها لهذا الحى من قريش.. حتى إذا حج حجة الوداع لزمها فمضت السنة بها^(٧).

ومن ثم لزم النبي شعائر قومه، لكنه توجهها بالإعلان الجديد، واحتواها وتضمنها فى الأداء العلنى لدولته النبوية ممثلاً فى الأذان الإسلامى:

ولما قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نسكه فى القضاء، ودخل البيت لم يزل فيه، حتى أذن بلال الظهر من فوق الكعبة.

لم تسجل صحيفة الحديبية فى بنودها ذلك، لكن بلالاً صعد بأمر الرسول فوق كعبة قريش، ومن هناك أعلن بأعلى الصوت أداء دولة النبى العلنى، ليعلم جميع العرب بالصيغة الإسلامية، وأهمها: أن محمداً رسول الله. لكن ليعقب من بين الواقفين بعيداً عكرمة بن أبى الحكم:

لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول.

ليثنى خالد بن أسيد:

الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم، حتى يقوم بلال ينهق فوق الكعبة^(٨).

ولا تمر تلك العمرة دون فرحة كبرى تأخذ بأفئدة الهاشميين، ويتقدم العباس بن عبد المطلب بإجراء يدخل السرور إلى قلب ابن أخيه نكاية فى الملأ الأموى، فيزوجه ميمونة بنت الحارث شقيقة زوجته أم الفضل بنت الحارث، لينكحها وهو محرم، وهو ما تأكد فى قول ابن عباس «إن

(٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٦٩.

(٨) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٢.

رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة بنت الحارث وهو في سفره ذلك وهو حرام، وكان الذي زوجه إياها العباس بن عبد المطلب .. تزوجها وهو محرم^(٩).

ومن تلك النكايات الواخزة، ما كان من أمر عبد الله بن رواحة الذي دخل مكة يحجل أمام رسول الله متوشحاً سيفه يطوحه يميناً ويساراً، يسب قريشاً، وينعتها بالكفر داخل ديارها، مهدداً بالقتل وسفك الدم لمن لا يعترف بسيادة النبي، وهو يرتجز قائلاً:

خلوا بني الكفار عن سبيله
أنا الشهيد أنه رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تتلى: رسوله
فاليوم نصر بكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقتله
ويذهل الخليل عن خليله^(١٠)

فيأمره النبي زيادة في النكاي، وللرصانة، أن يقول:

لا إله إلا الله

نصر عبده

وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده^(١١)

وهو ما عقب عليه البيهقي: «وكان يكابدهم بكل ما استطاع»^(١٢)

ويانتهاء اليوم الثالث، يهبط سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى في نفر من قريش، ليقولوا للنبي:

(٩) الموضع نفسه.

(١٠) البيهقي: دلائل .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.

(١١) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٧.

(١٢) البيهقي: دلائل .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.

إنه قد انتضى أجلك فاخرج عنا

فيرد النبي بلطفه وسماحته:

وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً
فحضرتموه؟

فيجيبونه الإجابة المعبرة عن مكنونات الصدور من وجع:

لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا^(١٣).

لينطلق صوت سعد من بين المسلمين معبراً عن إيمان الاستيلاء على مكة الآن ببساطة،
فيقول:

يا عاصنا ببظر أمه

أأرضك وأرض أمك هي دونه^(١٤)؟

لكن ليتدخل سيد الخلق المطهر، ويسكت سعداً، ويفي بالعهود والمواثيق، مكتفياً بذلك الإعلان
العملي السافر لكل العرب، ويأمر رجاله بالرحيل عن مكة.

استمرار السرايا المسلحة

ويعود جند الله إلى مدينة يثرب بعد الاعتمار المشهود، وتعود السرايا مرة أخرى للخروج على
القبائل، فينزل شجاع بن وهب بسرية على جمع من هوازن، فيبغتهم ويصيب أنعامهم وسبياً
منهم، لكن هذا الجمع الهوازني كان قد علم طريق الأمن وبابه، فقدم وفدهم على النبي يعلن
إسلام جماعتهم ليرد إليهم النبي كل أملاكهم وسباياهم، في بلاغ إلى كل العرب واضح المعالم
محدد المعاني.

وتخرج سرية كعب بن عمير إلى أطراف الشام لتغير على قضاة بذات أطلاق، المستندة
على أسنة الإمبراطورية، وناداهم كعب بدعوة الإسلام، لكن قضاة الشامية ما كانت ترى فيهم
سوى كفرة عربية مثل كرات عهدتها على حدود الإمبراطورية، بل وتعمل سيوفها في أفراد
السرية، ويهرب منها جريح واحد يعود إلى الرسول بالخبر، وهنا يعلن الرسول أنه قد آن الأوان
لمهاجمة إمبراطورية الروم، حيث الأرض التي لم يقدرُوا عليها وأحاط بها الله.

(١٣) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٠.

(١٤) السهيلي: الروض الأنف... سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.

وعلى رأس السرية يوفد النبي زيداً بن حارثة فى ثلاثة آلاف مقاتل، وكان النبى يعلم جيداً ماذا يواجهون، ويعلم سلفاً النتائج، لكنها كانت أول هجمة كبرى مقصودة للإعلان عن الآتى، ولعلمه - صلى الله عليه وسلم - بما هو مقدم عليه قال فى رجاله: إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن قتل عبد الله فليبرتضى المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم^(١٥).

وتخرج سرية الشهداء العظام، تلك السرية الفدائية، ميممة وجهها شطر البلقاء على تخوم جنوبى دمشق، ويبلغ خبرها إلى هرقل عظيم الروم، فينزل بنفسه إلى لقاء هؤلاء الذين تجرأوا على حدود مملكته، فى مائة ألف من الروم، ومائة ألف من القبائل العربية المتاخمة للروم والمالية لها، وهو الهول الذى يصوره أبو هريرة قائلاً:

شهدت مؤتة، فلما دنا المشركون منا، رأينا ما لا قبل لأحد به^(١٦).

وكان طبيعياً أن يقتل الروم الأمراء الثلاثة، وكثيراً من مقاتلى المسلمين المتقدمين، حتى تناول خالد بن الوليد الراية، لينسحب بما بقى من الجيش الذى عاد ممزقاً إلى يثرب، ويستقبلهم العامة على أبواب المدينة بالتراب يحثونه فى وجوههم يقولون:

يا فرار، فررتم فى سبيل الله.

لكن ليرد عليهم سيد الخلق بعد أن أبلغ رسالة عملية إلى هرقل بعد رسالته المكتوبة، وإلى قريش، وإلى العالم أجمع، بقوله للناس:

ليسوا بالفرار،

لكنهم الكرار إن شاء الله.

إعلاناً عن أن تلك السرية الفدائية كانت مقدمة، وأن الإصرار على غزو الروم وكسرى قائم لا يلين، وأن هناك كرات آتية وكرات، وأن الوعد النبوى قائم كعلم يرفرف لا يتراجع، يردد فى مسمع العربان: «والذى نفس محمد بيده، لتملكن كنوز كسرى وقيصر».

أما إذا كان عدد من خيار الصحابة قد قدموا أنفسهم شهداء على مذبح الهدف الأكبر، فقد نالوا كفايتهم من الثواب، إلى الحد الذى ارتفعوا فيه إلى مصاف كبار الأنبياء، بعد أن رآهم النبى فى رحلة سماوية فى رؤياه، حيث اطلع عليهم فى فردوس الرحمن «فإذا بنفر ثلاثة يشربون من خمر، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

(١٥) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤١.

(١٦) الموضع نفسه.

هذا جعفر بن أبى طالب

وزيد بن حارثة

وعبد الله بن راحة .

ثم أشرفوا شرفاً آخر، فإذا بنفرا ثلاثة، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

هذا: إبراهيم

وموسى

وعيسى

عليهم السلام، وهم ينتظرونك،^(١٧) .

وإعمالاً للوعد لا ينتظر النبي طويلاً، فقط يغير فى التكتيك، فيرسل على العريان المتحالفين مع الروم من بلى وقضاعة سرية يقودها عمرو بن العاص، فتصل إلى ذات السلاسل، فيخاف عمرو كثرة عدوه، فيمده النبي بأبى بكر بعدد آخر من الجند، لكن ليرى قادة السرية أنه لم يأن الأوان بعد فيعودون دون أية مغنم أو فتوح^(١٨) .

ولكن ببعض التدقيق والملاحظة، لا يمكن أن تعتبر غزوة مؤتة هزيمة فى نظر عرب الجزيرة، ولا عدها النبي كذلك، ولا حتى قريش، لأن مجرد خروج العرب لمجابهة الروم، كان أمراً بعيداً حتى عن الأحلام، لقد كان مجرد الخروج إلى الروم والاصطدام بهم فى معركة حقيقية واجهوا فيها فيالقهم المنظمة الهائلة تحت قيادة ملكهم بنفسه، كان بلا شك انتصاراً وحده ويحد ذاته .

(١٧) نفسه: ص ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٦٠ .

(١٨) نفسه: ص ٢٧٢ .

مكة: فتح الفتوح

«والله يا أبا الفضل:

لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً،

[أبو سفيان]

تعود بنا كتب السير والأخبار القهقري زمناً إلى ما قبل الدعوة، لتطلعنا على السر وراء نقض معاهدة الحديبية قبل موعدها بزمان طويل، فتحكى لنا عن مخاصمة ثأرية كانت بين قبائل خزاعة وقبائل بكر، كان سببها أن رجلاً من بكر خرج تاجراً، فلما توسط ديار خزاعة، عدوا عليه وقتلوه واستلبوا تجارته، فكان أن ثارت بكر لرجلها وأخذت بثأرها برجل من خزاعة. فترد خزاعة بإطلاق سيفها ليطيح بالبرؤوس من أشراف كنانة، فيسقط رأس مالك بن عياد، ثم الديلي، ثم سلمى، ثم كلثوم، ثم ذؤيب^(١٩)، وهنا تأتي الحديبية.

وتنص بنود الحديبية على أن من أراد الدخول في عقد محمد دخل، وأن من أحب الدخول في عقد قريش دخل، فتدخل خزاعة في حلف محمد، وهو الأمر الذي لم يكن جديداً ولا خافياً، فقد كانت خزاعة طوال الوقت مع محمد، مشركها ومسلمها، ترى بذلك أنها تنال من قريش جميعاً، بعدما أقصاهم قصى الجد البعيد لقريش عن مكة، واستلبهم الكعبة ومفاتيحها، وسيادة كانوا يرونها

(١٩) إلكار السقاف: نحو أفاق... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٥٥٥.

لهم، ومن ثم كان منطقياً تماماً، أن تدخل بكر في حلف قريش.

وابان هدنة الحديبية، ولم يمض على توقيعها بعد عام عمرة القضاء أسابيع، حدثت مقاتلة بين بكر وخزاعة فجأة، أرجعها رواتنا إلى غدر بكر، حيث انتهز بنو الدليل أحد بطونها فرصة من خزاعة، لتثأر لرجلها الديلي، فيطارده بعض رجالهم خزاعياً عليل القلب مفئوداً اسمه منبه، وكان برفقة رفيق له يدعى تميم، ولما ركض الرجلان أمام مطارديهم لم يستطع منبه الاستمرار، فنادى رفيقه تميم قائلاً: .. يا تميم انج بنفسك، فأنا والله لميت، قتلوني، أو تركوني، لقد أنبت فؤادي، وينطلق تميم، ويموت منبه، وتصيف كتب الأخبار باقتضاب شديد لا يفصح عن أية تفاصيل حول مدى صدق تلك الإضافات، فتقول: إن الأمر قد هاج بين القبيلتين، وأن بعضاً من قريش أمدوا بكرًا بالسلاح، وربما قاتلوا معهم متخفين^(٢٠).

هذا بينما هناك رواية أخرى تؤكد أن من أشعل أوار الحرب بين كنانة وخزاعة هم الخزاعيون وليس الكنانيون، وذلك فيما رواه البلاذري في قوله: «سمع رجل من خزاعة، وكانوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عهده وعقده، رجلاً من كنانة وكانوا في عهد قريش وذمتها، يهجو رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فوثب عليه وشجه، فاقتتل خزاعة وكنانة، وأعانت قريش بنى كنانة وخرج وجوههم يقاتلون متكرين»^(٢١).

وسواء كان الأمر هكذا، أو كذلك، ولو سلمنا بأن كنانة كانت البادئة، وأخذنا بقصة الرجل الخزاعي المفئود، فإن الموقف قد تصاعد بموته، فخرجت خزاعة في أربعين راكباً وراء سيدهم عمرو بن سالم، من فخذ كعب الخزاعي، ليقدّموا على النبي في يثرب، وهو جالس في مسجده بين أصحابه، ليقف عمرو بن سالم يقص الحدث شعراً تحريضياً طالباً نصرة النبي في قصيدة طويلة جاء في بعضها:

يارب إنى ناشد محمداً	حلف أبيه وأبيننا الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدأ	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدأ
فانصر هداك الله نصرأ أعتداً	وإدع عباد الله يأتوا مددا

وينصت سيد الخلق للرجل حتى ينتهي من قصيده الشاكية المستنصرة، ليقف النبي وسط الناس، ويجيبه بهدوء ما قبل العاصفة:

نصرت يا عمرو بن سالم^(٢٢).

(٢٠) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٤، ٨٥.

(٢١) البلاذري: أنساب الأشراف... سبق ذكره، ج ١، ص ٣٥٣.

(٢٢) نفسه: ص ٨٦.

ثم يلتفت إلى الناس، معلناً نصر بنى كعب من خزاعة قائلاً:
لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر به نفسى
ثم يتطلع إلى سحابة مارة، ويشير إليها مردداً:
إن هذا السحاب ليستهل بنصر بنى كعب

ويروى لنا ابن سعد مجرى الحدث وراء الأحداث وهى تتسارع فى قوله:

ويعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى من حوله من العرب،
أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع وسليم، فمعهم من وافاه بالمدينة،
ومنهم من لحقه بالطريق، فكان المسلمون فى غزوة الفتح عشرة آلاف..
ونادى منادى رسول الله: من أحب أن يفطر فليفطر، ومن أحب أن يصوم
فليصم (٢٣).

ومع إفاقتها، تعلم قريش بما جرى، فتأخذها الرعدة، وترسل زعيمها وحامل لوائها أبا سفيان
صخر بن حرب إلى زعيم يثرب، لإيقاف الأمر، وإعلان أن قريشاً لا دخل لها بتأر كنانة، وأن
قريشاً على عهدا باقية، وبنود صحيفة الحديبية مستمكة. ولا تعلم قريش إلا ما حدث بين
كنانة وخزاعة، ولا يعلم أبو سفيان أن وفد خزاعة قد ذهب إلى المدينة يستنصرها، لكنه يلقى
ركبهم عائداً من المدينة، وينكرون عليه قدومهم من هناك ويرحلون إلى ديارهم، لكن روث
بهاائمهم يفضحهم بالحق، بما فيه من نوى يثرب، فيعلم أبو سفيان أن الأمر قد عظم، فيحث خطاه
مسرعاً، مقررأ أنه سيمد العهد ويوطد العقد بين محمد وقريش.

ويدخل أبو سفيان يثرب، ويختار بيت ابنته أم حبيبة، التى تزوجها النبى بعد عودتها من
مهاجرها بالحبشة، ويذهب ليجلس على فراش النبى فتطويه عنه فيقول: يا بنية، ما أدرى أرغبت
بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟ فترد على أبيها: بل هو فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فبيغت الرجل من رد ابنته عليه ليقول لها: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر.

ويتركها ويخرج إلى مجلس النبى، ويجلس أمامه، ويكلمه، ويشرح، ويفصل فى بنود
العقد، ويعتذر، ويعتذر، ويطلب إبقاء الحديبية، بل وتمديدتها، ويظل الرجل يتكلم والنبى صامت لا
يرد عليه بشيء، ويكتشف الرجل أنه وحده فقط الذى يتكلم والكل ينظر إليه بصمت مخيف
ومريب، فيقوم زعيم قريش يجر جر كرامته إلى بيت أبى بكر ينتظره ثم يكلمه، ليتوسط لدى

(٢٣) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٩٧.

النبي، لكن أبا بكر يرد ببساطة: ما أنا بفاعل، فيتركه ويلهث إلى عمر بن الخطاب، لكن ليرد عليه عمر بحدة وانفعال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدكم به...، ولا يدرى الرجل أين يذهب، فيتذكر علياً، فيركض إلى داره ليجد معه فاطمة وولدها الحسن صبي يدب بين يديها، ليقول لعلي:

يا علي، إنك أمس القوم رحماً، وإنني قد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً، فاشفع لي عند رسول الله. فيقول له علي: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله علي أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.
وهنا يلتفت الزعيم المذعور إلى فاطمة، مشيراً إلى طفلها يائساً:

يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى بذلك هذا فيجبر بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

ولا تبذل فاطمة جهداً كبيراً لتكتشف أن الرجل يهذى فترد عليه:

والله ما بلغ ابني ذاك أن يجبر بين الناس، وما يجبر أحد على رسول الله.

ويسقط في يد الرجل بعد أن سقط إعياء ليتوجه بالكلام قانطاً إلى علي قائلاً: يا أبا الحسن، إنني أرى الأمور قد اشتدت علي فأنصحنى، ولا يجد علي ما يقول سوى: «والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً»، ثم يذكره بمكانته قائلاً: «إنك سيد بنى كنانة، قم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك»، ويسأله أبو سفيان: «أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟»، فيرد علي: «لا والله ما أظنه، لكني لا أجد لك غير ذلك»، وينهض أبو سفيان يللم كرامة كنانة المبعثرة ليدخل المسجد ويقف وسط الناس ينادى والعيون تتشظى لهباً حوله: «أيها الناس، إنني قد أجرت بين الناس»، وحتى لا يسمع ما يكره يخرج مسرعاً إلى بعيده ميمماً شطراً مكة،^(٢٤).

وما أن يغادر أبو سفيان باب المسجد، حتى ينهض الرسول رافعاً يديه إلى السماء مخاطباً ربه والناس تسمع:

اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

ويتحول نحو الناس يأمرهم بالجهاز إلى مكة، ويركب على رأس عشرة آلاف مقاتل ينزل بهم مر الظهران، وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتيهم خبر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا يدرون ما هو فاعل، هذا بينما كان العباس قد أخذ أهله وخرج من مكة متجهاً للمدينة، ليفاجأ بغتة بهذا الجيش الهائل، وعلى رأسه ابن أخيه فيردد قائلاً:

(٢٤) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٦، ٨٧.

واصبح قريش
والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة
قبل أن يستأمنوه
إنه لمهلك قريش إلى آخر الدهر.

وينضم العباس إلى ابن أخيه، ويحكى أنه أخذ بغلة النبي البيضاء، وخرج يجوس بها ليلاً حول الجيش قرب مكة، عساه يجد لمكة مخرجاً، فيسمع اثنين يتحاوران، يعرف في صوتيهما أبا سفيان ويديل بن ورقاء، إذ يقول أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً، فيقول يديل: هذه والله خزاعة قد خمشتها الحرب، فيرد أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وهنا ينادى العباس أبا سفيان، ويلتقى العباس بالزعيم المأخوذ بذعره، ليسرع إليه بالخبر: «ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الناس، واصباح قريش والله، فيرد أبو سفيان: «فما الحيلة فذاك أبي وأمي»، فيقول له العباس: «والله لئن ظفرك بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله حتى فاستأمنه لك».

ويأخذ العباس أبا سفيان ردفه على بغلة رسول الله وسط نيران الكتائب نحو خيمة النبي ليراه عمر بن الخطاب فيهرع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني لأضرب عنقه، لكن يقتحم العباس الخيمة مسرعاً قائلاً: «يا رسول الله إنني قد أجزته»، وهنا يقول النبي: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به»^(٢٥).

وهكذا ينزل أبو سفيان في ضيافة العباس، ضيافة هي إلى الأسر أقرب، وعند الصباح يخرج به العباس، فيرى الناس قد وقفوا صفوفاً منتظمة، فيذعر الرجل ويظنها لحظة الهجوم على بلده، فيقول للعباس: «يا أبا الفضل، ما للناس؟ أمروا في شيء؟» فيرد العباس: «لا، لكنهم قاموا إلى الصلاة».

وينظر أبو سفيان لذلك الانتظام العظيم، والانضباط الشديد، عشرة آلاف مقاتل خلف الزعيم، يكبر فيكبرون، يركع فيركعون، يتلو فينصتون، يرفع فيرفعون، فيصاب سيد مكة بالبهتة ويقول:

ما رأيت كالיום طاعة

قوم جمعهم من ههنا وههنا

(٢٥) نفسه: ج ٤، ص ٨٧ : ٩٠.

ولا فارس الأكارم

ولا الروم ذات القرون

بأطوع منهم له (٣٦).

لم يدرك الرجل حتى الآن وهو فى فهمه القبلى يرفل متخلفاً، أن هناك أمراً أعظم من القبيلة، قد جمع الناس من ههنا وههنا، وتوجه مع العباس بعد الصلاة ليراه النبى فيفجأه بالسؤال:

ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟

يقيناً يعلم أبو سفيان ذلك، وكذلك سائر قريش يعلمون يقيناً، أن لا إله إلا الله، وقد شهدت لهم الآيات القرآنية بذلك العلم، فإله لا إله سواه، لكن هناك الأرياب الأدنى درجة من الإله، تلك التى تشفع للناس عند الله، ومن ثم كانت إجابة أبى سفيان:

بأبى أنت وأمى

ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك،

والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره

لقد أغنى عنى شيئاً بعد.

وهنا ينتقل النبى إلى الشق الثانى من السؤال، وهو الشق الذى لا شك سيشق على أبى سفيان، فيقول له:

ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟

فتأخذ الرجل أنفة الصدق العربى فى التعبير عن الدواخل ليرد قائلاً:

بأبى أنت وأمى

ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك

أما هذه

والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً.

لم يكن الرجل بعالم أن إجابته غير موفقة بالمرة، وأن الأمور قد تغيرت، حتى أساليب التعامل العربية، لأن صراحته هنا لن تكون سوى مدخل له إلى المثلوى الأخير، فيسرع العباس ينبيه الرجل بقوله:

(٢٦) نفسه: ج ٤، ص ٩٩.

ويحك

أسلم واشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله

قبل أن تضرب عنقك

وعلى الفور يقولها زعيم قريش، ويسلم الرجل^(٢٧)، ثم يقول متلعثماً محاولاً إظهار تمسكه بدينه
يهيبته:

وكيف أفعل بالعزى؟

ليسمعه عمر بن الخطاب بجوار الخيمة، فيرد عليه بصوت عال ساخراً ضاحكاً ليسمعه:

نخرا عليها

فيقول أبو سفيان: «ويحك يا عمر إنك رجل فاحش، دعني مع ابن عمي فإياه أكلم»^(٢٨).

ومرة أخرى يتدخل العباس يقول للنبي - صلى الله عليه وسلم - : «يا رسول الله إن أبا سفيان
جل يحب الفخر فاجعل له شيئاً».

كان الأمر إذن مقضياً، وانتهى أمر زعامة مكة قبل دخولها، حتى أن العباس رأى أن يجعل
زعيم قريش شيئاً بعدما لم يبق له شيء.

ويرى النبي أنه لا بأس من شيء لأبي سفيان فيقول: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن،
من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

ومن ثم خرج أبو سفيان يحمل عن السيد الجديد رسالة حاسمة قاطعة، هي أوامر بحظر
تجول عند دخول الجيش الإسلامي مكة، وقبل أن يهبط مكة، همس النبي لعمه العباس:
يا عباس احبسهم بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ويأمر النبي
استعراض القوة، وبينما العباس مع أبي سفيان عند مضيق الوادي، يروى لنا:

مرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟

فأقول سليم، فيقول: مالي وسليم، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول:

مزينة، فيقول: مالي ولمزينة، حتى نفدت القبائل..

^(٢٧) للموضع نفسه.

^(٢٨) للموضع نفسه.

ومر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى كتيبته الخضراء، وإنما قيل لها الخضراء، لكثرة الحديد وظهوره فيها.. منها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المهاجرين والأنصار.

قال:

ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة

والله يا أبا الفضل

لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن،

قلت: اللجوء إلى قومك^(٢٩).

وهنا نجد شباب قريش وقد أخذتهم الحمية، بينما يقسم النبى جيشه أربعة ألوية كبرى لبلط مكة، ونقرأ الخبر عند أبى هريرة وهو يحكى:

فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الزبير على إحدى المجنبتين، وبعث خالدًا على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الجسر وأخذوا بطن الوادى، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى كتيبته، وقد وبشت قريش أوباشها.. فنظر فرأى، فقال: يا أبا هريرة، فقلت لبنيك يا رسول الله، قال: اهتف بالأنصار ولا يأتيني إلا أنصارى، فهتفت بهم فجاءوا فأطافوا برسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال: أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟ ثم قال ببدييه، إحداهما فوق الأخرى: احصدهم حصداً حتى توافونى بالصفاء، فقال أبو هريرة: فانطلقنا فما يشاء واحد منا إلا أن يقتل منهم ما شاء، وما أحد منهم يوجه إلينا منهم شيئاً، فقال أبو سفيان:

أبيحت خضراء قريش

ولا قريش بعد اليوم^(٣٠).

ويهرع أبو سفيان بالفرع إلى مكة يصرخ بأعلى صوته «يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم

(٢٩) نفسه: ص ٩٠.

(٣٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٠٥.

نَيْمًا لَا قَبْلَ لَكُمْ بِهِ، فَمِنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ هَنْدٌ بَنَتْ عَتَبَةً، فَأَخَذَتْ بِشَارِبِهِ فَقَالَتْ: اقْتُلُوا الْجَمِيعَ الدِّسَمَ الْأَحْمَسَ، قُبْحٌ مِنْ طَلِيعَةِ قَوْمٍ، قَالَتْ: وَلَكُمْ لَا تَغْرَنَكُمْ هَذِهِ مِنْ نَفْسِكُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بِمَا لَا قَبْلَ لَكُمْ بِهِ، فَمِنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، قَالُوا: قَاتَلَكَ اللَّهُ، وَمَا نَغْنَى عَنَّا دَارُكَ؟ قَالَ: وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ عَلَيْهِ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ لِي دَوْرَهُمْ وَإِلَى الْمَسْجِدِ^(٣١).

وبدأ حظر التجول في أم القرى، بعد أن رأى سيد قريش ما رأى، وأراد أن يرى، ثم كيف جمع الأنصار تحديداً أمامه، أهل الحرب والدم والحلقة، أعداء قريش وفدائيي الإسلام رجاله، ليستبج بهم مكة حيث ثروات الملأ التي تربو على مئات الملايين، وفيها كان الغيد لحسان اللاتى يرفلن في النعيم. ومن ثم تصور سعد بن عبادَةَ أن ما صنعه الرسول من ستعراض للقوة والعنف أمام أبي سفيان، أمر نهايته استباحة مكة فخرج يحمل راية القيادة أمام لجيش، ويحمل معها مشاعر كل يثري إزاء مكة، هاتفاً: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحُرمة. ويسمعه المهاجرون فيهرعون بالبلاغ إلى النبي، ومعهم ضرار بن الخطاب شاعراً يفصح عن أمشاعر قائلًا:

يا نبي الهدى إليك لجا	حي قريش ولات حين لجا
حين ضاقت عليهم سعة الأر	ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على الق	وم ونودوا بالصيلم الصلعا
إن سعداً يريد قاصمة الظ	هر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من الغ	يظ رمانا بالنسر والعواء
فلئن اقتحم اللواء ونادى	يا حماة اللواء يا أهل اللواء
لتكونن بالبطاح قريش	بقعة في أكف الإماء ^(٣٢)

وهنا ينادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سعداً ليأخذ منه الراية، ويعطيها لأكثر مهاجرين رافة ورحمة ليدخل بها مكة، لعلى بن أبي طالب، وخلف على دخل الجيش في رسالة لمأنة واضحة لمن ينظرون من خلف فرج الأبواب يتطلعون ويرجفون، لتتجرأ النساء فقط يكشفن عن أنفسهن، ويفتحن الأبواب ويقفن في دلع على شارع الموكب العظيم، يحملن أباريق

^(٣١) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧.

^(٣٢) نفسه: ص ١٠١.

الخمير يضربن بها وجوه خيل الفتح فى دعوة واضحة تعلن الاستسلام للفاتحين، ويلخص ابن الأثير ما روته كتب الأخبار بشأن ذلك الاستقبال الحريمى فى قوله:

قام نساء مشركات فى وجوههن، يلطنن وجوه الخيل بالخمير، وقد نشرن شعورهن، فرآهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلى جنبه أبو بكر، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان^(٣٣)؟

لينطلق حسان مستجيباً يصف المشهد شعراً يقول:

تظل جيادنا متمطرات	يلطمهن باغمر النساء
فإن تعرضوا عنا اعتمرنا	وكان الفتح وانكشف الغطاء
وقال الله لقد سيرت جنداً	هم الأنصار عرضتها اللقاء
ألا أبلغ أبا سفيان عنى	مغللة قد برح بها الخفاء
بأن سيوفنا قد تركتك عبداً	وعبد الدار سادتها الإمام ^(٣٤)

ولم يعترض الجيش أحد إلا النساء المرحبات، واللهم إلا مجنبه خالد بن الوليد، الذى لقيه بعض المتحمسين من شباب قريش فى جمع عند الخدمة فقتل منهم ثمانية عشر وفر البقية، وعلم النبى فقال: ألم أنه عن القتال؟ فأجابه مجيب. خالد قوتل فقاتل، فقال: قضاء الله خير، ومن المسلمين لم يقتل غير رجلين خطأ لسريانهما فى أماكن محظورة وقت حظر التجول، هما كرز بن جابر الفهرى، وخالد الأشقر الخزاعى^(٣٥).

ودلف النبى إلى البيت، وأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة ليأتيه بمفتاح الكعبة، ذلك المفتاح التاريخى الذى انتقل عبر القرون من أياد إلى أيادى فوق دماء كثيرة، لينتهى إلى سليل البيت الهاشمى، ويمسك النبى بالمفتاح رمز السيادة جميعاً، ويفتح باب الكعبة ليصلى بداخلها ركعتين، ثم يخرج فيقف على الباب آخذاً بعضادتيه وقد لبط الناس حوله، فيخطب فيهم قائلاً:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

(٣٣) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٧.

(٣٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧.

(٣٥) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ٢، ص ٩٨.

ألا كل مأثرة أودم أو مال يدعى، فهو موضوع تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغضلة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب.

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...» (وقرأ الآية كلها).

يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل فيكم؟

ويأتيه الرد:

خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم.

رد ما كان جوابه إلا:

أذهبوا فأنتم الطلقاء.

ويدعو النبي عثمان بن طلحة، فيدفع إليه مفتاح الكعبة وهو يقول: «خذوها يا بني طلحة تالدة دة لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم»، بينما لا شك كان عثمان بن طلحة يتذكر أيام كان محمد يضاً ضعيفاً في بداية دعوته بمكة، عندما أراد أن يدخل محمد الكعبة مع الملاء القرشي من دة ليطالع ما بداخلها، فمنعه عثمان بن طلحة ورده رداً غليظاً، ونال منه، ولا شك يتذكر الآن يستلم المفتاح من محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد أن أصبح سيد السادة، ما سبق وقاله له مد يومذاك: «يا عثمان، لعلك ستري هذا المفتاح بيدي يوماً، أضعه حيث شئت»، ولا شك أيضاً لم يزل ذاكراً بقية الحوار عندما أجابه: «لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فرد عليه النبي: «بل رت وعزت يومئذ»^(٣٦). وقد أثبتت الأيام صدق كل كلمة قالها سيد الخلق.

ثم ينادى النبي عمه العباس بن عبد المطلب ليقيمه كما كان على منصب السقاية قائلاً: طيبتكم ما ترزأكم ولا ترزونها، ثم يبعث إلى تميم بن أسد الخزاعي ويأمره بتجديد أنصاب هبة، ثم يأمر بلال بالصعود فوق سطح الكعبة عند الظهر، ليرفع شعار دولة الإسلام مؤذناً به، ما يردد النبي: «لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»، وكانت بنت أبي الحكم تردد «آخر وهي تسمع الأذان، فتقول: «أما الصلاة فسؤديها، ولكن والله ما تحب قلوبنا من قتل هبة»^(٣٧).

(ابن سيد الناس: عيون... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣١.

(ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٩٩، انظر أيضاً السهيلي: الروض الأنف... سبق ذكره، ج ٤، ص ١١٤.

وبعدها خرج النبي إلى ساحة الكعبة، يطوف على الأصنام يشير إليها بقضيب في يده وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، ويؤكد ابن هشام عن ابن إسحاق أنه ما أشار إلى صنم إلا وقع لساعته على وجهه أو قفاه، لكن ابن كثير لم يعجبه ذلك، ورأى في سقوط الأصنام بمجرد الإشارة تزييداً ورواية ضعيفة^(٣٨).

وبعدها يدخل النبي إلى قبة بنوها له، وهناك يصدر أوامره بقتل نفر سماهم بالاسم، حتى لو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، منهم جاريقان كانتا تتغنيان بهجاء النبي، فقتلت واحدة واستؤمن للآخرى من النبي فعفا عنها، وسارة وهي جارية كانت تؤذيه بمكة قبل الهجرة وقد استؤمن لها بدورها، والحويرث بن نقيد وهبار بن الأسود وهما اللذان نخسا بعير زينب بنت الرسول فسقطت عنه وألقت جنينها، وعبد الله بن خطل الذي أسلم فأرسله النبي يجمع الصدقات فقتل عبده وعاد إلى مكة مشركاً، وقد قتله سعيد بن حريث، ومقيس بن صبابه الذي ذهب إلى يثرب مسلماً، ثم قتل أنصارياً ثاراً لأخيه ثم عاد إلى قریش مشركاً، وقد قتله نميلة بن عبد الله، وعكرمة بن أبي جهل، وقد جاءت به امرأته للنبي فاستأمنته له^(٣٩).

كذلك صدر الأمر النبوي بقتل الشاعر عبد الله بن الزبيري السهمي؛ لأنه كان ممن يهجو النبي بشعره، وقد هرب مع هبيرة المخزومي زوج أم هانئ بنت أبي طالب إلى نجران، وهناك أقام هبيرة مشركاً حتى مات، وعاد ابن الزبيري إلى النبي معتذراً متحجباً بقصائد المديح، فعفا عنه، كما صدر الأمر بقتل وحشى الحبشى لقتله حمزة بن عبد المطلب عم النبي في أحد، لكنه جاء للنبي معتذراً مسلماً فقبل منه، كذلك قبل النبي اعتذار حويطب بن عبد العزى، وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان^(٤٠).

وممن صدر بحقهم حكم الموت كان شقيق عثمان بن عفان من الرضاعة، عبد الله بن أبي سرح، لأنه كان قد أسلم، واشتغل بكتابة الوحي للنبي، ثم ارتد إلى مكة مشركاً، وقد جاء به عثمان إلى النبي يستأمنه، وهو ما جاء عند ابن كثير رويًا: «فلما جاء ليستأمن له صمت عنه الرسول طويلاً، ثم قال: نعم، فلما انصرف مع عثمان قال الرسول لمن حوله: أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا - حين رأي قد صمت - فيقتله؟ فقالوا: يا رسول الله هلا أومأت إلينا؟ فقال: إن النبي لا يقتل بالإشارة»^(٤١).

(٣٨) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٠٠.

(٣٩) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٢، ٩٣، انظر أيضاً السهيلي: الروض الأنف، ج ٤، ص ١٠٤.

(٤٠) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٠، ٢٥١.

(٤١) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩٦.

يقول رواية أخرى بذات الخصوص أن واحداً من الأنصار كان قد نذر أن يقتل ابن أبي سرح عليه، فلما جاء به عثمان وكان الأنصارى حاضراً، وبعد ما خرج عثمان وأخوه قال النبي سارى: «هلا وفيت بنذكرك؟ فقال: يا رسول الله وضعت يدي على قائم السيف أنتظر منك أن تلي فأقتله، فقال النبي: ليس للنبي أن يوميء»^(٤٢).

وسط زخم الأحداث، وبين الحشد المتجمع حول قبة النبي - صلى الله عليه وسلم - جاء أبو شقيقته، التي كانت قد خرجت على باب بيتها حين دخول جيش الفتح إلى مكة مع النسوة، خرجن يستقبلن جيش الفتح، فتلقاها رجل وخطف من رقبتها طوقها الذهبي، وأمسك أبو يد شقيقته ينادي جند الله: «أنشدكم الله والإسلام طوق أختي، فلم يجبه أحد، فقال لأخته: أي احتسبي طوقك، إن الأمانة في الناس اليوم لقليل»^(٤٣).

تنتهز خزاعة الموقف فتعدو على هذيل، فتقتل رجلاً منها بثار قديم، وهنا يغضب سيد الخلق، ينادي في الناس:

يا أيها الناس:

إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماء ولا يعضد فيها شجراً، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة، غضباً على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها لرسول الله ولم يحلها لكم، يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، لقد كثر القتل^(٤٤).

هكذا، وقفت الأنصار دهشة، كما وقفت قريش أيضاً مأخوذة، فالنبي يكف أيدي الأنصار عن ويكف أيدي الناس عن بعضهم البعض، ويعلن حرمة البيت إلى نهاية الدهور، ويطلق أهل بن شروط، ويمارس طقوس قريش الدينية بتمامها، حتى تجديد الأنصاب، واحترام الحجر وتقديسه، لتتساءل الأنصار متوجسة بالهواجس عما سيؤول إليه الأمر، وهل من الممكن بعد أن تحرك رحمة لبلده أن يمكث فيها بين أهله؟ لكن ليأتيها الجواب من رسول الله -

ن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٢.

ن هشام: السيرة في كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ٩١.

نسه: ص ٩٤، ٩٥.

صلى الله عليه وسلم - : «معاذ الله، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم، فأقبلوا إليه ويكون يقولون: «والله ما قلنا الذى قلنا، إلا للضن بالله ورسوله»^(٤٥).

وبعدها يصعد النبي إلى الصفا، لتقف مكة فى طابور طويل، رجالها ونساءها، يمرون أمامه ليلقى كل منهم صيغة الاعتراف والرضوخ ومبايعة الرسول عليهم سيد أرسولا، بينما يجلس عمر ابن الخطاب أسفل مجلسه يأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله^(٤٦).

(٤٥) نفسه: ص ٩٥، انظر أيضاً ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٠٦.

(٤٦) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٧.

سرايا خالد بن الوليد

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد،

[النبى - صلى الله عليه وسلم -]

بفتح مكة، انتهت الشفاعات، إحدى ركائز العقائد العربية والقرشية، وتم تدمير تماثيل الأرباب وسيطة جميعاً، تلك التي كانت قائمة في فناء الكعبة، تتوسط لدى إله السماء لمن هم في الأرض ن عباده، وسقط عمود أساسي من أعمدة الوثنية المكية المرتبطة بالكعبة وبالتجارة، حيث كانت لك الأرباب أرباباً للقبائل الضارية في بطن شبه الجزيرة، استضافتها الكعبة المكية جذباً لأتباعها حو المركز التجاري المكي، لمزيد من الرواج التجاري، وإثباتاً لسيادة الإله المكي الأعلى سماوى على بقية الأرباب، بما يحمل ضمناً التسديد القرشى على بقية القبائل. ومن ثم سقطت وساطات ودمرت الشفاعات بتدمير تلك التماثيل، الذي جاء تدميراً للرموز القبلية المتعددة وصهر لك القبائل جميعاً في منظومة الأمة الواحدة، عبر العبادة المباشرة لإله واحد لا يقبل وساطة من حد إلا بإذنه، وقد أذن بذلك لصفيه النبى القرشى كشفيع أوجد، لتنتقل حالة التشتت القبلى ساعى نحو التوحيد بتماثيل متجاوزة فى الكعبة، إلى توحيد كامل بصهر جميع الشفاعات فى خص سيد أوجد من قريش هو النبى عليه الصلاة والسلام، لتضمن قريش بذلك سيادة أعظم، ينوب عنها جميعاً سيد الخلق سيداً للعرب وشفيعاً أوجد للإله الأوجد فى الدولة المتوحدة الموحدة. وإعمالاً لذلك انطلقت سرايا المسلمين لتدمير هياكل الأرباب الوسيطة فى محيط الجزيرة،

وبين تلك السرايا كانت سرية خالد بن الوليد لتدمير العزى وبيتها فى ناحية نخلة، ذلك الصنم الذى اجتمعت حوله قريش وكنانة ومضر، ليفكك بذلك هذا التحالف القبلى السابق بين تلك القبائل ويصهرها فى منظومة الدولة.

وتروى لنا كتبنا الإخبارية أن خالدًا أنهى إلى العزى فهدمها وقطع سمراتها الثلاث وكسر ما لحق بها من رموز مقدسة، ورجع إلى النبى، لكن لتتدخل تلك الروايات مرة أخرى تحاول التأكيد على ما كان وراء العزى من قوة غيبية، لكنها قوة ضعيفة مخيفة شيطانية، فتسوق رواية تحكى أنه بعد عودة خالد إلى النبى سأله النبى - صلى الله عليه وسلم - : ما رأيت؟ فيرد أنه لم ير شيئاً، فيأمره النبى بالعودة مرة أخرى إلى العزى، ولا تنتفهم السبب إلا باستمرار الرواية وهى تؤكد أن النبى كان يعلم أن العزى ليست مجرد حجر وأشجار، حيث يعود خالد إلى المكان فيتخرج إليه امرأة سوداء ناشرة شعرها تولول، فيعلوها خالد بالسيف وهو ينادى: يا عزى كفرانك لا سبحانه، إنى رأيت الله قد أهانك، ويقتل خالد تلك الربة أو تلك الشيطانة فينكشف له مافى البيت المقدس من مال مخبوء، فيعود به إلى النبى، ليعقب الرسول قائلاً: تلك العزى ولا تعبد أبداً^(٤٧).

ويعود النبى فيرسل خالدًا فى سرية أخرى، ترتبط أحداثها بمبدأ الإسلام وقاء وأهميته والتأكيد عليه، حيث سيعلم النبى تبرؤه من خالد بن الوليد وشكواه إلى الله، لكسره تلك القاعدة الأساس فى بناء الدولة، حيث خرج خالد برجاله المقاتلين، بعضهم من المسلمين الأوائل، وبعضهم من الطلقاء والأعراب اللاحقين بالدولة طمعاً فى المغانم أو الأمن، ليهبط على مياه بنى جذيمة، وإعمالاً لمبدأ الإسلام وقاء يؤكد ابن كثير المعنى ذلك فى قوله: «بعث عليه السلام خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بنى جذيمة .. بعثه داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، ومعه قبائل من العرب»^(٤٨).

ويروى الطبرى أن بنى جذيمة ما أن رأوا خالدًا حتى أخذوا السلاح، فناداهم خالد:

ضعوا السلاح

فإن الناس قد أسلموا^(٤٩).

وهو النداء الذى يحمل معنى السلام بالإسلام، وما يستدعى الشعور بالأمان ووضع السلاح، ويعلمنا ابن سيد الناس من جهته أن جذيمة قد أسلمت بالفعل سلفاً قبل أن يصلها خالد برجاله، وهو ما يتضح فى الحوار الذى ساقه بين خالد وبينهم حيث يقول لهم خالد: «ما أنتم؟ قالوا:

(٤٧) نفسه: ص ٣١٤، ٣١٥.

(٤٨) نفسه: ص ٣١١.

(٤٩) الطبرى: تاريخ .. سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٧.

ن قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحاتنا وأدنا فيها، قال: فما بال السلاح ؟ قالوا: بيننا وبين قوم من العرب عداوة فحفظنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح، قال: فضعوا ، فوضعوه، فقال لهم: استأسروا، فاستأسر القوم، فأمر بعضهم فكفف بعضاً وفرقهم في (٥٠) .

لفر هنا إشارة لا تفوت قارئ مدقق، حيث تجمع كتب الأخبار أن بنى جذيمة عندما رأوا ن الوليد، صرخ أحدهم واسمه (جحدم) صرخة الفزع ينادى قومه محذراً الاستجابة لخالد:

يا بنى جذيمة إنه خالد
والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسار
وما بعد الأسار إلا ضرب الأعناق
والله لا أضع سلاحى أبداً.

فذه رجال من قومه فقالوا: يا جحدم إن الناس قد أسلموا، ووُضعت الحرب وأمن فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم سلاحهم، (٥١) .

يبدو أن (جحدم) هذا كان ذا وعى نافذ، لا يطمئن ولا ينسى، فهو لم ينس أبداً ذلك الأمر عاه للفزع عندما رأى خالدًا، ويبدو أنه الأمر الذي لم يغرب عن بال خالد لحظة منذ خرج جذيمة، ذلك الأمر الذي يشرح لنا ابن هشام أمره، عما كان بين بعض قريش وبعض قبل الدعوة الإسلامية إذ يقول:

إن الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وعوف بن عبد مناف بن ، بن زهرة، وعفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، قد خرجوا تجاراً إلى اليمن .. لوا حملوا مال رجل من بنى جذيمة بن عامر - كان قد هلك باليمن - إلى ورثته، فادعاه نهم يقال له خالد بن هشام، ولقيهم بأرض جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت، فأبوا لقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه، وقاتلوه، فقتل عوف بن عوف، والفاكه يرة، فهتم قريش بغزو جذيمة، فقالت بنو جذيمة: ما كان مصاب أصحابكم عن ملأ منا، ا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم أو مال، نريش ذلك ووضعوا الحرب، (٥٢) .

سيد الناس: عيون .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٩ .

كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١١ .

هشام: السيرة في كتاب السهيلي .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١١ .

هكذا أدرك جحدم أن لخالد ثأراً عند بني جذيمة، بعمه الفاكه بن المغيرة، ولم يثق الرجل في أن الإسلام قد غير شأن خالد، بينما رأت بقية جذيمة أنه يجب الوثوق برسول رسول الله، بعد أن أسلم الناس وأمنوا الحرب، وطرحوا ما كان من شأن الجاهلية وراءهم، فأمنوا لخالد وأطاعوه موقنين من السلامة في النهاية، لكن ظن جحدم كان هو الظن الصادق، فقد أمر خالد رجاله أن يقتل كل منهم أسيره.

وانقسم الصحابة فريقين حول أمر خالد، حيث رفض المسلمون الأوائل تنفيذ أمر القائد، بل وأطلقوا ما كان بأيديهم من أسرى، أما بقية العريان وطلقاء قريش فقد نفذوا الأمر على الفور، واستحرقوا القتل بليغاً في الأسرى.

وفي مقتلة مسلمي جذيمة حادثة أوردتها كتب السير تحمل قصة حب زائغة، رواها الرواة عن عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي إذ يقول: «وأدركنا الظعن - النساء - فأخذناهن، فإذا فيهم غلام وضىء الوجه به صفرة كالمنهوك، فربطناه بحبل وقدمناه لنقتله، فقال لنا: هل لكم في خير؟ قلنا: ما هو؟ قال: تدركون بي الظعن في أسفل الوادي ثم تقتلونني، قلنا: نفعل، فعارضنا الظعن فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته: اسلمي حبيش على فقد العيش، فأقبلت جارية بيضاء حسناء وقالت: وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء، قال: سلام عليك دهرأ وإن بقيت عصراً، قالت: وأنت سلام عليك عشراً وشفعاً تنترى وثلاثاً وترأ، فقال:

هواك لهم منى سوى غلة الصدر
وعظمى، وأسبلت الدموع على نحري

إن يقتلونني يا حبيش فلم يدع
فأنت التي أخليت لحمي من دمي
فقال له:

وأخزى، وواسيناك في العسر واليسر
جميل العفاف والمودة في ستر

ونحن بكينا من فراقك مرة
وأنت فلم تبعد فنعم فتى الهوى
ليجيبها الحبيب المفارق:

أثيبي بود قبل إحدى الصفائق
وينأى الأمير بالحبيب المفارق

فلا ذنب لي قد قلت نحن جيرة
أثيبي بود قبل أن تشحط النوى
... فقدموه فضربوا عنقه^(٥٣).

فجاءت فجعلت ترشفه حتى ماتت عليه^(٥٤).

(٥٣) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٥٤) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٨.

ونعلم من رواية ابن كثير أن الشاب لم يكن من بنى جذيمة المسلمين، لكنه جار لهم، لحق بهم عشقاً وهياماً فى بنتهم حبيش، ومن ثم ربما كان من المشركين، حيث يقول ابن كثير أن الشاب عندما قبض عليه رجال خالد قال لهم: «إنى لست منهم، إنى عشقت امرأة فلحقته، فدعونى أنظر إليها نظرة، ثم اصنعوا بى ما بدا لكم، فإذا امرأة أدماء طويلة، فقال لها: اسلمى حبيش قبل نفاد العيش.. فقالت: نعم فديتك، فقدموه فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوكت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبروه بالخبر، فقال: أما كان فيكم رجل رحيم؟» (٥٥).

وكان أول المحتجين على فعل خالد بمسلمى جذيمة ذلك الصحابى الجليل عبدالرحمن بن عوف، وهو ابن عوف بن عوف، الذى عدت عليه جذيمة فى الجاهلية وقتلته مع عم خالد الفاكه بن المغيرة، فقام عبد الرحمن بن عوف ينتهر خالداً يقول له غاضباً: «لقد عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام، فأراد خالد أن يشرك الصحابى الأول فى الجريمة الشنيعة، ويلبسه جميلاً غير جميل بقوله له: «إنما تأرت لأبيك»، لكن ليرد عليه عبد الرحمن بن عوف مكذباً محتجاً فاضحاً:

كذبت

فلقد قتلت قاتل أبى

لكنك تأرت بعمك الفاكه بن المغيرة» (٥٦).

وأخذ المسلمون يتلاومون فى أمر قتل مسلمى جذيمة المستسلمين لأمان الإسلام، حتى بلغ الأمر رسول الله بليغاً، فانتفض رافعاً يديه حتى رأى الناس ما تحت إبطيه وهو يهتف بأعلى صوته أمام الكعبة، ليبلغ الجميع أن الإسلام ينبغى أن يكون وقاء لأهله، مردداً من المرات ثلاثاً صارخات:

اللهم إنى أبرأ إليك

مما صنع خالد بن الوليد» (٥٧).

ثم أردف هتافه الملتاع الغاضب الحزين بديات القتل يرسلها إلى جذيمة حتى ترضى، وحتى

(٥٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٤.

(٥٦) نفسه: ص ٣١٢.

(٥٧) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٧.

ترى العرب ذلك واضحاً، لكن ابن كثير يلحظ الموقف بعين فاحصة واعية فيقول: إنه رغم قتل خالد لعدد كبير من مسلمي جذيمة، وأنه قتل طائفة كثيرة منهم وأسربقيتهم، وقتل أكثر الأسرى أيضاً، فمع هذا لم يعزله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل استمر به أميراً.. لهذا لم يعزله أبو بكر في خلافته حين قتل مالك بن نويرة أيام الردة، وتأول عليه ما تأول حين ضرب عنقه واصطفى امرأته أم تميم، فقال له عمر بن الخطاب: اعزله فإن في سيفه رهقاً، فقال له الصديق: لا أغمد سيفاً سلكه الله على المشركين،^(٥٨).

(٥٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٣.

غزوة هوازن

«يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشاً
ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم،

[الأنصار]

لم تدرك هوازن تلك القبيلة الكبرى، ولا ثقيف التي لا تقبل عنها شأناً، أن الأمر يسير إلى نتائج التاريخية، ولا أدركت كلتاها أن وحدة العرب في جزيرتهم قد انعقدت في صفحات الزمن بعد فتح الفتوح، والاستيلاء على أم القرى، ولم تدرك القبيلتان أن غزوات الجاهلية في سبيلها إلى زوال، حيث يحكى لنا ابن الأثير ذكر غزوة هوازن في وادي أوطاس بجبال حنين، فيقول: «وكانت في شوال، وسببها أنه لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله من مكة، جمعها مالك ابن عوف النصرى، من بنى نصر بن معاوية بن بكر، وكانوا مشفقين من أن يغزوه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد فتح مكة، وقالوا: لا مانع له من غزونا، والرأى أن نغزوه قبل أن يغزونا، واجتمع إليه أهل ثقيف،^(٥٩) أما الطبري فيعلمنا أن هوازن وثقيف قد جمعوا جموعهم عندما سمعوا بمسير جيش يثرب نحو مكة، ظناً منهم أنه يريدهم هم^(٦٠)، وقد ذهب البلاذري مذهب ابن الأثير في قوله: «وكانت أشراف هوازن بن منصور وغيرهم من قيس

(٥٩) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦١.

(٦٠) الطبري: تاريخ... سبق ذكره، ج ٣، ص ٧٠.

قد تجمعوا مشفقين من أن يغزوههم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقالوا: قد فرغ لنا فلا ناهية له دوننا والرأى أن نغزوه،^(٦١).

وعلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالرعب الذى أخذ هوازن، ودفعها دفعاً لتخرج فى حلف مع ثقيف، يتقدمها رجالها، قد أخذوا معهم نساءهم وأموالهم وأطفالهم، بتقرير فدائى من مالك بن عوف ملكهم وسيدهم، حتى يجد كل رجل منهم فى نفسه الغيرة والحمية للقتال دون عرضه وماله، فكان وجود المال والنساء والعيال وراء الرجال دافعاً للاستماتة القتالية من وجهة نظر قائدهم مالك بن عوف، طالباً بذلك روحاً فدائية ونصراً لا يشك فيه.

وخرج النبى برجاله من مكة غازياً لهوازن، لكنه ترك لأهل مكة، ولفرعها الأموى تحديداً طمانة واضحة، تبليغاً بمكانتهم ودورهم فى الدولة، فاستخلف على مكة عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس الأموى، وكان عمره إذ ذاك قريباً من عشرين سنة^(٦٢)، منبهاً بذلك إلى دور الجيل القرشى المقبل. ومطمئناً لتجار مكة وسادتها على نظامها الاقتصادى والتجارى، بل والدينى الذى أفرزه ظرفها التاريخى، وهو ماتوكده رواية ابن الأثير حيث يقول: إن عتاب الأموى قد حج بالناس هذا العام، «وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج»^(٦٣).

وبينما تتحرك كتائب الإيمان نحو أوطاس حنين فى اثنى عشر ألف مقاتل، منهم جيش الفتح وكان عشرة آلاف، وقد انضم إليه ألفان من الطلقاء، يقول النبى وهو على رأس ركبته العظيم، تهتز تحته أرض البوادرى تسمع العربان:

لن نغلب اليوم من قلة!!^(٦٤).

وكانت كلمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - معبرة تماماً عن واقع موضوعى واضح فصيح، فمهما كانت قوة هوازن وثقيف، فلن تقاس عدداً على جند الله الذين يمثلون أكبر جيش عرفته الجزيرة من عربها، ولم يعد الأمر بحاجة فى تلك الجولة لاستدعاء ملأ السماء المقاتل ولا تعبئة للملائكة، ونادى النبى فى رجاله هاتفاً:

من قتل قتيلاً فله سلبه^(٦٥).

(٦١) البلاذرى: أنساب الأشراف... سبق ذكره، ج ١، ص ٣٦٤.

(٦٢) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٣.

(٦٣) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٧٢.

(٦٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٤.

(٦٥) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.

وجاءه رجل من عيونه المتقدمين يحمل أخبار العدو يقول: «يا رسول الله، إنى انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن عن بكرة أبيها بظعنهم وبنعمهم وشأنهم قد اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال:

تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله^(٦٦).

لكن على طريق هوازن، يظهر بين ذلك الجمع من جند الإيمان كثير من سوء الفهم للإسلام وأهدافه، خاصة بين أولئك الذين احتشدوا معه على حادثة عهد بالإسلام من العريان والطلقاء، حيث يمرون بشجرة مقدسة لعرب الجاهلية اسمها ذات أنواط، وعندما يرونها يقولون للنبي - صلى الله عليه وسلم - «يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»، وكانت ذات أنواط قد بلغت رتبة الربوبية في الجاهلية، ومن ثم لم يدرك هؤلاء مغزى التوحيد القومى والتوحيد الألوهى الذى لا يقبل شراكة، وهم من لاشك ينطبق عليهم قول الآيات الكريمة «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا» (١٤ / الحجرات)، لذلك كان رد رسول الله عليهم المستنكر: «الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة، لتركبن سنن من كان قبلكم»^(٦٧).

هذا بينما كان مالك بن عوف قد عزم من جانبه على نصر إن حدث غير تاريخ الجزيرة والعالم، فاستفاد من دروس غزوة بدر الكبرى، حين كان المسلمون قلة أمام كثرة، وعلم الأسباب ودرس الخطط، ليفعل ماسبق وفعله المسلمون أعوانها، فسبق جيش المسلمين برجاله إلى مواقع متميزة اختارها بجبال حنين المرتفعة والتي تنحدر إلى قعر فسيح يسمى أوطاس، ووزع رجاله فى مواقع مختارة بعناية، وهياهم مابين رام وفارس وراجل ودارع، ووضع خلفهم نساءهم وأطفالهم ويعيرهم وشياهم وأموالهم، وهو يعلم من جانب آخر حال ذلك الجيش الهائل ومافيه من ثغرات، أهمها أولئك الذين دخلوا الإسلام كرها، وأطلق عليهم المسلمون الأوائل اسما يليق بهم، أسموهم الطلقاء.

ونسمع من الصحابى جابر تصوير المشهد الأول للغزوة وهو يقول:

فلما استقبلنا وادى حنين، انحدرنا فى واد أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحذاراً، فى عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنوا لنا فى شعابه ومضايقه، قد تهيأوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا

(٦٦) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٤.

(٦٧) أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن ١٨ باب لتركبن سنن الحديث ٢١٨٠.

الكتائب قد شددت علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون لايلوى أحد على أحد^(٦٨).

الآن يهزم جيش دولة النبي وهو الكثير أمام فئة قليلة؟! الآن وبعد ذلك المشوار الطويل الكبير العظيم، وبعد أن قاربت الدولة الكبرى على القيام فى جبين التاريخ، وبعد كل تلك المعاناة والتجارب والهزائم والانتصارات، وبعد كل تلك الدماء وذلك العمر الذى انقضى، والدولة الكبرى من التحقيق قاب قوسين أو أدنى، وبعد كل ذلك التواصل بين الأرض والسماء، وكل الآيات التى تتحدث عن الاستشهاد وعن الجنة وعن النار، تفر الكثرة أمام القلة، ويتبعثر الاثنى عشر ألف مقاتل منهزمين يحاولون الصعود من أوطاس إلى حنين، والصعود ليس كالهبوط، فيه الذعر وفيه الكبوات، فيه سهام تنزور رماح تطارد، لا أحد يلتفت إلى أحد، ولا حتى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يرى المشروع برمته يتزلزل زلزالاً عنيفاً، ليقف مكانه ثابتاً، فالآن بعد كل تلك الحياة الحافلة بزخم الأحداث الكبرى، إما حياة تصل إلى مبتغاها أو لا حياة، ويصمد القائد العظيم وحده ويهرب المؤمنون فراراً من الموت، ولا يبقى من القضية كلها والشعارات جميعاً عن جنة الشهداء ونار الكافرين، سوى رابطة الدم وحدها، فيجتمع حول بغلة الرسول أهل بيته فقط من بنى عبد المطلب وأبى طالب، ثمانية فقط من الاثنى عشر ألفاً وقفوا ترساً واحداً فى حلقة حول ابن أخيه، بينما النبى يهتف فى رجاله المؤمنين^(٦٩):

أين أيها الناس؟

هلموا إلىّ

أنا رسول الله

أنا رسول الله

أنا محمد بن عبد الله

ويعقب ابن كثير على النداء النبوى:

ولاشيء!!

وركبت الإبل بعضها بعضاً.

أو

وانكفاً الناس منهزمين

لا يقبل أحد على أحد^(٧٠).

(٦٨) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦٢، ٢٦٣.

(٦٩) السهيلي: الروض الأنف... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٤١.

(٧٠) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ص ٣٢٥، ٣٢٦.

ووسط الغبار الثائر تحت خطو الهاريين وسنابك خيولهم، يلوح أحد الفارين عمر بن الخطاب فيسأله: ماشأن الناس؟ ليجيبه عمر معبراً عن مدى اللوعة واليأس: أمر الله!!^(٧١)

وانتحي أبو سفيان مع رفقة له من رجال مكة الطلقاء، مكاناً آمناً يطالعون مشهد الارتداد والنكوص لجند المسلمين الفرعين، ليفصح لسانه عن مكتون صدره، فيهتف معبراً عن فرحه العظيم:

لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.

أما كلدة بن الحنبل، الذي خرج من مكة مع النبي وهو على شركه، وكان يظن أن ماحققة محمد إنما بفضل السحر، فقد علا صوته وهو يعن سعادته جهورية بما يرى ويصرخ:

ألا بطل السحر اليوم!!

لكن ليرد عليه أخوه لأمه صفوان بن أمية، أحد كبار أشراف مكة، معبراً عن قبليته العميقة وعصبية المتجذرة لأهله، يقول: «اسكت فض الله فاك، فوالله لئن يرني رجل من قريش، أحب إلى من أن يرني رجل من هوازن»^(٧٢).

ويقول ابن كثير: «اعتزل أبو سفيان وصفوان وحكيم بن حزام وراءهم ينظرون لمن تكون الدائرة»^(٧٣)، فيمر عليهم رجل من قريش ينادي صفوان بن أمية: «أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجتبرونها أبداً، ليرد صفوان مكرراً معبراً عن أسفه مما يسمع من بني قريش: «تبشرني بظهور الأعراب؟ فوالله لرب من قريش أحب إلى من رب من الأعراب»، وهي ذات المشاعر العشائرية التي عبر عنها لسان مصعب بن شيبة، عندما سئل بعدها عن خروجه مع رسول الله إلى هوازن، حيث يقول: «والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به، ولكني أبيت أن تظهر هوازن على قريش»^(٧٤).

أما النبي الذي وقف يشاهد هذا الانهيار، فقد نظر إلى السماء وهو يهتف بربها:

اللهم إنك إن تشاء

لا تعبد في الأرض بعد اليوم^(٧٥).

(٧١) نفسه: ص ٣٢٩.

(٧٢) نفسه: ص ٣٢٥.

(٧٣) نفسه: ص ٣٢٨.

(٧٤) نفسه: ص ٣٢٩، ٣٣١.

(٧٥) نفسه: ص ٣٢٦.

وكان لابد من عمل سريع، وتصرف حاسم، فينظر الرسول إلى حامل راية هوازن، يرفع الراية ويمسك برمح طويل لا يحمله إلا رجل شديد المراس، يقتحم الناس بفرسه ووراءه رجال هوازن وثقيف، وهنا يرفع النبي إصبعه مشيراً إلى حامل الراية، ويتبع على بن أبي طالب الإشارة ليهوى بسيفه على عقب الفرس، فيسقط فيقتله فتسقط الراية، وترتبك هوازن.

ثم يجول المصطفى بعينه يبحث بين الهارين عن خثولته من أهل الدم والحرب والحلقة اليثارية، ثم يهتف بعمه العباس فجأة، بينما هو واقف يمسك بزمام بغلة الرسول دلدل.

يا عباس؛

ناد: يا معشر الأنصار

يا أصحاب الشجرة

كان النداء نداء رحم وخثولة، وتذكيراً بعهد البيعة حتى الموت تحت الشجرة، وتنبئها إلى عقد العري وجواره المعقود بين الأنصار والنبي في الغيبة، واستشرافاً لشهامة النجدة والمروءة، واستنفاراً للخطوة العربية، ويستمر العباس ينادى والنبي يلقيه:

يا أصحاب البيعة يوم الحديبية

الله، الله

الكرة على نبيكم

يا أنصار الله

يا أنصار رسول الله

يا بني الخزرج

يا أصحاب سورة البقرة

يا أصحاب السمرة^(٧٦)

نداء لمس الحواشي وهز ما بين الجوانح ولجّت به الخثولة في تعبير العباس بن عبد المطلب وهو يقول:

فوالله لكأنما عطفهم حين سمعوا صوتي عطفا البقر على أولادها،

(٧٦) نفسه: ص ٣٢٨، ٣٢٩.

فقالوا:

يا البيكاه

يا البيكاه^(٧٧)

ويمضى العباس، الشاهد على عقد العقبة مع الأنصار، الذين تكفلوا بحماية النبي بعهد وعقد عري، ليصف لنا المشهد الثاني للمعركة الكبرى، لينظر إلى الأنصار ويقول شاهداً على التزامهم عهدهم ووفائهم رحمهم:

فيذهب الرجل منهم يريد أن يثني بغيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ثم يقتحم عن بغيره، فيخلى سبيله في الناس، ثم يؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس فاقتتلوا، فكانت الدعوى أول ما كانت: يا للأنصار ثم جعلت أخيراً يا للخزرج^(٧٨).

وصمد المسلمون، وبدأ الفارون في العودة والتكاثر، وعاد السيف الإسلامي يشتد مرة أخرى ليعمل عمله في هوازن وثقيف لينتحي النبي يمينا وحوله آل بيته الهاشمي، ويقول من معتلاه: الآن حمى الوطيس.

وبلاغة المصطفى هنا ظاهرة في تعقيبته على دورة الدائرة على هوازن في وادي أوطاس، وقوله: الآن حمى الوطيس، والوطيس في شرح السهيلي هي نقرة في حجر توقد حوله النار فيطبخ به اللحم، ويعقب بأنها من الكلم التي لم يسبق للنبي إليها أحد^(٧٩).

ومع صمود الأنصار عاد الجيش المنهزم ليحط على عدوه ليستحر القتل حتى قال ابن سعد: «فأمر رسول الله أن يقتل من قدر عليه، فحقن المسلمون عليهم يقتلونهم حتى قتلوا الذرية، فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك، فنهى عن قتل الذرية»،^(٨٠) وماهى إلا سويغات حتى جمع المسلمون من الأسرى ما يربو على ستة آلاف نسمة أعمهم نساء وأطفال تركهم رجالهم وهربوا أو قتلوا^(٨١)، ووقف المسلمون يحصون غنائمهم التي وصلت أربعة وعشرين ألف بغير،

(٧٧) نفسه: ص ٣٢٩.

(٧٨) الطبري: تاريخ... سبق ذكره، ج ٣، ص ٧٤.

(٧٩) السهيلي: الروض الأنف... سبق ذكره، ص ١٣٨.

(٨٠) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.

(٨١) الطبري: تاريخ... سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٢.

وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة^(٨٢)، أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يتم حبسها في الجعرانة حتى ينظر في أمر توزيعها على أفراد الجيش المنتصر.

هذا بينما كانت أم سليم تعبر عن مشاعر السخط على الخونة في الجيش والطلاق من قريش، الذين فروا والذين شمتوا والذين فرحوا والذين وقفوا ينتظرون تحديد موقفهم بتحديد العلامات المبشرة لمن ستكون الكرة، فتقول للنبي: «يا رسول الله اقتل من بعدها الطلقاء الذين انهزموا بك، فقال: إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم»^(٨٣). وفاضت مشاعر حسان بن ثابت الأنصاري ضد الطلقاء، فقال في كلدة بن الحنبل الذي كان يهتف: «ألا بطل السحر اليوم»:

رأيت سواداً من بعيد فراعني	أبو حنبل ينزو على أم حنبل
كأن الذي ينزوبه فوق بطنها	ذراع قلوص من نتاج ابن عزهل ^(٨٤)

(٨٢) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١١٠.

(٨٣) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٦.

(٨٤) ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٤.

حصار الطائف

«والله لنحن أذلّ من العبيد،

[عبيدة بن حصن]

الطائف، مدينة الثقفيين الكبرى التي بلغت شوطا عظيما في التمدين، كانت المدينة التي لا تقل شأنا عن مكة، ونافست يثرب طويلا على صدارة الموقع الثاني بعد مكة، وربما سعت مثلما سعت يثرب لتحوز المركز الأول، مستمدة ذلك من قوة أدت إليها عوامل عدة، فهي من أعدل مناطق الجزيرة مناخا وأكثرها خصوبة وزرعا، إضافة إلى موقعها الذي يقف على طريق التجارة بين مكة واليمن، طريق رحلة الشتاء، وهو الأمر الذي جعلها في حسابات الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما كان بمكة يبحث عن مدينة تحقق مشروعه العظيم، تقع في الموقع الأول فزارها داعيا لكنهم ردوه رداً سفيها، فيمم وجهه بعد ذلك نحو الأخوال في يثرب، بعد أن فقد الأمل في فهم سراة ثقيف وأشرافها لأبعاد ذلك المشروع الهائل.

وعندما نتذكر عدد رجالها المقاتلين، يجب أن نوقن من وجود صراع على النفوذ بينها وبين قريش، التي كانت تتطلع إلى مد نفوذها إلى الطائف لحل مشكلة وضعها في المعادلة التجارية، لوجودها على الخط التجارى لرحلة الشتاء، وقد تمكن بعض أثرياء قريش بالفعل من شراء بعض الأماكن الخصبة بين الثقفيين، وتتابعوا يستحوذون على أراضيها

الخصبة، وهو مانجده واضحا عند ابن حبيب^(٨٥).

وطبيعي أن تحاول ثقيف الاستقلال الاقتصادي، وهو ما أدى إلى تنافس جعل أهل الطائف يستجلبون قوافل التجارة إليهم، بجعل مدينتهم ذات المناخ المتميز، مركزاً للتجارة والتجار، ووصل الأمر إلى حد وقوع الحرب بين الفريقين فيما يعرف بحرب الفجار، وغنى عن الذكر أنها سميت كذلك لأنها نشبت إبان الأشهر الحرم، والتي أرادت ثقيف ضرب حرمتها لضرب التجارة القرشية^(٨٦).

ويبدو أن قريشا قد اضطرت إلى لون من المصالحة باقتسام المنافع المشتركة، بعدما جد ظرف جديد لصالح الطائف، تمثل في استيلاء الفرس على اليمن، وهو ما أدى بإرسال كسرى وملوك الحيرة قوافلهم التجارية إلى اليمن عبر الطائف دون المرور على مكة. ويمكن للعين الفاحصة أن تتلمس أسباب حرب الفجار، حيث شجعت قريش عن عمد حليفاً قبلياً لها ليهاجم قافلة للنعمان ملك الحيرة، ويغلق طريق الحيرة إلى اليمن عبر الطائف.

ومن جانبيها وجدت الطائف نفسها مضطرة إلى السلام مع قريش، بالنظر إلى ظرفها الداخلي، حيث نشب الصراع بين عشائرها، وهو المعلوم بشأن بنى عوف مقابل بنى مالك، بينما اتجهت قريش إلى مد نفوذها الاقتصادي داخل الطائف بشراء أراضيها، وإقراض رؤسائها ما يريدون من أموال، لينتهي الفريقون إلى السيطرة على السوق الداخلية للطائف، بل وحولوا مدينة الطائف إلى سوق الحجاز المركزي، وبالمقابل كانت ثقيف بحاجة لتصرف منتجاتهم الزراعية في مكة، فاعترفت بالأمر الواقع، وبصدارة مكة وبالتحالف مع قريش لعدم إهدار المصالح، فكانا يفتسمان النفوذ تقريباً عند ظهور الإسلام، حيث سيطرت قريش على طريق الإيلاف الشامي، وتركت للطائف طريق الشتاء، وانتقل الصراع إلى تحالف واختلاط ومصاهرات ومشاركة في رؤوس الأموال.

وعندما نتذكر أن ثقيف هي التي كانت دليل جيش أبرهة الحبشي نحو مكة عام الفيل^(٨٧)، يمكن أن نفهم فوراً موقف ثقيف المتصلب عندما ذهبها محمد داعياً، ثم موقفها المتصلب من النبي ومن قريش بعد سقوط مكة واستسلام ساداتها للنبي، حيث اكتشفت أن مصيرها الخضوع

(٨٥) ابن حبيب: الممق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، ط ١، الهند، ١٩٦٤، ص ٢٨٠، ٢٨١.

(٨٦) نفسه: ص ٢٠٩.

(٨٧) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ص ٢، ١٩٥٥، ج ١، ص ٤٧.

النّام لسيادة قريش إن غزاها النبي، ومن ثم قامت تحالف هوازن لتكوين جبهة تحاول إنقاذ مصالحها من ذلك التهديد الهائل، وخاضت حربها اليائسة ضد جيش المسلمين، بينما كان النبي على الطرف الآخر يسعى إلى هذه المعركة سعياً، حيث كان قراره بحفظ مكة قريته وأهله من السبي، ومن ثم لم يغنم جنده شيئاً يعرضهم عن فتحها، حيث لم يغنموا شيئاً على الإطلاق^(٨٨)، ومن ثم كان توجيه المسلمين نحو هوازن وثقيف اللتين كانتا قد تهيأتا بدورهما للمعركة الانتحارية^(٨٩).

وبالهيمنة، تراجعت ثقيف إلى الطائف، ومعها من انضم إليها من هوازن، حيث حصونهم القوية وميرتهم وزادهم الكثير^(٩٠)، وهنا أمر النبي بالمسير فوراً إلى الطائف ليضرب الحصار على حصونها.

ولما كانت ثقيف قد ترفلت في النعيم، ولاتقل ثرواتها عن ثروات المكين، واقتنى ساداتها الثمين من مقتنيات الذهب والفضة، وحلوا نساءهم بالجواهر على أنواعه، فقد انسلت خولة بنت حكيم بن أمية زوجة عثمان لتقترب من النبي وهم يوجهون نحو الطائف تقول له:

يا رسول الله، أعطني إن فتح الله عليك الطائف، حلى بادية بنت غيلان،
أو حلى الفارعة بنت عقيل^(٩١).

هذا بينما كان المخنث (هيت) مولى فاختة بنت عمرو خالة النبي، يقول لعبد الله بن أمية:

إن فتح الله عليكم الطائف، فسل رسول الله أن ينفلك بادية بنت غيلان،
فإنها هيفاء شموع نجلاء، إن تكلمت تغنت، وإن قامت تثنت، وإن مشّت
ارتجت، وإن قعدت تبنت، تقبل بأربع وتدبر بثمان، بثغر كالأقحوان، بين
رجليها كالعقب المكفأ^(٩٢).

وكان (هيت) يدخل على نساء النبي ويذهب إلى بيوته، والرسول لا يظن أن له شيئاً مما
للرجال، وأنه لا يظن إلى شيء من أمر النساء مما يظن إليه الرجال، ولا يرى أن له في ذلك
إرباً، فلما سمعه يقول ما قال لعبد الله بن أمية قال: «لأرى هذا الخبيث يظن لما أسمع، ثم قال

(٨٨) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٦٤.

(٨٩) اليعقوبي: التاريخ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٤، ١٩٧٤، ج ٢، ص ٥٣.

(٩٠) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٢٦٦.

(٩١) ابن هشام في كتاب المهمل: الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٠.

(٩٢) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦٨.

لنساءه: لا يدخلن عليكن، فحجب عن بيت الرسول،^(٩٣) لكنه في رواية السهيلي قال لهيت: «قاتلك الله، لقد أمعنت النظر، ثم قال: لا يدخلن هؤلاء عليكن، ثم نفاه إلى روضة خاخ، فقيل إنه يموت جوعا، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس»،^(٩٤).

وصيغة الجمع في قول رسول الله: «لا يدخلن هؤلاء عليكن»، تشير إلى آخرين مخنثين عاشوا في مدينة الرسول مثلما كان حال (هيت) وهو ما يفيدنا به السهيلي في شرحه لأمر مخنثي المدينة حيث يقول: إن المخنثين المعلومين كانوا أربعة يحملون أسماء تليق بهم، فهم (هيت) و (هرم) و (ماتع) و (أنه)، ووصفهم بقوله: «كان تأنيثهم لينا في القول وخضابا في الأيدي والأرجل كخضاب النساء، ولعبا كلعبهن، وربما لعب بعضهم بالكرج، وفي مراسيل أبي داود أن عمرو رضى الله عنه رأى لاعبا يلعب بالكرج، فقال: لولا أنى رأيت هذا يلعب به على عهد النبی - صلى الله عليه وسلم - لنفيته من المدينة»،^(٩٥).

وبالوصول إلى الطائف أمر النبي بقصر مالك بن عوف المتطرف فأحرق^(٩٦)، ويقول البيهقي أنه نصب عليهم المنجنيق أربعين يوما، فكان أول من رمى بالمنجنيق والدبابات والصنبور في الإسلام، لكن ثقيف المستميتة تمكنت من صد دبابات المسلمين، بإلقاء الحديد المحمى بالنار عليها وعلى من فيها من فوق الأسوار، وهنا أمر النبي بقطع كرومهم الهائلة الموجودة خارج حصونهم لتدميرهم معنويا^(٩٧)، فنادوه من على الأسوار «لا تفسدوا الأموال فإنها لنا أولكم»،^(٩٨) فرد عليهم بنداء آخر يسمع عبيدهم أن من خرج إليه من عبيد ثقيف فهو حر، فخرج إليه هربا بعضهم على رأسهم من أصبح بعد ذلك الصحابي الجليل أبو بكر^(٩٩).

ولما طال الحصار جاء الأحمق الذي لم يعد مطاعا (عبيدة بن حصن) زعيم غطفان الفزارية إلى النبي، والمفترض أنه قد أصبح مسلما، فطلب منه الإذن ليذهب إلى ثقيف في حصونها، يدعوهم إلى الاستسلام والإسلام، لكنه عندهما وصلهم أفصح عن لسان حال الزعماء الذين خضعوا راغمين، فقال لهم:

بأبى أنتم، تمسكوا بمكانكم، والله لنحن أذل من العبيد، وأقسم بالله لنن

(٩٣) نفسه: ص ٢٦١.

(٩٤) السهيلي: الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٣.

(٩٥) نفسه: ص ١٦٤.

(٩٦) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ١٥٧.

(٩٧) ابن سيد الناس: عيون... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٩٨) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٤٦، ٣٤٧.

(٩٩) نفسه: ص ٣٤٧.

حدث به حدث لتملكن العرب عزة ومنعة، فتمسكوا بحصونكم، وإياكم أن تعطوا بأيديكم، ولا يتكاثرن عليكم قطع الشجر^(١٠٠).

وطال الحصار، وعلم النبي أن الأمر سيطول أكثر، وأن ثقيفا تمتنع في حصونها ولديها من الزاد وفرة، فاستشار نوفل بن معاوية الدولى، فقال له: يا رسول الله ثعلب في جحر، أن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك^(١٠١)، فاستدعى النبي أبا بكر وقال له: يا أبا بكر إني رأيت أنى أهديت لى قعبة مملوءة زيدا، فقرها ديك، فهراق مافيه، فقال أبو بكر: ما أظن أنك تدرك منهم يومك هذا ماتريد، فقال رسول الله: وأنا أرى ذلك^(١٠٢). ومن ثم أذن في الناس برفع الحصار والعودة إلى الجعرانة، حيث أسرى وسبايا وغنائم حنين.

وعندما سمع الزعيم الغطفاني عيينة بن حصن الفزارى نداء رفع الحصار عن ثقيف، هتف لفوره معبراً عن عظيم فرحه: «أجل والله مجدة كراما، فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة، أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد جئت تنصره؟ فقال: والله إني ماجئت لأقاتل ثقيفا معكم، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطؤها^(١٠٣).

أما ابن كثير فقد التمس تفسيراً تبريراً لرفع الحصار عن الطائف وذلك في قوله الباحث عن الحكمة وراء الحدث:

قلت: وكانت الحكمة الإلهية تقتضى أن يؤخر الفتح عامئذ، لئلا يستأصلوا قتلا، لأنه قد تقدم أنه عليه السلام لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم إلى الله تعالى، وإلى أن يؤوه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل، وذلك بعد موت عمه أبى طالب، فردوا عليه قوله، وكذبوه، فرجع مهموماً، فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب، فإذا هو بغمامة فيها جبريل، فناده ملك الجبال، فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام، وقد سمع قول قومك لك وماردوا عليك، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل أستأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبدده وحده لا يشرك به شيئا، فناسب قول: بل أستأنى بهم، ألا يفتح حصنهم لئلا

(١٠٠) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ١٦٣.

(١٠١) ابن الأثير: الكامل... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦٧.

(١٠٢) ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٠.

(١٠٣) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٥٠.

يقتلوا عن آخرهم، وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام المقبل^(١٠٤).

وعاد النبي برجاله إلى الجعرانة، لتأتيه هناك امرأة من سبى هوازن، تزعم أنها أخته من الرضاة، وأن اسمها الشيماء، فيسألها عن مؤيدات صدقها، فتكشف له بجسدها عن عضة كان قد عضها لها، فيتعرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - على العلامة، فيبسط لها رداءه ويجلسها عليه، ويخيرها بين البقاء عنده محبة مكرمة، أو أن يعيدها إلى قومها ممتعة، فتقول له: «بل تمتعني وتردني إلى قومي.. فأسلمت، فأعطاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة أعبد وجارية، ونعما وشاء، وسماها حذافة، وقال: الشيماء لقب،^(١٠٥).

وتعلم هوازن بعودة النبي، وتدرك أن الإسلام هو الوقاء الأمثل فتختار له تسعة ممن بقى من أشrafهم، ليعلموا أمامه إسلام هوازن ويباعوه على السمع والطاعة، ثم يفساتحوه في مصابهم قائلين: «يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات وهن مخازي الأقوام، ونزغب إلى الله وإليك يا رسول الله، وكان رحيمًا جوادًا كريمًا، فقال سأطلب لكم ذلك، أما كيف؟ فقد سألهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «أبناؤكم ونسأؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا، فقال: إذا أنا صليت بالناس الظهر، قوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيك عند ذلك وأسأل لكم».

وفعل الهوازنيون بتوجيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ووافق جميع المسلمين اللهم إلا عبيدة بن حصن مع غطفان وفزارة، والأقرع بن حابس التميمي ومعه تميم، وعباس بن مرداس زعيم سليم، إلا أنهم وافقوا جميعا في نهاية الأمر^(١٠٦)، وعادت هوازن برجالها ونسائها وأطفالها مؤمنة مسلمة بعد كفران، لكن بعد أن ركبت رأسها فخرت أموالها وشرف بعض نسائها.

ورغم نصر هوازن فإن الرسول القائد - صلى الله عليه وسلم - ما كان ليغفل عن نقطة ضعف قد تكون قاتلة في صفوف رجاله، حيث بينهم من دخل تحت سيادة الدولة وسيدها، من سادة ورؤوس وأشراف كبار، كان أحدهم لا يقبل برأس يعلورأسه، فدخلوا على مصنص مرغمين، يتحينون فرص النكوص، وعبروا في أكثر من موقف عن مكنون صدورهم، أما الأخطر فهو ما يمكن أن يسببوه للدولة من مشاكل، ربما أدت لنكسات وهزائم، وهو الأمر الذي يمكن استنتاجه

(١٠٤) نفسه: ص ٣٥١.

(١٠٥) ابن سيد الناس: عيون... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٢.

(١٠٦) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ١٩٢، انظر أيضاً ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٢.

ببعض الظن، فمن المحتمل أن يكون ما حدث في المشهد الأول لوقعة حنين ترتيباً مقصوداً من الطلقاء، من قريش ومن القبائل الكبرى كغزارة وسليم وتميم، فيهرب فرسانهم أمام هوازن، لإيقاع الارتباك بين جنود المسلمين وصفوفه، الذي يمكن لأفراده أن يهربوا بدورهم بغريزة القطيع، وهو أمر محتمل تماماً إذا أخذنا بالاعتبار حجم الجيش الإسلامي وعدد أفراد هوازن المقاتلين، وهو ما يزداد تأكيداً إذا تذكرنا أن الكرة عادت على هوازن فقط بمئة أنصاري من بين الاثنى عشر ألفاً، أخوال الرسول وناصره في كل موقع بخثولة حقة وإيمان صادق، ولولا صمود الأنصار في الوقعة لكانت النتائج مختلفة تماماً، ولربما تغير وجه التاريخ برمته. كان وعى القائد النفاذ يستدعى حلاً سريعاً لرتق تلك الثغرات في الولاء للدولة، فقام يوزع الأعطيات الهائلة من مغنم الهوازنيين الذين أسلموا على كبار الرؤوس والهجمات الصلبة الثرية أصلاً، ليفتح عيونهم على ما ينتظرهم وإشعارهم أن الإسلام لا ينتقص منهم ومن مكانتهم، بل يزيدهم ثراءً على ثراء، ويفتح أمامهم أبواب الغنى الهائل على مصراعيه، إزاء الطموحات المتوثبة في الوعد النبوي بكنوز كسرى وقيصر. فأعطى أبا سفيان صخر بن حرب أربعين أوقية من الفضة، ومائة من الإبل، فلم يقنع السيد القرشي وطلب لابنه يزيد، فأعطاه مثلماً أعطى أبيه، فطلب لابنه معاوية فأعطاه مثلهما، كما أعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل فسأله مثلها فأعطاه، وأعطى الحارث بن كلفة مائة من الإبل كذلك لأسيد بن جارية والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وقيس بن عدى وسهيل ابن عمرو وحويطب بن عبد العزى والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ومالك بن عوف، وكلهم سادة قومهم وأشرفهم وأثريائهم، لكل منهم مائة من الإبل، وأعطى لسيد من السادة هو عباس بن مرداس زعيم سليم أربعين من الإبل، فسخط سخطاً شديداً وقام يعبر عن واقع ما يحدث من سيادة وتسييد بقوله:

فأصبح نهبي ونهب العبد سيد بين عيينة والأقرع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال النبي: اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه، فظلوا يعطونه حتى رضى، ثم وزع الإبل خمسين خمسين على من هم أدنى في السيادة درجة^(١٠٧) كل ذلك والأنصار تقف مشدوهة تتطلع.

ولاشك أنها تذكرت وتذاكرت مواقفها من البدء حتى المنتهى، ودماء بعضهم لم تجف بعد على ثرى أوطاس بحنين، ثم تتذكر خروجها مع النبي في غزواته وطلوعها على العرب في سرايا، وقتل من يأمر الرسول بقتله من بينهم أو من بين أحلافهم، ثم لاشك يتذكرون يوم أحد،

(١٠٧) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١١٠، انظر أيضاً ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٥.

عندما فر الناس من حوله بخاصة المهاجرون، وكيف صمدوا للمشركين يصدونهم عن رسول الله، وكيف ضن النبي بطلحة عندما كان يهرب إلى معتلى الصخرة، ويقول: ألا أحد لهؤلاء، فيكر أنصارى عليهم يمنهم عن النبي فيموت شهيداً، ثم يصعد النبي ومعه طلحة، فيقول النبي: ألا أحد لهؤلاء، فيقول طلحة: أنا لهم يارسول الله، فيقول كما أنت ياطلحة، فينزل لهم رجل من الأنصار حتى يموت شهيداً.

لا شك أيضاً يذكر الأنصار بيعة العقبة وعقدها، ويوم الهجرة عندما أتاهم النبي مهيباً لاجئاً مع رجاله، فأعطوهم دورهم وشاركوهم قوتهم بل ونساءهم.

ولاشك أيضاً أن الحاضر قائم بكل تفاصيله، وأنه لولا هم عندما عطفوا عطفهم على هوازن، مابقى من الأمر شيء وهنا تلو الأصوات، ويكثر اللفظ، ويقول قائلهم:

نحن أصحاب كل موطن وكل شدة ثم آثر قوما علينا وقسم فيهم قسماً لم يقسمه لنا، وما نراه فعل ذلك إلا وهو يريد الإقامة بين ظهرانيتهم.

ويقول آخر:

يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

ويزيد ثالث:

أما من قاتله فيعطيه، وأما من لا يقاتله فلا يعطيه.

هذا بينما بدأ الاحتجاج، وأخذ الناس يكثرون في الكلام، حتى قيل للرسول ما لا يصح من كلمات شديدة الاحتجاج، فهذا أبو موسى يروى: «كنت عند النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى رسول الله أعرابى فقال: ألا تنجزلى ما وعدتني؟ فقال له: أبشر، فقال الأعرابى:

لقد أكثرت على من أبشر؟

بينما يقف رجل آخر على رأسه ويقول له:

يا محمد اعدل.

ليرد النبي: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟

فيجاوبه ذو الخويصرة من بنى تميم غاضباً:

لقد رأيت يا محمد ما صنعت.

فيسأله: وكيف رأيت؟

فيرد بصراحة العربى:

لم أرك عدلت .

فهم به عمر يقول: يا رسول الله ألا أقوم إليه فأضرب عنقه؟ لكن ليرد عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - «دعه، إن له أصحابا» .

بينما كان آخر يردد بين القوم:

إن هذه القسمة ماعدل فيها

وما أريد بها وجه الله .

فيذهب رجل بالكلام إلى النبي، فيتغير وجهه حتى يصير شديد الحمرة، ليهتف بالناس: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟^(١٠٨) .

وينتحي الأنصار جانبا وهم يرون أوياش القبائل يحيطون بالنبي في جمهرة عظيمة، تطالبه بوقف الأعطيات، يقولون له: يا رسول الله أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، والنبي يتراجع بين الأصوات الغاضبة، حتى يلجئوه إلى شجرة يعلق بها رداءه ويتراجع فتخلع الشجرة عنه رداءه فيصيح بهم: أيها الناس ردوا على ردائي، أيها الناس والله لو كان لكم بعدد شجرتهمائة نعماء لقسمته عليكم^(١٠٩) . ثم يأمر زيد بن ثابت بإحصاء ماتبقى ثم توزيعها على الناس بالعدل، فكانت سهامهم لكل رجل أربعة من الإبل وأربعون من الشياه^(١١٠) . هذا بينما وقف حسان بن ثابت أمام الأنصار ينشد عتبه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائلا برقة مشاعر الخثولة:

سحا إذا حفتاه عـبرة در
للمؤمنين إذا ماعدد البشر
قدام قوم هم آووا وهم نصروا
دين الهدى وعوان الحرب تستعر
لنائبات وماخاموا وماضجروا
إلا السيوف وأطراف القنا وزر
منا عثارا وكل الناس قد عثروا^(١١١)

زادت هموم فماء العين منحدر
وات الرسول فقل ياخير مؤتمن
علام تدعى سليم وهى نازحة
سماهم الله أنصاراً بنصرهم
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا
والناس ألب علينا منك ليس لنا
فما ونينا وما خمنا وما خبروا

(١٠٨) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ١٧٣، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، انظر أيضاً الواقدي: المغازي... سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٤٨ .

(١٠٩) ابن هشام فى كتاب السهيلي: الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٥٩ .

(١١٠) ابن سعد: الطبقات... سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١١٠ .

(١١١) ابن هشام فى كتاب السهيلي: الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٢ .

وهنا ينادى المنادى بالأنصار وحدهم ليجتمعوا فى قبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليقف فيهم خطيباً يقول:

يامعشر الأنصار، ما قالة بلغتنى عنكم؟ وجدة وجدتموها على أنفسكم؟ ألم آتكم ضلّالاً فهذاكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟

قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: أنيتنا مكذبا فصدقناك، وطريدأ فأوريناك، وعائلا فأسيناك، أوجدتم يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يامعشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولوسلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسمة وحظاً (١١٢). ثم يختتم الوحي أحداث حنين بقوله الصادق:

«لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم» (٢٥: ٢٧ التوبة).

أحداث ومعجزات

مع الكثرة العددية لجيش المسلمين إزاء هوازن وثقيف، عبّر لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - عن واقع الحال عندما قال: «لن تغلب اليوم من قلة»، وصادق عليه قول الوحي إذ أعجبتكم كثرتكم، وهو الإعجاب الذى ماكان ممكناً أن يحدث لولا مقارنة المسلمين عددهم بعدد

(١١٢) نفسه: ص ١٥٧.

عدوهم، وهو ما يجافى تمام المجافاة روايات جاءت بكتبتنا الإخبارية تؤكد أن عدد مقاتلى هوازن بلغ عشرين ألف مقاتل، وهو الأمر الذى يتناقض تناقضاً صارخاً مع عودة الكرة عليهم بمئة مقاتل أنصارى، ثم انكسارهم بعد ذلك أمام جيش المسلمين، ويبدو لنا أن قصة العشرين ألف هوازنى كانت لونا من المبالغة، لجأت إليه كتبتنا الإخبارية فى محاولة لتبرير الهزيمة التى لحقت بالمسلمين فى بداية المعركة، ناهيك عن كوننا نعلم أن أقصى تعبئة تمكنت القبائل من حشدتها فى الخندق لم تتجاوز العشرة آلاف مقاتل ولا ننسى بالطبع أن جيش دولة يثرب الإسلامية الذى ضم معظم محاربى القبائل الكبرى بما فيها قريش، لم يبلغ - رغم عمر الدعوة الطويل حتى هوازن - سوى اثنى عشر ألف مقاتل. وإن كان يمكن بحسبة بسيطة تقدير عدد رجال هوازن قياساً على عدد أسراهم من نساء وأطفال وبعض القلة من الرجال، حيث بلغ عددهم ستة آلاف، وبفرض هرب بعض النساء والأطفال دون الألفين، فإن عدد الرجال المقاتلين لا يمكن أن يتجاوز الأربعة أو الخمسة آلاف بأى حال من الأحوال.

ولم يكن ثمة حديث عن تدخل الملائكة السماوى إزاء تلك الكثرة المزعومة فى جند هوازن، ولم يبدأ حديث الملائكة إلا بعد انهزام المسلمين الذين ولوا الأدبار، ثم عادوا بنصرة الأنصار أحوال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى القتال حتى حققوا نصرهم العظيم، فقط عند هذه الفجوة يبدأ حديث الملائكة السماوى وروايات المعجزات المفضرة.

ومع ما جاءت به الآيات الكريمة «وأنزل جنوداً لم تروها» فتح الباب لحديث المعجزات، ورغم القرار الواضح فى الآيات عن رب العالمين الصادق صدق كماله بأنهم لم يروها، فقد قرر البعض التطوع بالشهادة أنهم رأوها، لتأكيد وجود الملائكة الأعلى منذ بدء المعركة وقبل هزيمة المسلمين، ومن تلك الشهادات رواية تقول:

أن مالك بن عوف النصرى بعث عيوناً من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا رأينا رجالاً بيضا على خيل بلق، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ماترى^(١١٣).

ثم نموذج آخر مجهل المصدر بدوره، لا نعرف أصحابه فى رواية تقول عند هزيمة المسلمين وثبات الرسول وآل بيته المطبى والطالبى:

عن شهد حنيناً كافراً قال: لما التقينا نحن ورسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لم يقوموا لنا حلب شاة، فجئنا نهش سيوفنا بين يدي رسول الله -

(١١٣) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٢.

صلى الله عليه وسلم..، حتى إذا غشيناه فإذا بيننا وبينه رجال حسان الوجوه، فقالوا: شأنت الوجوه فارجعوا فهزمنا من ذلك الكلام^(١١٤).

ومثيل تلك المحاولة لقتل رسول الله يأتي الحديث منسوباً إلى شيبه بن عثمان العبدري، الذي خرج من قريش مع رسول الله إلى هوازن يريد أن يغتاله في زحمة القتال، فيقول ابن كثير راوياً على لسان شيبه:

لما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم حنين قد عرى، ذكرت أبي وعمي وقتل حمزة إياهما، فقلت اليوم أدرك ثأري من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -... ثم جئته من خلفه فلم يبق إلا أن أساوره سورة بالسيف، إذ رفع شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق، فخفت أن يحشني^(١١٥).

هذا بينما يروى البلاذري الرواية ذاتها، لكن من منطق آخر، حيث يقول:

وكان شيبه بن عثمان العبدري شديداً على المسلمين، وكان ممن أومن فسار إلى هوازن طمعاً في أن يصيب من النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال: فدنوت منه، فإذا أهله محيطون به، ورأى فقال: يا شيب إلى، فدنوت منه فمسح على صدرى ودعا لى فأذهب الله كل غل فيه، وملأه إيماناً وصار أحب الناس إلى^(١١٦).

أما ذلك الراوى الذى كان طوال الوقت مغرماً بالنمل، يرى فيه صورة الملائكة، فيروى لنا على لسان جبير بن مطعم قوله:

إنما لمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم حنين، والناس يقتتلون، وإذا نظرت مثل البجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور وقد ملأ الوادى، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة^(١١٧).

أما السهيلي فيشرح لنا اختيار النمل تحديداً لتلبسه الملائكة فيقول:

ورأهم جبير على صورة النمل المبعوث، إشعاراً بكثرة عددها، إذ النمل لا يستطيع عدها، مع أن النملة يضرب بها المثل فى القوة، فيقال: أقوى من

(١١٤) نفسه: ص ٣٣١.

(١١٥) الموضع نفسه.

(١١٦) البلاذري: أنساب... سبق ذكره، ج ١، ص ٣٦٦.

(١١٧) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٣٢.

نملة، أنها تحمل ما هو أكبر من جرمها بأضعاف، وقد قال رجل لبعض الملوك: قوتك قوة نملة، فأنكر عليه، فقال: ليس فى الحيوان ما يحمل ما هو أكبر منه إلا النملة^(١١٨).

أما ابن سعد فيخالف الآيات وعلم الله الصادق فيؤكد رؤية الملائكة، وأن سيماهم يوم حنين كانت عمائم حمراء أرخواها بين أكتافهم^{(١١٩)؟}

ويعود هنا حديث الحصيات المباركات مرة أخرى فى رواية يوردها ابن كثير تقول:

فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو على بغلته كالمطاول عليها إلى قتالهم، فقال: الآن حمى الوطيس، ثم أخذ حصيات فرمى بهن فى وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد.. ما بقى أحد إلا امتلأت عيناه وفمه بالتراب، وسمعنا صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست الحديد، فهزمهم الله عز وجل، ثم أقبل على المشركين فرمى بها فى وجوههم وقال: ارجعوا، شامت الوجوه، فما أحد يلقى أخاه إلا وهو يشكر قذى فى عينيه^(١٢٠).

وبين حديث المعجزات يأتى حديث آخر عن أحداث وقعت بعد هزيمة هوازن، وأسر رجالها وسبى نساها، وفيهن أخوات النبى وعماته وخالاته وأمهاته من الرضاع، وذلك قبل إعادتهن إلى ذويهن بعد صلح هوازن وإسلامها، فيروى أبو سعيد الخدرى قوله:

أصبنا نساء من سبى أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبى - صلى الله عليه وسلم -، فنزلت الآية هذه: والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيماكم، فاستحللنا بها فروجهن.. وقد استدل جماعة من السلف على إباحة الأمة المشركة بهذا الحديث فى سبايا أوطاس^(١٢١).

وبالفعل استحر إتيان نساء هوازن حروراً، ثم أعيدت النساء إلى أهلهن بعد أن أسلمت هوازن بنساها، ليروى البيهقى واقعة طريفة تحكى:

(١١٨) السهيلي: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٤٢.

(١١٩) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.

(١٢٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٣٠، ٣٣١.

(١٢١) نفسه: ص ٣٣٨.

إن عثمان كان قد أصاب جاريته، فخطبت إلى ابن عم لها كان زوجها،
وكان ساقطاً لا خير فيه، فلما ردت السبايا، ساقها فقدم بها المدينة في
زمان عمر أروعثمان، فلقبها عثمان، فأعطاه شيئاً بما كان أصاب منها،
فلما رأى عثمان زوجها قال لها: ويحك، هذا كان أحب إليك مني؟ قالت:
نعم، زوجي وابن عمي^(١٢٢).

حكاية تحاول تبخيس شأن رجال هوازن، الذين كانوا أزواجاً لنساء أتاهن المسلمون في غزوة
حنين، ونكحوهن بقوانين السبي العربية التليدة.

(١٢٢) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ١٩٨.

حروب دولة الرسول

الجزء الثاني

الباب الرابع

قيام دولة العرب الموحدة

البراءة

«إنما محمد أذن
من حدثه شيئاً صدقه،

[نبئ بن الحارث]

الآن وقد تم إخضاع خيبر تماماً لسلطان الدولة وتحجيمها إلى الأبد، وبعد فتح أم القرى وخضوع سادة العرب أهل الله القرشيين لدولة يثرب، وبعدما أصبحت هوازن مثلاً، فسلبت أموالها، ونكحت نساؤها، وأسلمت جميعاً راغبة لسلطان الدولة، وبعد أن كمنت ثقيف كثعلب في حجر، وبعدما خرج عليها سيدها مالك بعد ما تألفه الرسول بالعطايا، فأحكم عليها الحصار، يقطع عليها الطريق ويستولى على قوافلها، وبعدما تضخم حجم الجيش الإسلامي وضم أشاوس القبائل الحجازية جميعاً، عادت كنوز قيصر تنادى العرب. ففي صبيحة يوم من أيام رجب من سنة تسع، أعلن منادى النبی فی الناس التجهز لغزو الروم.

ويحكي راوى السيرة ابن هشام فيقول:

ثم أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم.. وذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون

المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس، لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبة، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم^(١).

ورغم كل تلك الانتصارات الساحقة، ورغم تفكيك الروابط القديمة بين القبائل المتحالفة وإدخالها جميعاً فى حلف الدولة، وما أدى إليه ذلك من إضعاف شديد لصوت المعارضة التى أطلق عليها اصطلاح (النفاق)، بعدما تقلمت أظافرهم تماماً، تعود الأخبار تخبرنا بأن النفاق قد عاد إلى الظهور عندما دعا النبى إلى غزو الروم، فقام المنافقون يثبطون همم الناس، ويجمعون فى بيت سويلم عند جاسوم يقولون بعضهم لبعض: «لا تنفروا فى الحر».

ويقول ابن هشام إن هذا التباطؤ والتراجع عن الخروج إلى الروم كان «شكاً فى الحق وإرجافاً برسول الله - صلى الله عليه وسلم -»، ولكن لأن الظروف قد تغيرت، ولم يعد بإمكان أحد أن يتناول مرة أخرى على الرسول، فقد أخذوا بالاجتماع سرّاً لبحث شئونهم، فكان أن أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إليهم طلحة بن عبد الله فى نفر من أصحابه، فحرق عليهم البيت وهم فيه^(٢)، ثم جاء الوحى يقول: «وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون» (٨٢٨١ / التوبة)، أما النبى فقد كان يحدث أصحابه بينما البيت يحرق على المجتمعين فيه: «فى أصحابى اثنا عشر منافقاً، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط»^(٣).

وأحياناً ما كان المسلمون يأتون النبى يستأذنه فى عدم الخروج إلى وقعة، لظروف خاصة ببعضهم فيأذن لهم، فلما جاءه بعضهم هذه المرة، تدخل الله بنفسه ولم يقبل عذرهم بل وجه لهم اتهامات مباشرة بالكذب، ثم نصح رسوله بالألا يعذرهم ولا يقبلهم فى جيشه حتى لا يؤثروا فى جنده الذين يميلون إليهم ويستمعون لرأيهم، فقال تعالى عز من قائل:

﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة
وسيلحفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم

(١) ابن هشام: فى الروض الأنف للسيهلى... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٣.

(٢) نفسه: ص ١٧٤.

(٣) البيهقى: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦١.

لكاذبون . عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين . لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليهم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليهم بالظالمين ﴿٤٢ : ٤٧ / التوبة﴾ .

وهكذا، وبينما ينفق أصحاب اليقين أموالهم لتأمين ميرة المجاهدين لذلك الطريق الطويل، مثل عثمان بن عفان الذي تبرع بألف دينار^(٤) كان هناك آخرون يشكون في جدوى تلك الغزوة، ويشكون في نصر العرب على جيوش قيصر، فشكوا في الحق بتعبير ابن هشام، ويشرح ابن إسحاق الآيات السوالف فيقول:

وكان الذين استأذنوه من ذوى الشرف، فيما بلغنى منهم: عبد الله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم، فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده أهل محبة لهم، وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم^(٥) .

أما الوحى فقد استمر شارحاً لموقف هؤلاء فاضحاً لهم، حيث أبان بصدق الله تعالى أنهم ما تراجعوا إلا نعمة لأنهم لم يحصلوا على أموال وعطايا كالتى أعطاهما النبى للمؤلفة قلوبهم، حيث يقول:

«ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون» (٥٨ / التوبة) .

وقد وضح موقف هؤلاء المنافقين، فيما ورد عنهم من أخبار تشير إلى جبنهم عن ملاقات الروم بنى الأصفر وتخوفهم ذلك، عندما رأوا النبى يقود جنده ميمماً شطر الروم فوقفوا يقولون لبعضهم: «أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأننا بكم غدا مقرنين فى الحبال إرجافاً وترهيباً للمؤمنين»، فلما علموا أن قالتهم قد بلغت النبى هرع ودیعة بن ثابت بهم يمسك بناقة الرسول يعتذر قائلاً: «يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله: ﴿ولئن

(٤) ابن هشام: فى الروض الأنف للسيهلى... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٤ .

(٥) نفسه: ص ١٨٩، ١٩٠ .

سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب»^(٦). وهو الأمر الذي يشير إلى تساؤل شأن المعارضة إلى حد الرهبة والرعب والاعتذار بما لا يليق برجال الحرب وأسنان الشرف.

وخرجت جحافل المسلمين في ثلاثين ألف مقاتل وعشرة آلاف فرس حتى وصلت مشارف بادية الشام لتحاصر تبوك، فيخرج يوحنا بن روية المنوب على أيله من القيصري ليصالح الرسول على دفع الجزية، ويتبعه أهل جرباء وأذرح، ويكتب لهم النبي كتاباً بذلك، ثم أرسل خالد بن الوليد إلى دومة فأتاه بأكيدر الكندي فضالحه بدوره على الجزية، واكتفى من سفره الشاق بذلك وأخذ قراره بالعودة إلى يثرب، حيث تأكد أن هرقل عظيم الروم قد جمع جموعه في حمص^(٧). ونعلم مع ذلك أنه مع ترك المنافقين المعلومين بيثرب، فقد وجد بين من خرجوا للجهاد منافقين جددًا، حيث يروى ابن إسحق عن محمود بن لبيد أنه أصابهم عطش في الحجر، فدعا النبي ربه فأرسل سحابة أمطرتهم ماء، وهنا يقول محمود بن لبيد:

لقد أخبرني رجال من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان
يسير مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث سار، فلما كان من أمر
الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين دعا،
فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه نقول:
ويحك؛ هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة^(٨).

لكن ليجد المنافقون في عودة النبي دون لقاء الروم، أو حتى تجاوز تبوك نحو الشمال، مجالاً للخوض، وهنا يعلمنا البيهقي السبب وراء خروج النبي إلى الروم، وأنها كانت مؤامرة يهودية لا يشير إلى أطرافها ولا أسمائهم ولا من هم؟ وأن الله قد أنقذه من تلك المؤامرة، وذلك في قوله: «ما روى في سبب خروج النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك وسبب رجوعه إن صح الخبر فيه.. أن اليهود أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً، فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عز وجل آيات من سورة بنى إسرائيل بعدما ختمت السورة: «وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلاً» [إلى قوله: [تحويلاً] (٧٦ - ٧٧/الإسراء)، فأمره الله عز وجل بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث»^(٩).

(٦) نفسه: ص ١٧٨.

(٧) الموضع نفسه، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون الأثر... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٨) نفسه: ص ١٧٦.

(٩) البيهقي: دلائل... سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٤٥.

ومن هنا يمكن فهم الحقيقة وراء مسجد ضرار ومادار حوله من أحداث، كانت مساجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بين المدينة إلى تبوك معلومة مسمأة، ويعددها ابن هشام فيقول إنها كانت كالتالي: «مسجد بتبوك ومسجد بذات الخطمي ومسجد بآلاء ومسجد بطرف البطراء من ذنب كواكب ومسجد بالشق - شق تارا - ومسجد بثنية حدران ومسجد بذات الزراب ومسجد بالأخضر ومسجد بذى الحيفة ومسجد بصدر حوحنى ومسجد بالحجر ومسجد بالصعيد ومسجد بالوادي - اليوم وادي القرى - ومسجد بالرقعة من الشقة - شقة بنى غدره - ومسجد بذى المروة ومسجد بالقيفا ومسجد بذى خشب» (١٠).

وبالمثل، لكن داخل يثرب، أقام بعض المسلمين مسجداً وجاءوا النبي عندما كان يتجهز لغزو الروم كما سلف، فقالوا: «يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه»، وكان جواب النبي وعداً جميلاً يقول: «إني على جناح سفر و حال شغل. ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه» (١١).

لكن مع تواتر النفاق في هذه المرحلة جاء النبي الخبر أن أصحاب ذلك المسجد هم من المنافقين، ونفهم من الروايات أنهم من الأوس تحديداً، حيث يفيدنا الثعلبي النيسابوري أنهم بنوه ليستقبلوا فيه أخطر زعمائهم الذي غادر المدينة مخاصماً للرسول (أبو عامر بن النعمان بن صيفي) المعروف باسم الراهب، لكن النبي أسماه بالفاسق، حيث كان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح واعتنق الحنيفية، ولما التقى بالنبي اختلف معه حول صحيح الحنيفية، فغادر المدينة مغاضباً له، ثم تفيدنا المصادر أنه قبل غزو النبي للروم بقليل أرسل أبو عامر لأهله وهو أوسى، وقال لهم: أعدوا العدة والسلاح وابنوا لى مسجداً، فإني ذاهب إلى قيصر وأتى بجند لتخرج محمداً وأصحابه من المدينة، ويزعم الثعلبي أنه كانت قد نزلت فيه آيات تقول: ﴿واثل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾ (١٢).

ويحكى لنا البيهقي ما حدث بشأن ذلك المسجد الذي وعد النبي أصحابه بافتتاحه لإيواء المحتاجين، فيقول: «إن النبي - صلى الله عليه وسلم - أقبل من تبوك حتى نزل بذى أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار.. فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدي.. فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه، واحرقاه، فخرجا سريعاً حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقا عنه» (١٣). لقد باتت السياسة إزاء المنافقين قد أخذت شكلها العنيف الرادع كما هو واضح.

(١٠) ابن هشام: في الروض الأنف للسيهلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٠.

(١١) الموضع نفسه.

(١٢) الثعلبي: عرائس المجالس.. سبق ذكره، ص ١٤٠.

(١٣) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

وقد جاء الوحي يعقب على إحراق المسجد فى آيات كريمة صريحة تقول:

﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين. أقم أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين. لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾ (١٠٧ : ١١٠ / التوبة).

ويحرق مسجد ضرار يعود النفاق إلى الانكماش مرة أخرى، ولا يجد المنافقون كل مرة سوى أن يتجهوا إلى سيد المدينة وسيد الخلق يحلفون بالله أنهم ما أرادوا ما وصله من حديث لكنهم أرادوا خيراً وحسناً، أو أنهم ما قالوا ما سمع، أو يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم إنما كانوا هازلين، وأدركوا أن جهاز الدولة الرقابى قد دخل بيوتهم وتصنت أحاديثهم وعلم أسرارهم، حتى قال نبئل بن الحارث أخو بنى عمرو بن عوف:

إنما محمد أذن

من حدثه شيئاً صدقه (١٤).

لكن ليتدخل الوحي مرة أخرى شارحاً موضعاً مبيناً:

﴿ومنها الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ (٦١ / التوبة).

ولكن، ووسط تلك الأحداث التى كدرت صفو الرسول ومدينته، يأتى حدث جديد، يضيف للدولة رصيذاً، يفرح له الرسول والمؤمنون، حيث يحكى ابن كثير:

أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما ارتحل عن ثقيف، سئل أن يدعوا عليهم، فدعا لهم بالهداية، وقد تقدم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أسلم مالك بن عوف النصرى، أنعم عليه وأعطاه وجعله أميراً على من أسلم من قومه، فكان يغزو بلاد ثقيف ويضيق عليهم حتى ألجأهم إلى

(١٤) ابن هشام: فى الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٠.

الدخول في الإسلام، وتقدم أيضاً فيما رواه أبو داود عن صخر بن العيلة الأحمس، أنه لم يزل بثقيف حتى أنزلهم من حصونهم على حكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فأقبل بهم إلى المدينة النبوية .. ثم إنهم اتتمروا بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا .. ثم أجمعوا أن يرسلوا رجلاً منهم هو عبد ياليل بن عمرو بن عمير .. ومعه بضعة عشر رجلاً^(١٥) .

وكان فرح المغيرة بن شعبه الثقفي عظيماً لما التقى وفدهم على أبواب المدينة، فأخذهم ليعلمهم بروتوكول الدولة، وكيف يدخلون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وكيف يؤدون له التحية، لكنهم عندما دخلوا على الرسول لم يفعلوا سوى فعل العربان، وحيوه تحيتهم الجاهلية الاعتيادية، وأمر النبي فضريت لهم قبة في مسجده تكريماً لهم، وجلس النبي في مجلسه على مسافة يسمع منهم ويقولون له، وكان يسعى بينهم خالد بن سعيد بن العاص، ولما قدم لهم طعاماً رفضوا تناوله توجساً وخيفة، إلا بعد أن أكل منه خالد بن سعيد، ولما انتهت المفاوضات كتب خالد بينهم الكتاب .

وبان المفاوضات حاولوا تأجيل هدم اللات فلم يرض الرسول إطلاقاً، بل أعلمهم أنه سيرسل معهم أبا سفيان صخر بن حرب، وولدهم المغيرة بن شعبه ليهدهما، ثم سأله أن يسقط عنهم الصلاة .

لم يدرك الثقفيون أن واجبات الصلاة الخمس تمرين سريع للتأمل، تتضمن ترديداً لآيات القرآن حتى تعاده آذانهم، ثم إنها تحوى الشهادة للرسول بالنبوة في كل مرة، وتعود الملزم بها الانتظام في نظام صفوف صارم، كل ما رأوه فيها إرغاماً لأنفهم العربية المتأبية المتكبرة على السجود، ولم يدركوا أنها كانت إخضاعاً لسلوكهم اليومي لمؤسسة دقيقة مرتبة تخرج بهم عن عشوائية القبلية وتشظيها، إلى المنظومة الموحدة، ولم يقبل النبي أى تفاوض بشأن الصلاة، وأجاب بحسم «لا خير في دين لا صلاة فيه»، فكان ردهم الصريح: «سنؤتيكها»، أبداً لم يقولوا سنؤتيها لله تعالى، بل استمروا ليقولوا بجرأة شديدة «سنؤتيكها وإن كانت دناءة» . ثم أصرروا ألا يكونوا كبقية الأعراب، فهم أهل مدن وحضارة وأنفة وكبرياء، واشترطوا على النبي أنهم لن يدفعوا الضرائب (الصدقة)، ولن يشتركوا في معاركه (الجهاد)، فوافقهم، ثم قال بعد ذلك للمسلمين: «سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»^(١٦) .

(١٥) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦، ٢٧ .

(١٦) نفسه: ج ٥، ص ٢٧ .

واستأذن الثقفيون النبي أن يسبقوا رسله المزمع ذهابهم معهم لهدم اللات، فلما جاءوا قومهم تلقوهم، فسألوهم ما وراءكم؟ فأظهروا الحزن، وأنهم إنما جاءوا من عند رجل فظ غليظ قد ظهر بالسيف، يحكم بما يريد وقد دوخ العرب.. فألقى الله في قلوبهم الرعب فرجعوا وأنابوا،^(١٧).

ولحق بهم ولدهم المغيرة ومعه أبوسفيان وهدموا اللات وأخذوا ما بها من جوهر وحلى وذهب وفضة^(١٨). بينما كان النبي قد أمر على ثقيف عثمان بن أبي العاص أميراً منوياً من قبله، وكان أحدثهم سناً^(١٩).

ويمر من الشهور ثلاثة، رمضان وشوال وذو القعدة، ويأتي موسم الحج، لكن الموسم هذه المرة لم يكن كالمرات السوالف، حيث كان لابد أن تشرف الدولة بنفسها عليه، فبعث رسول الله أبا بكر أميراً منوياً من قبله على حج سنة تسع للهجرة ليقم للناس حجهم.

ويفاجئ الأمر قريشاً، فحتى سيادة الحج والكعبة قد ذهبت إلى دولة يثرب، نعم إن أبا بكر قرشي، لكن معنى أن يأتيها من يثرب أميراً على الحج، هو معنى يسلب قريشاً وضعها السيادي الباقي في إقامة الشعائر الدينية للعريان، وهنا تعترض قريش هاتفة: «إنا أهل الحرم وسقاة الحاج وعمار هذا البيت، فلا أحد أفضل منا، لكن ليأتيهم الرد» وإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر^(٢٠).

لقد بات المطلب الآن بعد انصرام عام على فتح مكة، إسلام الجميع دون موارد، حيث أكدت كتب السير أن الناس من أهل الشرك كانوا على منازلهم من حجهم.

ثم تأتي الضربة القاصمة في نقض النبي - صلى الله عليه وسلم - لما كان بينه وبين المشركين من عهد ينص على ألا يصد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام، وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك، لضمان استمرار التجارة وسيولتها، وقد جاء ذلك النقض عندما أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - علياً بن أبي طالب ليلحق بأبي بكر، ومعه أوامر الوحي في الآيات المعروفة باسم (براءة) وقال له: «أخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عهد

(١٧) نفسه: ج ٥، ص ٣٠.

(١٨) ابن سيد الناس: عيون الأثر... سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٩٣.

(١٩) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٨.

(٢٠) ابن هشام: في الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٦.

فهو إلى مدته .. وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة،^(٢١). وكان أبرز نصوص وثيقة براءة يقول:

﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾
(٢٨/ التوبة).

كان معنى ذلك خراب ديار قريش إلى آخر الدهر، فمعنى ذلك توقف التجارة ودمار الأسواق، وزاد الأمر نكايه ما جاء مع سورة براءة من أمر إلهي بإلغاء العمل بنظام النسيء، وكان النسيء تحريكاً للأشهر الحرم القمرية، لتدور مع الأشهر الشمسية، حتى تتوافق رحلتا التجارة مع موعد المحاصيل والرياح الموسمية في بحر الهند، وهي الرياح والمحاصيل التي تسير وفق المجريات الشمسية (الزمن الميلادي)، وجاءت الآيات تؤكد:

﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ (٣٧/ التوبة).

وهكذا تم تثبيت الأشهر القمرية جميعاً، وهو ما قال المسعودي بشأنه شارحاً: «عندما ظهر الإسلام، كانت الأشهر الحرم قد عادت إلى بدئها على ما كانت عليه في أصلها، وذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»^(٢٢).

نعم، كان تثبيت الأشهر الحرم وسلخها عن المصالح المادية ارتفاعاً بها وتكريماً لها وتوقيراً، لجعلها رمزاً لوحدة البيت الجامع للعرب المتوحدون في الدولة الواحدة، لكنه كان ضرباً واضحاً للتجارة والأسواق، بل وتراجعاً بالعرب جميعاً عن مركز دولي متميز حققوه من ذلك النظام التجاري الديني، فأمسكوا بعنان تجارة العالم، وبدأت قريش تشك فعلاً في أهداف الدولة الجديدة، وصورت لها أحلامها المريضة أن المقصود دمار فعلي، وانتقام مما سبق وقدمت أيديها، وتقف تقول:

لتقطعن عنا الأسواق، فلتهلكن التجارة، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق^(٢٣).

لكن لتفاجأ بسوء ظنها، وتبدأ في رؤية ما ينتظرها حقاً، عندما يرد عليها الوحي الكريم: ﴿وإن خفتن عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾
(٢٨/ التوبة).

(٢١) نفسه: ص ١٨٧، ١٨٨.

(٢٢) نفسه: ص ١٨٩.

(٢٣) الموضع نفسه.

أما كيف سيتحقق ذلك وهم يريدونه مكاسب عينية ملموسة، تعويضهم عن خراب تجارتهم وبيع أموالهم؟ فهو ما يشرحه ابن هشام مؤيداً بأى الله الكريم، فى قوله: «وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله»، أى من وجه غير ذلك.. «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.... من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»، أى ففى هذا عوض عما تخوفتم من قطع الأسواق، فبعوضهم الله بما قطع عنهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية،^(٢٤).

ماذا تقصد الآيات؟ إن أهل الكتاب فى الجزيرة قد انتهى أمرهم إلى الذبح أو الجلاء أو الجزية، فأى أهل كتاب؟ وهنا توجهت الأنظار بعيداً، إن الآيات تطلب منهم تعويض خسائرهم هناك، فعند الإمبراطوريتين كنوز عظيمة، وهنا تفهم قريش سر كل ذلك التصديق، لقد بات عليهم التحول عن التجارة إلى القتال. لقد بدأ المستقبل الجديد يفرش ظله على الواقع فيزيح القديم، وجاءت الآيات تؤكد الجهاد كبديل أفضل من التجارة، وتوجه أنظارهم نحو الشمال.

لقد جاءت القرارات الأخيرة لتدخل تماماً بنظام التجارة العظمى التى كانت قريش تشرف على إدارتها، ومع إسلام العرب وتعالى ذلك الإسلام بعد أشهر فى وفود تشهر إسلامها، جعل هناك استحالة فى تقديم آفاق غنائم جديدة داخل جزيرة العرب، لقد آن أوان تحقق الوعد المغلط بالأيمان الذى أطلقه النبى فى مكة عندما كان مهيباً:

والذى نفسى بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر

وجانب آخر، يدركه الوعى النفاذ، أن الطريقة الوحيدة التى كان يمكن بها الحفاظ على وحدة القبائل، هى تقديم هدف مألوف لها، البحث الدائم عن الغنائم، وهو ما قامت عليه الدولة النبوية ذاتها حتى الآن، الهدف أصبح ذلك العالم المفتوح أمامهم على مصراعيه. لقد أصبح مطلوباً من العرب أن يتحولوا عن مجرد سادة تجارة العالم، ليصبحوا سادة هذا العالم نفسه، أما بقية العربان الذين ارتبطوا بأسواق مكة، فقد باتوا يعانون من الخراب نفسه، ولم يعد أمامهم سوى الانخراط فى الدولة للحصول على نصيب من الغنائم المنتظرة، لقد جاءت وثيقة الوحي براءة، لتدفع الجميع دفْعاً إلى اعتناق الإسلام وإلى التوحد وإلى التوجه خارج الجزيرة.

أما ختام المسك فكان موت رأس المعارضة والنفاق، عبد الله بن أبى بن سلول، الذى خففت بعده أصوات المعارضة تماماً.

(٢٤) المسعودى: مروج الذهب... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧.

عام الوفود

«والله ؛ لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت
لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله،

[إبريد بن مقيس]

قال محمد بن إسحاق:

لما افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة وفرغ من تبوك،
وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

قال ابن هشام:

حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود.

قال ابن إسحاق:

وإنما كانت العرب تریص بإسلامها أمر هذا الحی من قریش، لأن
قریشا كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت والحرم، وصريح ولد
إسماعيل بن إبراهيم، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قریش هي التي
نصبت الحرب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخلافه، فلما افتتحت
مكة ودانت له قریش، ودوخها الإسلام، عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم

بحرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا عداوته، فدخلوا في دين الله
كما قال عز وجل أفواجا، يضربون إليه من كل وجه،

يقول الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم -:

«إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا.
فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا» (سورة النصر) (٢٥).

هكذا ارتأت كتب السير الإسلامية والأخبار الأسباب الواضحة لقدم الوفود العربية من بلاقع
الجزيرة وفيافيتها لتعلن لسيّد العرب خضوعها، وكان الإعلان عن إغلاق مكة دون المشركين،
وتوجيه العسكرية العربية نحو الباب المفتوح شمالا، مدعاة أخرى واضحة أوضحتها لقدم تلك
الوفود الكبرى، أما النبي بكرمه الذي يليق به، وعطاياه للوفود مما أفاء الله عليه، ومن خمسه
المقرر وحيا، فكانت عاملا آخر ودافعا غير منكور في كتبنا الإخبارية لقدم الوفود تعلن انضمامها
لدولة الإسلام، وبين كل وفد كان ينتقى رجلا يتوسم فيه الشخصية القيادية والقادرة على فهم
الأوضاع والمتسمة بالطاعة للسلطة النبوية، فيجعله أميرا من قبله على قومه، وللقرار بمنح
الأعطيات وقطع الإقطاعات رواية أولى دفعت إلى سلوك ذلك الخط في تألف العريان. فيقول
محمد بن إسحاق صاحب السيرة التأسيسية، أن أول الوفود جاء بشموخ الأنف العربية وكان وفد
القبيلة الكبرى تميم، وعلى رأسها عطار بن حاجب بن زرارة، والأقرع بن حابس، والزريقان بن
بدر، والحتحات بن يزيد، أسماء جميعها ذات شرف ومنعة وسيادة في قومهم، ويصنف العريان
دخلوا يثرب إلى مركزها الإداري مباشرة، إلى المسجد، فلم يجدوا سيد المدينة، فكان أن وقفوا
ينادون الرسول من وراء حجراته:

أخرج إلينا يا محمد.

لم يتحضر بعد الفكر ولا اللسان، ولا أدرك العريان أن خطابهم مع السيد يجب ألا يكون
كخطابهم لبعضهم البعض، وهو ما جاء من بعد تنبيهها للوفود وتقريعا لأجلاف تميم في وحى
يقول:

«إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم
صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم» (٥-٤/
الحجرات).

لكن تميما ما كانت لتفهم لغة التمدنين المدنى بسرعة، وظل غرورها الأجلف يركب حسها

(٢٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٣٧.

الغليظ، وأنفتها تمنعها من إعلان الطاعة بهدوء ومباشرة، إنما جاءت توجل ذلك الإعلان ما أمكن، وتعلنه وهى عزيزة متعالية فى وهما، ويتمثل ذلك فى قول الوفد التميمى لسيد الخلق: «يامحمد جئناك نفاخر بك فأذن لشاعرنا وخطيبنا» .

لم تفهم تلك العقول مدى التحولات الكبرى، وأدرك النبى مغزى كل تلك المناورة، إنها لا تريد الخضوع دون إثبات عزتها، وتبسم سيد الخلق، فرد بهدوء الوائق المطمئن: «لقد أذنت لخطيبكم فليقل»، ليقوم عطار بن حاجب يعدد ممكنات تميم وعظمها يقول:

الحمد لله الذى له علينا الفضل والمن، وهو أهله، الذى جعلنا ملوكا،
ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق
وأكثره عدداً وأيسره عدة، فمن مثلنا فى الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولى
فضلهم؟

فمن فاخرنا فليعدد مثلما عِدَدنا، وإننا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكن
نخشى من الإكثار فيما أعطانا وإننا نعرف بذلك.

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا
وأمر أفضل من أمرنا.

ويجلس عطار يلبس أثواب التكبر الأنف، ويصبح المطلوب رداً مناسباً يكسر ذلك الكبرياء
ويرغم تلك الأنوف، فلا يرد عليه النبى بنفسه، حتى لا يكسبه قيمة لا تليق به، إنما يشير إلى
ثابت بن قيس بن الشماس الخزرجى، ويقول له: «قم يا ثابت فأجب الرجل»، ويقوم ثابت ليقول
بهدوء هادر المعانى:

الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع
كرسيه علمه، ولم يك شىء قط إلا من فضله.

ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا
وأصطفى من خيرته رسولا
أكرمته نسباً، وأصدقاه حديثاً، وأفضله حساباً،
فأنزل عليه كتاباً واكتمنه على خلقه،
فكان خيرة الله من العالمين،

ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه،
وذوى رحمته أكرم الناس أحساباً وأحسن وجوهاً وخير الناس فعلاً.

ويُنْقَل ثابت بن الخزرج، أصحاب الحرب والحلقة إلى موجة أعلى في خطابه ليرد مهدداً منذراً متوعداً:

ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحن!!

فنحن أنصار الله ووزراء رسوله،

نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه،
ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولي هذا
وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات .
والسلام عليكم (٢٦) .

وتفهم تميم الرسالة، وتهاوى العزة، لكن ليرأف بهم النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم -
فيقول ناقلاً الحديث إلى مستوى آخر، تخفيفاً عنهم وتهذبةً لروعهم: «أقبلوا البشري يا بني تميم،
لكن ليرد الذين تفاخروا منذ قليل بمالهم وعددهم: «يا رسول الله لقد بشرتنا، فاعطنا». وهكذا
انتكس الرجال وارتكسوا عما قالوا، ووجدوا أنه إذا لم يكن من الطاعة بد، فليعودوا بمكاسب،
ويستجيب الرسول، فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأحسن
جوائزهم، (٢٧) .

أما بنو عبد القيس فأرسلوا وفدأ عارفاً أقدار الناس، ومن أعلى من النبي قدرأ؟ لذلك ما أن
هبطوا عن ركائبهم حتى هرعوا يتسابقون إلى الرسول ليأخذوا بيده يقبلوها، فاستحقوا أن يصفهم
النبي بقوله: «هم خير أهل المشرق»، (٢٨) .

وتتوالى الوفود

ويقدم وفد أسد للمدينة ويقف حضرمي بن عامر رأس الوفد ليقول للنبي:

أتيناك نتدري الليل البهيم

في سنة شهباء

ولم تبعث إلينا بعثاً

(٢٦) نفسه: ص ٣٨، ٣٩ .

(٢٧) نفسه: ص ٤١، ٣٥ .

(٢٨) نفسه: ص ٤٤ .

يريد أن يقول أنهم أتوه طوعا لا كرها، لترد عليهم الآيات «يؤمنون عليك أن أسلموا» (١٧/ الحجرات).

ثم وفد عيس، ووفد فزارة، ووفد مرة فأجازهم بعشر أواق، عشر أواق فضة، ثم وفد ثعلبة وقد أجاز كل منهم بخمس أواق فضة ثم وفد محارب فأجازهم بدورهم بالعطايا، ثم وفد كلب، ووفد عقيل بن كعب الذين أقطعهم النبي أرض عقيق بنى عقيل وفيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتب في أديم أحمر، ثم وفد جعده، وأقطعهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ضيعة بالفالج وكتب لهم بذلك كتابا، ثم وفد قشير بن كعب فأقطعهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - قطعة وكتب له كتابا، ثم وفد بنى البكاء وقد أجازهم بدورهم فأحسن جوائزهم، ثم وفد كنانة ووفد أشجع ووفد باهلة ووفد هلال بن عامر. وربيعة عبد القيس وتغلب. وكانت تغلب نصارى جاءوا النبي يلبسون صلبان الذهب، فصالحوه، على أن يقرهم على دينهم فأقرهم، وأعطى المسلمين منهم عطايا^(٢٩)، أما وفد عامر بن صعصعة فقد جاء على رأسه عامر بن الطفيل وأريد بن مقيس. وعامر من القبائل الكبرى الشاميخة، وما أن وقف عامر بن الطفيل أمام الرسول حتى دخل في المفاوضة مباشرة ويسرعة قائلا: «يا محمد؛ مالي إن أسلمت؟ فقال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين، قال: أتجعل لى الأمر من بعدك؟ قال: ليس ذاك ولا لقومك، قال: أفتجعل لى الوبر ولك المدر؟ قال: لا، ولكنى أجعل لك أعنة الخيل، فإنك امرؤ فارس، وهو من رد على العربان الذين دعوه للإسلام:

والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى، أفأتبع أنا عقب هذا الفتى من قريش؟^(٣٠).

فيغضب عامر بن الطفيل، ويخرجه الغضب عن جادة الصواب، فيهدر صارخا:
أوليست لى؟ (أى الخيل)

إذن

لأملأنها عليك خيلا ورجالا^(٣١).

وخرج مع رفيقه إريد ليتبعهم النبي بدعوته: «اللهم اكفنيهما»، وتحكى كتب السير أن الدعوة لحقتهم فمات عامر فى الطريق، أما إريد فوصل قومه، فاستقبلوه يسألونه عما عند محمد وما انتهت إليه المحادثات، ليرد عليهم:

(٢٩) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ١، ج ٢، من ص ٤٠: ٥٦.

(٣٠) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٥، ص ٥١، ٥٢.

(٣١) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ١، ج ٢، ص ٥١.

والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لو ددنت لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل
حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل ليبيعه فأرسل الله
عليه وعلى جملة صاعقة فأحرقتهم^(٣٢).

وتتتابع الوفود فتأتي شيبان وطى ونجيب وخولان وجعفى وصداء ومراد وزبيد وكنده
والصدف وخشين وسعد هزيم ويلي وبهراء وعذره وسلامان وجهينة وجرم والأزد والحارث بن
كعب وحمدان وسعد العشيرة وعبس والداريين والرهاويين وغامد والنخع وبجيعة وخثعم
وحضرموت وأزد عمان وغافق وبارق ودوس وثمالة والحدان وأسلم وجذام ومهرة وحمير
ونجران وجيشان والسباع.

وهكذا استتمت جزيرة الجزيرة جميعا وأوعيت طاعتها أمام النبي الكريم، تؤكد أن التاريخ على
شك استكمال حلقة الانتقال الكبرى، وأن الوحدة العربية للجزيرة قد صارت واقعا وحقيقة،
وأن الدولة المركزية قد تسمت أمر العرب وحشدتهم على أيديولوجية واحدة موحدة.

لكن لم يمر عام الوفود دون مكدرات عكزت صفوه ونصره، فبين تلك الوفود جاء ذلك الوفد
الغريب الشأن العجيب الأمر، وفد بنى حنيفة من أهل اليمامة، وبين رجالهم رجل يبدوله شأن
اسمه مسيلمة بن ثمامة، نزلوا دار بنت الحارث من الخزرج، واستلفت النظر وأوجست منه المدينة،
وهم يرون وفده يحيط به، يسترونه بالبرد والثياب، وهو يسير إلى المسجد، ليقف أمام النبي ويبد
النبي قضيب من عسيب النخل، ليقول للنبي رسالة برقية موجزة:

إن شئت

خليت بينك وبين الأمر

ثم جعلته لنا بعدك

لكن ليرد سيد الخلق هادئا مستصغرا شأن ذلك المتكبر الكبير في قومه: «لو سألتني هذا
القضيب ما أعطيتكه»^(٣٣). فينصرف مسيلمة مع قومه، لتعلم المدينة أن الرجل كان في قومه نبيا،
وأنه أعلن فيهم نبوته، وهذا سر سيرهم به متحوبا بالاحترام مستورا بالثياب، وإنه ما جاء يعلن
ولاء بل جاء يتفاوض على تقسيم الأمر دولا بين محمد وبينه، حيث أعلن في أهله من حنيفة
اليمامة: إنه قد أشرك مع محمد في النبوة والحكم (الأمر)، وأخذ يرسل لهم آيات مسجوعة
يزعمها وحيا، وشهد للنبي بالرسالة، لكنه أراد منه شهادة مماثلة، وقد وقفت وراءه حنيفة جميعا،
وأرسل بعد عودته بلاده للنبي الصادق رسالة تقول:

(٣٢) ابن كثير: البداية... سبق ذكره، ج ٥، ص ٥٣.

(٣٣) نفسه: ص ٤٦.

من مسيلمة رسول الله
إلى محمد رسول الله
سلام عليك؛ أما بعد؛
فإنى قد أشركت فى الأمر معك
فإن لنا نصف الأرض
ولقريش نصف الأرض
ولكن قريشا قوم يعتدون.

وتصل الرسالة الآتية بإفكها إلى رسول الله الأمين، فيرد عليه من فوره ببرقية موجزة
صارمة المعانى هادئة الكلم تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم:
من محمد رسول الله
إلى مسيلمة الكذاب (!)
السلام على من اتبع الهدى (!)
أما بعد

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده
والعاقبة للمتقين^(٣٤).

وتسلم بلاد العرب وتدخل فى طاعة الدولة الواحدة، ويرغب بعضها الآخر من الكتابيين فى
البقاء على دينهم على أن يخضعوا للدولة ويدفعوا الجزية، فيقبل النبى - صلى الله عليه وسلم -
ذلك منهم، لتظل حنيئة وبلاد اليمامة وسط ذلك المحيط العربى المتوحد ترفض الانضواء، بل
ويتضخم أمرها تحت زعامة سيدها المتنبيء مسيلمة الكذاب.

كانت سنة الوفود هى السنة التاسعة للهجرة، وكانت سنة قحط شديد، وهو دافع يضاف إلى
مجموع الدوافع التى حثت الوفود تدفعها دفعا إلى يثرب، تطمع فى حكمة قيادة يثرب إزاء
الأزمة القاحلة النازلة بهم، لكن ذلك الظرف ذاته كان بدوره وراء الحركات الانشاقاقية التى
نشطت فى ذات العام، يمثلها مسيلمة فى اليمامة، والأسود العنسى فى اليمن.

(٣٤) نفسه: ص ٤٧.

وقد وضح أن مسيلمة بن حبيب كان يطمح إلى مشروع اتحادى وليس وحدوى، فهو يطلب مشاركة حنيفة فى أمر السيطرة على قبائل العرب، فلم يدرك مسيلمة أنه يسير عكس اتجاه السير الصحيح لخط التاريخ نحو توحيد الجزيرة جميعا، كلا ولا فهم كيف يمكن أن تتوارى القبيلة داخل إطار الدولة، ومن هنا قام بطرح رؤية إقليمية ضيقة محدودة، معبرة عن موقف قبلى يعاكس الحتمية وضرورتها، ومفصحة عن موقف قبلى إقليمي تجزئى يريد أن يقلب وجهة التاريخ إلى القديم، وهنا بالتحديد كان مقتل الحركة جميعا بعد ذلك.

أما اليمن التى كانت تعاني بشدة من التسلط الفارسي على مقدراتها، فقد كانت إبان تطور أطوار الدعوة الإسلامية فى واد آخر، كانت تخوض ثورة كبرى ضد باذان الفرس، ويظهر بين الثوار ضد الفرس ذلك الفارس الأسطوري (الأسود العنسى) الذى قاد تحالفات قبائل اليمن ليكتسح بهم نفوذ الفرس، ويتمكن من تصفية بيت باذان ودخول صنعاء والاستيلاء على اليمن، بل وطرد الفرس من اليمن وتطهيرها من العسكر الكسروى، وفى تلك اللحظة الحاسمة وصلت رسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى اليمن مع عماله عليها، لكن الثوار يتمسكون بإقليمية اليمن باعتبارها دولة قديمة عريقة، ذات تاريخ مستقل إقليمي له خصوصية، ليقول عبهلة بن كعب الذى لقب بالأسود العنسى لوفود يثرب وعمال الرسول المنوبين من قبله:

أيها المتوردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم
فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه^(٣٥).

وقام عبهلة يدفع المأزق الإقليمي نحو مزيد من التعميق والجفاء، ليعود باليمن إلى عبادة الرحمن القديمة، رب السماء^(٣٦) العريق فى حضارات الجنوب الحضرمى القحطانى، رافعا إياها كأيدولوجيا وطنية خالصة من فرز مجتمع اليمن وتاريخه، معارضا بها (الله) رب الشمال العدنانى.

أما النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد وقف من تلك الحركات موقفا متأنيا يعتمد الصبر الهادىء، فاليمن قبائل كبرى عسكرية منظمة، كذلك اليمامة لم يكن أمرها بأقل شأنا، والإسلام بحاجة إلى قواته ورجاله من أجل الهدف الأعظم، من أجل ميراث الأنبياء السوالف فى امتداد بوادى الجزيرة نحو الشمال، ومن هنا نفهم السر وراء استخدامه سياسة الإلهاء بالمراسلات مع تلك الزعامات القوية، لإطالة زمن حالة اللاحسم، ليتيح لعماله هناك فرصة الانقضاض من الداخل على تلك الزعامات مع من تابعهم من مسلمى تلك المناطق، وطال أمر تلك السياسة، ولم يتم

(٣٥) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثلث، بغداد، د. ت، ص ١٢٦.

(٣٦) ارجع فى ذلك إلى كتابنا الحزب الهاشمى .. سبق ذكره.

القضاء على تلك الانشقاقات إلا بعد وفاة الرسول ولحوقه بالرفيق الأعلى، بعد أن أدى حجة الوداع، وترك الناس على الواضحة غير الملتبسة.

وفى تلك الحجة بدرت من النبي أقوال تشير إلى شعوره بدنو أجله، «عن أبي الزبير عن جابر: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقف عند جمرة العقبة وقال لنا: خذوا عني مناسككم فلعلى لا أحج بعد عامي هذا»^(٣٧)، ثم ما كان من آيات تحمل روح الختام، من قبيل «إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا» (سورة النصر).

الأيام الأخيرة للرسول العظيم

عن ابن طاووس عن أبيه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال:

نُصرت بالرعب، وأعطيت الخزائن وخُيرت بين أن أبقي حتى أرى ما يفتح على أمتي، وبين التعجيل، فاخترت التعجيل^(٣٨).

كان الشعور بدنو الأجل يتصاعد ويعلو، والرسول الكريم تزيد به أوجاعه، لكن سيد الخلق يقاوم الأوجاع، ويستمر في سياسة الدولة، وفي صفر بعد حجة الوداع بشهرين، يؤذن في الناس بغزو القياصرة في بلاد الشام، ويؤمر على الناس أسامة بن زيد بن حارثة، ويأمر جميع المهاجرين الأوائل بأن يوعبوا مع أسامة باتجاه فلسطين، بما فيهم وزيره أبو بكر وعمر، ويتجهز الناس صدعا بأمر رسولهم ونبيهم وقائدهم. لكن ليقف التاريخ في مواقفه الناقلة المحولة، لترهف السمع إلى الصحابة يسجلون في مسامع الرواة، أنه في أول شهر ربيع الأول يطلب النبي عبده أبا مويهبة، ليتحامل عليه ويأمره باصطحابه إلى مقابر أصحابه، الذين ماتوا في حروب إنشاء الدولة، ويذهب معه إلى البقيع متحاملا على نفسه، ليقف وسط المقابر يقول للموتى:

السلام عليكم يا أهل المقابر

ليهذا لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى (١٤)

(٣٧) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٨٩.

(٣٨) نفسه: ص ١٩٧.

ويلتفت إلى أبى مويهبة يقول له:

إنى قد أوتيت خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة.

ليقاطععه عبده المخلص

بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلافة

لكن ليرد عليه المصطفى - لهفى عليه:

لا والله يا أبا مويهبة

لقد اخترت لقاء ربى والجنة

ثم يروى أبو مويهبة أنه وقف يستغفر لأهل المقابر، ثم عاد أدراجه ليبتدأ وجعه يظهر عليه ويلحظه الناس^(٣٩).

وهنا ننصت إلى أم المؤمنين الحميراء سيدة النساء عائشة بنت أبى بكر تقول:

رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من البقيع، فوجدنى وأنا أجد صداعاً فى رأسى، وأنا أقول: وارأساه، فقال: بل أنا والله يا عائشة؛ وارأساه، قالت: ثم قال: ما ضرك لومت قبلى، فقممت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنك؟! قالت: قلت والله لكأنى بك لو فعلت ذلك، لرجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نساءك، قالت: فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتنام به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعز به وهو فى بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيتى، فأذن له.. فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشى بين رجلين من أهله: أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر (تؤكد الروايات أن ذلك الرجل الذى أغفلت عائشة اسمه كان علياً بن أبى طالب)، عاصباً رأسه، تخط قدماءه، حتى دخل بيتى^(٤٠).

ورغم اشتداد الوجع، فقد لاحظ سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - أن الناس يتكأون فى طاعة أوامره، فى بعثة أسامة على رأس الجيش إلى الروم، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد عاصباً رأسه، وصعد حتى جلس على المنبر ثم قال:

(٣٩) ابن هشام: فى الروض... سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

(٤٠) نفسه: ص ٢٤٦، ٢٥٩.

إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله .

وفهم أبو بكر المقصود فنشج بالبكاء يقول: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فيسكته الرسول، ثم يقول متادياً:

أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قُلتُم في إمارته، لقد قُلتُم في إمارة أبيه من قبل، وإنه لخليق للإمارة، كان أبوه خليقاً بها.

وعاد إلى بيت عائشة، وخرج أسامة بالجيش حتى نزل بالجرف على بعد فرسخ واحد من المدينة، فضرب هناك عسكره، ليبلغهم أن الوجد قد اشتد بنبيهم، فتوقفوا هناك ينتظرون ما يسفر عنه الأمر^(٤١).

وهنا ننقل، فقط مجرد نقل دون أى انحياز، من الشيخ شرف الدين الموسوى رؤيته لما يحدث في تلك الساعات الفاصلة من الزمان، فيقول بشأن أبى بكر وعمر وسائر القوم «وقد تعلم أنهم إنما تتأقلا عن السير أولاً، وتخلفوا عن الجيش أخيراً، ليحكموا قواعد ساستهم، ويقيموا عمدتها ترجيحاً منهم لذلك على التعبد بالنص، حيث رأوه أولى بالمحافظة وأحق بالرعاية، إذ لا يفوت البعث بتأقلاهم عن السير، ولا بتخلف من تخلف منهم عن الجيش، أما الخلافة فإنها تنصرف عنهم لا محالة إذا انصرفوا إلى الغزوة قبل وفاته - صلى الله عليه وسلم - وكان - بأبى وأمى - أراد أن تخلو منهم العاصمة، فيصفو الأمر من بعده لأمير المؤمنين على بن أبى طالب على سكون وطمانينة، فإذا رجعوا وقد أبرم عهد الخلافة وأحكم لعل عقدها، كانوا عن المنازعة والخلاف أبعد: وإنما أمر عليهم أسامة وهو ابن سبع عشرة سنة لئلا أعنة البعض، ورداً لجماح أهل الجماح منهم، واحتياطاً من الأمن في المستقبل من نزاع أهل التنافس، لو أمر أحدهم كما لا يخفى، لكنهم فطنوا إلى ما دبر - صلى الله عليه وسلم - فطعنوا في تأمير أسامة، وتثاقلوا عن السير معه فلم يبرحوا من الجرف حتى لحق النبي برية، فهموا حينئذ بإلغاء البعث وحل اللواء تارة، وبعزل أسامة تارة أخرى، ثم تخلف منهم عن الجيش وفي أولهم أبو بكر وعمر .

ويحكى لنا ذلك الشيخ ما حدث والرسول بين الحياة والموت، عن عبد الله بن عبد الرحمن «فتثاقل أسامة وتثاقل الجيش بتثاقله، وجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مرضه يتنقل ويخف، ويؤكد القول في تنفيذ ذلك البعث، حتى قال له أسامة: بأبى أنت وأمى؛ أتأذن لى أن أمكث أياماً حتى يشفيك الله تعالى، فقال: اخرج وسر على بركة الله، فقال: يا رسول الله إن أنا

(٤١) نفسه: ص ٢٦٠ .

خرجت وأنت على هذه الحال، خرجت وفي قلبي قرحة، فقال: سر على النصر والعافية، فقال: يارسول الله إنني أكره أن أسائل عنك الركبان، فقال: نفذ ما أمرتك به، ثم أغمى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقام أسامة فتجهز للخروج، فلما أفاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل عن أسامة والبعث، فأخبر أنهم يتجهزون، فجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة، لعن الله من تخلف عنه، وكرر ذلك، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابه بين يديه، حتى إذا كان بالجرف نزل ومعه أبوبكر وعمر وأكثر المهاجرين، ومن الأنصار أسيد بن حضير ويشير بن سعد وغيرهم من الوجوه، فجاءه رسول أم أيمن يقول له: ادخل فإن رسول الله يموت، فقام من فوره فدخل المدينة واللواء معه، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله ورسول الله قد مات في تلك الساعة،^(٤٢).

ويستمر الشيخ شرف الدين في قراءته لتلك السويقات الفاصلة في تاريخ الدنيا، ليرى أن استبعاد أبي بكر وعمر لم يفلح، وعادا للمدينة والرسول في النزع الأخير ومعه على بن أبي طالب، ليورد لنا ما أخرجه البخاري بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن مسعود عن ابن عباس قال:

لما حضر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي البيت رجال فيهم عمر ابن الخطاب، قال النبي: هلم أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختلفوا، منهم من يقول: قريوا يكتب لكم النبي كتابا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم - صلى الله عليه وسلم - قوموا - قال عبد الله بن مسعود - فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغتهم.

لكن الشيخ يؤكد أن أصحاب السنن والأخبار، قد تصرفوا في قول عمر: «إن النبي قد غلب على الوجع، فنقلوه بالمعنى لأن لفظه الثابت: «إن النبي يهجر»، لكنهم هيسوا العبارة اتقاء لفظاعتها في حق رسول الله^(٤٣).

ويعد....

فقد حاولنا السعي وراء أعتاب سيد الخلق المصطفى - صلى الله عليه وسلم - نصطفى أهم

(٤٢) عبدالحسين شرف الدين الموسوي: النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمي، كربلاء، ١٩٦١، ص ٩٠، ٩٣.

(٤٣) نفسه: ص ١٥٥، ١٥٨.

الأحداث المتعلقة بحروب دولته التي أنشأها وأقامها لعرب الجزيرة، ليتغير بها وجه العالم، وتتسق وجهة التاريخ مع خط سيرها المنطقي، وجعلنا مادة الوثائق مادة للعلم بقواعده الصارمة دون تدخل عاطفي أو وجداني، بغرض القراءة الأقرب إلى واقع الأحداث، ولا نزعم أننا فعلنا سوى المحاولة القابلة للصواب لنحوز الأجرين، والقابلة أيضا للسقوط في خطأ الإنسان بكل ماله وما عليه، وهو الخطأ الذي سنحوز به على ثواب الأجر الواحد. لكن الذي لا مشاحة فيه أنه لا يصح أبداً أن نضع ذلك العبد الإنسان العظيم المصطفى ضمن عظماء العالم، كما يفعل البعض، فأين هؤلاء من ذلك الإنسان المتميز على العالمين، ولا جدال أنه بعدما سردناه وقرأناه في عملنا هذا يجب أن نخفف من غلوائنا، ونتحفظ قليلاً في إطلاق الصفات على قادة رجال لم يصلوا أبداً إلى قمة ذلك السيد الرائع، الذي توافقت خطواته مع خطوات التاريخ، واتسقت رائعته العظمى عبر سيرها التطوري الهاديء لإقامة الدولة وتأسيس أيديولوجيتها، مع السنن الكونية، فكان عكس كل السابقين الذين حكى لنا عن كسرهم لقواعد الكون ونواميسه، ليثبتوا نبوتهم، لقد اتسق نبي الإسلام مع كل السنن الكونية دون خلل، فكان مؤسساً للعقل في النبوة والنبوة في العقل، وخاتماً للنبوات، ويادنا لدور الإنسان على الأرض، وصانعا لكرامة عربية جديدة.

بأبي أنت وأمي يارسول الله، فداك أولادى وأموالى ونفسى . صلى الله
عليك وسلم، وعليك صلاتى وسلامى، وتسليمى . ولك ولرب العالمين
إسلامى .

المصادر (*)

- ١ - القرآن الكريم.
 - ٢ - الكتاب المقدس.
 - ٣ - القاموس المحيط.
 - ٤ - المنجد.
 - ٥ - البخارى
 - ٦ - أبو داود
 - ٧ - الترمذى
 - ٨ - مسلم
- كتب الحديث الشريف

المصادر مرتبة (ألف . باء) حسب اسم المؤلف

- ٩ - ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥ .
- ١٠ - أمين (أحمد): فجر الإسلام، مكتبة النهضة العربية، ط ١٤، القاهرة، ١٩٨٧ .
- ١١ - ابن آدم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٤٢ .
- ١٢ - (البجاوى) محمد، ومحمد أبو الفضل: أيام العرب فى الإسلام، دار الحدائث، بيروت، ١٩٨٣ .
- ١٣ - الديارىكرى: تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د. ت.
- ١٤ - البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- ١٥ - البيهقى: دلائل النبوة، تحقيق عبدالمعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨ .
- ١٦ - ابن تيمية: اقتضاء السراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

(*) جميع المصادر بهذه القائمة أساسية ودخلت بشهاداتها فى بحثنا كلها.

- ١٧ - الثعلبي النيسابوري: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت د.ت.
- ١٨ - الجاحظ: الرسائل: جمع ونشر حسن السندوي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٣.
- ١٩ - ابن حبيب: المحبر، تحقيق د. إيلازة شتندر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
- ٢٠ - ابن حبيب: المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ط، ١٩٦٤.
- ٢١ - حميد الله (محمد): مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط، ١٩٨٥.
- ٢٢ - ابن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.
- ٢٣ - ابن خلدون: المقدمة، دار الشعب، القاهرة، د.ت.
- ٢٤ - ابن خياط (خليفة): الطبقات، تحقيق أكرم العمري، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٩٦٧.
- ٢٥ - دلو (برهان الدين): مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، الفارابي، بيروت، ١٩٨٥.
- ٢٦ - الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ط ١، ١٩٦٠.
- ٢٧ - زيعود (د. علي): قطاع البطولة والدرجسية في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢.
- ٢٨ - سالم (د. سالم عبدالعزيز): دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٠.
- ٢٩ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت. وطبعة دار صادر، تحقيق أوجين متنوح، بيروت، ١٩٥٨.
- ٣٠ - السقاف (أبكار): نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.
- ٣١ - ابن سلام: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٣ هـ.
- ٣٢ - السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨.
- ٣٣ - ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.

- ٣٤ - الشريف (أحمد إبراهيم): مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- ٣٥ - شلبى (د. أحمد): السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٢، ١٩٨٧.
- ٣٦ - الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر البابى الحلبي، القاهرة، ١٩٦١.
- ٣٧ - الشيبانى: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماعة، تحقيق محمد عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨.
- ٣٨ - الشيبانى: شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢.
- ٣٩ - صالح (أحمد عباس): الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام، مجلة الكاتب، القاهرة، ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤.
- ٤٠ - الأصفهاني: الأغاني، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٢، د. ت.
- ٤١ - الطائى (حاتم): ديوانه، تحقيق وشرح كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، د. ت.
- ٤٢ - الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- ٤٣ - ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت.
- ٤٤ - عبدالرحمن (عبدالهادي): جذور القوة الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨.
- ٤٥ - على (جواد): المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الحرية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.
- ٤٦ - على (جواد): تاريخ العرب فى الإسلام، دار الحرية، ط ١، بيروت، ١٩٨٣.
- ٤٧ - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.
- ٤٨ - ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦.
- ٤٩ - القمنى (سيد محمود): دور الحزب الهاشمى والعقيدة الحنفية فى التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية، مجلة مصرية، القاهرة، العدد التاسع، أكتوبر ١٩٨٦.
- ٥٠ - القمنى (سيد محمود): الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٠.
- ٥١ - القمنى (سيد محمود): حروب دولة الرسول (الجزء الأول: بدر وأحد)، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٣.

- ٥٢ - ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٨.
- ٥٣ - الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.
- ٥٤ - مذكور (د. إبراهيم بيومي): في الفلسفة الإسلامية.
- ٥٥ - المسعودي: مروج الذهب، تحقيق محيى عبدالحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د. ت.
- ٥٦ - مروة (حسين): النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، بيروت، ط ٦، ١٩٨٨.
- ٥٧ - المقدسي: البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦.
- ٥٨ - الموسوي: (عبدالحسين شرف الدين): النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمي، كربلاء، العراق، ١٩٦٦.
- ٥٩ - ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٩٥٥.
- ٦٠ - الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مرشد جونس، منشورات جامعة أكسفورد، لندن، ١٩٦٦، وأيضاً نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، د. ت.
- ٦١ - اليعقوبي: التاريخ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٤، ١٩٧٤.
- ٦٢ - أبو يوسف: الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩.

من أعمال المؤلف

- ١ - الموجز الفلسفى: دار السياسة، الكويت، د.ت، (نفذ).
- ٢ - مشكلات فلسفية: بالمشاركة مع آخرين، التربية الكويتية.
- ٣ - أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة، مذبولى الصغير، القاهرة.
- ٤ - الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، مذبولى الصغير، القاهرة.
- ٥ - النبى إبراهيم والتاريخ المجهول، مذبولى الصغير، القاهرة.
- ٦ - الأسطورة والتراث، مذبولى الصغير، القاهرة.
- ٧ - حروب دولة الرسول: الجزء الأول، بدر وأحد، مذبولى الصغير، القاهرة.
- ٨ - حروب دولة الرسول: الجزء الثانى، مذبولى الصغير، القاهرة.
- ٩ - قصة الخلق؛ منابع سفر التكوين، مذبولى الصغير، القاهرة.
- ١٠ - إسرائيل، التوراة، التاريخ، التصليل: مذبولى الصغير، القاهرة.
- ١١ - رب الزمان: مذبولى الصغير، القاهرة.

محتويات الجزء الأول

٥	الإهداء
٧	التأسيس
٩	التقريش
١١	الإيلاف
١٤	تحريم المواسم
١٦	المتغير الاجتماعي
٢٠	المستوى الفكري
٢٣	ظهور الإسلام
٣١	يثرب قبل الهجرة
٣٣	المستوى الفكري
٣٤	الهجرة
٣٨	مكة والحصار
٤٣	الباب الأول: بدر الكبرى، قراءة أخرى
٤٥	** طالوت ومحمد
٤٩	* ضرب طريق الإيلاف
٥١	* هيبة الملاء
٥٤	* ضعف الهيبة
٥٧	** مشورة الأنصار
٦٠	* خطة المعركة
٦٦	* موقع الفريقين
٧١	** أحداث في بدر الكبرى
٧٣	* الحكمة والتهور
٧٦	* الوقعة
٨٠	* فداء الأسرى
٨٣	* القبلىة والأممية

٨٧	** المزايدات فى قصة بدر
٩٣	* الأسرى
٩٦	* مزايدات
١٠٠	* ملائكة بدر
١٠٥	** قراءة أخرى
١٠٧	* وضع المكين
١١٠	* وضع المسلمين
١١٢	* نتائج بدر الكبرى
١١٩	الباب الثانى: أحد.. ثار قريش
١٢١	** السياسة بعد بدر الكبرى
١٢٥	* تناقضات يثرب
١٢٩	* غزوة قبيقاع
١٣٣	** الهزيمة
١٣٩	* وقائع أحد
١٤٤	* صرخة الشيطان
١٥١	** فرز أحد
١٥٤	* مواقف من الهزيمة
١٥٩	* مقتل أسد الله
١٦٥	** نتائج غزوة أحد
١٦٨	* العلاج النفسى
١٧٢	* غزوة حمراء الأسد
١٧٥	* المعارضون

محتويات الجزء الثانى

تأسيس

١٨٥	مسار التاريخ *
١٩٣	* التأسيس التاريخى للأمة
١٩٩	* الوسطية بين النقيض
٢٠٧	* صحيفة المعامل

الباب الأول

٢١٧	** دية بنى عامر: الوقائع من أحد إلى الخندق
٢١٩	* غدر العريان
٢٢٩	* غزوة النضير
٢٣٧	* تأديب العريان
٢٤٣	* غزوة الخندق

الباب الثانى

٢٧٣	** الاعتراف بقيام الدولة
٢٧٥	* إخضاع القبائل
٢٧٩	* غزوة المصطلق
٢٨٥	* غزوة الحديبية
٣٠١	* فتح خيبر

*الباب الثالث

٣١٧	** فتح الفتوح
٣١٩	* الإسلام وقاء

- ٣٢٩ * مكة: فتح الفتوح
- ٣٤٣ * سرايا خالد بن الوليد
- ٣٤٩ * غزوة هوازن
- ٣٥٧ * حصار الطائف

الباب الرابع

- ٣٧١ ** قيام دولة العرب الموحدة
- ٣٧٣ : * البراءة
- ٣٨٣ * عام الوفود
- ٣٩٧ المصاادر
- ٤٠١ من أعمال المؤلف



حروب دولة الرسول

من أهم الكتب بعد كتاب (الحزب الهاشمي)، وكما كان كتاب (الحزب الهاشمي) كتاباً تأسيسياً، ودافعاً لعدد من البحوث التي أخذت خطه ومنهجها، فكان بداية لمدرسة، كذلك هذا الكتاب الذي بين يديك.

وبالقدر ذاته الذي أثاره كتاب «الحزب الهاشمي»، جاءت ذات الإثارة في (حروب دولة الرسول)، إذ يعرض باحثاً قراءاته الجديدة للمعارك التي خاضتها دولة الإسلام إبان دورها التأسيسي الأول في عهد المصطفى ﷺ، وما ترتب عليها من نتائج أفرزت صراعات جديدة في سبيل الحرص على استدامة الدولة الناشئة وتقوية دعائمها، إزاء المناخ المعادي الذي أحاط بها.

وإذا كان تاريخ الكتابة العربية في هذه المنطقة، قد ظل يعالجها بمنطق المعجزة والمفاجأة والأحجية، فإن المفكر الكبير سيد القمني يستمر هنا دون تراجع، على العقلنة والموضوعة، ليعالج الأحداث كما حدثت بالفعل، ويقدم لنا صورة النبي محمد الإنسان القائد الفذ ﷺ بحيث لا تنتهي من القراءة إلا وأنت أشد فخراً واعتزازاً بتلك القيادة النموذج والمثل الأروع، وأكثر احتراماً لجهد علماء الأمة، كتاب السير والأخبار والتاريخ، وأكثر نفوراً من وعاظ الإعلام وأصحاب المصالح، الذين كادوا يذهبون بنا إلى قاع مقلب نفايات الأمم الغواير.

مدبولي الصغير

Bibliotheca Alexandrina



0398108

KAMEL GRAPHICS

